المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة القصيم
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها
ماجستير الآداب في الدراسات الأدبية

أدبيَّةُ الرِّحلةِ عندَ العُبُوديِّ

رِحلاتُه إلى البرازيل أنموذجًا

بحث مقدم لنيل درجة ماجستير الآداب في الدراسات الأدبية

إعداد الطالب :

عمران بن محمَّد الأحمد

(٣٢١١١٦٥٥٦)

إشراف :

د. إبراهيم بن محمَّد البطشان

الأستاذ المشارك في القسم

العام الجامعي ١٤٣٦/ ١٤٣٧هـ

بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ

المقدمة

- **التعريفُ بالموضوعِ :**

إنَّ أدبَ الرحلةِ شأنُهُ شأنُ غيرِهِ مِن فنونِ الأدبِ ، شكلٌ أدبيٌّ يمتازُ عن غيرِهِ مِن الأشكالِ والفنونِ الأدبيةِ الأخرى مِن حيثُ تَـمَتُّعُهُ بمجموعةٍ من الصفاتِ والخصائصِ ، وتهتمُ (الأدبيةُ) الرحليةُ بدراسةِ الجانبِ البنائيِّ الذي جعلَ مِن الرحلةِ بنيةً مميزةً مِن حيثُ الأداءُ السَّرديُّ ؛ ولذا فَسَيُرَكِّزُ هذا البحثُ على البناءِ بعيدًا عن المضامينِ والسِّياقاتِ التاريخيةِ.

وقد سجَّلَ العبوديُّ رحلاتٍ كثيرةً ، إلا أنَّني اخترتُ الرحلاتِ البرازيليةَ ؛ لما حظيتْ بِهِ البرازيلُ مِن الأهميَّةِ لدى العبوديِّ ؛ حيث يقول : « إنَّني كرَّرْتُ السفرَ إلى البرازيلِ فقتلتُها خبرًا ، وبلوتُها مُدنًا وقرًى فرأيتُ فيها شَعْبًا ودودًا ، واضحَ التفكيرِ ، حسنَ المعاملةِ ، يشعرُ بالمساواةِ الإنسانيةِ ويمقتُ التفرقةَ العنصريةَ بين السُّكانِ ، وأهمُّ مِن ذلك هو تنوّعُ المظاهرِ وتعدُّدُ الخصائصِ والألوانِ في المناطقِ »(1) ، هذا إلى ما اتسمتْ بهِ رحلاتُ العبوديِّ البرازيليةُ مِن سماتٍ تقرِّبُها إلى السَّردِ أكثرَ مِن غيرِها مِن رحلاتِهِ إلى المناطقِ الأخرى(2).

- **أهميةُ الموضوعِ وأسبابُ اختيارِهِ :**

يمثلُ أدبُ الرِّحلةِ رافدًا مهمًّا مِن روافدِ الأدبِ العربيِّ ، مِن حيثُ كونه جنسًا مِن الأجناسِ المطروقةِ والمقروءةِ ، وحينَ أجعلُ بحثي في هذا الفنِّ الأدبيِّ فإنَّني أصبو إلى الإسهامِ في دراسةِ المدونةِ الأدبيةِ العربيةِ بعامَّةٍ ودراسةِ أدبِ الرحلةِ على وجهِ

---

(1) غرب البرازيل ٥.

(2) ينظر : شهادات ودراسات عن معالي الشيخ العبودي ٢٣٦.

الخصوصِ ، كما أنَّني أطمحُ إلى إلقاءِ الضَّوءِ على هذا العلَمِ والأديبِ والرحالةِ السعوديِّ النجديِّ البارزِ ، والمهتمِّ بأدبِ الرحلةِ ؛ حيثُ طَغَتْ مواضيعُ الرحلةِ على جميعِ موضوعاتِ مؤلفاتِهِ الأُخرى.

وقدْ دعاني إلى اختيارِ هذا الموضوعِ افتقارُ السَّاحةِ إلى مثلِ هذه الدراساتِ عامةً والدراساتِ التي تدرسُ رحلاتِ العبوديِّ على وجهِ الخصوصِ ؛ فليسَ ثمةَ دراساتٌ منهجيةٌ جادَّةٌ تدرسُ الرِّحلةَ عند العبوديِّ ، فجلُّ ما اطَّلعتُ عليهِ إنَّما هو دراساتٌ وصفيَّةٌ عرضيَّةٌ متفرِّقةٌ تتناولُ المضمونَ ولا تُوَفِّي هذا النتاجَ الكبيرَ حقَّهُ مِن الدِّراسةِ.

هذا مع شغفٍ شخصيٍّ بأدبِ الرحلةِ حفَّزَني إلى حصرِ دراستي على هذا الموضوعِ وهذا الفنِّ وهذا العلَمِ.

- أهدافُ الموضوعِ :

١ - التعريفُ بأعمالِ العبوديِّ ، ولفتُ انتباهِ الباحثِينَ والدارسينَ إليها بإلقاءِ الضوءِ على جزءٍ من إنتاجِهِ ؛ كونهُ شخصيةً أدبيةً أنتجَتْ ما يستحقُّ العنايةَ.

٢ - تسليطُ مزيدٍ مِن الأضواءِ على فنِّ السَّردِ وتقنياتِهِ.

٣ - تَتَبُّعُ البنيةِ الأدبيةِ التي تحكمُ أدبَ الرحلةِ عندَ العبوديِّ ، ومحاولةُ تَقْيِيمِها وِفْقَ معاييرِ فنِّ السَّردِ وتقنياتِه.

- إشكاليةُ البحثِ وتساؤلاتُهُ :

لا تخلو هذهِ الدراسةُ من عدَّةِ تساؤلاتٍ ، سواءً أكانَ ذلك على مستوى أدبِ الرحلةِ عمومًا أم على مستوى الرِّحلةِ عند العبوديِّ ، ويمكنُ إجمالُ هذه التساؤلاتِ بالآتي :

ـ هل يمكنُ تَبيُّنُ بنيةٍ سرديةٍ تُميِّزُ فنَّ أدبِ الرحلةِ وتُحدِّدُ معالـمَهُ ؟

ـ ما هي الفنونُ الأدبيةُ التي يمكنُ لهذا الفنِ أنْ يتقاطعَ معَها ؟

ـ ما هي سماتُ التفاعلِ التواصليِّ بينَ القارئِ والكاتبِ ؟

أما في مستوى أدبِ الرحلةِ عند العبوديِّ :

ـ فهل يمكن دراسةُ هذِهِ الرحلاتِ دراسةً أدبيةً ؟

ـ وهل لرحلاتِ العبوديِّ بنيةٌ سرديةٌ يمكنُ تَتَبُّعُها ودراستُها ؟

ـ وهل استفادَ النصُّ الرحليُّ عندَ العبوديِّ مِن الفنونِ الأدبيةِ الأخرى ؟

ـ كيفَ رسمَ العبوديُّ صورتَهُ الساردةَ وصورةَ قارئِهِ في نصوصِهِ الرحليةِ ؟ وكيفَ حدَّدَ مهامَّهما ؟

- **الدراساتُ السابقةُ :**

لا تخلو الساحةُ مِن دراساتٍ سابقةٍ لها علاقةٌ بموضوعِ الدراسةِ ، مِن قبيلِ الجهودِ التاليةِ :

ـ أدبيةُ الرحلةِ ، عبدُالرحيمُ مودن ، دارُ الثقافةِ ، مطبعةُ النجاحِ الجديدةِ ، الرباطُ ، الطبعةُ الأولى ١٤١٧هـ.

ـ الرحلةُ المغربيةُ في القرنِ التاسعَ عشرَ : مستوياتُ السردِ ، عبدُالرحيمِ مودن ، دارُ السويديِّ ، أبو ظبي ، الطبعةُ الأولى ٢٠٠٦م.

ـ الرحلاتُ وأعلامُها في الأدبِ السعوديِّ المعاصرِ ، محمودُ رداويُّ ، المؤلفُ ، الطبعةُ الأولى ، ١٤١٦هـ.

ـ أدبُ الرحلةِ في المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، عبدُالله آلُ حماديِّ ، رسالةُ ماجستير ، جامعةُ أمِّ القرى.

ـ عميدُ الرحالينَ : محمدُ بنُ ناصرِ العبوديِّ ، محمدُ بنُ عبدِالله المشوحُ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، الطبعةُ الثانيةُ ١٤٣٥هـ.

وقدْ عُنيَ عبدُالرحيمِ مودن في كتابِهِ (أدبيةِ الرحلةِ) بدراسةِ أدبيةِ الرحلةِ عمومًا ، كما عُنيَ في كتابِهِ الآخرِ بدراسةِ مستوياتِ السَّردِ في الرحلاتِ المغربيةِ في القرن التاسعَ عشرَ ، واهتمَّ الكاتبانِ : محمودُ رداويُّ وعبدُالله آلُ حماديِّ بدراسةِ تاريخِ الرحلةِ السعوديةِ ودراسةِ

مضموناتِها وبعضِ مميزاتِها الأسلوبيةِ ، كما اهتمَّا بإلقاءِ الضوءِ على مجموعةٍ من الرحالةِ السعوديينَ ، وكانَ العبوديُّ أحدَ هؤلاءِ الرحالةِ ؛ حيثُ تمَّ تناولُ بعضِ نصوصِ رحلاتِهِ وشيءٍ من الجوانبِ الرحليَّةِ لديهِ دونَ الالتفاتِ إلى تحليلِ النصوصِ ودراسةِ بنيتِها ، أمَّا كتابُ (عميدِ الرحالينَ) فكانَ كتابًا شاملًا في التعريفِ بشخصيةِ العبوديِّ ودورِ الرحلةِ في تكوينِ شخصيتِهِ.

- **منهجيةُ البحثِ :**

سيتضمَّنُ هذا البحثُ تمهيدًا يضمُّ معلوماتٍ توثيقيَّةً عن المؤلفِ ، ودراسةً تاريخيةً لأدبِ الرحلةِ ، وسيكونُ المنهجُ الوصفيُّ هو المنهجُ المتَّبعُ في التمهيدِ ، أمَّا صلبُ الدراسةِ فسآخذُ فيه بالمنهجِ الإنشائيِّ والذي مِن خلالِهِ سأدرسُ نصَّ الرِحلةِ عندَ العبوديِّ من حيثُ كونه شكلاً أدبيًّا لَهُ بنيتُهُ الخاصةُ التي يمكنُ تتبُّعُها وتحديدُها ودراستُها.

التمهيد

أولًا : الرحالةُ :

محمدُ بنُ ناصرِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ الكريمِ بنِ عبدِ الله بنِ محمدِ بنِ عُبودٍ[1]، كانت أُسرتُهُ إلى عهدٍ قريبٍ تُعْرَف بـ(العُبُود) ثمَّ أُلحقت الياءُ في عهدِ جَدِّهِ الأقربِ عبدِ الرحمنِ.

---

(١) تنظر ترجته وأخباره في :

١-الكتب :

المعجم الجغرافي (بلاد القصيم) ، محمد العبودي ١/ ٧ ، وعلماء ومفكرون عرفتهم ، محمد المجذوب ٢/ ٣٣١ ، وعميد الرحالين : محمد بن ناصر العبودي ، محمد المشوح ، ومشاهد من بريدة ، محمد العبودي ، والشيخ العلامة والأديب الرحالة (محمد بن ناصر العبودي) ، محمد بن أحمد سيد أحمد ، ومعجم أسر بريدة ، محمد العبودي ١٤/ ١٨٥ ، ودراسات ومقالات عن معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي ، جمع : محمد المشوح ، ووالدي معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي العالم الموسوعي ، شريفة العبودي ، وسبعون عاما في الوظيفة الحكومية ، محمد العبودي.

٢-رسائل ومجلات :

أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية ، عبد الله آل حمادي ، والأديب الرحالة : محمد بن ناصر العبودي ـ ببلوجرافية بآثاره المطبوعة ، مجلة الدرعية ، ١٢/ ١٤٢٢هـ ، ع١٦ ، ص٤٩ ، والعبودي العلامة الموسوعي (ملف خاص) ، مجلة الخطاب الثقافي ، خريف ٢٠٠٨م ، ع٣ ، ص٢٣٤.

٣-مقالات :

شيخنا العلامة محمد العبودي ومئتا كتاب مطبوع ، محمد بن عبد الله المشوح ، جريدة الجزيرة الثقافية ، ١١/ ٤/ ١٤٣٤هـ ، ع٣٩٧ ، والشيخ محمد العبودي : العالم المتواضع رأى الوسام على قلبه لا على قبره ، حمد بن عبد الله القاضي ، جريدة الجزيرة الثقافية ، ٢٥/ ٤/ ١٤٣٤هـ ، ع٣٩٩ ، والعبودي أو العالم الموسوعي ، محمد بن عبد الرازق القشعمي ، جريدة الجزيرة الثقافية ، ٤/ ١٢/ ١٤٣٤هـ ، ع٤٥ ، والعبودي باحث مسكون بالفكر والعطاء ، محمد أبوحمرا ، جريدة الجزيرة ، ١٠/ ١٢/ ١٤٣٤هـ ، ع١١٤٤٨.

ويرجعُ نَسَبُهُ إلى أُسرةِ آلِ سالمٍ الـمشهورةِ في بُرَيْدَةَ ، وهيَ مِن أُسرِ بريدةَ العريقةِ القديمةِ ؛ إذ يناهزُ عُمُرُها أربعَ مئةِ سنةٍ ، فأملاكُها مُوغلةٌ في تاريخِ بُرَيْدَةَ ، ترجعُ في بعضِ الأقوالِ إلى أواخرِ القرنِ التاسعِ الهجريِّ ، ويذكرُ الإخباريونَ أنَّ لآلِ سالمٍ كيانًا مميزًا في بريدةَ ، قبلَ أن تتخذَ صفةَ المدينةِ الواحدةِ ، وكانتْ آنذاكَ مجموعةَ مواقعَ زراعيةٍ ، وقدْ انتهى هذا الكيانُ إلى حيٍّ صغيرٍ كانوا يسمُّونَهُ (جُوْرَةَ السَّالمِ) ، وتَعني في حاضِرِنا (حارةَ السالمِ) ، وتقعُ هذهِ الحارةُ إلى الغربِ من (قُبَّةِ رشيدٍ)[1] وإلى الجنوبِ مِنْ جامعِ بريدةَ الكبيرِ ، على بُعدِ نحوَ مئتين وخمسينَ مترًا.

٤-محاضرات وندوات ولقاءات وحوارات :

حفل تكريم الشيخ محمد العبودي ، اثنينية خوجة ، وحفل تكريم معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي ، النادي الأدبي بالقصيم ، وسوانح وذكريات مع عميد الرحالة معالي الشيخ محمد العبودي ، ثلوثية المشوح ، وحوار في (واجهةٍ ومواجهة) ، جريدة الجزيرة ، ١٣/ ١٠/ ١٤٢٤هـ ، ع١١٣٩٢ ، و٢٠/ ١٠/ ١٤٢٤هـ ، ع١١٣٩٩ ، حلقتان ، ومحمد العبودي في حوار مثير لعكاظ : أصبحت رحالة بموافقة ابن باز على زيارة أفريقيا ، جريدة عكاظ ، ٨/ ٥/ ١٤٣١هـ ، ع٣٢٣١ ، وندوة خاصة عن العبودي في خميسية مركز حمد الجاسر الثقافي ، والعبودي في حوار خاص : كثُرَ المثقفون وقلّ القارئون ، جريدة الجزيرة الثقافية ، ١١/ ٤/ ١٤٣٤هـ ، ع ٣٩٧ ، ولقاء قناة دليل مع محمد العبودي ، برنامج : عفو التجربة.

٥-مواقع :

موقع عميد الرحالين (الموقع الرسمي للشيخ محمد العبودي) ، الشبكة العنكبوتية.

(١) قُبَّةُ رَشِيْدٍ : سوق مشهورة من أسواق بريدة يقع إلى الجنوب من سوق بريدة القديم المسمى سابقا بـ(الـمَقْصَب) أو (الوَسْعة) ، على بعد حوالي مئة وخمسين مترًا إلى جهة الجنوب من جامعِ بريدة الكبير. لمزيد اطلاع ينظر : المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : بلاد القصيم ٥/ ١٩٢٤.

أمَّا ولادتُهُ فقدْ وُجِدَ مُثبتًا في الوثائقِ المحفوظةِ لدى عائلتِهِ أنَّها كانتْ في بريدةَ ، في اليومِ الأخيرِ مِن شهرِ ربيعٍ الآخرِ عامَ خمسةٍ وأربعينَ وثلاثِ مئةٍ وألفٍ للهجرةِ.

وكانتْ نشأتُهُ في مجتمعٍ فقيرٍ ، وسطَ أُسْرةٍ محافظةٍ ، وقدْ كانَ لهذهِ النشأةِ الطيبةِ أثرٌ ظاهرٌ في حياتِهِ ؛ إذْ حفظَ القرآنَ وطلبَ العلمَ في سنٍّ مُبكِّرةٍ ؛ فبَدَأَ رِحْلَتَهُ معَ العلمِ صغيرًا ؛ حيثُ دَخَلَ الكُتَّابَ الأولَ وعُمُرُهُ لم يتجاوز السادسةَ ، وقدْ دفعَهُ إلى هذهِ البدايةِ الـمُبَكِّرةِ سببانِ :

أوَّلُهما : رغبةُ والدِهِ في التعليمِ الـمُبَكِّرِ.

وثانيهما : قُرْبُ مدرسةِ الشيخِ سليمانَ العمريِّ[1] منْ بَيْتِهِمْ ، بحيثُ لا يحتاجُ مع هذا القربِ إلى مَن يُوصِلُهُ إلى الكُتَّابِ ؛ كما تَربِطُ أسرتَهُ بصاحبِ الكُتَّابِ صِلةُ مُصاهرةٍ وقُربى.

أمَّا رحلتُهُ الثانيةُ معَ الكتاتيبِ فإنَّها كانَت عامَ ١٣٥٥هـ معَ كُتَّابٍ مُـمَيَّزٍ فَتَحَهُ الشيخُ محمدُ بنُ صالحِ الوُهَيْبِيُّ[2] في بريدةَ واتَّخذ فيه طريقةً تعليميةً حديثةً مُحبَّبَةً إلى الطُّلابِ.

---

(١) أبو محمد ؛ سليمان بن محمد بن سليمان العمري (١٢٩٩-١٣٨٤هـ) ، المعلم ، صاحب الكُتَّابِ المعروف في حارة العُكَيْرِشَةِ ، اشتهر بما يقدمه للمجتمع من خدمات اجتماعية ؛ فقد ندب نفسه لقسمة التركات وكتابة العقود والوصايا ، حفظ القرآن وطلبَ العلم وأخذ عن الشيخين : عبد الله وعمر ابني سليم ، ودرَّسَ لفترة قصيرة في مدرسة الفيصلية في بريدة واستقال بعد ذلك من الوظيفة. ينظر : علماء آل سليم وتلامذتهم ٢/ ٢٥٠ ، ومعجم أسر بريدة ١٦/ ٤٤ ، ومشاهد من بريدة ١٥.

(٢) أبو صالح ؛ محمد بن صالح بن محمد بن عبد الرحمن الوُهَيْبِيّ التميْميّ (١٣٢٠-١٤١٣هـ) ، الرجل الفاضل وصاحب الكُتَّاب المشهور ، تعلَّمَ في الكويت تعليمًا حديثًا وأخذ عن أفاضل علماء الكويت ، وفي عام ١٣٣٩هـ افتتح مدرسته الخاصة به في الكويت ، ثم عاد إلى بريدة وفتح

وفي عامِ ١٣٥٦هـ التحقَ العبوديُّ بكُتَّابٍ ثالثٍ ، وهُوَ كُتَّابُ الشيخِ عبدِ الله بنِ إبراهيمَ بنِ سَلِيمٍ(١)، وكانَ هذا الكُتَّابُ من الكتاتيبِ المتطوِّرةِ في زَمنهِ ؛ حيثُ كانَ أشبَهَ ما يكونُ بالمدارسِ النظاميةِ.

وفي عامِ ١٣٥٦هـ أيضًا افتُتِحَتْ أولُ مَدْرَسَةٍ حكوميةٍ فِيْ بُرَيْدَةَ ، ومعَ نهايةِ عامِها الأولِ عُيِّنَ الشيخُ عبدُ اللهِ بنُ إبراهيمَ بنِ سَلِيمٍ مديرًا لها ، فانتقَلَ إليها معَ تلاميذِ كُتَّابِهِ ، وكانَ العبوديُّ في عدادِ من انتقلَ مع الشيخِ إلى هذهِ المدرسةِ الحكوميةِ.

مدرسة صباحية في إحدى ضواحي بريدة عام ١٣٤٨هـ ، وكان يعلم فيها القرآن والحديث والحساب والنحو ، وفي عام ١٣٥١هـ انتقلَ بمدرسته إلى وسط بريدة ، ثم انضمت مدرسته في عام ١٣٦٨هـ إلى مدرسة المنصورية الحكومية وأصبح بذلك أحد معلمي هذه المدرسة ، ثمَّ عُيِّنَ عام ١٣٧٤هـ مديرًا لمدرسة (القدس) ومُدِّدَ له فلم يحل للتقاعد إلّا عام ١٣٩٧هـ ، وأسس عام ١٣٨٠هـ أول مدرسة أهلية للبنات ، استمر يعلم في مسجده الواقع جنوب بريدة حتى توفي رحمه الله. ينظر : موسوعة تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية في مئة عام ٥/ ٢٢٢ ، وتاريخ مساجد بريدة القديمة وتراجم أئمتها ١٣٥ ، ومعجم أسر بريدة ٢٢/ ٤٢٠.

(١) أبو إبراهيم ؛ عبد الله بن إبراهيم بن محمد السَّليم (١٣٣٠- ١٤١٧هـ) ، الشيخ المربي والعالم الفلكي ، أخذ العلم عن علماء بريدة من آل سليم ، وبالذَّاتِ من الشيخين : عبد الله وعمر ابني الشيخ محمد بن سليم ، حصل على إجازة التدريس عام ١٣٤٩هـ ليصبح أحد رواد التعليم في المملكة العربية السعودية ؛ فقد كان يعلمُ الطلابَ في الكتاتيب ثم انتقل بعد ذلك إلى التعليم الحكومي فكان مديرًا للمدرسة الحكومية الأولى في بريدة ، وبقي في هذه المدرسة من عام ١٣٥٧هـ حتى ١٣٦٧هـ ؛ حيث انتقل منها ليفتتح أول مدرسة حكومية في الرياض ، ثم عاد إلى بريدة مرة أخرى وعمل مديرًا لمعهد المعلمين إلى أن أُحيل على التقاعد عام ١٣٩٩هـ. ألَّف عددًا من الكتبِ والرسائل الـمُهمة ، أهمها كتبه في علم الفلك الذي برع فيه ، من كتبه : التقويم المبسط المفيد ، وتقويم الأزمان المقارن. ينظر : التعليم في القصيم بين الماضي والحاضر ٥٥ ، ومعجم أسر بريدة ١٠/ ٢٦٣ ، وسبعون عاما في الوظيفة الحكومية ١/ ١٦.

ولمْ يقتصرِ العُبوديُّ على دراستِه النظاميَّةِ ؛ فقدِ التزمَ الدراسةَ في حِلَقِ العلمِ الشائعةِ في بريدةَ آنذاكَ ، وكانَ الشيخُ صالحُ بنُ إبراهيمَ بنِ كُرَيْدِيْسٍ[1] أوَّلَ شيخٍ قرأَ عليهِ ، واستمرَّ مَعَهُ إلى أنْ توفَّاهُ اللهُ عامَ ١٣٥٩هـ ، وقد لَقِيَ مِنْ تَشْجِيعِهِ ما رَغَّبَهُ في الـمُواصَلَةِ ؛ فقرأَ بعدَ ذلكَ على عددٍ من المشايخِ ، منهمْ : الشيخُ عمرُ بنُ سلِيْمٍ[2]، والشيخُ صالحُ بنُ أحمدَ الخرَيصِيُّ[3]، والشيخُ صالحُ بنُ عبدِ الرحمنِ السُّكَيْتيُّ[1]، ثُمَّ كانت القراءةُ على الشيخِ

---

(١) صالح بن إبراهيم بن سالم بن كُرَيْدِيس (١٢٩٢- ١٣٥٩هـ) ، الشيخ الفاضل والإمام الناسك ، أخذ العلم عن الشيخ محمد بن عبد الله بن سليم والشيخ محمد بن عمر بن سليم ، سافر إلى الرياض وأخذ العلم عن عدد من علمائها ومنهم : عبد الله بن عبد اللطيف ، تولى الإمامة والتدريس في مسجد عبد الرحمن الشريدة في بريدة ، تتلمذ على يديه مجموعة من العلماء ، منهم : الشيخ أحمد الخريصي ، والشيخ عبد الرحمن السكيتي ، والشيخ سليمان العمري ، استمر في الإمامة والتدريس حتى وفاته رحمه الله. ينظر : علماء آل سليم وتلامذتهم ٢/ ٢٥٨ ، ومعجم أسر بريدة ١٨/ ٣٠٤.

(٢) أبو محمد ؛ عمر بن محمد بن عبد الله بن حمد بن سِلِيم (١٢٩٩- ١٣٦٢هـ) ، العالم الجليل والقاضي المشهور ، نشأ نشأة علمية فقرأ على عدد من علماء بريدة ولازم أباه كما لازم غيره ، انتقل إلى الرياض فقرأ على الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وعلى غيره مدة ستة شهور فقط ، ثم عاد إلى بريدة. عيَّنه الملك عبد العزيز قاضيًا ومرشدًا في هجرة دخنة ، ثم عينه سنة ١٣٣٣هـ قاضيًا ومرشدًا في الأرطاوية حتى سنة ١٣٣٧هـ ليعود بعد ذلك إلى بريدة ويصبح إمامًا ومدرسًا في مسجد الشيخ ناصر بن سيف شمال بريدة ، ثم عينه الملكُ عبدُ العزيز مكان أخيه في القضاء والإمامة والخطابة والتدريس ، وانتهى الإفتاء والتدريس إليه في بريدة. ينظر : مشاهير علماء نجد وغيرهم ٢٣١ ، تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي ٣/ ٣٠ ، ومعجم أسر بريدة ١٠/ ٢١١.

(٣) أبو سليمان ؛ صالح بن أحمد بن عبد الله الخرَيْصِي (١٣٢٨- ١٤١٥هـ) ، الشيخ القاضي والعابد الزاهد ، أخذ العلم عن عدد من علماء بريدة في وقته. تولى الإمامة والتدريس في مسجده المعروف ، غرب جامع بريدة الكبير ، ابتداءً من عام ١٣٥٠هـ حتى آخر أيامِهِ . في عام

عبدِ الله بنِ مُحَمَّدِ بنِ حُمَيْدٍ[2]، ولأهميةِ هذهِ القراءةِ فإنَّ العبوديَّ عدَّها فتحًا من الله سبحانه وتعالى ، وقدْ حَضَرَ الشيخُ إلى بريدةَ عامَ ١٣٦٣هـ ، وكانَ رَحِمَهُ اللهُ يخصُّ العُبوديَّ بمزيدٍ

١٣٧٠هـ تقريبًا تولى قضاء الأسياح وقام بالإمامة والتدريس فيها ، ثم تولى القضاء في الخرج وقام بالتدريس فيها ، وفي ١٣٨٨هـ تولى القضاء في بريدة وصدر الأمر بتوليه رئاسة المحاكم إلى أن تقاعد عام ألف وأربع مئة وسبعة للهجرة ، وذلك بعد أن مُدِد له مرتين ، وكان خلال هذه المدة يدرس الطلبة في مسجده. ينظر : تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي ٣/ ١٤ ، ومعجم أسر بريدة ٥/ ٦٥ ، وتاريخ مساجد بريدة القديمة وتراجم أئمتها ١٨٣.

(١) أبو عبد العزيز ؛ صالح بن عبد الرحمن بن إبراهيم السُكَيْتِي (١٣٣١- ١٤٠٤هـ) ، العالم الجليل والمعلم الفاضل ، بدأ تعلمه في مدرسة الشيخ سليمان بن عبد الله العمري ، ثم طلب العلم على عدد من علماء بريدة في وقته ، سافر إلى الرياض وأخذ عن الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم ، عينه شيخه عمر بن سليم إمامًا ومدرسًا لمسجد الأمير عبد العزيز بن مساعد منذ تأسيسه في شمال بريدة سنة ١٣٥٧هـ ، واستمر فيه حتى وفاته ، تولى القضاء في الـمِذْنَب عام ١٣٦٣هـ ، ثم ترك القضاء ليصبح مدرسا في المعهد العلمي إلى أن تقاعد. ينظر : علماء آل سليم وتلامذتهم ٢/ ٢٦٠ ، ومعجم أسر بريدة ٩/ ٥٥٨ ، وتاريخ مساجد بريدة القديمة وتراجم أئمتها ٢٠٣.

(٢) أبو محمد ؛ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن حُمَيْد الخالديُّ (١٣٢٩-١٤٠٢هـ) ، المحقق والمدقق والشيخ النزيه والضرير ذو الفراسة ، حفظ القرآن الكريم ثم شرع في طلب العلم بهمَّة فقرأ على جلّ علماء الرياض والوافدين إليه. عيَّنه الملك عبد العزيز رحمه الله قاضيًا في الرياض عام ١٣٥٧هـ ، ثم قاضيًا في سدير عام ١٣٦٠هـ ، وفي عام ١٣٦٣هـ نُقِلَ ليصبح قاضي بريدة وإمام جامعها والمرجع في الإفتاء والتدريس فيها بعد وفاة الشيخ عمر بن سليم ، طلب الإعفاء من القضاء والإحالة إلى المعاش عام ١٣٧٧هـ فبقي في بريدة متفرغا للإمامة والتدريس إلى أن تم تعيينه عام ١٣٨٤هـ من قبل جلالة الملك فيصل رئيسًا للإشراف الديني على المسجد الحرام ، وفي عام ١٣٩٥هـ عيَّنه الملك خالد –رحمه الله– رئيسًا لمجلس القضاء الأعلى ، وكان عضوًا في هيئة كبار العلماء ، ورئيسًا للمجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي ، وعضوًا في المجلس

مِن العنايةِ والاهتمامِ ، كما كانَ يُطلِعُهُ على كُتُبِهِ ويصطحِبُهُ مَعَهُ عندَ سَفَرِهِ إلى الرياضِ ، لـمقابلةِ الملكِ عبدِ العزيزِ أو تأديةِ بعضِ الـمُهِمَّاتِ حيثُ كانَ الشيخُ يَحْرِصُ على أنْ يرافقَهُ اثنانِ أو ثلاثةٌ مِن طلبةِ العلمِ وكانَ الاختيارُ يقعُ على العُبُودِيِّ غالبًا.

وفي نهايةِ عامِ ١٣٦٣هـ عُيِّنَ العبوديُّ مدرسًا في المدرسةِ السعوديَّةِ ، وهي المدرسةُ الحكوميةُ الأولى في بريدةَ آنذاكَ ، ولكنَّهُ ما لبثَ أنْ تركَ هذهِ الوظيفةَ ؛ رغبةً في التفرُّغِ للعلمِ فتفرغَ قيِّمًا على مكتبةِ الجامعِ ؛ إذْ أَنَّهُ عندما خلفَ الشَّيخُ عبدُ الله بنُ حُمَيْدٍ -رحمهُ اللهُ- الشيخَ عمرَ ابنَ سَلِيْمٍ في القضاءِ وحَلَقاتِ التعليمِ والتدريسِ والإفتاءِ عامَ ١٣٦٣هـ سعى إلى إتمامِ أُمنيةِ الشيخِ عُمَرَ بنِ سَليمٍ في إنشاءِ مَكتبةٍ عامةٍ لِطَلَبَةِ العلمِ ، فباشَرَ ابنُ حُمَيْدٍ أوَّلَ خُطْوَةٍ لإعدادِ الـمكتبةِ بتعيينِ العُبُوديِّ قيِّمًا على هذهِ المكتبةِ براتبٍ قَدْرُهُ أربعونَ ريالًا في الشَّهرِ.

وفي عام ١٣٦٦هـ عادَ العبوديُّ إلى التعليمِ برتبةِ معلِّمِ درجةٍ أولى ، واستمرَّ قائمًا بالوظيفتينِ معًا (المكتبةِ والتعليمِ) إلى شهرِ صفرَ مِن عامِ ١٣٦٨هـ ؛ حيثُ تمَّ افتِتَاحُ مدرسةٍ أخرى في بريدةَ ، وعُهِدَ إليهِ بإدارتِها ليُصبحَ بذلك ثالثَ رُوَّادِ التعليمِ في منطقةِ القصيمِ بعدَ الشَّيخينِ : عبدِ الله بنِ إبراهيمَ السَّليمِ وصالحِ بنِ سليمانَ العُمريِّ(1) -رحمهما

التأسيسي للرابطة ، أَلَّفَ مجموعة من الرسائل. ينظر : تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي ١/ ٢٢١ ، ومساجد بريدة القديمة وتراجم أئمتها ٩٩.

(١) أبو عبد المحسن ؛ صالح بن سليمان بن محمد العُمْري (١٣٣٧-١٤١١هـ) ، المعلم الناجح والإداري المشهور ، نشأ وتربى في بيئة علمية محافظة ، درس على عدد من علماء بريدة في وقته ، عمل بالتعليم في مدرسة الفيصلية في بريدة سنة ١٣٥٨هـ ، ثم أصبح مديرًا للمدرسة ومشرفًا على مدارس القصيم ، وفي سنة ١٣٦٩هـ عُيِّنَ معتمدًا للمعارف بالقصيم ، تولى عددًا من المناصب ومن بينها إدارته للأمانة العامة لهيئة كبار العلماء ، أُحيل إلى التقاعد عام ١٣٩١هـ. تولى رئاسة تحرير جريدة القصيم فترةً من الزمن ، كتب العديد من المقالات في شتى المواضيع ،

اللهُ- ، وبَقيَ العبوديُّ مديرًا لهذهِ المدرسةِ مدةَ أربعِ سنواتٍ عُيِّنَ بعدها مديرًا للمعهدِ العلميِّ في بريدةَ ، وهو المعهدُ الثاني في المملكةِ بعدَ المعهدِ العلميِّ في الرياضِ الذي يرأسُهُ المفتي الأكبرُ محمدُ بنُ إبراهيمَ -رحمهُ الله- ، وامتدَّتْ إدارةُ العبوديِّ للمعهدِ من عامِ ١٣٧٣هـ إلى عامِ ١٣٨٠هـ وكانَ عمرهُ حينَ تولى إدارةَ المعهدِ سبعًا وعشرينَ سنةً.

وفي ١/ ٤/ ١٣٨٠هـ انتقلَ العبوديُّ إلى الجامعةِ الإسلاميةِ ، وذلك قبيلَ افتتاحِها ، فعملَ على وضعِ نظامِها لكونِهِ الأمينَ العامَّ لها ، وبعدَ ثلاثَ عشرةَ سنةً حصلَ على الترقيةِ ليصبحَ وكيلًا للجامعةِ ، وعندما أكملَ سنةً واحدةً في وكالةِ الجامعةِ اختيرَ أمينًا عامًا للدعوةِ الإسلاميةِ وأمينًا عامًّا للهيئةِ العليا ، وعَمِلَ في هذهِ الوظيفةِ تسعَ سنواتٍ ليستقرَّ بعدَها على وظيفةِ الأمينِ العامِّ المساعدِ والرئيسِ بالنيابةِ لرابطةِ العالمِ الإسلاميِّ ، وذلك ٢٦/٨/١٤٠٣هـ ، وبقيَ في هذهِ الوظيفةِ حتى تقاعدَ عنِ العملِ الحكومي في ١٢/ ٣/ ١٤٣٣هـ ، وبذلكَ فإنَّهُ يكونُ قد أكملَ سبعينَ عامًا في الوظيفةِ الحكوميَّةِ ، ومِنَ الجديرِ بالذِّكرِ أنَّهُ اعتذرَ عن تَسَلُّمِ الأمانةِ العامَّةِ للرابطةِ عدةَ مراتٍ ؛ لأنهُ لا يرى المصلحةَ في ذلكَ.

وقدْ كانَ لعملِ العبوديِّ في الجامعةِ الإسلاميةِ ورابطةِ العالمِ الإسلاميِّ دورٌ مهمٌّ في صقلِ موهبتِهِ وممارستِهِ للرحلةِ ؛ فقد أُتيحَ لَهُ السَّفرُ إلى جلِّ بلدانِ العالمِ ، واتسعتْ معارفُه بالكثيرِ مِن الشخصياتِ الشعبيةِ والعامةِ.

له كتابان في التاريخ ، الأول : علماء آل سليم وتلامذتهم وعلماء القصيم ، والثاني : التعليم في القصيم بين الماضي والحاضر. ينظر : التعليم في القصيم بين الماضي والحاضر ٣٧ ، وموسوعة تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية في مئة عام ٤/ ٢١٧ ، ومعجم أسر بريدة ١٦/ ٤٨.

ولم يكنْ للعبوديِّ أن ينالَ هذهِ المناصبَ العليا والمرتبةَ العلميةَ والسمعةَ الحسنةَ لولا اتصافُهُ بمجموعةٍ مِن الصفاتِ ؛ فقدْ نَشَأَ العُبوديُّ مُحبًّا للعلمِ ، مغرمًا بالتَّعَلُّمِ منذُ الطُّفولةِ ، فأصبحَ شديدَ الاهتمامِ بالعلمِ والثقافةِ ، لا يفتُرُ عن السعيِ في سبيلِ المعرفةِ والتواصلِ مع كلِّ مَنْ لديهِ معلومةٌ يُمكنُ الإفادةُ منها ، ولديهِ شوقٌ جامحٌ إلى معرفةِ أحوالِ البشرِ وعاداتِهِم ولُغاتِهِم ؛ فكثيرًا ما يحرِصُ على الوصولِ إلى كلِّ مكانٍ لم يسبقْ لهُ رؤيتُهُ ، أو الحصولِ على أيِّ معلومةٍ لم يطلعْ عليها من قبلُ. ولم تكنْ تلك الرغباتُ والتَطَلُّعَاتُ تصنُّعًا بلْ هيَ جِبِلَّةٌ وفطرةٌ طُبِعَ عليها العبوديُّ.

وقد ذهبتْ بهِ رغباتُهُ وتطلُّعاتُهُ إلى اختيارِ الشموليَّةِ في مسيرتهِ المعرفيةِ وفي إنتاجِهِ العلميِّ دونَ أنْ يقصِرَ همَّتَهُ على العلمِ الشرعيِّ فقط ، مُسْتَقِلًّا بهذا المنهجِ عن التوجُّهِ المألوفِ لطُلَّابِ العلمِ في زمانِهِ ، وعندما أرادَ شيخُهُ أنْ يَثْنِيَهُ عنْ هذا التوجُّهِ باستشارَتهِ في الكتابةِ لجلالةِ الملكِ بِأَنْ يستمرَّ ما يتقاضاهُ مِن المعارفِ شريطةَ أنْ يتفرَّغَ لطلبِ العلمِ الشرعيِّ لم يرضَ بذلكَ العرضِ السخيِّ وفضَّلَ الشموليةَ على البقاءِ في مجالٍ واحدٍ ، ويُعلِّلُ العبوديُّ هذا التوجُّهَ بقولِهِ : «إنَّني حينما رَغِبْتُ في العلومِ العصريةِ ، أوْ على الأصحِّ رَمَتْنِي نفسي في هوَّتِها السَّحِيْقَةِ ، كما يُحِبُّ الناسُ أنْ أقولَ ، لمْ يكنْ لي بذلكَ خيارٌ ؛ إنَّها نفسي التي تحبُّ الجديدَ وتحبُّ الغريبَ وتحبُّ التِّجْوالَ في العوالمِ الواسعةِ ، إنَّها لم ترضَ أنْ تكونَ مُسَيَّرَةً وَفْقَ أهواءِ العوامِّ مَهْما كانتْ مواقِفُهُمْ مَعْقُولةً أوْ مفيدةً»(١).

ولقدْ عاشَ العبوديُّ بدايةَ حياتِهِ في بيئةٍ فقيرةِ المعرفَةِ ولكِنَّهُ لمْ يستسلمْ لتلكَ الإمكانياتِ المعرفيَّةِ الضئيلةِ ؛ فأخذَ يهتَمُّ منذُ بواكيرِهِ بجمعِ المعلوماتِ والوثائقِ والكتبِ

(١) والدي معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي ٩٢.

المتنوعةِ والجرائدِ والمجلَّاتِ ، ولم يكنْ لشيءٍ أن يُسعِدَهُ سوى امتلاكِهِ لكتابٍ يجعلُهُ في صندوقِ مكتبتِهِ الخاصِّ ، فاجتمعَ لهُ بذلكَ رصيدٌ جيدٌ من الكتبِ والمخطوطاتِ ، وقدْ ذَهَبَتْ بهِ رغبتُهُ المعرفيةُ إلى أبعدَ مِن ذلكَ ؛ حيثُ صارَ يهتمُ باللغَةِ الإنجليزيةِ ويُحاولُ تعلُّمَها ، رغبةً منهُ في فتحِ أُفُقٍ آخرَ للمعرفةِ.

وعلى هذا الحسِّ المعرفيِّ والحرصِ على التعلُّمِ نشأتْ شخصيةُ العبوديِّ العلميةُ والناقدةُ ، وتكوَّنَتْ مِن معارفَ وعلومٍ شتَّى يَندُرُ أنْ تجتمعَ في شخصٍ واحدٍ ، إضافةً إلى معرفتِهِ الحاذقةِ باللغةِ العربيةِ ولَـهجاتِها وآدابِها ، والتي كان حَصِيْلَتُها مجموعةً مِن النصوصِ والمعاجمِ اللُّغَويةِ.

ولمْ يكنْ للعبوديِّ أنْ يصلَ إلى هذهِ القدرةِ المعرفيةِ والبراعةِ اللغويةِ لولا اهتمامُهُ الكبيرُ بالقراءةِ والتدوينِ ؛ فلهما الأولويةُ في حياتِهِ دونَ سواهُما ، فَهُوَ يقرأُ ويبحثُ ويكتبُ في جُلِّ أوْقاتِهِ.

ومعَ تعَمُّقِهِ العلميِّ والمعرفيِّ إلَّا أنَّهُ لمْ يَكُنْ في كتاباتِهِ أيُّ غرابةٍ أو تعقيدٍ ، فكتاباتُهُ سهلةٌ في أسلوبِها تُشعرُ القارئَ بالقربِ مِنها والانتماءِ لَها ، كما أنَّ نُصُوصَهُ عفويةٌ بعيدةٌ عنِ التَّكَلُّفِ وَالزخرفةِ ؛ لأنَّ تركيزَهُ واهتمامَهُ مُنْصَبٌّ على المعنى والفكرةِ ، وكان ذلكَ ديدنُهُ في كتاباتِهِ كلِّها ، حتى في طرحِهِ للقضايا الجوهريةِ والفلسفيةِ.

وإلى كلِّ ذلكَ فإنَّهُ أديبٌ ، لَهُ نصوصٌ أدبيةٌ في أكثرَ من فنٍ ، في الشِّعرِ ، وإن كان مُقِلًّا فيهِ ولا يعدُّهُ شعرًا ، وفي النثرِ بجميعِ أشكالِه ، فهوَ يهوى كتابةَ القصَّةِ ، ويكتبُ الروايةَ والمقامةَ والسيرةَ الذاتيةَ والرحلةَ والمقالةَ ، وقدْ أهَّلتهُ نصوصُهُ تلكَ للحصولِ على (ميداليةِ)

الاستحقاقِ في الأدبِ إثرَ تكريمِ جامعةِ الملكِ عبدالعزيزِ لعددٍ من الأدباءِ السعوديين عام ١٣٩٤هـ.

ولقدْ تَبَدَّتْ أدبيَّتُهُ -كما يرى حسنُ الهويملُ- الموضوعيةُ والأسلوبيةُ في مُجملِ كتاباتِهِ ولمْ تَحُلْ بينَهُ وبينَ التَّعدُّديةِ المعرفيةِ ؛ إذْ هوَ أديبٌ بطبعِهِ واهتمامِهِ[(١)].

إنَّ شخصيةً طامحةً مُتطَلِّعَةً مثلَ شخصيةِ العبوديِّ لمْ تكنْ لتتأثرَ سلبًا بمحيطِها المتواضعِ ؛ فَقد نَشَأَ العبوديُّ إنسانًا مُنْفَتِحًا يعشقُ التقدُّمَ ويرومُ الابتكارَ والتجديدَ ، مدركًا أنَّ الأيامَ طابعُها التغيّرُ وأنَّ التمسُّكَ بالأساليبِ القديمةِ يُعِيقُ التَّطورَ ويُنافي الأخذَ بأسبابِ الحضارةِ والمدنيةِ ، فلمْ يكنْ لذلك مِن دُعاةِ المحافظةِ على التراثِ المتمثلِ في التَّمَسُّكِ والاحتفاظِ بأساليبِ الحياةِ القديمةِ ولقدْ تَرجمتْ ذلكَ بعضُ مواقفِهِ وأفعالِهِ ؛ فما إنْ افتُتِحَ المعهدُ العلميُّ الأولُ في الرياضِ حتى ظَهَرَ حماسُهُ لافتتاحِ معهدٍ مماثلٍ في بريدةَ ، وكان يطمحُ منذُ البدايةِ أنْ تُدَرَّسَ فيهِ العلومُ الدينيةُ إلى جانبِ شيءٍ مِن العلومِ الدنيويةِ ؛ ليجمعَ الطلابُ بذلكَ بينَ العلومِ الحديثةِ معَ أخذِهِمْ بأسبابِ العلومِ الدينيَّةِ ، ولدى العبوديِّ نزعةٌ إلى التجديدِ جعلتْهُ ميَّالًا إلى الأدبِ الحديثِ. وتجلتْ نزعتُهُ التقدُّميةُ في موقفِهِ تجاهَ المرأةِ ، فهُوَ مناصرٌ للمرأةِ تُعجبُهُ قُوَّةُ شخصيَّتِها ومبادرتُها ، مُنْطَلِقًا بذلكَ من تقديرِ التَّمَيُّزِ من الذكرِ والأنثى على حدٍّ سواءٍ. ومعَ ذلكَ فإنَّهُ منسجمٌ معَ مجتمعِهِ ، يحترمُ ويُقدِّرُ تقاليدَهُ وأعرافَه ؛ فلمْ يُعرفْ عنهُ أَنَّهُ نَقِمَ أو سَخرَ من مُجْتَمَعِه أوْ وَقفَ ضِدَّهُ.

---

(١) حسن الهويمل ، الجهود الأدبية للعلامة العبودي ، جريدة الجزيرة ، الثلاثاء ، جمادي الأولى ، ١٤٢٥هـ ، عدد : ١١٦٠٤.

أمَّا التراثُ العلميُّ والمعرفيُّ فإنَّ لَهُ بهِ اهتمامٌ ظاهرٌ ، بلْ إنَّ جمعَ التراثِ العلميِّ وإحياءَهُ أصبحَ أحدَ غاياتِهِ ورسالاتِهِ.

وإذا ما أردْنا أنْ نتتبعَ صفاتِهِ العلميةَ فإنَّ من أهمِّها : الحزمَ والاهتمامَ بالوقتِ ؛ إذْ لا مجالَ عندَهُ يسمحُ بتأجيلِ أمرٍ يستدعي إجراءً مُعَيَّنًا في وقتٍ مُعَيَّنٍ ، مهما كانت المسوّغاتُ ، وإذا ما اضطُرَّ إلى ذلكَ فإنَّهُ سرعانَ ما تبدُو على صفحاتِ وجهِهِ علاماتُ الرفضِ والتبرُّمِ ، ولقدْ منَحهُ هذا السلوكُ مهارةً في الإدارةِ وقدرةً على الاستقلاليةِ ؛ فليسَ لأحدٍ يدٌ في أعمالِهِ ، ومِن النادرِ أن يضطرَّ إلى مساعدةِ الآخرينَ أو مشاركَتِهِم.

لقدِ ارتبطَ الحزمُ والحفاظُ على الوقتِ بشخصيَّةِ العبوديِّ حتى صارَ ذلكَ شيئًا مألوفًا عنهُ لدى مرافقِيهِ في الحضرِ والسفرِ ، فكثيرًا ما يُدهِشُهم بجدِّهِ وحِرصِهِ على جدولِ مهامِّهِ واستغلالِ ساعاتِ يومِهِ ، فتراهُ عندما يتوقَّفُ برنامجُ زياراتِهِ اليوميةِ يخلُو بنفسِهِ ؛ ليُحرِّرَ يوميَّاتِهِ التي دَأَبَ على تسجيلِها بانتظامٍ منذُ صِباهُ ، وكثيرًا ما يتخفَّفُ مِن الارتباطاتِ والاجتماعاتِ غيرِ المهمَّةِ ؛ حرصًا منهُ على استثمارِ وقتِهِ.

إنَّ لحزمِ العبوديِّ وهمَّتِهِ أثرًا بالغًا في تكوينِ شخصيتِهِ المثمرةِ والمرتَّبةِ ؛ فليسَ لديه فوضى أو إهمالٌ ، وعندما تخْرُجُ الأمورُ عن سيطرتِهِ فإنَّهُ سرعانَ ما يبحثُ عن حلولٍ مناسبةٍ.

ومِن صفاتِهِ العمليَّةِ : العزمُ والإصرارُ ، وكيفَ لتلكَ الأعمالِ الضخمةِ والطويلةِ المدى أنْ تَرى النورَ لولا صبرُهُ وجَلَدُهُ السنينَ الطِّوالَ ، فكتابُهُ : (معجمُ أُسرِ بريدةَ) جاءَ في ثلاثةٍ وعشرينَ مجلدًا استغرقَ تأليفُها نحوَ خمسين سنةً ، كما يتبدَّى إصرارُهُ في حِرصِه على جمعِ المعلوماتِ والحصولِ عليها ، فما إنْ تتعذَّرَ عليهِ المعلومةُ حتى يجتَهِدَ ويُجهِدَ غيرَهُ في الحصولِ

عليها ، وقد يلجأُ أحيانًا إلى شراءِ الوثائقِ بأسعارٍ مرتفعةٍ إذا عَلِمَ بعرضِ شيءٍ مِنها ، ولمْ تكنْ همَّتُهُ تتوقفُ عندَ الوصولِ إلى المعلومةِ أو الوثيقةِ ، بل إنَّهُ يعملُ جاهدًا على تفحُّصِها وتحرِّي دِقَّتِها ، ولا يأخذُ من لِسانِ أحدٍ إلا إذا عُهِدَ عنهُ الصدقُ والأمانةُ في النقلِ.

ومِن صفاتِهِ العمليةِ أيضًا : التؤدةُ والحرصُ على أداءِ الأعمالِ بكفاءةٍ ومِهنيَّةٍ ، معَ مُراعاةِ الذوقِ والترتيبِ في كلِّ أعمالِه وأحوالِه ، ورُبَّما يكونُ لتؤدتِهِ وحسنِ ترتيبِهِ دورٌ مهمٌّ في قوَّةِ ذاكرتِهِ وقُدرتِهِ على الاستيعابِ ؛ إذ يسهُلُ عليهِ استحضارُ المعلوماتِ بتفاصيلِها رغمَ قِدَمِها كما أنَّ ترتيبَهُ لأوراقِهِ ساعدَهُ في الوصولِ إلى هذا الكمِّ الغزيرِ من الإنتاجِ ؛ فعندما لا يجدُ في نفسِهِ الرغبةَ في العملِ على كتابٍ ما ، أوْ يعسُرُ عليهِ الحصولُ على معلومةٍ لا يَكتملُ العملُ إلا بها ، فإنَّهُ يغلقُ ملفَّ الكتابِ الذي بينَ يديهِ ويضعُهُ في مكانِهِ ثُمَّ ينصرِفُ إلى ملفِّ كتابٍ آخرَ سبقَ لهُ أَنْ بدأَ بهِ ، ولهذهِ الطريقةِ دورٌ مهمٌ في فتحِ المجالِ للتعديلِ والإضافةِ على أيٍّ من ملفَّاتِ كُتُبِهِ.

كما أنَّ لديهِ قدرةً على التركيزِ والبحثِ والربطِ بينَ الأفكارِ رغمَ تعدُّدِ مجالاتِ أعمالِهِ وتنوُّعِها ، فلا يجدُ صُعوبةً في الانتقالِ من تنقيحِ كتابٍ في الرحلةِ إلى تسجيلِ مصطلحٍ لغويٍ في معجمِهِ أو ملاحظةٍ خطرتْ على بالِهِ ، كلُّ ذلك يفعلُهُ في وقتٍ واحدٍ دونَ أنْ تتداخلَ الأعمالُ أو تتأثرَ ببعضِها ، وكانَ حصيلةُ هذهِ الـمَقْدِرَةِ عددًا كبيرًا مِن الكُتُبِ يربو على ثلاثِ مئةِ كتابٍ ، بعضُها يتجاوزُ العشرةَ مجلداتٍ.

ويتميَّزُ العبوديُّ بدقةِ الملاحظةِ وبُعدِ النظرِ ، وحبِّ الاطِّلاعِ ، والحسِّ الدقيقِ ؛ فتجدُهُ يحتفلُ بالملاحظاتِ والتفاصيلِ ، فيسجلُها ويصفُهُا وصفًا يُجلِّي دقائقَها دونَ مبالغةٍ أو سرفٍ في الخيالِ.

أمَّا الصفاتُ العامَّةُ فقد عُرِفَ العبوديُّ بتفاؤلِهِ وبشخصيَّتِهِ القويةِ ، وبطبيعتهِ الهادئةِ ، وبكرمهِ وبذلهِ للعلمِ ، كما عُرِفَ بالحلمِ والتسامحِ وسَعةِ الصدرِ ، وعلى علوِّ قدرِهِ وسبقِهِ إلا أنَّك تراهُ متواضعًا ، زاهدًا ، وفيًّا ، يُقدِّرُ الآخرين ، ويحترمُ آراءَهم ، ولكنَّهُ لا يمكنُ أنْ يأخذَ برأيِ أحدٍ -مهما كانَ- حتى يحلِّلَهُ ويدرسَهُ بشكلٍ منطقيٍّ دونَ تعصُّبٍ أو تأثرٍ بالعاطفةِ ، وعندما تستمعُ إلى حديثِهِ تجدُ أنَّهُ محاورٌ جيدٌ ، يمتلكُ أسلوبًا جذّابًا في المخاطبةِ والإقناعِ ، كما أنَّهُ يستطيعُ التحدثَ باللغتينِ : الإنجليزيةِ والبرتغاليةِ.

وهوَ إلى ذلكَ محبٌّ وهاوٍ للسفرِ ؛ أمضى شطرًا من حياتِهِ داعيةً متنقلًا بين الدولِ للاطلاعِ على أحوالِ المسلمين وتقديمِ يدِ العونِ لهم.

وإلى كل ما مضى فإنَّ العبوديَّ هاوٍ للتصويرِ الفوتوغرافيِّ ، محبٌ للمغامرةِ وممارسة الرياضة ، مغرمٌ بالصيدِ.

وقد نالَ العبوديُّ نظيرَ جهودِهِ في شتى المجالاتِ العديدَ مِن الجوائزِ والتكريماتِ ، لعلَّ مِن أهمِّها وسامَ الملكِ عبدِ العزيزِ مِن الدرجةِ الأولى.

مؤلَّفاتُهُ:

اتخذَ العبوديُّ الكتابةَ منهجًا وأسلوبًا في الحياةِ ؛ فهو يكتُبُ في جميعِ الأحوالِ وتحتَ كلِّ الظروفِ ، يكتبُ في السفرِ والحضرِ ، وفي الطائرةِ وفي الانتظارِ ؛ لأنَّ راحتَهُ ومتعتَهُ في الكتابةِ ، كما يقولُ[1] ، وقد بدأَ تجربةَ الكتابةِ منذُ سنةِ ١٣٥٥هـ تقريبًا ، وكانَ إذْ ذاكَ طفلًا لمْ يتجاوزْ عُمُرُهُ الحاديةَ عشرةَ ، يقرأُ ويتعلمُ على أستاذِه محمدِ بنِ صالحِ الوهيبيِّ رحمَهُ اللهُ ،

---

(١) راجع : المقابلة التي أجريت معه في قناة دليل في برنامج (عفو التجربة).

وكانَ لدى شيخِهِ حينَها نسخةٌ هي الوحيدةُ في بريدةَ مِن كتابِ (جواهرِ الأدبِ في أدبياتِ وإنشاءِ لغةِ العربِ) للهاشميِّ ، فطلبَ العبوديُّ من أستاذِهِ أنْ يُعِيْرَهُ هذا الكتابَ يومَ الجُمُعَةِ فقط ؛ لأنَّ الطُّلابَ كانوا يقرؤونَ عندَهُ كلَّ يومٍ عدا يومِ الجمعةِ ، فوافقَ أستاذُهُ على إعارتِهِ لهذا الكتابِ ، فقرأَهُ العبوديُّ وأُعجبَ بطريقةِ تقسيمِهِ وحُسنِ تبويبِهِ ، فألَّفَ على غرارِهِ كتابًا أسماهُ (أنيسُ الجليسِ فيما تزولُ بذكرِهِ الهواجيسُ) ضمَّنَهُ حِكَمًا وأمثالًا وألغازًا وغيرَ ذلكَ ، وكان ثمرةُ هذا الكتابِ أنْ وُلِدَت مَعَهُ فكرةُ كتابِ (الأمثالِ العاميَّةِ في نجدٍ) ، ويُعَدُّ أوَّلَ كتابٍ مطبوعٍ للعبوديِّ ، وقد طَبَعَهُ سنةَ ١٣٧٩هـ.

ولقدْ استطاعَ العبوديُّ من خلالِ منهجيتِهِ في الكتابةِ اليوميَّةِ أنْ يدعمَ المكتبةَ العربيةَ عمومًا والسعوديةَ خصوصًا بكمٍّ ضخمٍ مِن الكتبِ ، وبعضُ هذهِ الكتبِ يقعُ في مجلداتٍ عدَّةٍ ، وحاز لذلكَ جائزةَ وزارةِ الثقافةِ والإعلامِ بصفتِهِ أحسنَ مؤلفٍ سعوديٍّ لعامِ ١٤٣٥هـ.

ويسعى العبوديُّ مِن خلالِ مجموعِ كتاباتِهِ إلى تحقيقِ أهدافٍ واضحةٍ رَسَمها لنفسِهِ ؛ أهمُّها : تغطيةُ النقصِ الحاصلِ في المكتبةِ العربيةِ ، وكان ذلكَ وراءَ تأليفِهِ لكتابِ (معجمِ بلادِ القصيمِ). ومِن أهدافِهِ أيضًا : المحافظةُ على تراثِ بيئتِهِ ، ولذلكَ حرصَ على تأليفِ كُتبٍ كثيرةٍ في طليعتِها كتابُهُ (الأمثالُ العاميَّةُ في نجدٍ). و مِن أهدافِهِ كذلكَ : خدمةُ اللغةِ العربيةِ ببيانِ فصيحِها وعاميِّها ودخيلِها ومَنحوتِها ، فقد ألَّفَ الكثيرَ من المعاجمِ اللغويةِ. كما أنَّ من أهدافِهِ السعيَ إلى إبرازِ خصائصِ الشعوبِ الإنسانيةِ وعاداتِها وتقاليدِها ، ويَتَبَدَّى هذا الهدفُ مِن خلالِ الاطِّلاعِ على مؤلفاتِهِ العديدةِ في أدبِ الرِّحلاتِ.

وإذْ يُكثرُ العبوديُّ من الكتابةِ فإنهُ يتوخَّى اليقينَ في كلِّ ما يكتبُهُ ، فلم يكنْ يعتمدُ على الظنِّ أو على النقلِ ، بل إنَّهُ يحرصُ على التأكدِ مِن المعلومةِ ، فلا يتوقفُ عند ما قالَهُ الآخرون ، بل يحاولُ الوقوفَ بها بشخصِهِ ، والقارئُ لكتبِهِ يجدُ أنها كُتِبتْ على غرارِ قواعدِ الكتابةِ العلميةِ الـمُحكمةِ وآلياتِها.

ولِما يمتلكُهُ من مخزونٍ معرفيٍّ وثقافيٍّ واسعٍ فإنَّهُ كثيرًا ما يحرصُ في كتاباتِه على تنميةِ الجانبِ الفكريِّ والثقافيِّ لدى القرَّاءِ ، كما يحرصُ على بناءِ صُوَرٍ فلسفيةٍ شُموليةٍ مُتكاملةٍ من شأنِها أنْ توسِّعَ الأُفُقَ لدى القارئِ وتُقدِّمَ لهُ منظورًا واسعًا لا يمكنُ أنْ يجدَهُ عندَ كُتَّابِ الحقولِ الـمُحَدَّدَةِ.

وفيما يلي مجموعُ كُتُبِهِ المخطوطةِ والمطبوعةِ مُرتَّبةً و مُبَوَّبَةً :

المعاجمُ			
١	أماكنُ قديمةُ العمارةِ في القصيمِ ، مكتبةُ العبوديِّ ، بريدةُ.	٣٢	معجمُ ألفاظِ المطرِ والسَّحابِ في لغةِ العامَّةِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
٢	الأمثالُ العامِيَّةُ في نجدٍ ، خمسةُ مجلداتٍ ، دارُ اليمامةِ للطبعِ والنشرِ ، الرياضُ ، ١٣٩٨هـ.	٣٣	معجمُ الأقاربِ والأصدقاءِ في المأثورِ الشَّعبيِّ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٣هـ.
٣	تكملةُ المعجمِ اللغويِّ في جزيرةِ العربِ أو (معجمُ ما ليسَ في المعجمِ) ، سبعةُ أجزاءٍ ، مخطوطٌ.	٣٤	معجمُ الإنسانِ وأعضائِهِ الظاهرةِ ، مخطوطٌ.
٤	حِكَمُ العوامِّ ، مطابعُ الجاسرِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.	٣٥	معجمُ الإنسانِ وصفاتِهِ الباطِنَةِ ، مخطوطٌ.
٥	غرائبُ الألفاظِ العاميةِ من غيرِ ذواتِ الأصولِ الفصيحةِ ، مخطوطٌ.	٣٦	معجمُ الأنواءِ والفصولِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
٦	غرائبُ الألفاظِ النجديَّةِ من ذواتِ الأصولِ الفصيحةِ ، مخطوطٌ.	٣٧	معجمُ بلادِ القصيمِ ، خمسةُ مجلداتٍ ، دار اليمامةِ ، المطابعُ الأهليةُ للأوفستِ ، الرياضُ ، ١٣٩٩هـ.
٧	كلماتٌ عربيةٌ لم تسجلْها المعاجمُ ، جامعةُ أمِّ القُرى ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤٢٠هـ.	٣٨	معجمُ التجارةِ والمالِ والفقرِ والغنى في المأثوراتِ الشعبيةِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٣هـ.
٨	كلماتٌ قَضَتْ : معجمٌ بألفاظٍ اختفتْ من لغتِنا الدارجةِ أو كادتْ ، مجلدانِ ، دارةُ الملكِ عبدِ العزيزِ ، الرياضُ ، ١٤٢٣هـ.	٣٩	معجمُ الحِرَفِ والصنائعِ في المأثوراتِ الشعبيةِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٣هـ.

٩	الكنايةُ والمجازُ في لغةِ العامَّةِ ، مجلةُ الدرعيَّةِ ، ١٤٢٣هـ.	٤٠	معجمُ الحيوانِ عندَ العامَّةِ ، مجلدان ، مكتبةُ الملكِ فهدٍ الوطنيةُ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
١٠	مئةُ شخصٍ وشخصٍ عرفتُهُم من زعماءِ المسلمين خارجَ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، أربعةُ أجزاءٍ ، مخطوطٌ.	٤١	معجمُ الخيلِ ، مخطوطٌ.
١١	مئةُ شخصٍ وشخصٍ عرفتُهُم من المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، ثلاثةُ أجزاءٍ ، مخطوطٌ.	٤٢	معجمُ الديانةِ والتَّدينِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
١٢	مدلولاتُ كلماتٍ قضى عليها حُكمُ الملكِ عبدِ العزيزِ ، الجمعيةُ العربيةُ السعوديةُ للثقافةِ والفنونِ ، الرياضُ ، ١٤١٩هـ.	٤٣	معجمُ السفرِ والارتحالِ عندَ العامَّةِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٣هـ.
١٣	معجمُ الإبلِ ، مخطوطٌ.	٤٤	معجمُ شجرِ البريةِ وأعشابِها ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٥هـ.
١٤	معجمُ الأرضِ وما يتعلقُ بها في المأثورِ الشعبيِّ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٣هـ.	٤٥	معجمُ شجرِ البساتينِ ونباتِها ، مؤسسةُ ابنِ صالحٍ ، عنيزةُ.
١٥	معجمُ الأزواجِ والأصهارِ ، مخطوطٌ.	٤٦	معجمُ شعراءِ بريدةَ (بالفصحى) ، مخطوطٌ.
١٦	معجمُ أُسرِ بريدةَ ، ثلاثةٌ وعشرون مجلدًا ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٠هـ.	٤٧	معجمُ شعراءِ العاميَّةِ في بريدةَ ، مخطوطٌ.
١٧	معجمُ أُسرِ البُكَيْرِيَّةِ والهلاليَّةِ ، مخطوطٌ.	٤٨	معجمُ شعراءِ القصيمِ باللغةِ الفصحى ، مخطوطٌ.
١٨	معجمُ أُسَرِ جنوبِ القصيمِ ، مخطوطٌ.	٤٩	معجمُ الطعامِ والشرابِ عندَ العوامِّ ، مخطوطٌ.
١٩	معجمُ أُسرِ الخبراءِ ورياضِ الخبراءِ ، مخطوطٌ.	٥٠	معجمُ العِلمِ والجهلِ في فكرِ العوامِّ ، مخطوطٌ.
٢٠	معجمُ أُسَرِ الرسِّ ، مخطوطٌ.	٥١	معجمُ العلمِ والعلماءِ ، مخطوطٌ.
٢١	معجمُ أُسَرِ شرقِ القصيمِ ، مخطوطٌ.	٥٢	معجمُ الفروسيةِ والقتالِ ، مخطوطٌ.
٢٢	معجمُ أُسَرِ شمالِ القصيمِ ، مخطوطٌ.	٥٣	معجمُ الكلماتِ الدخيلةِ في لُغتِنا الدارجةِ ، مجلدانِ ، مكتبةُ الملكِ عبدِ العزيزِ العامةُ ، الرياضُ ، ١٤٢٦هـ.
٢٣	معجمُ أُسَرِ عُنَيْزَةَ ، سبعةَ عشرَ مجلدًا ، جاهزٌ للطبعِ.	٥٤	معجمُ اللباسِ عندَ العامَّةِ ، مخطوطٌ.
٢٤	معجمُ أُسَرِ غربِ القصيمِ ، مخطوطٌ.	٥٥	معجمُ المرأةِ في المأثورِ الشعبيِّ ، نادي الرياضِ الأدبيُّ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
٢٥	معجمُ أشجارِ البريَّةِ ونباتِها ، دارُ الثلوثيَّةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٦هـ.	٥٦	معجمُ الملابسِ في المنطقةِ الوسطى في المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٤هـ.
٢٦	معجمُ الأصولِ الفصيحةِ للألفاظِ الدارجةِ ، ثلاثةَ عشرَ مجلدًا ، مكتبةُ الملكِ عبدِ العزيزِ العامةُ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.	٥٧	معجمُ المنازلِ والديارِ في المأثوراتِ الشعبيةِ ، مخطوطٌ.
٢٧	معجمُ الأصولِ الفصيحةِ للأمثالِ الدارجةِ ، ثمانيةُ مجلداتٍ ، مكتبةُ الملكِ فهدِ بنِ عبدِ العزيزِ ، الرياضُ ، ١٤٣٤هـ.	٥٨	معجمُ موضوعاتِ الأمثالِ العاميَّةِ ، مخطوطٌ .
٢٨	معجمُ ألفاظِ الحضارةِ في المأثورِ الشعبيِّ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٥هـ.	٥٩	معجمُ النخلةِ في المأثورِ الشعبيِّ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣١هـ.
٢٩	معجمُ ألفاظِ الصيدِ والقنصِ ، دارُ الثلوثيَّةِ ، الرياضُ ،	٦٠	معجمُ وجْهِ الأرضِ وما يتعلقُ بِهِ ، دارُ الثلوثيةِ ،

	١٤٣٢هـ.		الرياضُ ، ١٤٣٥هـ.
٣٠	معجمُ الألفاظِ العاميَّةِ ، تسعةٌ وعشرون مجلدًا ، مخطوطٌ.	٦١	معجمُ الوقتِ في المأثوراتِ الشعبيةِ ، مخطوطٌ.
٣١	معجمُ ألفاظِ المرضِ والصحّةِ عندَ العامةِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٦هـ.		
السيرُ واليومياتُ والمذكراتُ			
٦٢	الأستاذُ حمدُ الجاسرِ كما عرفتُهُ ، مخطوطٌ.	٦٧	صاحبُ المعالي الشيخُ : محمدٌ بنُ عليٍّ الحركانِ كما عرفتُهُ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
٦٣	سبعونَ عامًا في الوظيفةِ الحكوميةِ ، أربعُ مجلداتٍ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٦هـ.	٦٨	محمدُ بنُ ناصرٍ العبوديِّ ، محمدُ العبوديُّ ، لم يكتملْ بعدُ.
٦٤	الشيخُ عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ الله بنِ بازٍ كما عرفتُهُ ، مخطوطٌ.	٦٩	معالي الشيخِ : عبدُ العزيزِ بنُ صالحٍ آلِ صالحٍ ، إمامُ المسجدِ النبويِّ كما عرفتُهُ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
٦٥	الشيخُ العلامةُ : عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ حُمَيْدٍ كما عرفتُهُ ، مجلدانِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.	٧٠	يومياتُ نجديٍّ ، مخطوطٌ.
٦٦	الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ آلِ الشيخِ كما عرفتُه ، مخطوطٌ.		
كتبُ أخبارِ الرجالِ			
٧١	أخبارُ أبي العيناءِ اليامِيِّ ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٣٩٨هـ.	٧٥	أخبارُ محمدٍ الربديِّ ، مخطوطٌ.
٧٢	أخبارُ حمدٍ الصقعبيِّ ، مخطوطٌ.	٧٦	أخبارُ مطوَّعِ اللُّسَيْبِ : عبدِ الكريمِ بنِ عودةٍ المحيميدِ (١٢٧٠ـ١٣٤٦هـ) ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٠هـ.
٧٣	أخبارُ عليٍّ المقبلِ وابنِهِ سليمانَ ، مخطوطٌ .	٧٧	أخبارُ الملا بنِ سيفٍ ، المتوفى عامَ ١٢٩٤هـ ، دارُ الثُّلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٠هـ.
٧٤	أخبارُ قُنَيٍّ : عبدِ الكريمِ بنِ عثمانَ العبيدِ (١٢٧١ـ١٣٥٩هـ) ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ،١٤٣٠هـ.		
الكتبُ الأدبيةُ من غيرِ الرحلاتِ			
٧٨	الأصدقاءُ الثلاثةُ ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.	٨٧	المستدينُ ، قصةٌ ، مطبعةُ النرجس ، الرياضُ ، ١٤٣١هـ.
٧٩	حكاياتٌ تُحكى ، نادي القصيمِ الأدبيُّ ، بريدةُ ، ١٤٢١هـ.	٨٨	المستغربُ ، قصةٌ طويلةٌ ، مخطوطٌ.
٨٠	ديوانُ غيرِ شاعرٍ ، مخطوطٌ.	٨٩	مشاهدُ من بريدةَ قبلَ خمسٍ وسبعين سنةٍ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٠هـ.
٨١	سوانحُ أدبيةٌ ، مطابعُ الفرزدقِ ، الرياضُ ، ١٤٠٥هـ.	٩٠	موضي وبناتُها ، قصةٌ طويلةٌ ، مخطوطةٌ.
٨٢	سوانحُ وبوارحُ ، مخطوطٌ.	٩١	مطوَّعٌ في باريسَ ، النادي الأدبيُّ بالرياضِ ، الرياضُ.
٨٣	صورٌ ثقيلةٌ ، مطابعُ الفرزدقِ ، الرياضُ ، ١٤٠٥هـ.	٩٢	المقاماتُ البلدانيةُ ، نادي الرياضِ الأدبيُّ ، الرياضُ ، ١٤٢٦هـ.

٨٤	صالحٌ ومنيرةُ ، روايةٌ مخطوطةٌ.	٩٣	المقاماتُ الصحراويةُ ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤١٨هـ.
٨٥	كتابُ الثقلاءِ ، الجمعيةُ العربيةُ السعوديةُ للثقافةِ والفنونِ ، الرياضُ.	٩٤	هذا ما استوحيتُهُ من الناسِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.
٨٦	مأثوراتٌ شعبيةٌ ، الجمعيةُ العربيةُ السعوديةُ للثقافةِ والفنونِ ، الرياضُ.		

كتبُ الرِّحْلاتِ

ويُعدُّ العبوديُّ مِن أبرزِ كُتَّابِ الرِّحلةِ قديمًا وحديثًا ، وذلكَ لاعتِنائهِ بتقييدِ يومياتِ رحلاتِهِ الكثيرةِ التي يقتضيها عملُهُ الرسميُّ ، ولعلَّ سردَ عناوينِ كتبِهِ في الرحلة يكشفُ لنا عن هذا الكمِّ الكبيرِ من الإنتاجِ الرحليِّ :

٩٥	إلى إريتريا بعد ٣٦سنةٍ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.	١٨٤	شمالُ سيبيريا (من سلسلةِ الرحلاتِ السيبيريةِ) ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.
٩٦	إلى أقصى الجنوبِ الأفريقيِّ : جولةٌ وحديثٌ حولَ الإسلامِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٣هـ.	١٨٥	شمالُ شرقِ الهندِ : رحلةٌ في ولايتي بيهارَ وإترابراديشَ وحديثٌ عن المسلمينَ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٢هـ.
٩٧	إلى أقصى الجنوبِ الأمريكيِّ : رحلةٌ في الأرجنتينِ وتشيلي ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤٠٧هـ.	١٨٦	شهرٌ في غربِ أفريقيةَ : مشاهداتٌ وأحاديثٌ عن المسلمينَ ، المطابعُ الأهليَّةُ ، الرياضُ ، ١٤٠٥هـ.
٩٨	إلى تاجيكستانَ ثانيةٌ ، مخطوطٌ.	١٨٧	صلةُ الحديثِ عن إفريقيةَ : مشاهداتٌ وانطباعاتٌ وأحاديثُ عن الإسلامِ والمسلمينَ ، دارُ العلومِ ، الرياضُ ، ١٤٠٤هـ.
٩٩	إلى جنوبِ الشمالِ : بلادُ السويدِ ، مطبعةُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٣هـ.	١٨٨	على أرضِ القهوةِ البرازيليةِ : جولةٌ في المنطقةِ الجنوبيةِ الغربيةِ من البرازيلِ وحديثٌ عن أوضاعِ المسلمين ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٥هـ.
١٠٢	إلى الشرقِ الأقصى الروسيِّ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.	١٨٩	على أعتابِ الهملايا ، مخطوطٌ.
١٠٠	إلى شمالِ الشمالِ : بلادُ النرويجِ وفنلندا ، مطابعُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.	١٩٠	على سقفِ العالمِ : رحلةٌ في التِّبتِ وحديثٌ في شؤونِ المسلمينَ ، نادي القصيمِ الأدبيُّ ، بريدةُ ، ١٤٢٢هـ.
١٠١	الإسلامُ والمسلمونَ في غربِ أفريقيةَ أو (بقيةُ البقيةِ من حديثِ إفريقيةَ) ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٢هـ.	١٩١	على ضفافِ الأمازونِ : رحلةٌ في المنطقةِ الاستوائيةِ من البرازيلِ ، نادي أبها الأدبيُّ ، أبها ، ١٤١٠هـ.
١٠٢	الإشرافُ على أطرافٍ من المغربِ العربيِّ ، وزارةُ التعليمِ العالي في المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.	١٩٢	على قممِ جبالِ الأنديزِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٠هـ.
١٠٣	الاعتبارُ في السفرِ إلى ماليبارَ (من سلسلةِ الرِّحْلاتِ الهنديةِ) ، النادي الأدبيُّ الثقافيُّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤٢٣هـ.	١٩٣	على هامشِ مهمةٍ رسميةٍ في أمريكا الجنوبيةِ ، مخطوطٌ.
١٠٤	إطلالةٌ على أستراليا ، مطابعُ التقنيةِ للأوفستِ ، الرياضُ ،	١٩٤	العنوانُ داخلَ أسوارِ الصينِ : رحلةٌ وحديثٌ في شؤونِ

	١٤١٧هـ.		المسلمين ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤١٣هـ.
١٠٥	إطلالةٌ على موريتانيا ، دارُ خضرٍ ، بيروتُ ، ١٤١٧هـ.	١٩٥	العودةُ إلى البرازيلِ ، مخطوطٌ.
١٠٦	إطلالةٌ على نهايةِ العالمِ الجنوبيِّ ، نادي مكّةَ الثقافيُّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤٠٤هـ.	١٩٦	العودةُ إلى داغستانَ ، مخطوطٌ.
١٠٧	إقليمُ أورنبورغَ (من سلسلةِ الرِّحْلاتِ في جنوبِ روسيا) ، مطابعُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.	١٩٧	العودةُ إلى الصينِ : مشاهداتٌ وأحاديثُ في أحوالِ المسلمينَ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١٠٨	إقليما سامارا وأستراخانَ (من سلسلةِ الرِّحْلاتِ في جنوبِ روسيا) ، دارُ خضرٍ للطباعةِ والنشرِ ، بيروتُ ، ١٤٢٠هـ.	١٩٨	العودةُ إلى غربِ إفريقيةَ ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
١٠٩	الإلمامُ بالمحيطِ الهادئِ من أستراليا إلى جزيرةِ قوامَ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣١هـ.	١٩٩	العودةُ إلى ما وراءِ النهرِ : جولةٌ في آسيا الوسطى وحديثٌ في شؤونِ المسلمينَ ، مطابعُ المسموعةِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.
١١٠	إلمامةٌ بجنوبِ الفلبينِ لحضورِ الاحتفالِ بافتتاحِ المباحثاتِ السلميَّةِ بينَ الحكومةِ الفلبينيةِ وجبهةِ تحريرِ مورو الإسلاميةِ ومشاهداتٌ أخرى ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.	٢٠٠	العودةُ إلى المغربِ الأقصى بينَ الصحراءِ والأرضِ الخضراءِ ، وزارةُ التعليمِ العالي في المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، الرياضُ.
١١١	أوزبكستانُ بعدَ عشرِ سنواتٍ ، مخطوطٌ.	٢٠١	غايتي من السفرِ إلى هايتي : رحلةٌ وحديثٌ عن الإسلامِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٣هـ.
١١٢	أيامٌ في فيتنامَ ، دارُ خضرٍ للطباعةِ والنشرِ ، بيروتُ ، ١٤١٧هـ.	٢٠٢	غينيا الجديدةُ آخرُ الغينياتِ زيارةً ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ.
١١٣	أيامٌ في النيجرِ ، محمدُ العبوديُّ ، بيروتُ ، ١٤١٤هـ.	٢٠٣	فطاني أو جنوبُ تايلندَ ، مطابعُ المسموعةِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.
١١٤	بالي جزيرةُ الأحلامِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٣هـ.	٢٠٤	فنزويلا وترانيدادُ ، مخطوطٌ.
١١٥	البرتغالُ وبلجيكا وهولندا ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤٢٨هـ.	٢٠٥	فوقَ سقفِ الصينِ : رحلةٌ في الشمالِ الغربيِّ من الصينِ وحديثٌ عن المسلمينَ ، مطبعةُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.
١١٦	بقيةُ الحديثِ عن إفريقيةَ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٢هـ.	٢٠٦	في اجتيازِ القوقازِ : بلادُ الشركسِ (الإديغي) ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١١٧	بلادُ البلطيقِ ، مطابعُ الجاسرِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.	٢٠٧	في أعماقِ الصينِ الشعبيةِ : رحلةٌ في مقاطعةِ منقوليا الداخليةِ وحديثٌ عن الإسلامِ والمسلمينَ ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٣١هـ.
١١٨	بلادُ التَّتَارِ والبلغارِ ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤٢٠هـ.	٢٠٨	في أفريقيةَ الخضراءِ : مشاهداتٌ وانطباعاتٌ وأحاديثُ عن الإسلامِ والمسلمين ، دارُ الثقافةِ ، بيروتُ ، ١٣٨٨هـ.
١١٩	بلادُ الداغستانِ : زياراتُ المسلمين في الاتحادِ السوفييتيِّ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٣هـ.	٢٠٩	في أقصى شرقِ الهندِ ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.
١٢٠	بلادُ العربيةِ الضائعةِ (جورجيا) ، مطابعُ العلا ، الرياضُ ،	٢١٠	في أنحاءِ إندونيسيا ، مخطوطٌ.

	١٤٢٣هـ.		
١٢١	بلادُ القرمِ ، دارُ القبلةِ ، جدةُ.	٢١١	في إندونيسيا : أكبرِ بلادِ المسلمينَ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١٢٢	بلادُ المكسيكِ وجواتيمالا ، مخطوطٌ.	٢١٢	في بلادِ المسلمينَ المنسيينَ : بخارى وما وراءَ النهرِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٢هـ.
١٢٣	بلادُ الهندِ والسندِ ، مخطوطٌ.	٢١٣	في جزائرِ البحرِ الأبيضِ أيضًا ، من صقليةَ إلى قبرصَ ، مخطوطٌ.
١٢٤	بلغاريا ومقدونيا (من سلسلةِ الرِّحْلاتِ في بلادِ البلقانِ) ، مطابعُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٢هـ.	٢١٤	في جنوبِ البرازيلِ ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.
١٢٥	بورتوريكو وجمهوريةُ الدومنيكيان ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.	٢١٥	في جنوبِ الصينِ : حديثٌ عن المسلمينَ في ماضيهم وحاضرِهم ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤١٤هـ.
١٢٦	بورما الخبرُ والعيانُ ، محمدُ العبوديُّ ، بيروتُ ، ١٤١٢هـ.	٢١٦	في جنوبِ الهندِ (الرحلاتُ الهنديةُ) ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٧هـ.
١٢٧	بينَ الأرغوايِ والبارغوايِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٣هـ.	٢١٧	في الرحلاتِ الكاريبيّةِ : المارتينيكِ وباربادوسَ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.
١٢٨	بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ .	٢٢٢	في شرقِ البرازيلِ ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١٢٩	تائهٌ في تاهيتي ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.	٢١٨	في شرقِ الهندِ : رحلةٌ وحديثٌ في أحوالِ المسلمينَ (من سلسلةِ الرحلاتِ الهنديةِ) ، مطابعُ التقنيةِ للأوفستِ ، الرياضُ ، ١٤١٩هـ.
١٣٠	تجوالٌ في بلادِ البرتغالِ ، مخطوطٌ.	٢١٩	في شمالِ سيبيريا : رحلةٌ وحديثٌ في أحوالِ المسلمينَ ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.
١٣١	ترينيدادُ وسانتا لوسيا والدومينيكانُ ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.	٢٢٠	في شمالِ شرقِ آسيا ، رحلةٌ في سيبيريا ومنغوليا ، مطابعُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٦هـ.
١٣٢	التشريقُ بعدَ التغريبِ في بحرِ الكاريبِ ، مخطوطٌ.	٢٢١	في الشمالِ الغربيِّ من الهندِ ، مخطوطٌ.
١٣٣	التعليقُ على السفرِ إلى أقطارِ البلطيقِ ، مخطوطٌ.	٢٢٢	في غربِ أستراليا ، مطابعُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.
١٣٤	تلبيةُ النِّداءِ لزيارةِ كندا ، مخطوطٌ.	٢٢٣	في غربِ البرازيلِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٢هـ.
١٣٥	جمهوريةُ أذَرْبيجانَ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٣هـ.	٢٢٥	في غربِ سيبيريا : مشاهداتٌ وأحاديثُ في شؤونِ المسلمينَ ، مكتبةُ الرشدِ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.
١٣٦	جمهوريةُ قازقستانَ : مُلَخَّصٌ تاريخيٌ ومشاهداتٌ ميدانيةٌ ، مخطوطٌ.	٢٢٥	في غربِ الهندِ : مشاهداتٌ وأحاديثُ في شؤونِ المسلمين (من سلسلة الرحلاتِ الهنديةِ) ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤١٧هـ.
١٣٧	جمهوريةُ القبائلِ الروسيةِ (رِحْلاتٌ في جنوبِ روسيا) ، مكتبةُ الرشدِ ، الرياضُ.	٢٢٦	في مهدِ التركِ : تركستانَ الشرقيةِ ، مخطوطٌ.

١٣٨	جنوبُ أستراليا ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٠هـ.	٢٢٧	في نيبالَ بلادُ الجبالِ : رحلةٌ وحديثٌ في شؤونِ المسلمينَ ، مطابعُ الفرزدقِ ، الرياضُ ، ١٤٠٥هـ.
١٣٩	جولاتٌ فنزويليَّةٌ وحديثٌ عن المسلمين في إحدى أركانِ القارةِ ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٧هـ.	٢٢٨	في وسطِ الصينِ ، مخطوطٌ.
١٤٠	جولةٌ في جزائرِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ ، مخطوطٌ.	٢٢٩	في وسطِ الهندِ ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٦هـ.
١٤١	جولةٌ في جزائرِ البحرِ الزنجيِّ أو (حديثٌ عن الإسلامِ والمسلمين في جُزُرِ المحيطِ الهنديِّ) ، المطابعُ الأهليةُ للأوفستِ ، الرياضُ ، ١٤٠٢هـ.	٢٣٠	قازغستانُ بعدَ أوزبكستانَ وتاجيكستانَ ، مخطوطٌ.
١٤٢	جولةٌ في جزائرِ البحرِ الكاريبيِّ : رِحْلاتٌ وبيانٌ لأحوالِ المسلمين ، مطابعُ الرياضِ الأهليةُ للأوفستِ ، الرياضُ ، ١٤٠٧هـ.	٢٣١	قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا (الرحلاتُ الكاريبيةُ) ، مطبعةُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١٤٣	جولةٌ في جزائرِ جنوبِ المحيطِ الهادئ : مشاهداتٌ وبيانٌ لأحوالِ المسلمين ، مطابعُ الفرزدقِ ، الرياضُ ، ١٤١٠هـ.	٢٣٢	قصةُ سفرٍ في نيجيريا ، مجلدانِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٥هـ.
١٤٤	جولةٌ في جزائرِ المحيطِ الأطلسيِّ ، مخطوطٌ.	٢٣٣	قضاءُ الإربِ من الجولةِ في بلادِ الصِّرْبِ ، مخطوطٌ.
١٤٥	حديثُ قازقستانَ ، دارُ القبلةِ ، جدةُ ، تحتَ الطبعِ.	٢٣٤	القلمُ وما أوتيَ في جيبوتيَ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٥هـ.
١٤٦	حديثُ قرغيزستانَ : دراسةٌ ومشاهداتٌ ميدانيةٌ ، دارُ خضرٍ ، بيروتُ ، ١٤١٨هـ.	٢٣٥	قوادي لوب وانتقوا وسانُ مارتنُ (الرحلاتُ الكاريبيةُ) ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.
١٤٧	حصادُ الرِّحْلاتِ ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.	٢٣٦	قولٌ أوفى في كوسوفا ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣١هـ.
١٤٨	الحلُّ والرحيلُ في بلادِ البرازيلِ ، ثلاثةُ أجزاءٍ ، تحتَ الطبعِ.	٢٣٧	القولُ المسدَّدُ في الرحلةِ إلى الجبلِ الأسودِ ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ.
١٤٩	حولَ العالمِ في خطٍ متدرجٍ ، مخطوطٌ.	٢٣٨	كرَّةٌ أخرى إلى أفريقيا الخضراءِ بعدَ ٣٠سنةٍ ، مخطوطٌ.
١٥٠	خلالَ أوكرانيا بحثًا عن المسلمين ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣١هـ.	٢٣٩	كرواتيا وسلوفينيا ، مخطوطٌ.
١٥١	داخلَ أسوارِ الصينِ ، جزءانِ ، مطابعُ الفرزدقِ ، الرياضُ ، ١٤١٣هـ.	٢٤٠	كُنَّا في كانو وجئنا من أبوجا : جولةٌ في أنحاءِ نيجيريا ، مخطوطٌ.
١٥٢	ذكرياتٌ من الاتحادِ السوفيتيِّ : زياراتٌ للمسلمين في بلادِ الروسِ والباشقردِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.	٢٤١	كنتُ في ألبانيا : رحلةٌ وحديثٌ عن الإسلامِ بعدَ سقوطِ الشيوعيةِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ.
١٥٣	ذكرياتٌ من خلفِ الستارِ العقيديِّ : رحلةٌ في شرقِ أوربا وأحاديثٌ في أحوالِ المسلمينَ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٢هـ.	٢٤٢	كنتُ في ألمانيا ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ.
١٥٤	ذكرياتٌ من يوغسلافيا : رحلةٌ ودراساتٌ في شؤونِ المسلمينَ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ.	٢٤٣	كنتُ في بلغاريا ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ .
١٥٥	ذكرياتي في أفريقيةَ ، محاضرةٌ مطبوعةٌ ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤١٤هـ.	٢٤٤	مآزِقُ في الرحلاتِ ، مخطوطٌ.

١٥٦	راجستانُ بلادُ الملوكِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٧هـ.	٢٤٥	مدغشقرُ بلادُ المسلمينَ الضائعينَ ، النادي الأدبيُّ ، الرياضُ ، ١٤٠١هـ.
١٥٧	الرِّحْلاتُ الاستراليةُ : شمالُ أستراليا ، رحلةٌ وحديثٌ في أحوالِ المسلمين ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.	٢٤٦	المستفادُ من السفرِ إلى تشادَ ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.
١٥٨	رِحْلاتٌ في أمريكا الجنوبيةِ : غيانا وسورينامَ ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤١٩هـ.	٢٤٧	المسلمون في لاوسَ وكمبوديا : رحلةٌ ومشاهداتٌ ميدانيةٌ ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤١٦هـ.
١٥٩	رِحْلاتٌ في أمريكا الوسطى : مشاهداتٌ في المكسيكِ وكولومبيا وبنما وكوستريكا ، المطابعُ الأهليةُ للأوفستِ ، الرياضُ ، ١٤٠٥هـ.	٢٤٨	مشاهداتٌ في بلادِ العنصريينَ : رحلةٌ إلى جنوبِ أفريقيةَ وحديثٌ في شؤونِ المسلمينَ ، نادي القصيمِ الأدبيُّ ، بريدةُ ، ١٤٠٦هـ.
١٦٠	رِحْلاتٌ في بلادِ الملايو ، مخطوطٌ.	٢٤٩	مشاهداتٌ في تايلندَ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.
١٦٤	رِحْلاتٌ في البيتِ : داخلَ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، مخطوطٌ.	٢٥٠	مع العملِ الإسلاميِّ في القارةِ الأستراليةِ : جولةٌ وحديثٌ في شؤونِ الإسلامِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.
١٦١	رِحْلاتٌ في جمهورياتِ الموزِ : بيليز والسلفادور وحديثٌ عن المسلمين ، مطابعُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٢هـ.	٢٥١	مع المسلمينَ البولنديينَ : رحلةٌ وحديثٌ عن الإسلامِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٣هـ.
١٦٢	رِحْلاتٌ ونظراتٌ حولَ المسلمين في العالمِ ، دارُ الطرفين للنشرِ و التوزيعِ ، الطائفُ ، ١٤٢٨هـ.	٢٥٢	مقالٌ عن بلادِ البنغالِ ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ.
١٦٣	رحلةٌ إلى جزرِ المالديفِ : إحدى عجائبِ الدنيا ، دارُ العلومِ ، الرياضُ ، ١٤٠١هـ .	٢٥٣	مقالٌ في زيارةِ منطقةِ الأورالِ (رحلاتٌ وسطَ روسيا) ، دارُ الطرفينِ ، الطائفُ ، ١٤٣٠هـ.
١٦٤	رحلةٌ إلى سيلانَ وأحاديثُ في أحوالِ المسلمينَ ، الجمعيةُ العربيةُ السعوديةُ للثقافةِ والفنونِ ، الرياضُ ، ١٤٠٣هـ.	٢٥٤	من أنقولا إلى الرأسِ الأخضرِ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ.
١٦٥	رحلةٌ إلى المدينةِ المنورةِ قبلَ ستينَ سنةٍ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣١هـ.	٢٥٥	من بلادِ القرتشايِ إلى بلادِ القرداي (من سلسلةِ الرِّحْلاتِ القوقازيَّةِ) ، مطابعُ التقنيةِ للأوفستِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١٦٦	رحلةٌ أخرى إلى الحبشةِ بعدَ ٤٠عامًا ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٣١هـ.	٢٥٦	من بيهارَ إلى ماليبارَ ، مخطوطٌ.
١٦٧	رحلةُ الأندلسِ ، النادي الأدبيُّ في المدينةِ المنورةِ ، المدينةُ المنورةُ ، ١٤٣٥هـ.	٢٥٧	من روسيا البيضاءِ إلى روسيا الحمراءِ (من سلسلةِ الرِّحْلاتِ في القارةِ الأوروبيةِ) ، مطابعُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.
١٦٨	رحلةُ الجنوبِ ، مخطوطٌ.	٢٥٨	من غينيا الاستوائيةِ إلى ساو تومِيَ : رحلاتٌ في القارةِ الأفريقيةِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.
١٦٩	الرحلةُ الروسيةُ : مشاهداتٌ في جمهوريةِ روسيا الاتحاديةِ وأحاديثُ في شؤونِ المسلمينَ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ.	٢٥٩	من غينيا بيساوَ إلى غينيا كوناكري : رحلةٌ وحديثٌ في أمورِ المسلمين ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤١٥هـ.

١٧٠	رحلةُ المسافاتِ الطويلةِ في البرازيلِ وأستراليا ، مجلدان ، مخطوطٌ.	٢٦٠	من كوبنهاجنَ إلى كييفَ مرورًا بباريسَ ، مخطوطٌ.
١٧١	رحلةٌ من بريدةَ إلى الظهرانِ قبلَ ستينَ سنةً ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٣٢هـ.	٢٦١	مواطنُ إسلاميةٌ ضائعةٌ (رحلاتُ الشمالِ) ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١٧٢	رحلةُ هونغ كونغَ وماكو ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٣هـ.	٢٦٢	نظراتٌ في شمالِ الهندِ ، مجلدانِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٤هـ.
١٧٣	زيارةٌ خاطفةٌ لمدنٍ أوربيةٍ مختلفةٍ ، مخطوطٌ.	٢٦٣	نظرةٌ إلى الفلبينِ بينَ زيارتينِ رسميّةٍ وخاصةٍ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١٧٤	زيارةٌ رسميةٌ لتايوانَ ، دارُ خضرٍ للطباعةِ والنشرِ ، بيروتُ ، ١٤١٨هـ.	٢٦٤	نظرةٌ إلى الوجهِ الآخرِ من الأرضِ أو (رحلةٌ إلى أبعدِ مكانٍ) : جولاتٌ في أقصى جزرِ المحيطِ الهادئِ الجنوبيِّ ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.
١٧٥	زيارةٌ لإيطاليا وحديثٌ في شؤونِ المسلمينَ ، مخطوطٌ.	٢٦٥	نظرةٌ جديدةٌ للجانبِ الأبعدِ من أمريكا الجنوبيةِ ، مخطوطٌ.
١٧٦	زيارةٌ لسلطنةِ بروناي الإسلاميةِ ، مطابعُ الرياضِ الأهليَّةُ للأوفستِ ، الرياضُ ، ١٤٠٥هـ.	٢٦٦	نظرةٌ في شرقِ أوربا وحالةُ المسلمين بعدَ الشيوعيةِ ، محمدُ العبوديُّ ، بيروتُ ، ١٤١٤هـ.
١٧٧	سطورٌ من المنظورِ والمأثورِ عن بلادِ التكرورِ : رحلةٌ في مالي وحديثٌ عن حاضرِها الجديدِ ، مطابعُ النرجسِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.	٢٦٧	نظرةٌ في العلاقاتِ العربيةِ مع أهالي جنوبِ الصحراءِ ، محمدُ العبوديُّ ، الرياضُ ، ١٤١٨هـ.
١٧٨	السفرُ والأوبةُ من كوبا ، مخطوطٌ.	٢٦٨	نظرةٌ في وسطِ إفريقيةَ ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١١هـ.
١٧٩	سياحةٌ في كشميرَ وحديثٌ عن ماضي المسلمينَ وحاضرِهم ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٢هـ.	٢٦٩	هندوراسُ ونيكاراجوا وكوستريكا (من سلسلةِ الرِّحْلاتِ في جمهورياتِ الموزِ) ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤١٩هـ.
١٨٠	شرقُ أستراليا (الرحلاتُ الأستراليةُ) ، مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ.	٢٧٠	وراءَ المشرقين : رحلةٌ حولَ العالمِ وحديثٌ في أحوالِ المسلمينَ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٣هـ.
١٨١	شرقُ سيبيريا ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ.	٢٧١	وسطُ البرازيلِ ، مخطوطٌ.
١٨٢	الشرقُ الشماليُّ من البرازيلِ ، رحلةٌ في ولاياتِ برنابوكوَ وريوقراندي دي نوتيَ وباريبا (من سلسلةِ الرحلاتِ البرازيليةِ) ، مطبعَةُ العلا ، الرياضُ ، ١٤٢٥هـ.	٢٧٢	يومياتُ آسيا الوسطى ، مطابعُ الفرزدقِ التجاريةُ ، الرياضُ ، ١٤١٤هـ.
١٨٣	شمالُ البرازيلِ : رحلاتٌ وحديثٌ عن المسلمين ، مخطوطٌ.		

كتب الدعوة

٢٧٣	أثرُ الأقلياتِ المسلمةِ في الدعوةِ الإسلاميةِ ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤٢٣هـ.	٢٨٦	العالمُ الإسلاميُّ والرابطةُ ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤١٤هـ.
٢٧٤	الأقلياتُ المسلمةُ : الواقعُ والمأمولُ ، دارُ الطرفين ، الطائفُ ، ١٤٢٩هـ.	٢٨٧	العلاقاتُ بين المملكةِ العربيةِ السعوديةِ وتركيا ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.
٢٧٥	باقةٌ من رياضِ الصالحينَ ، مخطوطٌ.	٢٨٨	القضاءُ في المملكةِ العربيةِ السعوديةِ بين الماضي والحاضرِ ،

			مطبعةُ النرجسِ ، الرياضُ.
٢٧٦	التقريبُ بين المذاهبِ الإسلاميةِ ، مخطوطٌ.	٢٨٩	مساعداتُ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ للمسلمين وبخاصَّةٍ الأقلياتُ الـمُسلِمَةِ (بمناسبةِ مرورِ مئةِ عامٍ على تأسيسِ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ) ، لجنةُ الاحتفالِ بمرورِ مئة عامٍ على التأسيسِ ، مطابعُ الناشرِ العربيِّ ، الرياضُ ، ١٤١٩هـ.
٢٧٧	جهودُ خادمِ الحرمين الشريفين الملكِ فهدٍ (رحمَهُ اللهُ) في خدمةِ الإسلامِ والمسلمين ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ ، ١٤٢٩هـ.	٢٩٠	مؤتمراتٌ إسلاميةٌ حضرتُها في آسيا ، ثلاثةُ أجزاءٍ ، مخطوطٌ.
٢٧٨	الحوارُ في الإسلامِ ، دارُ الطرفينِ ، الطائفُ ، ١٤٢٩هـ.	٢٩١	مؤتمراتٌ إسلاميةٌ حضرتُها في أفريقيا ، جزءانِ ، مخطوطٌ.
٢٧٩	الدعاةُ إلى الله : شرفُ مُهِمَّتِهِم وطُرُقُ دعمِهِم ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤٢٠هـ.	٢٩٢	مؤتمراتٌ إسلاميةٌ حضرتُها في الأمريكيتين ، مجلدانِ ، مخطوطٌ.
٢٨٠	الدعوةُ الإسلاميةُ وإعدادُ الدُّعاةِ ، مطابعُ الجاسرِ ، الرياضُ ، ١٤٢١هـ.	٢٩٣	مؤتمراتٌ إسلاميةٌ حضرتُها في أوربا ، مخطوطٌ.
٢٨١	دَوْرُ الأقلياتِ المسلمةِ في الدعوةِ إلى الله ، دارُ الطرفين ، الطائفُ ، ١٤٢٩هـ.	٢٩٤	المملكةُ العربيةُ السعوديةُ بين الماضي والحاضرِ ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤١٩هـ.
٢٨٢	رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ : إحدى القنواتِ السعوديةِ لـمُساعدَةِ المسلمين ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤٢٠هـ.	٢٩٥	نظرةٌ إلى العلاقاتِ العربيةِ مع أهالي جنوبِ الصحراءِ ، مطابعُ التقنيةِ ، الرياضُ ، ١٤١٨هـ.
٢٨٣	الرِّحْلاتُ العالـميَّةُ وآثارُها في الدعوةِ إلى الله ، تحتَ الطبعِ.	٢٩٦	نفحاتٌ من السكينةِ القرآنيةِ ، وزارةُ المعارفِ ، دارُ العلومِ ، الرياضُ ، ١٤٠٣هـ.
٢٨٤	العالمُ الإسلاميُّ : واقعٌ وتوقعاتٌ ، المجلةُ العربيةُ ، الرياضُ ، ١٤٢٠هـ.	٢٩٧	واجبُ المسلمِ في بلادِ الأقلياتِ ، رابطةُ العالمِ الإسلاميِّ ، مكةُ المكرمةُ ، ١٤٢٠هـ.
٢٨٥	العالمُ الإسلاميُّ : الواقعُ والمعاناةُ ، دارُ الطرفينِ ، الطائفُ ، ١٤٢٩هـ.	٢٩٨	وراءَ العملِ الإسلاميِّ في الولاياتِ الـمُتَّحِدَةِ الأمريكيةِ ، مجلدانِ ، مخطوطٌ.
	كتب مختلفة		
٢٩٩	أسئلةٌ وأجوبةٌ ، ثلاثةُ مجلداتٍ ، مخطوطٌ.	٣٠٦	حديثُ كتبٍ حديثةٍ ، مخطوطٌ.
٣٠٠	الإسفارُ عن الأسفارِ لعلماءَ أخيارٍ من علماءِ المسلمينَ ، مخطوطٌ.	٣٠٧	حديثُ المؤتمراتِ الخارجيةِ ، مجلدان ، مخطوطٌ.
٣٠١	أفكارٌ لحلِّ أزمةِ الزحامِ في المسجدِ الحرامِ والمشاعرِ المقدسةِ ، تحتَ الطبعِ.	٣٠٨	الرحالةُ العظيمُ ابنُ بطوطةَ : شواهدُ حيةٌ على صدقهِ ، دارُ الثلوثيةِ ، الرياضُ ، ١٤٣٤هـ.
٣٠٢	أهميةُ الوثائقِ المحليةِ في تاريخِ الأفرادِ والأسرِ ، مطابعُ النرجسِ ، الرياضُ.	٣٠٩	كلماتٌ في المؤتمراتِ ، مجلدانِ ، مخطوطٌ.
٣٠٤	تعريفٌ بتأليفٍ ، مخطوطٌ.	٣١٠	وجهةُ نظرٍ ، مكتبةُ الرشدِ ، الرياضُ ، ١٤٢٨هـ.
٣٠٥	تقاريظُ الكتبِ ، مخطوطٌ.		

ثانيًا : الرِّحلةُ :

حدودُ اللغَةِ والتاريخِ :

الرِّحْلَةُ : الانتقالُ مِن مكانٍ إلى آخرَ. وحولَ هذا المعنى دارتْ أكثرُ معاجمِ اللغةِ ؛ فعندَ الجوهريِّ :

«رَحَلَ فلانٌ وارْتَحَلَ وتَرَحَّلَ بمعنًى ، والاسمُ : الرَّحيلُ. واسْتَرْحَلَهُ ، أيْ : سألَهُ أنْ يَرْحَلَ لَهُ ... الرُّحْلَةُ بالضَّمِّ : الوجهُ الذي تُريدُهُ. يقالُ : أنتُمْ رُحْلتي ؛ أي : الذينَ أَرْتَحِلُ إليهم. والرِّحْلَةُ بالكسرِ : الارْتِحالُ ، يقالُ : دَنَتْ رِحْلَتُنا. وناقةٌ رَحِيْلَةٌ ، أي : شديدةٌ قويةٌ على السَّيرِ ، وكذلكَ جملٌ رَحِيْلٌ»[(١)].

وعندَ ابنِ فارسٍ : «رَحَلَ : الرَّاءُ والحاءُ واللامُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مُضيٍّ في سفرٍ. يُقالُ : رَحَلَ يرْحَلُ رِحْلَةً. والرِّحلةُ : الارتحالُ. ورَحَّلَهُ إذا أَظْعَنَهُ من مكانِهِ»[(٢)].

وبهذا المعنى جاءَ القرآنُ الكريمُ في ذكرِهِ لرِحلتَي قريشٍ المعهودتينِ : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[(٣)].

أمَّا بدايةُ الارتحالِ وتاريخُ الرحلاتِ ؛ فمنذُ أنْ وضعَ آدمُ عليهِ السلامُ قدمَهُ على ظهرِ هذهِ البسيطةِ والإنسانُ يسعى لاكتشافِ كلِّ ما يحيطُ بهِ ، ولم يكن ليتوقَّفَ عندَ هذا الحدِّ ؛ بل إنَّ نفسَهُ أخذتْ تتوقُ إلى اكتشافِ محيطِهِ الأبعدِ ؛ فأخذَ يُنجزُ رِحْلاتٍ استكشافيَّةً

---

(١) الصحاح : (رحل).

(٢) مقاييس اللغة : (رحل).

(٣) قريش : ١-٢.

يستجلي بها غوامضَ الكونِ مِن حولِهِ ، ولمْ يزلْ على تلكَ الحالِ إلى يومنا هذا ، بلْ إنَّ شَغفَهُ المعرفيَّ وحبَّهُ للاستطلاعِ جعلاهُ يوسِّعُ مدى رِحْلاتِهِ ؛ ممتطيًا خيالَهُ للوصولِ إلى عوالمَ أعيتْهُ الحيلةُ في الوصولِ إليها ؛ مِن قبيلِ ما نجدُهُ مبثوثًا في الأساطيرِ الأولى ، أوْ ما حفظَتْهُ لنا أخبارُ الحروبِ والفتوحِ القديمةِ ، أو ما كتبَهُ ثُلَّةٌ مِنَ النابهينَ مِن رحلاتٍ أنتَجها الخيالُ. ومعَ التطورِ التقنيِّ والمواصلاتيِّ الحديثِ استطاعَ الإنسانُ أنْ يحقِّقَ شيئًا مِن أمانيهِ وذلكَ بعبورِهِ أجوازَ الفضاءِ ، وتعرُّفِهِ على كواكبَ أخرى غيرِ الأرضِ المعهودةِ منذُ القِدمِ. ولا تزالُ الرحلةُ ديدنَ الإنسانِ أيًّا كانَ جنسُهُ وعصرُهُ ، بلْ إنَّ حياةَ الإنسانِ بالجُملةِ ليستْ سوى رحلةٍ مستمرَّةٍ إلى العالمِ الأخرويِّ(١).

إذنْ فالرِّحلةُ قديمةٌ قِدَمَ الإنسانِ نفسِهِ ؛ فقدْ حُفِظَتْ لنا رِحْلاتٌ عتيقةٌ سجَّلها الرحَّالةُ المصريونَ القدماءُ. وللفينيقيينَ أيضًا رِحْلاتٌ بحريَّةٌ كُبرى ، وقدْ تَبِعَهُم الإغريقُ فاهتمُّوا بوصفِ ما مرُّوا بهِ من الممالكِ والبلدانِ ، وقدَّمُوا معارفَ جغرافيةً قيِّمةً ؛ فهُم أوَّلُ مَنْ قالَ بكرويَّةِ الأرضِ ، وأسْبقُ مَن قالَ بأنَّ خلفَ البحارِ والمحيطاتِ أراضٍ مأهولةً(٢). كما كانَ للرومانِ اهتمامٌ كبيرٌ بجانبِ الرِّحلةِ ، ويمكنُ القولُ : إنَّ مؤرِّخي الرومانِ استطاعوا جمعَ كلِّ ما عُرِفَ عن الأرضِ في زمانِهم(٣).

وللعربِ ولعٌ فِطْرِيٌّ بالتَّنقُّلِ ؛ فكانُوا يرتَحلونَ بحثًا عن الماءِ والكلأِ ، أو الصيدِ ، أو التجارةِ ؛ إذْ أنَّ لهم نشاطًا تجاريًّا يسَّرَ لهُم سُبلَ الاحتكاكِ بالأُممِ والتَّعَرُّفِ على مَن

---

(١) ينظر : أدب الرحلة عند العرب ، حسني محمود حسين ٥ ، والرحلات ٧ ، وأدب الرحلة في التراث العربي ٦٨.

(٢) ينظر : الرحلات ٧.

(٣) نفسه.

بجوارِهم من الشعوبِ ، وقدْ حَفِظتْ لنا بعضُ القصائدِ وبعضُ كتبِ اللُغَةِ أطرافًا مِن تلكَ الرِّحْلاتِ ، ولمْ يُغفل القرآنُ الكريمُ تلكَ التَنَقُّلاتِ التجاريةَ العربيَّةَ ؛ ففي سورةِ قريشٍ ما يدلُّ على تجذُّرِ الرحلةِ وأهميتِها لدى العربِ ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ* إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1].

وكانَ السبئيونَ أقدمَ العربِ رحلةً ؛ إذْ كانَت لهم رِحْلاتٌ ناجحةٌ في البحرِ الجنوبيِّ[2].

ولـمَّا كانتْ الفتوحاتُ الإسلاميةُ ، وما تبِعَها مِن نشاطٍ سياسيٍّ كبيرٍ ، أخذَ العربُ يتوسعونَ في الرِّحلةِ ويستكثِرُونَ مِنها. وعندما سيطرَ العربُ على كثيرٍ مِن البلادِ الأعجميَّةِ عَمِلُوا على ترجمةِ أُمَّهاتِ الكُتُبِ المشهورةِ آنذاكَ ، فتعرَّفوا بذلكَ على الكثيرِ مِن الرِّحْلاتِ البرِّيَّةِ والبحريةِ الأجْنَبيَّةِ ، وصارَ العربيُّ يحذو حذوَ غيرِهِ متنقلًا هُنا وهناكَ ، برًّا وبحرًا ، مُتَخَطِّيًا حدودَ وَطَنِهِ ؛ للحجِّ أو لطلبِ العلمِ أو للتجارةِ أو لمهمَّاتٍ رسميَّةٍ خارجيَّةٍ أو داخليَّةٍ أو لمهماتٍ استكشافيَّةٍ بحتَةٍ. ولقدْ حرصَ بعضُهم على توثيقِ تلكَ الرِّحلاتِ فحُفظتْ لنا بذلكَ بعضُ الرِّحْلاتِ المهمَّةِ ، بما حوتْهُ مِن معلوماتٍ تاريخيَّةٍ وجغرافيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وثقافيَّةٍ قيِّمةٍ شاهدةٍ على عصرِها ، وأصبحَ للرحلةِ العربيةِ مكانَتُها الحضاريَّةُ وقيمَتُها العلميةُ ؛ مِن حيثُ إثارةُ روحِ المنافسَةِ والحثُّ على الطموحِ والسيادةِ[3].

---

(١) قريش : ١-٤.

(٢) ينظر : أدب الرحلة في التراث العربي ٢٥.

(٣) السابق ٦٧.

ويرجعُ عصرُ تدوينِ الرحلةِ العربيَّةِ إلى منتصفِ القرنِ الثاني الهجريِّ ؛ إذْ دوُّنتْ بعضُ الرِّحلاتِ ، وكانَ مدوِّنُوها مِن أهلِ اللُّغةِ ، يتقدَّمُهم اللغويُّ المؤرِّخُ : هشامٌ الكلبيُّ (-نحو٢٠٦هـ) ؛ فقدْ صنَّف مجموعةً مِنَ التصانيفِ ، أهمُّها : كتابُ (الأقاليمِ) و (البلدانِ الكبيرِ) و (البلدانِ الصَّغيرِ) و (أنسابِ البلدانِ) ، ثمَّ تَبِعَهُ الأصمعيُّ (١٢٢-٢١٦هـ) ، فألَّفَ كتابًا عنِ (الأنواءِ) ورسالةً في (صفةِ الأرضِ والسماءِ والنباتاتِ) ، وخلَفَهُ تلميذُهُ : أبو عثمانَ الضريرُ[1] فصنَّفَ كتابَ (الأرضينِ والمياهِ والجبالِ والبحارِ).

ومِمَّنْ سارَ على نهجِهم : عَرَّامُ بنُ الأصْبَغِ[2]؛ حيثُ أمْلى في شيخوختِهِ كتابَ (أسماءِ جبالِ تهامةَ ومكانِها) ، وكانَ الكتابُ كلُّهُ نتاجَ خبرتِهِ ورحلاتِهِ ؛ فلمْ يرجعْ فيهِ لأحدٍ. ولم تخلُ كتبُ الجاحظِ (١٦٣- ٢٥٥هـ) من مصنفاتٍ بلدانيةٍ ؛ فلهُ في هذا الجانبِ كتابٌ أسماهُ : (الأمصارُ وعجائبُ البلدانِ) ورسالةٌ عنوانُها : (التبصرةُ بالتِّجارةِ). وللسَّرَخْسِيِّ[3] رسالةٌ

---

(١) سعدان بن المبارك البغدادي(- منتصف القرن الثالث الهجري) العالم ، النحوي ، الكوفي ، الراوية ، الأديب ، أخذ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأخذ عنه الأحول ، له : (خلق الإنسان) و (كتاب الوحوش) و (الأرضين والمياه والبحار والجبال) و (النقائض). ينظر : الفهرست ١٠٥ ، وتاريخ بغداد ٩/ ٢٠١ ، ونزهة الألباء ١/ ١١٩.

(٢) عرَّامُ بن الأصبغ السلمي (القرن الثالث الهجري) ، الأعرابي ، الجغرافي ، نزل الحاضرة بعد البادية ، نقل عنه صاحب تهذيب اللغة ، سمع منه أبو الأشعث الكندي ، له : (أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى والمياه وما تنبت من الأشجار) . ينظر : تهذيب اللغة ٦/ ٣٧٧ ، ومعجم ما استعجم ٢/ ٦٥٥ ، وأنباه الرواة ٤/ ١٢٢ ، وانظر : نوادر المخطوطات ٢/ ٣٩٥ ، والأعراب الرواة ٢٠٧.

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب (- ٢٨٦هـ) ، العالم ، المتفنن ، الفيلسوف ، الحكيم ، الأديب ، المصنف ، أخذ عن الكندي ، أدَّب المعتضد ونادمه واختص به ، ولي حسبة بغداد والمواريث وسوق الرقيق ، له : (المسالك والممالك) ، (مَنْفَعَة الجِبَال) ، (المدخل

في (البحارِ والمياهِ والجبالِ) وكتابٌ أسماهُ : (المسالكُ والممالكُ) وقدْ يكونُ بذلكَ أوَّلَ المستخدمينَ لهذا المصطلحِ الذي شاعَ بعدَهُ وصارَ عَلَمًا على عِلمِ البلدانِ ، ثمَّ جاءَ بعدهُم مجموعةٌ مِن الرحَّالَةِ والجغرافيينَ ، على رأسِهم : الـمُنجِّمُ[1] والسيرافيُّ[2].

ولم يظهرِ الحرصُ على تدوينِ الرِّحْلاتِ إلا معَ مجموعةٍ مِن رحَّالةِ نهايةِ القرنِ الثالثِ الهجريِّ ، فقدْ حفظَ لنا تاريخُ أدبِ الرِّحلة بعضَ أسماءِ هؤلاءِ المدونين ، مثلَ : ابنِ خُرْدَاذْبَه (نحو ٢٠٥ - نحو ٢٨٠هـ) والبَلاذُرِيِّ (- ٢٧٩هـ) وابنِ رُسْتَه (- نحو ٣٠٠هـ) وابنِ الفقيهِ (- نحو ٣٤٠هـ) واليعقوبيِّ (- بعد ٢٩٢هـ) والجَيْهَانيِّ (- ٣٣٠هـ) وابنِ الحائكِ (٢٨٠ - ٣٣٤ هـ) وأبي الوليدِ الأزرقيِّ (- نحو ٢٥٠هـ) والفاكِهِيِّ (- بعد ٢٧٢هـ) وغيرِهم[3].

إلى صناعة النجوم) ، (فضائل بغداد وأخبارها). ينظر : معجم الأدباء ١/ ٢٨٧ ، وعيون الأنباء ٢٩٣ ، والوافي بالوفيات ٧/ ٥ ، وانظر : تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ١٣١.

(١) أبو عبد الله محمد بن موسى بن شاكر (- ٢٥٩ هـ) ، أحد ثلاثة إخوة اشتهروا بالعلم ، والحكمة ، والهندسة ، والفلك ، أخذ عن حنين بن إسحاق ، وجهه الواثق إلى بلاد الروم للنظر إلى مكانِ أصحاب الكهف والرقيم ، له : (حركات الفلك) و (الشكل الهندسي) و (كتاب الجزء). ينظر : تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٦/ ٨٢ ، ومعجم البلدان ٣/ ٦١ ، وعيون الأنباء ٢٨٣ ، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٣٨.

(٢) أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافي (- بعد ٣٠٣هـ) ، العالم ، المحصل ، الجغرافي ، نزل البصرة بعد سيراف ، له كتاب في (أخبار الصين والهند) نقل فيه : رحلة التاجر سليمان ، ينظر : أخبار الصين والهند ٦٣ ، ومروج الذهب ١/ ١١٣.

(٣) ينظر : أدب الرحلة في التراث العربي ٧٠.

ويُعَدُّ القرنُ الرابعُ الهجريُّ قرنَ الحضارةِ العربيةِ ، أو النهضةِ الإسلاميَّةِ ، وفي هذا القرنِ بلغَ الأدبُ الجغرافيُّ أوْجَهُ ، وتشكَّلَ في هذا العصرِ ما سُمِّيَ بـ(المدرسةِ الكلاسيكيَّةِ الجغرافيَّةِ) ، كما شَهِدَ هذا العصرُ ظهورَ الخرائطِ التي تُحَدِّدُ البلادَ الإسلاميَّةَ ، والمسَمَّاةِ بـ(أطلسِ الإسلامِ) ، وظهرتْ بعضُ معاجمِ أسماءِ الأقطارِ والأماكنِ ، ووصلَ الرحَّالةُ المسلمونَ إلى أقطارٍ بعيدةٍ ، خصوصًا الأقطارَ الشَّماليَّةَ مِن العالمِ .

ومِن أهمِّ رحَّالةِ هذا القرنِ : الـمَسْعُوديُّ صاحبُ (مروجِ الذهبِ ومعادنِ الجوهرِ) ، وابنُ فَضْلانَ[1] صاحبُ الرحلةِ المشهورةِ بـ(رسالةِ ابنِ فضلانَ) ، ومِسْعَرُ بنُ مُهَلْهِلٍ[2] ، والأسوانيُّ[3] صاحبُ أوَّلِ رحلةٍ مُسجَّلةٍ إلى بلادِ النُّوبَةِ ، والبَلْخِيُّ[4] ، والإصْطَخْرِيُّ[1] ،

(١) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (– بعد ٣١٠هـ) ، السفير ، الرحالة ، أوفده المقتدر إلى ملك الصقالبة. أخذ عنه ياقوت والقزويني في أكثر من موضع. ينظر : معجم البلدان ١/ ٨٧ ، وآثار البلاد وأخبار العباد ١/ ٥٨٦ ، وانظر : رسالة ابن فضلان ، تحقيق : سامي الدهان ٣٧.

(٢) أبو دُلَف مِسْعَر بن مهلهل الخزرجي اليَنْبُوْعِي(– نحو ٣٩٠ هـ) العالم ، الأديب ، الشاعر ، الجوالة ، الظريف ، عمر طويلا ، نادم عضد الدولة ، جالس الصاحب بن عباد ، له رسالة وصف فيها ما عاينه في أسفاره. ينظر : يتيمة الدهر ٣/ ٤١٣ ، والفهرست ٤٨٦ ، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٣٦ ، ومعجم البلدان ٢/ ٤٧٦ ، ٤/ ٣٨٩.

(٣) عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانيّ (القرن الرابع الهجري) ، الرحالة ، الجغرافي ، له : (أخبار بلاد النوبة). ينظر : المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥٢.

(٤) أبو زيد أحمد بن سهل (– ٣٢٢ هـ) ، العالم ، الأديب ، البليغ ، الفيلسوف ، الفلكي ، الرحالة ، المؤلف ، أخذ عن الكندي ، نزل العراق لطلب العلم ، له كتابٌ في الأقاليم نقل عنه المقدسي ، وله : (النوادر) و (النحو والتصريف) و (نظم القرآن) و (فضائل مكة على سائر

وقدامةُ بنُ جعفرٍ[٢] ، وابنُ حوقلٍ[٣] ، والمقدسيُّ[٤] ، وغيرُهم مِن رحالةِ وجغرافيي هذا القرنِ[٥].

ولمْ يخلُ القرنُ الخامسُ الهجريُّ مِن رِحْلاتٍ مُهِمَّةٍ مِن قبيلِ رحلاتِ ابنِ بَطلانَ[١] إلى الشامِ ومصرَ والقسطنطينيةِ وأنطاكيةَ ، ولكنَّ كتابَ البَيْرُونيِّ[٢] (تحقيقُ ما للهندِ من مقولةٍ) هوَ الذي دفعَ عجلةَ الأدبِ الجغرافيِّ في هذا القرنِ.

البقاع). ينظر : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١/ ٢٦٩ ، والفهرست ١٩٨ ، وتاريخ حكماء الإسلام ٤٢ ، ومعجم الأدباء ١/ ٢٧٤.

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد الفارسي الكرخيّ (القرن الرابع الهجري) ، الجغرافي ، الرحالة ، التقى ابن حوقل ، نقل عنه المقدسي ، زار فارس والهند وبلادًا أخرى ، له : (مسالك الممالك). ينظر : المسالك والممالك لابن حوقل ٢٣٦ ، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٤٧٥ ، ومعجم البلدان ٢/ ١٦٦.

(٢) أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة (- ٣٣٧ هـ) ، العالم ، الفيلسوف ، الفصيح ، الكاتب ، الناقد ، أسلم على يد المكتفي بالله ، تولى زمام ديوان مجلس الجماعة في دار السلام ، له : (الخراج) و (نزهة القلوب وزاد المسافر) و (نقد الشعر) و (السياسة). ينظر : الفهرست ١٨٨ ، ومعجم الأدباء ٥/ ٢٢٣٥ ، وانظر : الرحلة والرحالة المسلمون ٦٣.

(٣) أبو القاسم محمد بن حوقل النَّصِيْبِي الموصلي (القرن الرابع الهجري) ، الجغرافي ، الرحالة ، التاجر ، زار صقلية ، له : (محاسن أهل صقلية) و (المسالك والممالك). ينظر : معجم البلدان ٣/ ٤١٩ ، ٤/ ٣٢٤ ، وبغية الطلب في تاريخ حلب ١/ ١١٧ ، ووفيات الأعيان ٧/ ٧٤.

(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن البنّاء البَشَّارِي المقدسي (ـ بعد٣٧٥هـ) ، العالم ، الجغرافي ، الرحالة ، أخذ عن القاضي أبي الحسن القَزْوِيْنِي ، حج وزار العديد من البلدان ، له : (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). ينظر : أحسن التقاسيم ١ ، ٩ ، ١٢٣ ، ومعجم البلدان ٥/ ١٦٨ ، ومعجم الأدباء ١/ ٢٨٢ ، وآثار البلاد وأخبار العباد ١٦١.

(٥) ينظر : تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ١٧٧ ، وأدب الرحلة في التراث العربي ٧٢.

ثُمَّ شهدَ منتصفُ هذا القرنِ دخولَ عددٍ مِن رحَّالةِ وجغرافييِّ المغربِ الإسلاميِّ في غمارِ الأدبِ الجغرافيِّ والرحليِّ ، من بينِهم : العُذريُّ[٣] مؤلِّفُ كتابِ (نظامِ المرجانِ في المسالكِ والممالكِ) ، والبَكْرِيُّ[٤] كبيرُ رحَّالةِ الأندلسِ في هذا القرنِ ؛ فقدْ دوَّنَ كتابينِ ، هُما :

---

(١) أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون ابن بُطْلان النصراني البغدادي (- بعد ٤٥٨ هـ) ، الرحالة ، الطبيب ، الأديب ، الشاعر ، الباحث ، المؤرخ ، تتلمذ على يد أبي الفرج عبد الله بن الطيب ، أنشأ بيت الـمَرْضَى بأنطاكية ، له مقالة إلى علي بن رضوان عند وروده الفسطاط ، وله : (دعوة الاطباء) و مقَالَة فِي (شرب الدَّوَاء المسهل). ينظر : معجم البلدان ٣/ ٤٧ ، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٢٥ ، وكنوز الذهب في تاريخ حلب ١/ ٤٤٥.

(٢) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (- بعد٤٠٣هـ) العالم ، الرياضي ، الفيلسوف ، الفلكي ، الجغرافي ، المصنف ، دارت بينه وبين ابن سيناء مساءلات ، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود ، زار بلادًا عدة ، حظي باهتمام ملوك عصره ، له كتاب في اعتبار مقدار الليل والنهار ، وله : (تقاسيم الأقاليم) و (القانون المسعودي) و (مقاليد الهَيْئَة) و (تسطيح الكرة) و (الْعَمَل بالاصطرلاب). ينظر : معجم الأدباء ٥/ ٢٣٣٠ ، وعيون الأنباء ٤٥٩ ، والوافي بالوفيات ٨/ ٩١.

(٣) أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس ، الأندلسي ، الـمَرِّيّ ، الدَّلائي (٣٩٣- نحو ٤٧٨هـ) الحافظ ، العالم ، المحدث ، الثقة ، جاور بالحرم ثماني سنين ، وأخذ العلم عن أكابر علماء الحرم والقادمين إليه آنذاك ، أدركه صاحب جذوة المقتبس ونقل عنه ، وحدث عنه ابن حزم ، له : (دلائل النبوة) و (المسالك والممالك). ينظر : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ١٣٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٦٧.

(٤) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن أبي مصعب البكري الأندلسي(-٤٨٧هـ) ، الأخباري ، العلامة ، المتفنن ، الشاعر ، حدث عن أبي مروان بن حيان وأجاز له ابن عبد البر ، كان أميرًا بساحل كورة لَبْلَةَ وصَاحبُ جزيرة شَلْطِيش ، غلبه ابن عباد على سلطانه فلاذ بقرطبة وصار إلى محمد بن معن صاحب المريّة ، له : (معجم ما استعجم من البلاد والمواضع) و (أعلام

(المسالكُ والممالكُ) و (معجمُ ما استعجمَ مِن أسماءِ الأماكنِ والبقاعِ) ويعدُّ هذا الأخيرُ أوَّلَ معجمٍ جغرافيٍّ[1].

ويُضاهي القرنُ السادسُ القرنَ الرابعَ مِن حيثُ الإنجازُ الرحليُّ والجغرافيُّ ؛ فإذا كانتْ شُهرةُ القرنِ الرابعِ الهجريِّ تكمنُ في كثرةِ عددِ الرحَّالةِ فقد امتازَ القرنُ السادسُ الهجريُّ بقُدرةِ رحَّالتِهِ ، وبالأهميَّةِ القصوى لما تركوهُ من مؤلَّفاتٍ ، كما امتازَ هذا القرنُ بقيمةِ المناهجِ التي انتهجها الرحالةُ في التأليفِ ، ممَّا أحدثَ نقلةً كبرى في هذا الحقلِ.

ويتصدَّرُ هذا القرنَ : الرحَّالةُ أبو حامدٍ الأندلسيُّ[2] ، صاحبُ كتابِ (الـمُغْرِبِ عن بعضِ عجائبِ الـمَغرِبِ). ومِن رحَّالةِ هذا القرنِ : الشريفُ الإدريسيُّ[3] ، صاحبُ كتابِ (نزهةِ المشتاقِ في اختراقِ الآفاقِ) ، وقد اشتُهِرَ ببراعتِهِ في هندسةِ الخرائطِ ، ومن بينِ خرائطِهِ كرةٌ مِن الفضَّةِ تصوِّرُ كافةَ تضاريسِ العالمِ. ومِن رحالةِ القرنِ السادسِ أيضًا : ابنُ

النبوة) و (أعيان النبات والشجريات الأندلسية). ينظر : عيون الأنباء ٥٠٠ ، والوافي بالوفيات ١٧/ ١٥٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٥.

(١) ينظر : أدب الرحلة في التراث العربي ٧٤ ، وتاريخ الأدب الجغرافي ١/ ٢٤٥.

(٢) أبو حامد وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن أبي الربيع القيسي الأندلسي الغرناطي (٤٧٣-٥٦٥هـ) ، الأديب ، الجغرافي ، الرحالة ، قدم مصر والشام والعراق وسمع بها ، لقيه صاحب تاريخ دمشق ، سكن دمشق وتوفي بها ، له : (تحفة الألباب). ينظر : تاريخ دمشق ٥٤/ ١١٣ ، والوافي بالوفيات ٣/ ٢٠٢ ، و نفح الطيب ٢/ ٢٣٥.

(٣) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (-بعد ٥٤٨هـ) ، الجغرافي ، الأديب ، الشاعر ، لقيه الأديب عثمان بن عبدالرحيم بن بَشْرُوْن الصِّقِلِّي ونقل عنه في كتابه (المختار) ، اختص به ملك الفرنج صاحب صقلية ، له : (نزهة المشتاق فِي اختراق الْآفَاق) و (روض الأنس ونزهة النفس). ينظر : خريدة القصر وجريدة العصر ٢/ ٢٦٠ ، وبغية الطلب في تاريخ حلب ١/ ١٩ ، والوافي بالوفيات ١/ ١٣٨، ١٤/ ٧٢ ، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٦٩.

العربيِّ[1] ، ولهُ السبقُ في استخدامِ مصطلحِ الرِّحلةِ ؛ وذلكَ في عنوانِ مؤلَّفِهِ : (ترتيبُ الرِّحلةِ) ، كما مهَّدَ ابنُ العربيِّ لظهورِ الرحَّالةِ ابنِ جُبيرٍ (-٦١٤هـ) الذي أسهمَ في تطويرِ أدبِ الرِّحلةِ العربيِّ ؛ فقدْ دوَّنَ رحلتَهُ على هيئةِ مُذكِراتٍ يوميَّةٍ ، ولم يسلكْ سبيلَ غيرِه مِن الرحالةِ آنذاكَ فيملأ رحلتَهُ بالغرائبِ والعجائبِ الموهومةِ ، كما أنَّهُ اهتمَّ بتوثيقِ المرويَّاتِ ، وتسجيلِ خلجاتِهِ النفسيةِ. وممن ينتسبُ إلى هذا القرنِ : الرحَّالةُ الهرويُّ[2] الملقبُ بـ(السائحِ) لكثرةِ أسفارهِ ، ومنهم الأميرُ المجاهدُ أسامةُ بنُ منقذٍ[3]الذي عُمِّرَ نحوَ تسعينَ سنةٍ أمضى جُلَّها في المغامرةِ والترحالِ ؛ فقد تركَ لنا كتابَهُ : (الاعتبارَ) الذي ضمَّنَهُ بعضَ

---

(١) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي (٤٦٨-٥٤٣هـ) ، الحافظ ، العالم ، المتفنن ، الرحالة ، القاضي ، أخذ عن أبي علي الطبري ، قرأ عليه ابن بشكوال ونقل عنه ، صحب والده إلى الحج وطاف المشرق وسمع من أعلامه ، له : (نزهة الناظر) و (ترتيب الرحلة للترغيب فِي الملة) و (عارضة الأحوذي). ينظر : الصلة ٢/ ٢٢٥ ، ووفيات الأعيان ٤/ ٢٩٦ ، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٩٧.

(٢) تقي الدين ؛ أبو الحسن ؛ علي بن أبي بكر بن علي الموصلي الهروي السائح (-٦١١هـ) ، الشيخ ، الزاهد ، الخطيب ، الجوال ، السيمائي ، زار بلادًا عدة ، بنى له الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين مدرسة بظاهر حلب ، له : (الإشارات في معرفة الزيارات) و (عجائب الأَرْض ذَات الطول وَالْعرض) و (الخطب الهروية). ينظر : وفيات الأعيان ٣/ ٣٤٦ ، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٥٦ ، والوافي بالوفيات ٢٠/ ١٦٣.

(٣) مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني (٤٨٨ – ٥٨٤هـ) ، العالم ، الأديب ، الشاعر ، الكاتب ، الرحالة ، الشجاع ، أحد بني منقذ أصحاب قلعة شيزر ، صحب صلاح الدين الأيوبي ، أمضى جل عمره في التنقل والترحال ، روى عنه ابن عساكر والسمعاني ، له : ديوان شعر في جزأين و (القَضَاء) و (الشيب والشباب) و (ذيل اليَتِيمَة للثعالبي). ينظر : الاعتبار ٢ ، وتاريخ دمشق ٨/ ٩٠ ، ومعجم الأدباء ٢/ ٥٧١ ، ووفيات الأعيان ١/ ١٩٥ ، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ١٦٥. وانظر : مقدمة كتاب الاعتبار.

التفاصيلِ حولَ شخصيَّتِهِ ، وشيئًا مما بقي في ذاكرتِهِ عن البلدانِ التي زارَها أو شاركَ فيها ، ومعَ أنَّ هذا الكتابَ لمْ يكُنْ كتابَ رحلةٍ في الأصلِ إلَّا أنَّهُ داخلٌ في عِدادِ الكُتبِ المهمَّةِ في تاريخِ أدبِ الرِّحلةِ ؛ لما ضمَّنَهُ مؤلفُهُ من أحوالِ البلادِ[1].

ويضمُّ القرنُ السابعُ الهجريُّ مجموعةً مُهِمَّةً مِن كُتُبِ الرِّحْلاتِ ، على رأسِها كتابُ (معجمُ البلدانِ) لياقوتَ الحمويِّ (-٦٢٦هـ) ، وعلى الرُّغمِ مِن ضخامةِ هذا الكتابِ وثرائهِ العلميِّ إلا أنَّ أهميَّتَهُ تكمنُ في نشرِهِ لأجزاءٍ مِن مُصنَّفاتٍ لا تزالُ مفقودةً ؛ فلهُ الفضلُ في الاحتفاظِ بأسماءِ بعضِ الرحلاتِ ومؤلفيها.

ومن مصنفي الرحلةِ والأدبِ الجغرافيِّ في هذا القرنِ : عبدُ اللطيفِ البغداديُّ[2] ، وقدْ اشتُهِرَ بكتابِهِ الصغيرِ عَن رحلتِهِ إلى مصرَ : (الإفادةِ والاعتبارِ في الأمورِ الـمُشاهدَةِ والحوادثِ الـمُعاينَةِ بأرضِ مصرَ) ومَيزَةُ هذا الكتابِ تكمنُ في رصدِهِ الدقيقِ لحوادثِ مصرَ في ذلك العصرِ. ومِنهم أيضًا : ابنُ المجاورِ[3] صاحبُ (تاريخِ المستبصرِ).

---

(١) ينظر : أدب الرحلة في التراث العربي ٧٥.

(٢) موفق الدّين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي (٥٥٧-٦٢٩هـ) ، الطبيب ، العالم ، المتفنن ، المصنف ، أخذ عن أبي زرعة المقدسي ، اجتمع بصلاح الدين الأيوبي ، له : (غريب الحديث الكبير) و (الواضحة في إعراب الفاتحة) و (أخبار مصر الكبير) و (الإفادة في أخبار مصر). ينظر : عيون الأنباء ٦٨٣ ، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٢٠.

(٣) نجم الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقي الشيبانيّ (٦٠١-٦٩٠هـ) ، الشيخ ، العالم ، الكاتب ، العابد ، الزاهد ، سمع من التاج الكندي والشيخ الموفق. ينظر : تاريخ الإسلام ٥١/ ٤٤٠ ، والعبر في خبر من غبر ٣/ ٣٧٥ ، والوافي بالوفيات ٢٩/ ١٦٧.

وإذا ما تركنا المشرقَ إلى المغربِ فسنجدُ الرحَّالةَ الأندلسيَّ (ابنَ سعيدٍ)[1] الذي تجوَّلَ في بلادِ الشَّرقِ لأكثرَ مِن ربعِ قرنٍ ، وصنَّفَ مجموعةَ كُتُبٍ ، منها : (الـمُغربُ في حِلى الـمَغْربِ) و (الـمُشرقُ فِي حلى الـمَشرقِ). ولقد تُوِّجَت نهايةُ هذا القرنِ بالرحَّالةِ العَبْدَرِيِّ[2] وبرحلتِهِ : (الرحلةِ المغربيَّةِ)[3].

ولم يخلُ القرنُ الثامنُ مِن عددٍ مِن كُتُبِ الرِّحلةِ والجغرافيا التي تميَّزتْ بإثارتِها للدهشةِ مِن حيثُ إيرادُها لبعضِ الأساطيرِ أو الخوارقِ أو المبالغاتِ ، مثلَ كتابِ (نخبةِ الدهرِ في عجائبِ البرِّ والبحرِ) لشمسِ الدينِ الدمشقيِّ[4]. ومن كُتَّابِ الرِّحلةِ والبلدانياتِ في هذا

---

(١) نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الغُماري (٦١٠-٦٨٥هـ) ، الأديب ، المؤرخ ، الرحالة ، أخذ عن أبي الحسن بن عصفور ، ارتحل إلى مصر والعراق والشام ، لقي ابن العديم ، اتصل بالمستنصر صاحب تونس ، له : (المُرقص والمُطرب) و (ملوك الشعر). ينظر : فوات الوفيات ٣/ ١٠٣ ، والوافي بالوفيات ٢٢/ ١٥٧ ، والديباج المذهب ٢/ ١١٢.

(٢) محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود الحاحِيّ (ـ بعد ٦٨٨هـ) ، الرحالة ، الأديب ، الناظم ، أخذ عن جمع من العلماء منهم ابن دقيق العيد ، قدم مصر من مراكش. ينظر : المقفى الكبير ٧/ ٧٣ ، وجذوة الاقتباس ٢٨٦ ، وذيل لب اللباب ١/ ١٠٦ ، وانظر : مقدمة محقق رحلة العبدري.

(٣) ينظر : أدب الرحلة في التراث العربي ٧٦.

(٤) شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي (٦٤٥-٧٢٥هـ) ، الشيخ ، اللبيب ، الطريف ، المتفنن ، المصنف ، تولى مشيخة الربوة ، لقيه صاحب الوافي بالوفيات ، له : (السياسة في علم الفراسة). ينظر : الوافي بالوفيات ٣/ ١٣٦ ، والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٥/ ٢٠٢ ، وكشف الظنون ٢/ ١٩٣٦.

القرنِ : أبو الفداءِ[1] ، المغرمُ بالرِّحلةِ والتاريخِ والجغرافيا ، فقدْ وضعَ مُصنَّفينِ كبيرينِ نالَ بهما شهرةً واسعةً ، وهما : (مختصرُ تاريخِ البشرِ) و (تقويمُ البلدانِ) ، ويميلُ الباحثون إلى تسميتِهما بـ : (تاريخِ أبي الفِداءِ) و (جغرافيَّةِ أبي الفِداءِ) ، ولقيَ الكتابانِ اهتمامًا خاصًّا على مستوى الشرقِ والغربِ. وقدْ شهدَ هذا العصرُ تأليفَ عددٍ مِن الموسوعاتِ التي لم تكنْ كُتبَ رِحْلةٍ أو جغرافيا ، ولكنَّها أسهمتْ في دفعِ عجلةِ أدبِ الرِّحْلاتِ ، ومن بينِ هذهِ الموسوعاتِ : (نهايةُ الأربِ في فنونِ الأدبِ) و (مسالكُ الأبصارِ في ممالكِ الأمصارِ) و (صبحُ الأعشى)[2].

وقد تميَّزَ هذا القرنُ بظهورِ الرحَّالةِ الكبيرِ ، ابنِ بطوطةَ (٧٠٣-٧٧٩هـ) ، فخرِ أدبِ الرِّحلةِ ، ونجمِهِ الكبيرِ ، وأشهرِ مَن طافَ البلدانَ وتنقَّلَ بينَ الأمصارِ ، وقدْ جمعَ لنا رحلاتِهِ المديدةَ في كتابٍ وسمَهُ بـ(تحفةِ النظَّارِ في غرائبِ الأمصارِ وعجائبِ الأسفارِ) ، وكانَت كتابتُهُ بقلمِ ابنِ جزيٍّ وإملاء ابنِ بطوطةَ ، ويعدُّ هذا الكتابُ مِن أمتَعِ كتبِ الرِّحلاتِ ، علاوةً على اشتمالِهِ على كمٍّ كبيرٍ من المعلوماتِ الجغرافيَّةِ والاجتماعيَّةِ.

ومِن أهمِّ رِحْلاتِ المغاربةِ في هذا القرنِ ، رِحْلاتُ ابنِ خَلدونَ ؛ العَالِـم والسياسيِّ والاجتماعيِّ والمؤرِّخِ الفذِّ ؛ فقد ضمَّنَ تاريخَهُ فصلًا بعنوانِ (التعريفِ بابنِ خَلدونَ) أوردَ

---

(١) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب(٦٧٢-٧٣٢هـ) الشاعر ، الأديب ، العالم ، المتفنن ، الشريف ، الجواد ، تولى إمارة دمشق ، خدم المالك الناصر فولَّاه إمرة حماة ، اعتنى بالشيخ الشاعر جمال الدين بن نباته ، له : (نظم الْحَاوِي فِي الْفِقْه) و (كتاب الكناش) و (كتاب الموازين). ينظر : فوات الوفيات ١/ ١٨٣ ، وطبقات الشافعية الكبرى ٩/ ٤٠٣ ، والدرر الكامنة ١/ ٤٤١.

(٢) ينظر : أدب الرحلة في التراث العربي ٧٨.

فيه عددًا لا يستهانُ بهِ من رحلاتِهِ ، حيثُ نالَت الرحلةُ المرتبةَ الثانيةَ مِن هذا الفصلِ بعدَ سيرتِهِ الشخصيَّةِ ، ويعدُّ هذا الفصلُ نصًّا جيدًا في أدبِ الرحلةِ العربيةِ ؛ لاشتمالِهِ على العديدِ مِن الأحداثِ والملاحظاتِ الرحليةِ الذكيَّةِ[1] مما دفعَ أحدَ المحققينَ[2] إلى الاعتناءِ بهذا الفصلِ وإفرادِهِ بكتابٍ مستقلٍ أسماهُ (رحلة ابن خَلدون).

ومعَ نهايةِ القرنِ الثامنِ الهجريِّ أخذَ أدبُ الرحلةِ في التقهقرِ ؛ فلا نجدُ إلَّا نُتفًا مِن الجهودِ المتواضعةِ ، مِن أمثالِ ما كتبَهُ عبدُ الباسطِ بنِ خليلٍ[3] ، وليونُ الأفريقيُّ[4] ، وأحمدُ الـمَقَّريُّ[5] ، والتَّمَكرُوتيُّ[1]. ولقد استمرَّ أدبُ الرِّحلةِ في التقلُّصِ والاضمحلالِ حتى كادَ

---

(١) السابق ٧٩ ، والعبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ٧/ ٥٠٣.

(٢) المحقق هو : محمد الطنجي ، وقد طبعت هذا الكتابَ دار الكتب العلمية عام ١٤٢٥هـ.

(٣) زين الدين عبد الباسط بن خَلِيل بن شاهين الشيخي الـمَلْطِي ثمَّ القاهري (٨٤٤-٩٢٠هـ) ، العالم ، المتفنن ، الفاضل ، ارتحل إلى مصر ودمشق والمغرب وجلس إلى علمائها ، له : (المجمع المفنن بالمعجم المعنون في التاريخ) و (الروض الباسم في أخبار من مضى من العوالم) و (نزهة الألباب في مختصر أعجب العجاب). ينظر : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٤/ ٢٧ ، وبدائع الزهور ٤/ ٣٧٣ ، وهدية العارفين ١/ ٤٩٤.

(٤) يوحنا الأسد الغرناطي أبو علي الحسن بن محمد الوزان الفاسي(٩٠١- بعد ٩٣٤هـ) ، العالم ، المتفنن ، العبقري ، الأديب ، السفير ، الرحالة ، الجغرافي ، نزل فاس بعد غرناطة ودرس على علماء جامع القرويين ، ارتحل إلى أفريقية مرتين ، اتصل بالقائم بأمر الله السعيدي ، أُسر في إحدى رحلاته إلى المغرب وأُهديَ إلى ملك روما (ليون العاشر) فأحسن قبوله وجعله في خاصته ، رجع إلى بلاد الإسلام ، عرف أكثر من لغة ، له : قاموس طبي ، و (وصف أفريقيا) و (مختصر تاريخ الإسلام). ينظر : حياة الوزان الفاسي وآثاره.

(٥) أبو العباس أَحْمد بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن يحيى الـمَقَّرِي التِّلِمْسَاني (-١٠٤١هـ) الرحالة ، الأديب ، الحافظ ، العالم ، المتبحر ، البليغ ، الشاعر ، المصنف ، ارتحل إلى فاس ، نزل مصر والحجاز وبيت المقدس ودمشق ، له : (نفح الطّيب) و (فتح المتعال) و (عرف النشق في

أنْ يندثرَ في القرنَينِ الحاديَ عشرَ والثانيَ عشرَ ؛ فلا نكادُ نعثرُ إلا على القليلِ مِن مصنَّفاتِ الرِّحلةِ مِن قَبيلِ رِحْلاتِ النَّابُلُسِيِّ[2] والعيَّاشيِّ[3] ، ويمكنُ إرجاعُ أسبابِ تراجعِ أدبِ الرحلةِ إلى عدَّةِ أمورٍ ، أهمُّها :

١- التدهورُ السياسيُّ والاقتصاديُّ الذي لحقَ بالعالمِ العربيِّ.
٢- الانتكاسةُ الحضاريةُ والثقافيةُ والتراجعُ الإنسانيُّ بصفةٍ عامَّةٍ.
٣- سقوطُ الأندلسِ.

أخبار دمشق). ينظر : نفح الطيب ١أ٣٣/ ١ ، ٧/ ١٣٥ ، وخلاصة الأثر ١/ ٣٠٢ ، وسلافة العصر ٥٨٩ ، وانظر : مقدمة محقق نفح الطيب.

(١) علي بن محمد بن علي بن محمد الجزولي الدرعي التَّمَكْرُوتي (-١٠٠٣هـ) ، العالم ، الفقيه ، المتفنن ، الأديب ، دعاه السلطان المنصور وأوفده إلى ملك الترك ، له : (النفحة المسكية في السفارة التركية). ينظر : النفحة المسكية في السفارة التركية ٣١ ، وصفوة من انتشر ١٩٧ ، وطبقات الحضيكي ٢/ ٤٨٨.

(٢) عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الدمشقي (١٠٥٠-١١٤٣هـ) ، العالم ، الأديب ، الشاعر ، البليغ ، المصنف ، الرحالة ، ألقى الدروس في الجامع الأموي ، ورد القاهرة ، ودخل الحجاز ، له : (حلية الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز) و (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) و (تعطير الأنام في تعبير المنام) وله أكثر من ديوان شعر. ينظر : تراجم بعض أعيان دمشق ٦٧ ، وحوادث دمشق اليومية ١٥١ ، وسلك الدرر ٣/ ٣٠.

(٣) أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (١٠٣٧-١٠٩٠) العالم ، الناسك ، الأديب ، الرحالة ، الحافظ ، رحل من المغرب إلى المشرق ، حج مرارًا وجاور بالحرمين والقدس والخليل وأخذ عن علمائها ، له : (تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية) وتأليف (في معنى لو الشرطية) ورحلة بعنوان : (ماء الموائد). ينظر : صفوة من انتشر ٣٢٥ ، وطبقات الحضيكي ٢/ ٣٩٦ ، وتاريخ عجائب الآثار ١/ ١١٥.

٤- انشغالُ الدولِ الإسلاميَّةِ بمُشْكلاتِها الداخليَّةِ وصراعاتِها السياسيَةِ[(١)].

ولقد ظلَّ هذا الركودُ العامُّ مُطبقًا على أدبِ الرِّحلةِ في جملةِ ما أطبقَ عليهِ مِن حضارةِ الأمةِ العربيةِ إلى أنْ ظهرَت النهضةُ الأوربيَّةُ الحديثةُ ، فكانَ لهذهِ النهضةِ دورٌ فعالٌ في تحريكِ ماءِ الحضارةِ العربيَّةِ الراكدِ ؛ مِن خلالِ سيطرتِها السياسيَّةِ ، وما حصلَ مِن احتكاكٍ عن طريقِ الرحلاتِ العربيةِ العلميَّةِ والسياحيَّةِ إلى أوربا ، فقد عادَ أدبُ الرِّحلةِ مع هذه الرحلاتِ إلى الانبعاثِ والتطورِ ؛ فتوالَت مجموعةٌ مِن الرِّحْلاتِ المدوَّنةِ في القرنينِ الأخيرينِ ، ومِن أبرزِ أصحابِها : الشيخُ رِفَاعَةُ الطَّهْطَاويُّ (١٢١٦-١٢٩٠هـ) ، وشهابُ الدينِ الألوسيُّ[(٢)] ، وعبدُ الله فكريُّ[(٣)] ، وأحمدُ فارسِ الشدياقُ (١٢١٩-١٣٠٤هـ) ، وسليمانُ البستانيُّ (١٢٧٣ - ١٣٤٣ هـ). وفي القرنِ العشرينِ شاعَ أدبُ الرحلةِ وازدهرَ ؛ فقدْ كثرَ الاحتكاكُ والتأثُّرُ بالحضارةِ الأوربيَّةِ ، وتحدَّدتْ معالمُ العلومِ ، ونَضُجَ التفكيرُ ، وزادَ عددُ الرحَّالةِ مِن أمثالِ : أمينِ الريحانيِّ (١٢٩٣- ١٣٥٩هـ) ، ومحمدِ حسنينِ هيكلٍ

---

(١) ينظر : أدب الرحلة في التراث العربي ٨٠.

(٢) شهاب الدين أبو الثناء محمود عبد الله الألوسي البغدادي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) العلامة ، الأديب ، الشاعر ، الكاتب ، المفسر ، الرحالة ، التقى بالشيخ أحمد عارف ، عين مفتيًا للحنفية ، ارتحل إلى الأستانة ، له : (روح المعاني) و (نشوة الشمول في الذهاب إلى إسلام بول) و (نشوة المدام في العود إلى مدينة السلام) و (غرائب الاغتراب في الذهاب والإقامة والإياب). ينظر : المسك الإذفر ٥ ، وأعيان البيان ٩٩.

(٣) الأمير عبد الله فكري بن محمد بليغ بن عبد الله بن محمد المصري (١٢٥٠-١٣٠٧هـ) ، العالم ، الأديب ، الناثر ، الشاعر ، جلس إلى علماء الأزهر ، ترقى في الوظائف إلى أن فوضت إليه نظارة المعارف العمومية ، سافر إلى إستانبول مرارا ، عين رئيسا للوفد العلمي المصري في المؤتمر المنعقد في إستكهولم ، له : (الرحلة المكية) و (الرحلة البعلبكية) و (المقامة الفكرية). ينظر : الآثار الفكرية ٣ ، وحلية البشر ١/ ٩٦٨.

(١٣٠٥-١٣٧٦هـ) ، ومحمدِ الخضرِ حسينِ (١٢٩٣- ١٣٧٧هـ) ، وطه حسينِ (١٣٠٧-١٣٩٣هـ) ، وكثيرين غيرِهم[١].

ولعلَّ السرَّ وراءَ عودةِ أدبِ الرحلةِ وازدهارِه في العصرِ الحديثِ يكمنُ في البحثِ عن شكلٍ أدبيٍّ يكونُ أكثرَ رحابةً واستيعابًا لما لا تستوعبُهُ الأشكالُ الأدبيةُ الأخرى المطروقةُ في ذلك الوقتِ[٢].

(١) ينظر : أدب الرحلة عند العرب ، حسني محمود حسين ١٥.

(٢) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، حلفي ٢٤.

ثالثًا : أدبُ الرِّحْلةِ :

تعدَّدَتْ انتساباتُ النصِّ الرِّحْليِّ ، فهو عندَ المهتمينَ بالتاريخِ والاجتماعِ (رِحْلَةٌ) ، وعندَ المهتمينَ بالجغرافيا (أدبٌ جغرافيٌّ) ، أمَّا المهتمونَ بالأدبِ فهو (أدبُ الرِّحلةِ) أو (أدبُ الرِّحْلاتِ)[1].

وقد أصبحَ لأدبِ الرِّحْلاتِ في العصرِ الحديثِ حقلٌ خاصٌّ بِهِ ؛ حيثُ ازدهرَ وتَطَوَّرَ ولمْ يَعُدْ مُضَمَّنًا غَيرَهُ كما كانَ في بداياتِهِ[2] ، إلَّا أنَّ تعريفَهُ ما زالَ يتعدَّدُ ويتنوَّعُ ؛ فكثُرَت تعريفاتُهُ حتى أصبحَت بعددِ أصحابِها ؛ ولكنَّ المتأمِّلَ في مجموعِها يجدُ أنَّها تَرْتَكِزُ على مجموعةٍ مِن الأسُسِ ، أهمُّها :

- أنَّهُ واقعيٌّ ؛ يقومُ على رحلةٍ ، أو رِحْلاتٍ ، تمَّتْ في زمانٍ ومكانٍ معلومينِ.
- أنَّ الذي يقومُ بالرِّحْلَةِ شخصٌ محبٌّ للرِّحلةِ ، يَصِفُ ما شاهدَهُ فيها ، مُراعيًا الموازنةَ بينَ ذاتِهِ وبينَ الرِّحلَةِ باعتبارِها موضوعًا مِن ناحيةٍ أخرى ؛ لأنَّ الإخلالَ بهذهِ الموازنةِ قدْ يؤثِّرُ في النصِّ إما بطُغيانِ اللُّغةِ العاطفيَّةِ أو بطغيانِ اللُّغة العلميةِ الجافَّةِ.
- المحافظةُ على بنيةٍ تَضمَنُ ترابطَ أجزاءِ العملِ ووحدتَهُ ، ولا يعني ذلكَ التمسُّكَ ببنيَةٍ مُعَيَّنَةٍ ؛ فأدبُ الرِحلةِ فنٌّ فضفاضٌ مُتَطَوِّرٌ لا يمكنُ حصرُهُ في بنيةٍ مُحدَّدةٍ.
- أنَّهُ فنٌّ تأثيريٌّ تواصليٌّ ؛ يَستمتِعُ بِهِ القارئُ ويستَفِيْدُ مِنْهُ[3].

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، حلفي ٣٠ ، والرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٣٥.

(٢) ينظر : مشوار كتب الرحلة ١٣ ، والأجناس الأدبية في كتاب (الساق على الساق) ١٣١ .

(٣) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٤٠ .

وانطلاقًا مِن هذهِ الأُسُسِ فإنَّهُ يمكنُنا أنْ ندرجَ في أدبِ الرِّحْلاتِ كلَّ نصٍّ[1] «يصفُ رحلةً أو رِحْلاتٍ واقعيةً قامَ بِها رحّالٌ متميزٌ موازنًا بينَ الذّاتِ والموضوعِ مِنْ خلالِ مضمونٍ وشكلٍ مَرِنينِ بهدفِ التواصلِ مَعَ القارئِ والتأثيرِ فيهِ»[2].

وبهذا التحديدِ يتبينُ لنا أنَّ أدبَ الرحلةِ يستبعدُ الرِّحلاتِ الخياليةَ ولو كانتْ صياغتُها بأسلوبٍ أدبيٍّ.

أدبُ الرِّحلةِ بينَ الواقعِ والخيالِ :

إنَّ الواقعيَّةَ أهمُّ ما يُميِّزُ أدبَ الرحلةِ عن غيرِهِ مِن فروعِ الأدبِ ، ولكنْ ليسَ لعملٍ أدبيٍّ أنْ يقتصرَ على الواقعِ فقط ؛ فلا بدَّ في أدبِ الرحلةِ مِن المراوحةِ بينَ الواقعِ والخيالِ السَّائغِ ؛ بحيثُ تكونُ الرِّحلةُ الفعليَّةُ هيَ أسُّ العملِ وقُوامُهُ ، ويكونُ عرضُ المشاهدِ والحوادثِ والشخصياتِ من خلالِ أسلوبٍ منزاحٍ عنِ التقريريةِ والمباشرةِ ، كما أنَّهُ لا يمكنُ أيضًا إغفالُ دورِ المؤثراتِ الأخرى مثلَ : الأخبارِ والقراءاتِ والتجاربِ[3].

وتبقى الرِّحْلاتُ الخياليَّةُ الصِّرفَةُ خارجَ نطاقِ (أدبِ الرِّحْلاتِ) ؛ لاختلافِها عنهُ مِن حيثُ أُسْلُوبُ الكاتبِ أو منهجُهُ في الكِتابَةِ أو مِن حيثُ الجمهورُ المقصودُ بالكتابةِ ، إلى غيرِ ذلك من الاختلافاتِ والفوارقِ[4].

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، حلفي ٨٤.

(٢) الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٤٠.

(٣) ينظر : أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية ، محمد القسومي وعبد الله حامد ٢ ، والرحلة في الأدب العربي ٤٠ ، ٤٢ ، ومشوار كتب الرحلة قديمًا وحديثًا ٦.

(٤) ينظر : أدب الرحلة الخيالية ، مجلة الغاوون ، كانون الثاني ٢٠١١م ، ع ٣٥ ، ومعجم السرديات : (قصص الرحلات).

إنَّ أدبَ الرِّحلةِ معنيٌّ بالرِّحْلاتِ الواقعيةِ التي حدَثَتْ في حيِّزِ المكانِ (بجغرافِيَّتِهِ) ؛ فقدْ بدأَت الرحلاتُ العربيةُ الأولى مكانيَّةً تهدفُ إلى التعريفِ بالمسالكِ والممالكِ[١].

ويمكنُ ردُّ أعمالِ الرحلةِ الخياليَّةِ إلى حقولِها الأصليَّةِ ؛ فمِن الرِّحلاتِ الخياليَّةِ ما يتبعُ القَصَصَ الخياليَّةَ الشعبيةَ ، مثلَ : (رِحْلاتِ السندبادِ) حيثُ يُعَدُّ رمزًا للرحَّالةِ الـمُكثرِ ، ومنها ما يتبعُ القَصَصَ الأدبيةَ ، مثلَ : قصَّةِ ابنِ طُفيلٍ (حيِّ بنِ يقظانَ) و (رسالةِ الغفرانِ) لأبي العلاءِ المعريِّ و (ثورةِ الجحيمِ) للزَّهاويِّ و (الكوميديا الإلهيةِ) لدانتي ، وغيرِها. فلا ضرورةَ إذًا تدعو إلى حشرِ الأعمالِ السابقةِ تحتَ سقفِ أدبِ الرِّحِلاتِ[٢].

و لا يعني ، كذلكَ ، استخدامُ لفظِ (الرِّحلةِ) في عناوينِ بعضِ الأعمالِ الأدبيةِ انتماءَها إلى حقلِ أدبِ الرِّحِلاتِ. ولو افترضنا ذلكَ فلماذا يبذُلُ الباحثونَ جهودَهم في البحثِ عن مُحَدِّداتِ أدبِ الرحلةِ؟ [٣].

أدبُ الرِّحْلَةِ مِن الانتماءِ إلى الأدبِيَّةِ :

يتجاذَبُ أدبَ الرِّحْلةِ حُقولٌ وأشكالٌ عِدَّةٌ ، مثلَ التاريخِ والاجتماعِ و (الأنثربولوجيا) والقصَّةِ والسيرةِ والمذكراتِ والتقريرِ وغيرِها ، مـمَّا يُسوّغ السؤالَ عنِ انتماءِ الرحلةِ ، والبحثَ عن خصائصِها الُممَيِّزةِ لها عن غيرِها.

---

(١) ينظر : أدب الرحلة الخيالية ، مجلة الغاوون ، ع٣٥ ، وأدب الرحلة في التراث العربي ١٩.

(٢) ينظر : أدب الرحلة الخيالية ، مجلة الغاوون ، ع٣٥ ، ومعجم السرديات : (قصص الرحلات).

(٣) ينظر : أدب الرحلة الخيالية ، مجلة الغاوون ، ع٣٥.

وفي هذا الصَّددِ يُقسِّمُ بعضُ الدارسينَ الأشكالَ السرديةَ إلى أشكالٍ خالصةٍ قائمةٍ بذاتِها ، من قبيلِ : المقامةِ والسيرةِ والحكايةِ الشعبيةِ والرِّحِلاتِ ، وأشكالٍ هجينةٍ يدخلُ ضِمنَها الخبرُ والتراجمُ وأخبارُ الشعراءِ وما إلى ذلكَ ، وتبقى الأشكالُ الهجينةُ تابعةً لغيرِها ، بينما تنفصلُ الأشكالُ الخالصةُ ، وتتمتَّعُ نصوصُ كلِّ شكلٍ منها بمجموعةٍ مِن الخصائص المشتركةِ التي يُمكِنُ التماسُها في مستوياتٍ ثلاثةٍ : اللغةِ والأسلوبِ ، وهيمنةِ الفردِ البطلِ ، والخطابِ المتخيَّلِ[1].

وقدْ لقيَ النصُّ الرِّحليُّ (المتعدِّدُ بتعددِ موضوعاتِهِ) رواجًا وانتشارًا منذُ عُصورِ الدولِ العربيةِ الأولى ؛ وذلكَ لطبيعتِهِ الانفتاحيَّةِ ، وقدرتِهِ على احتواءِ عددٍ مِن المعارفِ والأجناسِ الأدبيةِ الأخرى[2]؛ فَلَهُ بالتاريخِ صلةٌ وثيقةٌ ؛ مِن خلالِ ارتباطِهِ بالأحداثِ الماضيةِ والحاضرةِ ، ولهُ علاقةٌ ظاهرةٌ بالجغرافيا والدراسةِ البيئيةِ ؛ مِن حيثُ ارتباطُهُ بالمكانِ والمناخِ والتضاريسِ ، ولهُ أيضًا تماسٌّ بالسيرةِ وما تفرَّعَ مِنها مِن خلالِ ارتباطِه بالذِّكرياتِ الشَّخصيةِ وحيواتِ الآخرينَ ، أمَّا علاقتُهُ بالأدبِ فإنَّها ناتجةٌ عنِ ارتباطِهِ بالصياغاتِ وجمالياتِ اللغةِ واستفادتِهِ –أيضًا– مِن الشِّعرِ والنَّثرِ بجميعِ أنواعها وأغراضِها ، ولا يخفى ما لأدبِ الرحلةِ من صلةٍ بعلمِ الاجتماعِ ؛ وذلكَ مِن خلالِ ذكرِ الرَّحالةِ لما يتعلقُ بأحوالِ المجتمعاتِ وتكوينِها الفكريِّ ، كما أنَّ لأدبِ الرحلةِ علاقةً وثْيَقَةً بعلمِ الاقتصادِ ؛ فكثيرًا ما يتطرقُ الرحَّالةُ لقضايا الغلاءِ والرخصِ والتِّجارةِ والفلاحةِ ، وغيرِها مِن أساسياتِ الاقتصادِ[3].

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، حلفي ٢٠.

(٢) ينظر : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ١٠.

(٣) السابق.

كلُّ ما سبقَ مِن تلكَ العلاقاتِ والارتباطاتِ يجعلُ مِن أدبِ الرحلةِ جنسًا خُلاسيًّا مطلقًا يلتبسُ -ولا يزالُ- معَ غيرِهِ مِنَ الأجناسِ والأشكالِ الأدبيَّةِ والحقولِ المعرفيَّةِ[1].

وقد استطاعَ أدبُ الرحلةِ -مِن خلالِ تراكمِهِ التاريخيِّ والكمِّيِّ- أنْ يؤسِسَ لبناءٍ وصياغةٍ مستقلَّينِ استقلالًا إيجابيًّا ؛ ينفتحُ على غيرِهِ مِن الأشكالِ والمعارفِ[2] ، ولمْ يعدْ صوابًا تصنيفُ نصوصِ الرِّحلةِ تصنيفًا عامًّا تحتَ مسمًّى (أدبِ الرِّحْلَةِ) ، دونَ تفكيرٍ في بِنيةِ هذهِ النُّصوصِ ، الـمُعَيِّنَةِ للحدودِ الفاصلةِ لهذا الفرعِ مِن الأدبِ[3]. وقدْ حاولَ أحدُ الباحثينَ أنْ يدرسَ أدبيَّةَ الرِّحْلَةِ واضعًا يدَهُ على بعضِ الـمُحدِّداتِ النوعيةِ لهذا الجنسِ ، فانتهى إلى أنَّ أدبيةَ الرحلةِ تتمثَّلُ في توفُّرِ النصِّ على مجموعةٍ مِن العناصرِ ، أهمُّها :

١- هَيْمَنَةُ بِنيةِ السفرِ على جميعِ أجزاءِ النصِّ ؛ فبِنْيةُ السَّفرِ في النصِّ الرحليِّ بنيةٌ مركزيةٌ، بينما هيَ في النصوصِ الأخرى بنيةٌ ثانويةٌ تندرجُ تحتَ بنيةِ النصِّ المركزيَّةِ ؛ فَلَوْ نظرنا مثلًا إلى بنيةِ السَّفرِ في النَّصِّ الشعريِّ فإننا سنجِدُها بنيةً ثانويةً بالنسبةِ إلى مركزيةِ الشِّعرِ نَفْسِهِ[4].

وتقتضي هيمنةُ بنيةِ السفرِ تحديدَ مفهومِ السَّفَرِ ذاتِهِ ؛ إذْ يلزمُ أنْ يكونَ فعلُ الارتحالِ مقصودًا ؛ تُقْصَدُ فيهِ الرحلةُ لسببٍ أو لآخرَ ، فَمِنَ الأسفارِ ما يأتي على سبيلِ الاضطرارِ ، مثلُ النفيِ والتهجيرِ.

---

(١) ينظر : الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٣ ، والرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي ١٨.

(٢) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، حلفي ٣١ ، ورحلة أدبية أم أدبية الرحلة ، مجلة فكر ونقد ، يونيو ١٩٩٩م ،ع٢٠ ، والرحلة الأدبية الأنواع والخصائص ١٨.

(٣) ينظر : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٨ ، والرحلات المغربية السوسية ٢٧.

(٤) ينظر : رحلة أدبية أم أدبية الرحلة ، مجلة فكر ونقد ، يونيو ١٩٩٩م ،ع٢٠.

وبالنظرِ إلى هيمنةِ عنصرِ السفرِ نجدُ أنَّ الرحلةَ تتربعُ على قمَّةِ الهرمِ ؛ حيثُ تأتي بعدَها جميعُ النصوصِ المشتركةِ معَها في مكونِ السفرِ والمختلفةِ معها في القصدِ من السفرِ ، والذي لهُ تأثيرُهُ على طريقةِ الكتابةِ أو السَّردِ أو مستوى الشعورِ ، مثلُ (الحركَةِ) ونصوصِ (المسالكِ والممالكِ) و (النزهةِ) و (الدليلِ) وغيرِها[1].

٢- ضرورةُ إعادةِ إنتاجِ السفرِ على مستوى الكتابةِ (السرد) ؛ بحيثُ تصبحُ قراءةُ النصِّ رحلةً أخرى ناتجةً عن فعلِ الارتحالِ الماديِّ[2] ، فإنَّ سردَ الرحلةِ «معناهُ أنْ نحولَ هذهِ التجربةَ إلى كتابةٍ شاهدةٍ عليها ، ومقيدةٍ لفعلِها وحاميةٍ لها من آفةِ النسيانِ ، لذلك يحتلُّ السردُ مكانةً أساسيةً في الرحلةِ»[3].

٣- توفُّرُ قُطبيِّ المكانِ والزمانِ ؛ فهُما -وإنْ لمْ تخلُ منهما النصوصُ الأدبيةُ الأخرى- المكونانِ المركزيانِ في نصوصِ الرحلةِ ، ولا يمكنُنا تخيُّلَ رحلةٍ تخلوْ مِن عُنصريِّ الزمانِ والمكانِ[4] ؛ فالرحلةُ انتقالٌ مؤقَّتٌ مِن مكانٍ إلى آخرَ.

٤- انتماءُ الرحلةِ إلى الكتابةِ البصريَّةِ ، سواءً كانَ ذلكَ بالمعنى الأدبيِّ ، كأنْ ينقلَ الرحالةُ للقارئِ ما مرَّ بهِ خلالَ رحلتِهِ مِن المشاهدِ والصورِ ، أو كانَ ذلكَ بالمعنى التشكيليِّ ، مثلَ الرسوماتِ ، والخرائِطِ ، والصورِ (الفوتوغرافيةِ) ، وغيرِها. وتهدفُ الصورةُ الأدبيةُ في

---

(١) ينظر : السابق ، والرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٧ ، ٢٩ ، والرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٩.

(٢) ينظر : رحلة أدبية أم أدبية الرحلة ، مجلة فكر ونقد ، يونيو ١٩٩٩م ، ع٢٠.

(٣) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٣٤.

(٤) ينظر : الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٤١ ، ٤٧.

أغلبِ الرِّحْلاتِ إلى تقديمِ المعرفةِ بالمكانِ وأشيائهِ بعيدًا عن اتخاذِ الغايةِ الجماليةِ هدفًا بعينِها[1].

٥- عدمُ الاكتفاءِ بتقديمِ المرئيِّ ونقلِهِ ؛ بحيثُ يتجاوزُ الرحالةُ ذلكَ بحركةٍ ارتداديةٍ يسترجعُ فيها تاريخَ الموصوفِ وتحوُّلاتِهِ ، مُزاوجًا بذلكَ بينَ الحفرِ في المكانِ مِن جهةٍ وبينَ النصوصِ التي عالجتْ هذا المكانَ من جهةٍ أخرى[2].

٦- قيامُ الرحلةِ على مبدأٍ أساسيٍّ يتمثَّلُ في فاعليةِ النصِّ الرحليِّ وقدرتِهِ على التحوُّلِ والتحويلِ ؛ التَّحَوُّلُ عن طريقِ انتقالِ الرحالةِ من وضعٍ إلى وضعٍ آخرَ مختلفٍ ، أمَّا عمليةُ التحويلِ (تحويلُ المرئياتِ إلى مادةٍ قابلةٍ للتلقي والتداولِ) فإنها تقتضي اختيارَ موضوعاتٍ وصيغٍ وأساليبَ راقيةٍ ومناسبةٍ يطَّلعُ المتلقي مِن خلالِـها على الرحلةِ وما يجهلُهُ مِن عوالـمِها المختلفةِ[3].

٧- الاقتباسُ والاستفادةُ من غيرِها ؛ فالرحلةُ جنسٌ أدبيٌّ حواريٌّ يتفاعلُ معَ غيرِهِ مِن النصوصِ الأدبيةِ والمعرفيَّةِ فيتضمنُ نصوصًا شعريةً ونثريَّةً مختلفةً[4].

٨- تحقيقُ تضافرِ مكوِّناتِ الخطابِ السَّرديِّ الناتجةِ عن ثلاثةِ مواقعَ ، هي : السارِدُ (شخصيةً مركزيةً) ، والساردُ (منتجًا للسردِ) ، والساردُ (ضميرًا مفردًا يستعينُ بضميرِ الجمعِ).

---

(١) ينظر : رحلة أدبية أم أدبية الرحلة ، مجلة فكر ونقد ، يونيو ١٩٩٩م ،ع٢٠.

(٢) نفسه.

(٣) السابق.

(٤) ينظر : الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٥٥.

ونجدُ في الموقعِ الأوَّلِ حضورَ شخصيةِ الرحالةِ المركزيَّةِ (البطلِ) مِن بدايةِ النَّصِّ إلى نهايتِهِ ، مِن خلالِ دورِ الشخصيَّةِ في صنعِ أحداثِ الرحلةِ وتنظيمِها وتعريفِ الرحَّالةِ باسمِهِ ولقبِهِ وموطنِهِ والمرافقينَ لهُ ، إلى غيرِ ذلكَ مِن المعلوماتِ التي تُلقي الضوءَ على شخصيَّةِ الرحَّالةِ.

ويرتبطُ الموقعُ الثاني (الساردُ : منتجًا للسردِ) بالموقعِ الأولِ ؛ فلابدَّ أنْ يخضعَ إنتاجُ السردِ لخصوصيَّةِ السَّاردِ وتكوينِهِ الثقافيِّ ، كما يخضعُ السردُ لاستراتيجيةِ السَّاردِ في الكتابةِ في أثناءِ تقديمِهِ للمرئياتِ. وعلى الرُّغمِ مِن اتفاقِ العديدِ مِن الرحَّالةِ حولَ قواسِمَ سرديَّةٍ معينةٍ ، إلا أنَّ طبيعةَ السَّردِ تظلُّ خاضعةً لاستراتيجيةِ كلِّ ساردٍ على حدةٍ.

وعلى صعيدِ الموقعِ الثالثِ (الضمائرِ) فإنَّ الضميرَ في الرحلةِ ضميرُ إفرادٍ بالرغمِ مِن جنوحِ الرحالةِ إلى استخدامِ ضميرِ الجمعِ في بعضِ المواقعِ ؛ بحيثُ نجدُ أنَّ الرحلةَ تتأرجحُ عادةً بينَ ضميرِ الإفرادِ وضميرِ الجمعِ ، وتتجلَّى فردانيةُ النصِّ باستعمالِ ضميرِ الإفرادِ فيما يرِدُ في ثنايا البدايةِ والنهايةِ من معلوماتٍ ذاتيةٍ تخصُّ الساردَ ، كما يشيعُ في وسطِ النصِّ استخدامُ ضميرِ الجمعِ لأهدافٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، مثلُ إشهادِ الآخرِ أو المرافقِ في الرِّحلةِ على ما يُروى مِنَ المشاهدِ الغريبةِ والعجيبةِ(١).

إنَّ أدبيةَ الرحلةِ إذًا لا تعني –كما رأينا– الصِّيَغَ البلاغيةَ والأساليبَ البيانيَّةَ ، وهيَ واردةٌ في الرحلةِ بطريقةٍ أو بأخرى ، بلْ تعني قدرةَ النصِّ الرحليِّ على توليفِ خطاباتٍ مُتعدِّدَةٍ تحتَ هيمنةٍ فعليَّةٍ لبنيةِ السَّفرِ ؛ إذْ تتكونُ الرحلةُ مِن مجموعةٍ مِن النصوصِ والأساليبِ والمعارفِ ، تمَّ نقلُها بِلُغَةٍ مُتأرجحةٍ بينَ الوظيفيةِ والأدبيَّةِ ، تمزجُ بينَ السائدِ

---

(١) ينظر : رحلة أدبية أم أدبية الرحلة ، مجلة فكر ونقد ، يونيو ١٩٩٩م ،ع٢٠.

والجديدِ ، وبينَ لُغةِ العاطفةِ ولغةِ التقريرِ العلميِّ ، وبينَ الخبرِ والحكايةِ ، وبينَ الشعرِ والنثرِ ، وبينَ التعليقِ والاستطرادِ ، وبينَ الشفهيِّ والمكتوبِ ، وبينَ المألوفِ والغريبِ(١). ولمْ يكنْ للنصِّ الرحليِّ أنْ يجمعَ بينَ هذه الـمُتبايناتِ لولا تَمتُّعُهُ ببِنْيَةٍ أدبيةٍ مَرِنةٍ جعلتْ مِنهُ جِذرًا لكلِّ الأجناسِ الأدبيةِ(٢).

أهميةُ أدبِ الرِّحْلَةِ:

تكمنُ أهميَّةُ نصوصِ الرِّحلاتِ فيما يجدُهُ القرَّاءُ في ثنايا سطورِها مِن التُّحَفِ العلميَّةِ والقيمِ الحضاريَّةِ والأساليبِ الفنيَّةِ والصيغِ البلاغيةِ.

ولقدْ قدَّمت الرِّحْلاتُ خلالَ مشوارِها الطويلِ معلوماتٍ ثمينةً عن الإنسانِ والمكانِ والأحداثِ ، استفادَ مِنها أهلُ التاريخِ والجغرافيا والاجتماعِ والآثارِ والأدبِ والثقافةِ وغيرِهِم(٣) ، ولا تقتصرُ مصادرُ المعرفةِ في الرِّحلةِ على ما يقولُهُ المؤلِّفُ فقط ؛ إذْ يتَّسِعُ نصُّ الرِّحلةِ لاحتواءِ العديدِ مِن المنقولاتِ المختلفةِ المشتملةِ على الحكاياتِ أو الأخبارِ أو الرَّسائلِ أو غيرِ ذلك(٤).

ولا يمكنُ تصوُّرُ رحلةٍ لا يتمُّ فيها الالتقاءُ بالآخرِ والتعرُّفُ عليهِ وعلى لُغتِهِ وتقاليدِهِ وعاداتِهِ ، لذا فإنَّ الأسبقيَّةَ لكتبِ الرِّحْلاتِ في وضعِ الجذورِ الأولى لعلمِ الاجتماعِ ، وفتحِ

---

(١) ينظر : السابق. والرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٣٧.

(٢) ينظر : مشوار كتب الرحلة ١٠٠.

(٣) ينظر : أدب الرحلات الأندلسية والمغربية ٥٣ ، وصور المغرب وأوربَّا في أدب الرحلات المغربية ، مجلة فكر ونقد ، أكتوبر ١٩٩٧م ، ع٢.

(٤) ينظر : أدب الرحلة عند العرب ، حسني محمود حسين ٦ ، وفن الرحلة في الأدب المغربي القديم ١٤.

مجالِ المقارنةِ بينَ المجتمعاتِ ودراسةِ تَطَوُّرِها[١] ، وقد تفْضُلُ الرحلاتُ كتبَ التاريخِ من خلال ما تحملُهُ مِن الملحوظاتِ والتحليلاتِ والنقدِ ، في حينِ تقتصرُ كتبُ التاريخِ على الاهتمامِ بالزمانِ والمكانِ وما يدورُ فيهما مِن أحداثٍ[٢].

وتتمثَّلُ أهميَّةُ الرحلةِ العلميَّةِ -أيضًا- فيما تقدِّمُهُ مِن معلوماتٍ ومروياتٍ مُوَثَّقَةٍ نتجَت من خلالِ المشاهدةِ المباشرةِ أو الأخذِ عن الثقاتِ ، كما تكمنُ أهميتُها العلميةُ فيما نقلَهُ لنا الرحالةُ من تجاربِهم التي اكتسبوها ممَّا صادفُوهُ مِن مَصاعبَ ومَواقفَ مُتَعَدِّدَةٍ[٣].

وتظهرُ القيمةُ الأدبيَّةُ لأدب الرحلةِ فيما تستَخدمُهُ الرِّحْلاتُ مِن أبياتٍ شعريةٍ ، وأساليبَ أدبيَّةٍ ، وملحٍ بلاغيَّةٍ ، وألفاظٍ رشيقةٍ ، وأوصافٍ دقيقةٍ ، ترتقي بالنصِّ الرحليِّ إلى مصافِّ النصوصِ الفنيَّةِ ، وعلى الرُّغمِ مِن تنوُّعِ الأساليبِ المستخدمةِ في الرحلةِ إلَّا أنَّ الأسلوبَ القصصيَّ الذي جُبِلت عليهِ الرحلةُ يكادُ يكونُ أهمَّ ما يميِّزُها عن غيرِها ، وقدْ تكونُ بِهِ للعربيِّ الأسبقيَّةُ في خوضِ غمارِ فنِّ القصَّةِ[٤]. كما أنَّ لظروفِ الرحلةِ العاطفيةِ الأثرَ الظاهرَ من حيثُ فنيَّةُ النصِّ ؛ فقدْ تعملُ على تهذيبِهِ وتزيدُهُ رقةً ورهافةً[٥].

---

(١) ينظر : أدب الرحلات ، حسين محمد فهيم ١٨.

(٢) ينظر : أدب الرحلات الأندلسية والمغربية ٥٢.

(٣) ينظر : مشوار كتب الرحلة ٧ ، وأدب الرحلات الأندلسية والمغربية ٥٢.

(٤) ينظر : أدب الرحلة عند العرب ، حسني محمود حسين ٨ ، والرحلات ٦ ، ومشوار كتب الرحلة ٨.

(٥) ينظر : فن المقالة ١١٥ ، ومشوار كتب الرحلة ٧.

وإلى كلِّ ما سبقَ فإنهُ لا يخفى ما للرِّحلةِ مِن دورٍ حضاريٍّ يكمنُ في إذكاءِ روحِ التنافسِ بينَ الشعوبِ والحثِّ على التفوُّقِ والسِّيادةِ(١).

تدوينُ الرِّحْلَةِ :

تُعدُّ مرحلةُ التدوينِ أهمَّ مراحلِ التطوُّرِ والحضارةِ ، وعلى مرِّ التاريخِ أُجريت الكثيرُ مِن الرِّحِلاتِ ولكنَّ المؤسفَ أنَّهُ لمْ يُدوَّنْ مِن جملتِها سوى النزرِ القليلِ ، وفي عصرِ النهضةِ الإسلاميةِ كَثُرتْ الرِّحْلاتُ المدوَّنةُ وتَعدَّدَت ، مدفوعةً إلى ذلكَ بالحاجةِ إلى معرفةِ المسالكِ والأقاليمِ ؛ وذلكَ بعدَ أنْ اتَّسَعَتْ رقعةُ الدولةِ الإسلاميةِ فأصبَحَت الرِّحلاتُ تتوالى واصفةً المسالكَ والممالكَ ، وإلى جانبِ تلكَ الحاجةِ السياسيةِ ظهرتْ حاجةٌ أخرى دينيةٌ تمثَّلتْ في رسمِ الطرقِ التي تؤدِّي بالمسلمين إلى الأماكنِ المقدَّسةِ فقد دُوِّنَ لذلكَ عددٌ لا يستهانُ بهِ من رحلاتِ الحجِّ وزياراتِ الأماكنِ المُقدَّسةِ ، كما لا يمكنُ إغفالُ دورِ المقتضياتِ الأخرى ، مثلُ الحاجةِ العلميَّةِ والتجاريةِ والاستطلاعيَّةِ(٢).

ولنا هنا أنْ نتساءَلَ عن طرقِ تدوينِ الرِّحلاتِ المُتَّبَعَةِ ، فهلْ تكتبُ الرحلاتُ جملةً واحدةً بعدَ انتهاءِ الرِّحلةِ؟ أو أنَّها تكتبُ مِن خلالِ مُذكِّراتٍ يوميَّةٍ يكتبُها الرَّحَّالةُ على نيَّةِ الرجوعِ إليها والانتخابِ مِنها؟ وماذا عن آليَّةِ الرحالةِ الـمُعتَمَدَةِ في جمعِ معلوماتِ الرِّحْلةِ؟

لقدِ اتخذَ تدوينُ الرحلاتِ طُرقًا عدةً ؛ فكُتِبَ أكثرُها بصورةِ ملاحظاتٍ أو تعليقاتٍ أو أوصافٍ دوِّنتْ في أثناءِ الرِّحْلةِ(٣) ، كما دُوِّنت بعضُ الرِّحلاتِ على هيئةِ أحداثٍ يومِيَّةٍ ؛

---

(١) ينظر : أدب الرحلة في التراث العربي ٦٨.

(٢) ينظر : الرحلات ٨ ، ومشوار كتب الرحلة ١٠.

(٣) ينظر : أدب الرحلة ، حسين نصار ٥٩.

تعتمدُ التوثيقَ اليوميَّ للأحداثِ من قبيلِ رحلةِ ابنِ جبيرِ المشهورةِ[1] ، واتكأَ البعضُ الآخرُ مِن كُتُبِ الرِّحْلاتِ على التدوينِ اللاحقِ للمشاهدِ والأحداثِ ؛ فلمْ تكنْ كتابتُها إذًا متزامنةً معَ أحداثِ الرِّحلةِ بلْ كُتِبَتْ فيما يتخلَّلُ الرِّحلةَ مِن أوقاتِ الرَّاحةِ ، وعلى هذا النحوِ كَتبَ العياشيُّ رحْلَتَهُ[2].

وقدْ اعتمدَ عددٌ قليلٌ مِن الرحالةِ على الذَّاكرةِ في كتابةِ رحْلاتِهم ، وربَّما فقدُوا بعضَ ما كَتبوهُ في أثناءِ الرِّحلةِ فاضطُرُّوا إلى الرجوعِ إلى ما بقيَ في الذَّاكرةِ مِن أحداثِ الرحلةِ ، ومِن هؤلاءِ ابنُ بطوطةَ وأبو دُلَفٍ[3] ، ولا يخفى ما قدْ تتعرضُ إليهِ الذاكرةُ في أكثرِ الأحيانِ مِنَ الخلطِ والنِّسيانِ ، ولعلَّ مِن أبرزِ مزايا هذهِ الطريقةِ أنَّها تمنحُ الرحَّالةَ فرصةً أكبرَ للإضافةِ والتنظيمِ ، على خلافِ الرِّحلاتِ الأخرى التي تلتزمُ بما دوَّنَهُ الرحَّالةُ حالَ الرِّحلةِ[4].

وقدْ خضعتْ أكثرُ الرِّحلاتِ إلى عملياتِ تدقيقٍ وتهذيبٍ قامَ بها كُتَّابُها في أثناءِ الرِّحلةِ أو بعدَ الفراغِ مِنها[5] ، ولكنَّ بعضًا منها قدْ وصَلَنا كما دُوِّنَ في المرحلةِ الأولى ، دُوْنَ أدنى

---

(١) ينظر : أدب الرحلة ، حسين نصار ٥٩.

(٢) ينظر : أدب الرحلة ، حسين نصار ٦٠ ، والرحلة في الأدب العربي ، حلفي ٣٢ ، وتاريخ الأدب الجغرافي ٧٣١.

(٣) ينظر : أدب الرحلة ، حسين نصار ٦٢.

(٤) نفسه.

(٥) السابق ٦١.

تبييضٍ أو تهذيبٍ ؛ إذْ يكثرُ فيها تكرارُ الألفاظِ والأحداثِ ، وهذا جليٌّ في رحلةِ ابنِ الجَيْعَانِ[1] (القولِ المستطرفِ في سفرِ مولانا الأشرفِ)[2].

وقدْ حفظَ لنا أدبُ الرحلاتِ رحلاتٍ قليلةً لم تحملْ أسماءَ أصحابِها ؛ بحيثُ أُغفِلَ اسمُ مدوِّنِها ؛ لدورِهِ الثانويِّ في فعلِ الرحلةِ ، ومِن تلك الرحلاتِ رحلةُ ابنِ الجيعانِ سابقةُ الذكرِ ، فقدْ اشتُهِرت بـ(رحلةِ قايَتْباي) معَ أنَّها بقلمِ ابنِ الجيعانِ[3].

وتتنوَّعُ آليَّاتُ جمعِ معلوماتِ الرِّحلةِ بينَ : الـمُشاهدةِ ، والـمُعاينةِ ، والنقلِ مِن الـمقروءِ أوِ الـمسموعِ[4] ، وتتنوَّعُ لذلكَ الأفعالُ الـمُستخدمةُ في الكتابةِ ؛ فنجدُ أنَّ أفعالَ اليقينِ تحضرُ معَ الـمُشاهداتِ والـمُعايناتِ ، بينما تحضرُ أفعالُ الاحتمالِ معَ الـمنقولِ عامَّةً[5] ؛ ويدلُّ ذلكَ على اعتناءِ الرحالةِ بالجانبِ التوثيقيِّ في الرِّحلةِ.

وقدْ فَقَدَتْ بعضُ الرِّحلاتِ توازنَها بتغليبِها الجانبَ المعرفيَّ على الجانبِ الفنيِّ[6] ممَّا عِيبَ على بعضِ الرَّحَّالةِ ؛ يقولُ كراتشكوفسكيُّ مُنتقدًا رحلةَ العيَّاشيِّ : «غيرَ أنَّ المؤلِّفَ لمْ يَعتَبِرْ كلَّ هذا جديرًا باهتمامِ الرَّحّالةِ الجادِّ ، فهوَ قدْ صرفَ اهتمامَهُ قبلَ كلِّ شيءٍ إلى فحصِ

---

(١) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني بن الجيعان (- ٩٣٠ هـ) العالم ، القاضي ، الشريف ، تولى نيابة كتابة السر في مصر ، له : (نزهة الناظر وطراز الدفاتر). ينظر : الكواكب السائرة ١/ ١٥٨ ، وشذرات الذهب ٩/ ٥٢٢.

(٢) ينظر : أدب الرحلة ، حسين نصار ٦٠.

(٣) ينظر : السابق ٦٣ ، وموسوعة الرحلات ٢٥١.

(٤) ينظر : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٢٧.

(٥) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، حلفي ١٦١.

(٦) ينظر : أدب الرحلة ، حسين نصار ٧٩.

مناهجَ العلومِ الإسلاميةِ في البلادِ التي زارَها بحيثُ يُمثِّلُ كتابُهُ -إلى حدٍّ ما- دائرةَ معارف فريدةٍ مِن نوعِها في العلومِ والتَّصَوُّفِ ، وقدْ رأى لزامًا عليهِ أنْ يشيرَ في كلِّ موضعٍ إلى المخطوطاتِ النادرةِ التي رآها في الأماكنِ المختلفةِ»[١].

ومِنَ الجديرِ بالذكرِ أنَّ الرِّحلةَ قد تدوَّنُ شعرًا ؛ فقدْ ختمَ العبدريُّ رحلتَهُ المنثورةَ بكتابتِها شعرًا ، وقدْ يدخلُ في عدادِ ذلكَ ما تَضَمَّنَتْهُ قصائدُ العصورِ الأولى من رحلاتٍ[٢].

مَبَاني النصِّ الرِّحليِّ :

لكلِّ نصٍّ فنيٍّ بناؤهُ ، ولنصوصِ أدبِ الرِّحلةِ مجموعةٌ مِن الأبنيةِ ، يُمكنُ إجمالُها بما يلي :

١- البناءُ النَّمَطِيُّ :

وهو البناءُ الذي يسعى إلى مواكبةِ الرحلةِ منذُ بدايتِها وحتى نهايتِها[٣] ، وينبغي أنْ يشتملَ على أربعِ وَحَداتٍ أساسيَّةٍ ، هيَ :

أـ المقدمةُ أو التمهيدُ :

وتعدُّ هذه الوحدةُ مفتاحَ الرحلةِ الأساسيَّ ، وينبغي أنْ تكونَ قصيرةً بحيثُ لا تفسدُ شوقَ المتلقي إلى قراءةِ تفاصيلِ الرحلةِ.

ب ـ رحلةُ الذَّهابِ :

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ٧٣١.

(٢) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، حلفي ٨٤.

(٣) ينظر : الرحلات المغربية السوسية ٢٤.

وتبدأُ مِنذُ الاستعدادِ للرحلةِ وتنتهي بوصولِ المكانِ المقصودِ ، وتكثرُ في هذهِ الوحْدةِ الأوصافُ والتفاصيلُ ، كما تفتَقرُ هذهِ الوحدةُ إلى وحدةٍ تاليةٍ تُجيبُ عن أسئلةِ المتلقي.

ج ـ وصفُ هدفِ الرِّحلَةِ :

ويُفصحُ الرحَّالُ فيها عن أهدافِهِ التي تحمَّلَ لأجلِها وعَثاءَ السَّفرِ ، وتُعدُّ هذهِ الوحدةُ أساسَ الرِّحلةِ وذروةَ سنامِها.

د ـ رحلةُ العودةِ والخاتمةِ :

إذا تمَّت الوَحداتُ السابقةُ على هيئةٍ متسلسلةٍ فلنْ يبقى لاكتمالِ البنيةِ سوى مرحلةِ العودةِ والختامِ ، وللرَّحالةِ أنْ يتوسَّعَ فيها إذا كانتْ مختلفةً عن رحلةِ الانطلاقِ ، كما أنَّ لَهُ أنْ يختصرَها إذا كانتْ مُطابِقةً لرحلةِ الذَّهابِ.

وغالبًا ما يكونُ الوصولُ إلى نقطةِ الانطلاقِ باعثًا على تحريكِ مشاعرِ الرحَّالةِ تجاهَ وطنِهِ الذي خرجَ مِنهُ. وبعدَ الوصولِ لا يبقى أمامَ الرحَّالةِ سوى الخاتمةِ.

ومِن هذا التسلسلِ الزمانيِّ والمكانيِّ والفنيِّ ، يستمدُ هذا البناءُ منطقيَّتَهُ وتماسُكَهُ. ويعدُّ البناءُ النمطيُّ أيسرَ الأبنيةِ المتَّبَعةِ في كتابةِ الرِّحْلاتِ[1].

وقد يكونُ البناءُ النّمَطِيُّ زمانيًّا بحتًا ؛ يُقسّم فيهِ الرحالةُ نصَّهُ إلى وَحَدَاتٍ زمانيَّةٍ تعتمدُ التوقيتَ اليوميَّ أو الأسبوعيَّ أو الشهريَّ ، وهنا إمَّا أنْ تُعنونَ الوحدةُ بالزمنِ أو تُختمَ بهِ[2].

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٧١.

(٢) ينظر : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٢٦.

وفي خاتمةِ الحديثِ عن هذا النمطِ من البناءِ لابدَّ لنا من القولِ بأنَّ البناءَ النمطيَّ لا يتناسبُ إلَّا معَ كتابٍ يوثِّقُ رحلةً واحدةً فحسب ؛ لتكونَ معالمُ الرحلةِ وأزمانُها مُحدَّدةً وواضحةً[1].

٢- البناءُ الـمِحْوَرِيُّ :

ويركِّزُ فيهِ الرحَّالةُ على محورٍ أو محاورَ محدَّدةٍ في جميعِ أحوالِ الرِّحلةِ تكونُ خاضعةً لشخصِ الرَّحالِ وتخَصُّصِهِ العلميِّ ، ولهذا البناءِ أنْ ينتظمَ أكثرَ مِن رحلةٍ ، كما يمكنُ لهذا البناءِ أنْ يستقلَّ بنفسِهِ ، وقدْ يكونُ تابعًا للبناءِ النمطيِّ ، وهوَ الأكثرُ. وعلى الرحَّالةِ مراعاةُ الصلةِ بينَ المحاورِ وطرحِها بشكلٍ منطقيٍّ متماسكٍ.

ويشبُهُ هذا البناءُ إلى حدٍّ بعيدٍ البحثَ العلميَّ ، لذا فإنَّ على مدوِّنِ الرحلةِ المعتمدِ على هذا البناءِ أنْ يتجنَّبَ الإسرافَ في استخدامِ اللغةِ العلميَّةِ التقريريَّةِ[2].

٣- البناءُ الانتقائيُّ :

لا شكَّ أن جميعَ نصوصِ الرحلةِ تتعرضُ لعمليَّةِ انتقاءٍ -مقصودةٍ أو غيرِ مقصودةٍ- وتهمُّنا هُنا الانتقاءاتُ المقصودُةُ ؛ فللرحَّالةِ أنْ ينتخبَ مِن مُجملِ رحلاتِهِ ما يراهُ مُناسبًا لتحقيقِ غايتِهِ ، كما أنَّ الانتقاءَ قد يكونُ مبنيًّا على أساسِ تتبُّعِ موضوعٍ معيَّنٍ أو ظاهرةٍ محدَّدَةٍ ، ويمكنُ أيضًا لغيرِ الرَّحالةِ أنْ ينتقيَ ما يراهُ أهلًا للانتقاءِ مِن بينِ عدَّةِ رِحلاتٍ ، ولكنْ لابدَّ مِن القولِ بأنَّ هذا النوعَ مِن البناءِ لنْ يسلمَ مِن فَجَواتٍ مُخلَّةٍ ، زمانيَّةٍ ومكانيَّةٍ ،

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٧١.

(٢) السابق ٧٢.

يمكنُ للمنتقي أن يملأَها بذوقهِ وحسِّهِ ، كما أنَّ لوحدةِ الهدفِ ووحدةِ الموضوعِ دورًا في المحافظةِ على تماسكِ البناءِ ومنطقيَّتِهِ[1].

٤- البناءُ التضمينيُّ :

يحصلُ أنْ يتضَمَّنَ الرحلةَ نوعٌ أدبيٌّ آخرُ ؛ فتستخدِمُ أدواتِهِ وآلاتِهِ ، وقدْ يكونُ هذا المزجُ بينَ نوعينِ أدبيينِ مفيدًا ، كما أنَّهُ قدْ يرجعُ بالضررِ على النوعينِ معًا ؛ بحيثُ تَنْدَرِسُ معالمُ كلٍّ منهما بتبعيَّتِهِ للآخرِ[2].

وعلى مُدَوِّنِ الرِّحلةِ -أيًّا كانَ بناءُ رحلتِهِ- أنْ يجتهدَ في وضعِ خُطَّةٍ مُحكمةٍ تكفلُ لرحلتِهِ الترابطَ والتسلسلَ ، وتُحققُ الهدفَ المرجوَّ مِن تدوينِها[3].

طوابعُ مضامينِ نصوصِ الرِّحلةِ :

يمكنُ لأدبِ الرِّحلةِ أنْ يكونَ وعاءً لكلِّ مضمونٍ قَبِلَهُ ذوقُ الرَّحَّالةِ ورَضِيَ بهِ ؛ فالرِّحْلَةُ حياةٌ مُصَغَّرةٌ ؛ تجمعُ بينَ مضامينَ شتى ، وهناكَ مِن بينِ الطوابعِ المضمونيَّةِ ما يكادُ يُجمعُ عليه كتَّابُ الرحلةِ ، وقد تَجمعُ الرحلةُ الواحدةُ أكثرَ مِن طابعٍ مضمونيٍّ ، وقدْ تقتصرُ على طابعٍ واحدٍ[4]. ويمكنُ إجمالُ تلكَ الطوابعِ بما يلي :

١- الطابعُ الموسوعيُّ والمعرفيُّ :

ويحصلُ الرحَّالةُ بهذا الطابعِ على قدرٍ كبيرٍ مِن الحريَّةِ ، ولكنْ يجبُ عليه مراعاةُ دوامِ الاتصالِ معَ القارئِ ؛ فليسَت المزيَّةُ في الموسوعيَّةِ المطلَقَةِ ، بلْ هيَ في الموسوعيَّةِ التي تناسبُ

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٧٣.

(٢) السابق ٧٤.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه ٤٨.

نصِّ الرحلةِ وتضمنُ دوامَ الاتصالِ مع المتلقي. ولا يمكنُنا تصوُّرُ رحلةٍ لا تُضيفُ شيئًا إلى قائمةِ المعرفةِ البشريَّةِ[1].

٢- الطابعُ الوثائقيُّ :

تنبعُ الأهميَّةُ الوثائقيةُ للرِّحلةِ مِن كونِها رحلةً واقعيةً معلومةَ الزمانِ والمكانِ والمؤلِّفِ ، كُتِبتْ لتُحقِّقَ أهدافًا ونتائجَ مقصودَةً. فهيَ إذًا شهادةٌ معتمَدَةٌ على عصرِ الرحالةِ ، وصورةٌ حيَّةٌ لما مرَّ بهِ الرحالةُ من المجتمعاتِ ، وتزدادُ قيمةُ الرحلةِ التوثيقيَّةُ عندما تتقدمُ في الزمنِ وتكونُ كتابتُها بشكلٍ خالٍ مِن التَّعَصُّبِ والأهواءِ.

وذلكَ ما يجعلُ من أدبِ الرحلَةِ مصدرًا أساسيًّا للدراساتِ التاريخيَّةِ المُقارِنَةِ ، كما عدَّهُ أساتذةُ الأدبِ المقارِنِ قسمًا مِن أقسامِ الأدبِ الحديثِ يمكنُ أنْ يُرصدَ تطورُهُ وتميُّزُهُ.

وتقديرًا لأهميَّةِ التوثيقِ فقدْ زوَّدَ الرحَّالةُ نصوصَهُم بكلِّ ما يدعمُ ذلكَ مِن تواريخَ وإحصاءاتٍ وخرائطَ وصورٍ ، مرسومةٍ أو (فوتوغرافيَّةٍ) ، وأحداثٍ وتفاصيلَ دقيقةٍ[2].

٣- الطابعُ الذاتيُّ :

الرحلةُ تجربةٌ ذاتيَّةٌ -في الغالبِ- تعكسُ رؤيةَ الرحَّالةِ ومشاعرَهُ وأفكارَهُ وقُدراتِهِ ، وتُقيِّدُ فصلًا مهمًّا مِن سيرةِ حياتِهِ ، وإذا كان الرحالةُ هو الذاتُ المركزيةُ (البطلُ) فلا تثريبَ عليهِ أنْ يصفَ مشاعرَهُ الدقيقةَ ، وقدْ تكونُ تلكَ التفاصيلُ النفسيَّةُ الدقيقةُ أمتعَ أجزاءِ الرِّحلةِ وأكثرَها تأثيرًا في المتلقي[3].

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٤٨.

(٢) السابق ٤٩.

(٣) ينظر : مشوار كتب الرحلة ٧ ، والرحلات المغربية السوسية ٢٣.

وربما يكونُ اعتدادُ الرحَّالةِ بتجربتِهِ ، وسعيُهُ إلى حفظِها مِن قبيلِ التعويضِ عمَّا كابَدَهُ مِن مصاعبَ في أثناءِ الرحلةِ[1].

٤- الطابعُ الكشفيُّ :

يسعى الرحَّالةُ الجيِّدُ إلى إعمالِ جميعِ حواسِّهِ واستخدامِ كلِّ ما يصلُ بالمتلقي إلى حقيقةِ وأسرارِ ما مرَّ بِهِ مِن الأشياءِ ، وبذلكَ يتفاضلُ الرحَّالةُ فيما بينهم ويُعرفُ مدى عمقِ تجربةِ الواحدِ منهم[2].

٥- الطابعُ الإنسانيُّ :

تقعُ الرِّحلةُ بينَ أقطابٍ ثلاثةٍ : إنسانٌ يصفُ إنسانًا آخرَ ويوجِّهُ هذا الوصفَ إلى إنسانٍ ثالثٍ. ومهمَّةُ الرحَّالةِ مِنَ الدرجةِ الأولى تكمنُ في وصفِ المجموعِ الإنسانيِّ المرتحلِ إليهِ ، والمقارنةِ بينَهُ وبينَ غيرِهِ ، وبيانِ لغتِهِ ومُعتقداتِهِ ، ووصفِ خِلقَتِهِ وأخلاقِه وأفكارِهِ وحضاراتِهِ وتقاليدِهِ وعاداتِهِ[3].

٦- الطابعُ الجماليُّ :

ونلمَسُ هذا الطابعَ في كلِّ ما تلتقطُهُ عينُ الرحَّالةِ مِن مناظرَ ومشاهدَ جميلةٍ تجذبُ القارئَ وتجعلُهُ يستمتعُ بقراءةِ الرِّحلةِ ، ولن يتأتى ذلكَ إلا بعدَ أنْ يصلَ الرحالةُ إلى درجةٍ

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٥١.

(٢) ينظر : فن المقالة ١١٥ ، والرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٥١.

(٣) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٥٢.

مِن الانسجامِ مع الطبيعةِ تَسْمُو بروحهِ فتحفِّزَها وتقودَها إلى الإبداعِ في الكشفِ الحقيقيِّ عن تلكَ المناظرِ[1].

٧- الطابعُ النقديُّ :

ينبغي على الرحالةِ أنْ يكونَ ذا عينٍ فاحصةٍ مُنصِفةٍ ، وقدْ يُلْبِسُ الرحَّالةُ نقدَهُ لباسَ الفُكاهةِ والنُّكتةِ ؛ ليتسلَّلَ مِن خلالِ البسمةِ إلى روحِ القارئِ ، وقدْ تصطبغُ الرحلةُ كلُّها بتلكَ الصبغةِ النقديةِ الفُكاهيَّةِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يكونَ هدفُ الرحالةِ هوَ النقدُ لا السخريةُ أو الانتقاصُ ، وقديمًا قيلَ : شرُّ البليَّةِ ما يُضحكُ[2].

وبعد أن وقفتُ على الرحلةِ بأنواعِها وأشكالِها وأدبيَّاتِها ، فإنني سأنتقلُ إلى دراسةِ أدبيَّةِ رِحْلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ ، وسأبدأُ بدراسةِ السِّردِ لكونِهِ أهمَّ مكونٍ من مكوناتِ النصِ الرحليِّ.

---

(١) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٥٤.

(٢) ينظر: العين الساخرة أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية ١٣ ، والرحلة في الأدب العربي ، الموافي ٥٨.

الفصل الأول :

البناء الفني للرحلات نصًّا سرديًّا :

*المبحث الأول : الترتيب الزمني.

*المبحث الثاني : السرعة.

*المبحث الثالث : الوصف.

*المبحث الرابع : الحوار.

المبحث الأول :

الترتيب الزمني

للسردِ القصصيِّ ، «-تمامًا كما للعلامةِ اللغويَّةِ- وجهانِ متلازمانِ متمايزانِ ، هما : الحكايةُ والخطابُ. الأولى مادّةٌ خام يتلبَّسُ بِها الثاني فيخرجُها مِن حيِّزِ الوجودِ بالقوّةِ إلى حيِّزِ الوجودِ بالفعلِ»[1]. ويمكنُ القولُ بأنَّ الأُولى ، هي : «العالَمُ الذي يقدِّمُهُ النصُّ ؛ أي : الأحداثُ والشخصياتُ والمكانُ والزمانُ»[2] ، أمَّا الثانيةُ فهي : «الكلامُ الذي يَروي الحدثَ أو الحكايةَ»[3]. «ولكنَّ هذا لا يعني -في السَّردِ التخييليِّ[4]- أسبقيّةَ الحكايةِ على الخطابِ ؛ ففعلُ السّردِ ينتجُهما معًا في اللحظةِ ذاتِها»[5] ، على خلافِ الأمرِ في الرحلةِ والسردِ المرجعيِّ عمومًا[6] ؛ حيثُ يقتضي الأمرُ أسبقيةَ الفعلِ على السَّردِ.

وللشكلانيينَ الروسِ الأسبقيةُ في التمييزِ بينَ الحكايةِ والخطابِ ؛ حيثُ أطلقوا على الحكايةِ : المتنَ الحكائيَّ ، بينما أطلقوا على الخطابِ : المبنى الحكائيَّ[7]. ويمكنُ للحكايةِ الواحدةِ أنْ تُروى بِطُرُقٍ (بخطابات) مُختَلِفةٍ ، وعلى تلكَ الطُّرقِ يكونُ مدارُ الأهميَّةِ والتَّفاضُلِ بينَ الكُتَّابِ[8] ؛ فللراوي -كاتبًا واقعيًا أو راويًا تخييليًّا- أنْ يُغيِّرَ في ترتيبِ

---

(١) البنية والدلالة في الرواية ١٣.

(٢) معجم مصطلحات نقد الرواية : (حكاية).

(٣) معجم مصطلحات نقد الرواية : (قصة).

(٤) السرد التخييلي : القصة المبتدعة (رواية وأقصوصة وغيرها). ينظر : معجم السرديات : (تخييل).

(٥) البنية والدلالة في الرواية ١٣.

(٦) السرد المرجعي : مختلف القصص والأجناس السردية التي تعنى بسرد ما وقع فعلا ، مثل قصص الرحلات والسيرة الذاتية والمذكرات. ينظر : معجم السرديات : (قصص مرجعي).

(٧) ينظر : طرائق تحليل السرد الأدبي ٤١.

(٨) ينظر : تحليل الخطاب الروائي ٧ ، وقاموس السرديات: (خطاب) ، (سرد).

الأحداثِ تقديمًا أو تأخيرًا ؛ بُغيةَ التأثيرِ في القارئِ وتشويقِهِ إلى قراءةِ المتبقي من الأحداثِ[1].

ويمكنُ إدراكُ مدى التحريفِ في ترتيبِ الأحداثِ مِن خلالِ دراسةِ الترتيبِ الزمنيِّ (ترتيبُ الأحداثِ في الخطابِ) ، وتتمُّ دراسةُ هذا الترتيبِ مِن خلالِ المقارنةِ بينَ ترتيبِ الأحداثِ في الخطابِ وترتيبِها في الحكايةِ ؛ فلا تكادُ النصوصُ السَّرديَّةُ تخلو مِن درجةٍ مِن التَّحرِيفِ أو التَّشْويهِ المقصودِ تَحِيدُ بالأحداثِ عن تَسَلْسُلِها الطَّبِيعِيِّ في الحكايةِ ؛ فعلى صعيدِ الواقعِ يمكنُ للَّحْظةِ الواحدةِ أنْ تشتملَ على أكثرَ مِن حدثٍ ، أمَّا في السردِ فإنَّهُ يجبُ إسقاطُ تلكَ الأحداثِ المتشَعِّبَةِ على خطٍّ مُستقيمٍ يعرضُ الحدثَ تلوَ الآخرَ ، ولن يتأتى ذلك إلا بعدَ عملياتٍ مِن الاصطفاءِ وإعادةِ الترتيبِ[2].

وينتجُ عن هذا التفاوتِ ، بينَ ترتيبِ الأحداثِ في الخطابِ وترتيبِها في الحكايةِ ، ما يُسمَّى بـ(المفارقةِ الزمنيَّةِ) ، ويمكنُ التَّعرُّفُ على المفارقةِ مِن خلالِ القرائنِ والدلائلِ النصيَّةِ ؛ المباشرةِ أو غيرِ المباشِرةِ[3].

وتكونُ المفارقةُ بمخالفةِ التوافقِ الزمنيِّ التامِّ (الدرجة الصفر من تسلسل الأحداث في الحكاية) بينَ الخطابِ والحكايةِ ، إمَّا بالرجوعِ إلى الخلفِ ؛ لاسترجاعِ أحداثٍ سابقةٍ ، أو بالقفزِ إلى الأمامِ ؛ لاستشرافِ واستباقِ أحداثٍ لمْ يصلْ إليها السَّردُ بعدُ[4].

---

(١) ينظر : إشكالية الزمن في النص السردي ، عبد العالي بوطيب ، فصول ، ١٩٩٣م ، م ج١٢ ، ع٢ ، ص١٢٩.

(٢) ينظر : طرائق تحليل السرد الأدبي ٤١ ، وتحليل النص السردي ، القاضي ٥٧ ، وخطاب الحكاية ٤٠ ، والخطاب السردي في روايات عبد الله الجفري ٥٥.

(٣) ينظر : معجم السرديات : (ترتيب زمني) ، والرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ٢٤.

(٤) ينظر : خطاب الحكاية ٤٧ ، وبنية النص السردي ٧٣.

عملياتُ الـمُفارقَةِ الزَّمنيَّةِ في السَّردِ :

الأصلُ في السَّردِ أنْ يكونَ متناميًا ومتسلسلًا منذُ افتتاحِهِ ؛ فهوَ خطيٌّ ضرورةً ، ولكنْ قدْ يلحقُ السردَ تلاعبٌ وبلبلةٌ بسببِ ما يحصلُ في ثناياهُ مِن الارتداداتِ والاستباقاتِ ، وعليهِ فإنَّ المفارقةَ الزمنيَّةَ تحصلُ بسببِ عمليتي الارتدادِ والاستباقِ(١):

١-الارْتِدادُ :

تلتقي تعريفاتُ الارتدادِ(٢) حولَ معنًى واحدٍ ؛ فهوَ عندَ جيرار جنيت (Genette) : «كُلُّ ذِكْرٍ لاحقٍ لحدثٍ سابقٍ للنُّقْطَةِ التي نحنُ فيها مِن القصةِ»(٣) ، أمَّا تودوروف (Todorov) فيُحدِّدُهُ بأنَّهُ : ما «يروي لنا فيما بعدُ ما قدْ وقعَ مِن قبلُ»(٤) ، ويعرِّفُهُ جيرالد برنس (Gerald Prince) بأنَّهُ : «استدعاءُ حدَثٍ أو أكثرَ وَقَعَ قبلَ لحظةِ الحاضرِ»(٥).

أنواعُ الارتدادِ :

ويمكنُ تقسيمُ أنواعِ الارتدادِ انطلاقًا من علاقتِهِ بأوَّلِ وأقدمِ حدثٍ في الحكايةِ المسرودةِ ؛ فقدْ قسَّمَهُ (جنيت) إلى :

---

(١) ينظر : معجم السرديات : (استباق).

(٢) اعتمدت هذا التسمية التي استخدمت في معجم السرديات ، وتركت تسميات أخرى مثل :
الاسترجاع ، استخدمها (جنيت) ، ينظر : خطاب الحكاية ٥١.
اللواحق ، استخدمت في كتاب مدخل إلى نظرية القصة ، ينظر : مدخل إلى نظرية القصة ٨٠.
الاستذكار ، استخدمها حسن بحراوي ، ينظر : بنية الشكل الروائي ١٢١.

(٣) خطاب الحكاية ٥١.

(٤) الشعرية ٤٨.

(٥) قاموس السرديات : (استرجاع).

أ- ارتدادٍ داخليٍّ : ويكونُ بالعودةِ إلى أحداثٍ واقعةٍ ضمنَ النطاقِ الزمنيِّ للمستوى الأوليِّ في السَّردِ.

ب- ارتدادٍ خارجيٍّ : ويكونُ بالرجوعِ إلى أحداثٍ سابقةٍ للنِّطاقِ الزمنيِّ للمستوى الأوليِّ في السَّردِ ؛ حيثُ تقعُ تلكَ الأحداثُ قبلَ نقطةِ بدايةِ الأحداثِ في الحكايةِ المسرودةِ.

ج ـ ارتدادٍ مزجيٍّ : ويكونُ باسترجاعِ أحداثٍ خارجيَّةٍ تمتدُّ زمنيًّا لتصلَ إلى ما بعدَ نقطةِ انطلاقِ الأحداثِ في الحكايةِ المسرودةِ. وهوَ أقلُّ استعمالًا مِن سابقَيهِ[1].

٢- الاستباقُ :

يمكنُ تحديدُ الاستباقِ[2] بأكثرَ مِن صيغةٍ لُغويةٍ ؛ ففي معجمِ السَّردياتِ : «سردُ حدثٍ لاحقٍ أو ذكرُهُ مُقَدَّمًا»[3]. وهوَ عندَ (جيرالد برنس) : «استدعاءُ حدثٍ أو أكثرَ ، سوفَ يقعُ بعدَ لحظةِ الحاضرِ»[4].أمَّا عندَ حميدٍ لحْمدانيِّ فهو : أنْ «يتعرَّفَ القارئُ إلى وقائعَ قبلَ أوانِ حدوثِها الطبيعيِّ في زمنِ القصَّةِ»[5].

---

(١) ينظر : خطاب الحكاية ٦٠ ، ومعجم السرديات : (ارتداد).

(٢) اعتمدت هذه التسمية التي استخدمها (جنيت) ، ينظر : خطاب الحكاية ٥١ ، وتركت تسميات أخرى مثل :

السوابق ، استخدمت في كتاب مدخل إلى نظرية القصة ، ينظر : مدخل إلى نظرية القصة ٨٠.

الاستشراف ، استخدمها حسن بحراوي ، ينظر : بنية الشكل الروائي ١٣٢.

(٣) معجم السرديات : (استباق).

(٤) قاموس السرديات : (استباق).

(٥) بنية النص السردي ٧٤.

ويُعدُّ الاستباقُ أقلَّ استخداماً مِن نظيرِهِ (الارتدادِ) ؛ فقدْ تُفسِدُ كثرتُهُ شوقَ القارئِ إلى لواحقِ الأحداثِ واستمتاعَهُ بها(١).

ويكونُ اللجوءُ للاستباقِ -غالبًا- في النصوصِ التي تتشكَّلُ بعدَ انتهاءِ أفعالِها ، مثلَ : الرحلاتِ(٢) ، أو النصوصِ المرويَّةِ بضميرِ المتكلِّمِ ، مثلَ : السِّيرِ الذاتيَّةِ ؛ وذلكَ لهيمنةِ الراوي وإحاطَتِهِ بلواحقِ الأحداثِ(٣).

وللاستباقِ أهميتُهُ في السَّردِ ؛ فمن خلالِهِ يمكنُ الإعلانُ عن الأحداثِ اللاحقةِ في القصَّةِ ، وغالبًا ما يكونُ ذلكَ بصيغةِ السينِ معَ الفعلِ المضارعِ ، مثلَ : سنذهبُ ، سنصلُ(٤).

ولهُ -أيضًا- أهميَّتُهُ مِن حيثُ تشويقُ القارئِ أو تهيئتُهُ للأحداثِ المقبلةِ في القصَّةِ أو حملُهُ على توقُّعِها والتَكَهُّنِ بها ، كما تكمنُ أهميتُهُ في التنويعِ والمراوحةِ بينَ تقنياتِ السَّردِ(٥).

أنواعُ الاستباقِ :

كما في الارتدادِ ؛ فإنه يمكنُنا تصنيفُ الاستباقِ بناءً على موقِعِ الاستباقِ مِن النطاقِ الزمنيِّ للمستوى الأوليِّ في السَّردِ ؛ فقد صنَّفَهُ (جنيت) إلى(٦):

---

(١) ينظر : خطاب الحكاية ٧٦ ، وتقنيات السرد وآليات تشكيله الفني ٧٠.

(٢) ينظر : شعرية السرد في القصة السعودية القصيرة ٢١٤.

(٣) ينظر : خطاب الحكاية ٧٦ ، ومعجم مصطلحات نقد الرواية : (استباق) ، وتقنيات السرد ٧٠.

(٤) ينظر : خطاب الحكاية ٨١.

(٥) ينظر : السابق ٧٦ ، وقاموس السرديات : (توقع) ، (تنبؤ) ، (التشويق).

(٦) ينظر : معجم السرديات : (استباق).

أـ استباقٍ داخليٍّ : تقعُ سَعَتُهُ[1] داخلَ المجالِ الزمنيِّ للمستوى الأوليِّ في السَّردِ[2]. وقد يكونُ أكثرَ استخدامًا مِن النوعِ التالي ؛ لتفرُّدِهِ بالدورِ الإعلانيِّ عن أحداثِ القصَّةِ اللَّاحقةِ[3].

ب ـ استباقٍ خارجيٍّ : تقعُ سَعَتُهُ خارجَ النطاقِ الزمنيِّ للمستوى الأوليِّ في السَّردِ[4].

ج ـ استباقٍ مزْجيٍّ : «بعضُ سَعَتِهِ داخلَ المجالِ الزمنيِّ»[5] للمستوى الأوليِّ في السَّردِ وبعضُها الآخرُ خارجَهُ.

وسأعملُ مستنيرًا بهذا الجهازِ النظريِّ لمقاربةِ الترتيبِ الزمنيِّ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ ، آخذًا بعينِ الاعتبارِ الفرقَ بينَ السَّردِ التخييليِّ والسَّردِ المرجعيِّ.

---

(١) السعة : هي المدة التي تستغرقها المفارقةُ الزمنية منذ انفتاحِها وحتى انغلاقها. ينظر: معجم السرديات : (سعة).

(٢) ينظر : معجم السرديات : (استباق).

(٣) ينظر : إشكالية الزمن في النص السردي ، عبد العالي بوطيب ، فصول.

(٤) ينظر : معجم السرديات : (استباق).

(٥) السابق : (استباق).

الترتيبُ الزمنيُّ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

يخضعُ الخطابُ الرحليُّ –غالبًا– للتَّسلسلِ البنائيِّ والزمنيِّ الطبيعيِّ ؛ فيبدأُ بسردِ أسبابِ الرِّحلةِ وزمانِها ثمَّ يتناولُ مرحلةَ الانطلاقِ ويستمرُّ بعدَها السردُ متصاعدًا إلى أنْ ينتهي بسردِ أحداثِ الوصولِ ليتحولَ في مرحلةِ القفولِ إلى سردٍ تنازليٍّ يستمرُّ في تنازلِهِ إلى أنْ يصلَ إلى نقطةِ الانطلاقِ الأولى ؛ وتعدُّ نقطةَ النهايةِ الفعلية للرحلةِ ، إنَّنا إذًا إزاءَ فعلٍ دائريٍّ يوازيهِ خطابٌ دائريٌّ[1].

وقدْ يتبادرُ إلى الذهنِ عدمُ جدوى دراسةِ المفارقةِ الزمنيةِ في الخطابِ الرحليِّ ؛ حيثُ إنَّ «خطابَ الرحلةِ خطابٌ غيرُ مفارقٍ ؛ لأنَّهُ لا يقومُ على المفارقاتِ الزمانيَّةِ بما فيها مِن استرجاعٍ واستباقٍ»[2] –كما يرى سعيدُ يقطينُ– ولكنَّ القولَ بذلكَ «لا يمكنُ أنْ يستقيمَ في جُملةٍ من الرِّحلاتِ العربيةِ الحديثةِ ؛ حيثُ تُواجِهُ هذهِ الخُطَاطَةُ المنطقيةُ في البدءِ والمنتهى تجاوزًا وتحطيمًا عبرَ ذاتِ الرحالةِ الفنيةِ التي لم يعدْ بإمكانِها أن تسيرَ على النمطِ التراثيِّ الثابتِ مسبقًا ، وأحسبُ أنَّ يقطينَ سيلحظُ هذه الإشكاليةَ حينَ يُطالعُ بعضَ الرحلاتِ العربيةِ المعاصرةِ التي جاءت مشيرةً أحيانًا إلى تاريخِ الرحلةِ في مطلعِها لكنَّها تعودُ للمفارقاتِ الزمانيةِ بما فيها منِ استرجاعٍ واستباقٍ وتقديمٍ وتأخيرٍ وفقَ رؤيةِ المرتحلِ ؛ فهذا المرتحلُ السعوديُّ فهدُ العريفيُّ –مثلًا– يتجاوزُ الحديثَ عن المقدمةِ التي تتحدثُ عن زمنِ خروجِ الرحلةِ وتاريخِ بدايتِها ليتحدَّثَ عن رغبتِهِ في إطلاعِ السيَّاحِ وزوارِ بريطانيا على معلوماتٍ مهمةٍ ، ويبدأُ رحلتَهُ مباشرةً بقوله : أكتبُ هذهِ الأسطرَ وأنا مشدودٌ إلى أحدِ

---

(١) ينظر : السرد العربي مفاهيم وتجليات ٢٠٧ ، وأدبية الرحلة ١٩ ، وإشكالية الزمن في النص السردي ، عبد العالي بوطيب ، فصول.

(٢) السرد العربي ٢٠٨.

الكراسي على متنِ طائرةٍ سعوديةٍ ، بوينج ٧٤٧ ، تسْبحُ بينَ السماءِ والأرضِ متجهةً على بركة الله من الرياضِ إلى لندنَ. وهو يختمُ رحلتَهُ ليسَ بالحديثِ عن العودةِ تارةً أخرى وانتهاءِ الرحلةِ بل بحديثِ شخصين سمعهما يتحدثانِ...حيثُ يختمُ رحلتَهُ بحديثِهما الحضاريِّ»[١].

ويمكنُنا تقسيمُ الخطابِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ إلى مفاصلَ كبرى (مستوى خارجي) ، تتفرعُ بدورِها إلى مفاصلَ صُغرى (مستوى داخلي). وسأبدأُ بدراسةِ المفاصلِ الكبرى ثم أدرسُ بعد ذلك زمنيةَ المفاصلِ الصغرى ؛ انطلاقًا من العامِّ إلى الخاصِّ.

ولدراسةِ الترتيبِ الزمنيِّ في المفاصلِ الكبرى فإنَّه ينبغي القولُ بأنَّ الرحلاتِ المدروسةَ تمثلُ رحلاتٍ مُجتزَأَةً مِن رحلاتٍ كبرى ، إمَّا إلى البرازيلِ وحدَها أو إلى البرازيلِ ودولٍ أخرى ، وقدْ رأى العبوديُّ بعدَ ذلك أنْ ينشرَ تلكَ الرحلاتِ المجتزأةَ وفقَ سلسلةٍ مناطقيَّةٍ لا تأبَهُ بالترتيبِ الزمنيِّ ، لذا فقدْ تكونُ تلكَ الرحلاتُ مغايرةً نوعًا ما ، للبرنامجِ الرحليِّ المعروفِ باعتنائهِ بمراحلِهِ الثلاثِ (مرحلة الذهاب ، مرحلة الوصول ، مرحلة الرجوع)[٢]؛ بحيثُ نجدُ أنَّ مرحلةَ الذهابِ في هذه المدونةِ تتَّصفُ بالقصرِ النسبيِّ ؛ والذي يمكنُ تعليلُهُ بأنَّ تلكَ الرحلاتِ لمْ تكنْ رحلاتٍ مستقلةً تبدأُ مِن بلدِ العبوديِّ ؛ فلو نظرنا إلى نقاطِ الانطلاقِ في جميعِ الرحلاتِ المدروسةِ لوجدنا أنَّها تنطلقُ مِن داخلِ بلادِ البرازيلِ ، فقدْ بدأَ سردَ رحلتِهِ إلى شرقِ البرازيلِ بقولِهِ : «مِن برازيليا إلى سلفادور : غادرنا مطارَ (برازيليا)»[٣] ، كما افتتحَ أحداثَ رحلتِهِ (على ضفافِ الأمازونِ) بقولِهِ : «مِن (برازيليا) إلى

---

(١) أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية ، محمد القسومي ، عبد الله حامد ٧.

(٢) ينظر : أدبية الرحلة ١٩.

(٣) في شرق البرازيل ٢٤.

(ماناوس)»[1] ، وقدْ بدأَ قصَّ رحلتِهِ (إلى جنوبِ البرازيلِ) بقولِهِ : «من (فوز دو قواسو) إلى (بورتو إليقري)»[2] ، وكان هذا ديدَنُهُ في رحلاتِهِ الباقيةِ ، إلى البرازيلِ[3] ، ولعلَّ سببَ ذلكَ يرجعُ إلى ما ذكرتُهُ آنفًا من كونِ تلكَ الرحلاتِ قدْ اجتُزِئت من برنامجٍ رحليٍّ شاملٍ لدولةٍ أو أكثرَ[4].

أمَّا مرحلةُ العودَةِ في هذه المدونةِ فإنَّها محصورةٌ بتلكَ الجملِ القليلةِ التي يختمُ بها العبوديُّ رحلاتِهِ معلنًا عن انتهائها ثُمَّ المغادرةِ. وقدْ تعلنُ تلكَ الجملُ الختاميَّةُ عن المغادرةِ إلى بلدِ العبوديِّ الأصليِّ ، كما فعلَ في رحلتِهِ إلى شرقِ البرازيلِ حيثُ ختمَها بقولِهِ : «وغادرنا (رصيفي) معَ طائرةِ الخطوطِ الجويَّةِ الفرنسيةِ (أير فرانس) في الحاديةَ عشرةَ والنصفِ ليلًا ، والمقررُ أنْ تصلَ الطائرةُ إلى باريسَ في الثانيةَ عشرةَ ظهرًا من يومِ غدٍ السبتِ ؛ فنبقى في باريسَ يومًا واحدًا ونغادرُها مع السعوديةِ يومَ الأحدِ إلى جدَّةَ ، وقدْ بلَغَتْ مُدَّةُ الطيرانِ مِن رصيفي إلى (باريس) ثمانيَ ساعاتٍ وثلثًا ، وهذا أمرٌ جيدٌ بالمقارنةِ بالسفرِ من (ريودي جانيرو) إلى (باريس) ، الذي يستغرقُ إحدى عشرةَ ساعةً في الوسطِ»[5] ، ومثلُ ذلكَ خاتمةُ رحلتِهِ إلى الشرقِ الشماليِّ من البرازيلِ ، حيثُ يقولُ : «ومِن (رصيفي) توجَّهتُ مع الخطوطِ الفرنسيَّةِ إلى باريسَ ، ثمَّ مِن هناكَ مع الخطوطِ السعوديةِ إلى

---

(١) على ضفاف الأمازون ٩.

(٢) في جنوب البرازيل ٣٣.

(٣) ينظر : على أرض القهوة البرازيلية ٨ ، وفي غرب البرازيل ١١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٨.

(٤) ينظر : الشرق الشمالي من البرازيل ٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٧٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٩.

(٥) في شرق البرازيل ١٨٢.

جدةَ ، وللهِ الحمدُ»[١]. وقدْ تعلنُ خواتمُ الرحلاتِ المدروسةِ عنِ المغادرةِ إلى مكانٍ آخرَ قدْ رسمَهُ العبوديُّ مُسبقًا في برنامجِهِ ، كما فعلَ في رحلتِهِ (على ضفافِ الأمازونِ) ؛ إذْ ختَمَها بقولِهِ : «وغادرنا مدينةَ (بليم) وبذلكَ غادرنا البرازيلَ حينَ قامت الطائرةُ في الثانيةَ عشرةَ -وهو منتصفُ الليلِ- قاصدةً (غيانا) الفرنسيَّةَ المجاورةَ ، وسوفَ تقومُ منها إلى (باراما بيو) عاصمةِ دولةِ (سوريناَم) التي نقصدُها ، وقد قصصتُ أمرَ هذهِ الرحلةِ إلى (سورينام) في كتابِ : رحلاتٍ إلى أمريكا الشماليَّةِ»[٢] ، ومثلُ ذلكَ ما ختمَ بهِ رحلتَهُ إلى غربِ البرازيلِ ، حيثُ يقولُ : «هذا وقد سافرتُ مِن برازيليا إلى مدينةِ بيلو أورزنت مساءَ هذا اليومِ ، والحديثُ عنها في كتابِ : الحلِّ والرحيلِ في بلادِ البرازيلِ ، وعلى الله التعويلُ»[٣]. وعلى ذلك جاءتْ خاتمةُ رحلتيهِ : (على أرضِ القهوةِ البرازيليَّةِ) و(في جنوبِ البرازيلِ)[٤].

ولم يكنْ هذا النهجُ (اختصارُ طريقي الذهابِ والعودةِ) ابتداعًا مِن لدنِ العبوديِّ ؛ حيثُ إنَّ المنهجَ الرحليَّ المعهودَ منذُ بدايةِ الكتابةِ في هذا الجنسِ أصبحَ أكثرَ عرضةً للتغيُّرِ ولاسيَّما بعدَ التطوِّرِ المذهلِ لوسائلِ النقلِ والاتصالاتِ الحديثةِ ، حيثُ قَصُرَتْ مدَّةُ طريقي الذهابِ والعودةِ ؛ فلا يكادُ يفصلُ الرحَّالةَ عن أقصى بلادِ العالمِ سوى ساعاتٍ محدودةٍ يقضيها في الطائرةِ دونَ أنْ يشعرَ بالمللِ أو السأمِ ، ممَّا جعلَ سردَ أحداثِ الاستعدادِ

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ١٦٥.

(٢) على ضفاف الأمازون ٩٢.

(٣) في غرب البرازيل ١٠٧.

(٤) ينظر : على أرض القهوة البرازيلية ١١٧ ، وفي جنوب البرازيل ١٤١.

والذهابِ والعودةِ يبدو قصيرًا بسيطًا مناسبًا للقصرِ الواقعيِّ ، وتبقى -لذلك- السيطرةُ والأهميةُ لحديثِ الوصولِ في معظمِ الخطابِ الرحليِّ العصريِّ(١).

وينبغي علي أنْ أشيرَ -وأنا في صددِ دراسةِ المفاصلِ الكبرى في هذه المدونةِ- إلى أنَّ الرحلاتِ المدروسةَ لم تكنْ تبدأُ مباشرةً بسردِ أحداثِ الرحلةِ ؛ حيثُ يتمُّ التقديمُ والتمهيدُ بمقدماتٍ تعطي القارئ بعضَ المعلوماتِ عن المنطقةِ أو الولايةِ المرتحلِ إليها(٢). وقدْ يُمَهِّدُ العبوديُّ -أيضًا- بذكرِ سببِ الرحلةِ ، مِن قبيلِ قولِه : «مدينةُ ماناوس مِن المدنِ المُهمَّةِ في البرازيلِ...ومعَ هذهِ الأهميةِ للمدينةِ فإنَّ لسفري إليها حافزًا آخرَ ألا وهو وجودُ طائفةٍ مِن الإخوةِ المسلمينَ لم يقوموا حتى الآنَ ببناءِ مسجدٍ أو مركزٍ إسلاميٍّ يُجمعُ فيه بينَ العبادةِ والدراسةِ»(٣) ، كما لمْ تخلُ جميعُ الرحلاتِ المدروسةِ مِن مقدماتٍ يسيرةٍ شأنَ سائرِ المقدماتِ التي تُصدَّرُ بها الكتبُ غالبًا ، ويمكنُ اعتبارُ هذهِ المقدماتِ ميثاقًا سرديًّا مرجعيًّا «يعلنُهُ المؤلفُ -غالبًا- في الفاتحةِ النَّصيَّةِ مُبيِّنًا عزْمَهُ على سردِ قصَّةِ رحلةٍ قامَ بها بنفسِهِ ووصفَ ما شاهدَهُ أثناءَها»(٤).

---

(١) ينظر : أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية ، محمد القسومي ، عبد الله حامد ٨ ، وأدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس ١٦.

(٢) ينظر : على أرض القهوة البرازيلية ٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٧ ، وفي شرق البرازيل ١٩ ، وفي جنوب البرازيل ١٩.

(٣) على ضفاف الأمازون ٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٩ ، وفي شرق البرازيل ١٤.

(٤) معجم السرديات : (قصص الرحلات).

وإلى كلِّ ما سبقَ فإنَّ خطابَ هذه المدونةِ يسيرُ في مفاصلِهِ الكُبرى سيرًا أفقيًّا تتابعيًّا موازيًّا للتَّرتيبِ المكانيِّ والزمنيِّ للقصَّةِ ، وغالبًا ما تكونُ المفاصلُ الكبرى في هذهِ المدونةِ محدَّدَةَ المكانِ واليومِ والتاريخِ. ولو أردنا أنْ نطَّلعَ -مثلًا- على رحلةِ العبوديِّ إلى جنوبِ البرازيلِ فإنَّنا سنجدُ أنَّ مفاصلَها الكبرى تتمثلُ فيما يلي :

ـ يومُ الجمعةِ ٢٦/ ٥/ ١٤٠٨هـ ـ ١٥/ ١/ ١٩٨٨م : مِن فوز دو قواسو إلى بورتو إليقري.

ـ في مطارِ برتو إليقري.

ـ يومُ السبتِ ٢٧/ ٥/ ١٤٠٨هـ ـ ١٦/ ١/ ١٩٨٨م : من بورتو إليقري إلى كرسيوما.

ـ في مدينةِ كرسيوما.

ـ يومُ الأحدِ ٢٨/ ٥/ ١٤٠٨هـ ـ ١٧/ ١/ ١٩٨٨م : مغادرةُ كرسيوما.

ـ العودةُ إلى بورتو إليقري

ـ يومُ الاثنينِ ٢٩/ ٥/ ١٤٠٨هـ ـ ١٨/ ١/ ١٩٨٨م : جولة في بورتو إليقري.

ـ مغادرةُ بورتو إليقري.

ويدلُّ هذا التسلسلُ على السيرِ التعاقبيِّ الموافقِ لسيرِ الحكايةِ الزمنيِّ والمكانيِّ.

ولئنْ كانت الوحداتُ الكبرى متعاقبةً متزامنةً مع الزمنِ الواقعيِّ للحكايةِ في هذه المدونةِ ، إلا أنَّ الأمرَ يختلفُ قليلًا معَ وحداتِ الخطابِ الصغرى ؛ فقدْ يلجأُ العبوديُّ إلى مخالفةِ الترتيبِ الزمنيِّ للحكايةِ ، باللجوءِ إلى الارتدادِ أو بالاستعانةِ بالاستباقِ ، لحاجةِ

السردِ إلى الاستضاءةِ بالماضي أو التذكيرِ بأحداثٍ جرَتْ في الرحلةِ ، أو الإشارةِ إلى ما سيأتي من أحداثِ الرحلةِ والإعلانِ عنها[1].

وإذا ما أردنا أنْ نتتبعَ الارتدادَ والاستباقَ في هذه المدونةِ فإنَّنا سنجدُهما بنوعيهما : الخارجيِّ والداخليِّ ، ويقعُ الخارجيُّ خارجَ النطاقِ الزمنيِّ لأحداثِ الرحلةِ المسرودةِ ، أمَّا الداخليُّ فإنَّهُ يندرجُ في زمنِ الأحداثِ المسرودةِ.

ففي هذه المدونةِ ارتداداتٌ خارجيةٌ ذاتُ مدًى[2] متراوحٍ (قربًا وبُعدًا) لجأَ إليها العبوديُّ على سبيلِ التقصِّي والتَّتبُّعِ ، أو على سبيلِ الاستشهادِ أو المقارنةِ أو غيرِ ذلكَ.

ومِن قبيلِ ذلكَ قولُهُ عن مدينةِ ماناوس (Manaus) : «والطريقُ ما بين المطارِ والمدينةِ أكثرُهُ ريفيٌّ غيرُ معمورٍ بالمنازلِ ، بلْ وحتى غيرُ مهذَّبٍ ، بلْ هو كالأماكنِ الريفيةِ الطبيعيةِ مع أنَّ المسافةَ بينَ المطارِ وأولِ مدينةِ (ماناوس) لا تزيدُ على تسعةِ كيلو متراتٍ ، ولكنَّ المدينةَ كانت مع المنطقةِ قدْ ظلَّت راكدةً عاجزةً عن التطورِ مُدَّةً طويلةً بسببِ بُعدِها عن مراكزِ الحركةِ التجاريةِ والصناعيةِ في البلادِ وحرارةِ جوِّها وغلبةِ الكسلِ والخمولِ على سكانِها من الهنودِ الأمريكيينَ وبعضِ السودِ الذين هاجروا إليها من أماكنِ استيطانِ العبيدِ

---

(١) ينظر : الرحلات المغربية السوسية ٢٨٩ ، وفن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٣١٥ ، والسرد العربي ٢٠٨.

(٢) المدى : المسافة الزمنية التي تفصل الارتداد أو الاستباق عن اللحظة التي توقفت فيها الحكاية لتفسح في المجال للمفارقة الزمنية. ينظر : معجم السرديات : (مدى).

المهجَّرينَ الذين جيءَ بهم في الأصلِ من القارَّةِ الإفريقيةِ لاستخدامِهم في مزارعِ السكرِ والأعمالِ الشاقَّةِ»[1].

ومِن ذلك -أيضًا- ما جاءَ بهِ في معرِضِ حديثِهِ عن ميدانِ الاستقلالِ في جوا بسوا (Joao Pessoa) ، حيثُ يقولُ : «ولمْ أجدْ في ميدانِ الاستقلالِ هذا ما يستحقُّ الإطالةَ بالوقوفِ معَ أنَّ استقلالَ البرازيلِ كانَ في وقتٍ مُبَكِّرٍ بالنسبةِ إلى وقتِ الاستقلالِ في الدولِ الإفريقيةِ والآسيويةِ فقدْ استقلَّت البرازيلُ في القرنِ التاسعَ عشرَ»[2].

وفي المقابلِ فإنَّ العبوديَّ كثيرًا ما يستعينُ بالارتدادات الداخليةِ ؛ للتذكيرِ أو التعليلِ أو غيرِ ذلكَ ، مثلَ قولِهِ : «دخلنا إلى ولايةِ (سانتا كاترينا) معَ الطريقِ الاتحاديِّ نفسِهِ الذي كنَّا نسيرُ فيهِ عندما كنَّا داخلَ ولايةِ (ريو قراندي دو سول) وقبلَ أنْ نصلَ إلى هذهِ الولايةِ»[3].

ومِن ذلكَ -أيضًا- قولُهُ : «ثمَّ انتقلنا إلى السدِّ المقامِ على البحيرةِ ، وتجري فيهِ المياهُ الزائدةُ عن الحاجةِ فيها متجهةً إلى النهرِ الموجودِ في المنطقةِ ، وهو الذي رأيتُهُ من الطائرةِ في

---

(١) على ضفاف الأمازون ١٦.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ١٤٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٣٣ ، ٨٤ ، وفي جنوب البرازيل ٤٨، ٥٨ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩١ ، ١٥٢ ، وفي غرب البرازيل ، وعلى ضفاف الأمازون ٤٨.

(٣) في جنوب البرازيل ٧٧.

ضحى هذا اليومِ واسمُهُ : نهرُ دي باتشي ، ويبعد باثني عشرَ كيلو مترًا عن مدينةِ (لوندرينا)»[١].

هذا فيما يخصُّ أنواعَ الارتدادِ أمَّا الاستباقُ فإنَّهُ -وإنْ كانَ ورودُهُ لا يعدُّ ظاهرةً- حاضرٌ بنوعيهِ : الخارجيِّ والداخليِّ ؛ حيثُ نجدُ أنَّ العبوديَّ يستعينُ -أحيانًا- بالاستباقِ الخارجيِّ في معرضِ توقُّعِهِ للمآلاتِ أو ذكرِهِ لأحداثٍ مستقبليةٍ تاليةٍ للرحلةِ ، من مثلِ قولِه عن مقبرةِ فوز دو قواسو (Foz do Iguaçu) الخاصةِ بالمسلمينَ : «حملنا أمتعتَنا بالسيارةِ ومررْنا بالأرضِ التي يزمعُ المسلمونَ شراءَها وجعلَها مقبرةً خاصةً...وسوفَ يسوِّرونَها بسورٍ خاصٍّ وتكونُ خاصةً بالمسلمينَ»[٢].

ولا يبعدُ عن ذلكَ قولُهُ : «ولا أشكُّ أنَّ القارئَ الكريمَ سيستغربُ أنْ يرى القرَعةَ وهي على هيئةِ حلقةٍ تُعلَّقُ دونَ حبلٍ أو نحوِهِ»[٣].

أمَّا الاستباقُ الداخليُّ فإنَّهُ حاضرٌ في هذه المدونةِ وبأكثرَ مِن شكلٍ ، مثلَ قولِه : «وكنتُ سألتُ عددًا ممَّن لقيتُهُ مِن الناسِ عن ولايةِ (ريو قراندي) دو نورت التي عاصمتُها (ناتال) لأنَّني سوفَ أسافرُ إليها غدًا أو بعدَ غدٍ بإذنِ الله»[٤].

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٣٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٢٧ ، ٤٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٠ ، ١٠٩ ، وفي غرب البرازيل ٤١ ، ٦٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦١ ، وفي جنوب البرازيل ٣٤.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ١٥٠.

(٣) في جنوب البرازيل ١٠٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١٣٨ ، وفي جنوب البرازيل٨٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥١.

(٤) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٣.

ومثلُ ذلكَ –أيضًا– قولُهُ : «النقطةُ السوداءُ : هذا النهرُ العظيمُ (الأمازونُ) يُسمى هنا : النهرَ الأسودَ وذلكَ لأنَّ مياهَهُ بُنِيَّةُ اللونِ ، والأماكنُ العميقةُ فيها تبدو سوداءَ ، وسوفَ يأتي الحديثُ عن سوادِهِ عندما نشاهدُ اختلاطَهُ بالنهرِ الآخَرِ ذي المياهِ البيضاءِ ، نهرِ (سلمونس) ، فيما بعدُ»[1].

ونحنُ نلاحظُ ندرةَ حصولِ الاستباقِ في هذه المدونةِ ؛ وربما يكون السببُ في ذلكَ كتابةَ الرحلاتِ على هيئةِ مذكراتٍ يوميةٍ ؛ فقد تكونُ هذهِ الكتابةُ اليوميةُ وراءَ تخفُّفِ العبوديِّ من الاستباقِ لجهلِهِ بالأحداثِ المقبلةِ.

وإذا كنَّا قدْ وقفنا على نوعي الارتدادِ والاستباقِ فإنَّهُ يجدرُ بنا معرفةُ ما يستدعي حضورَهُما من وظائفَ في هذه المدونةِ.

وظائفُ الارتدادِ والاستباقِ في رِحْلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

عندما يقطعُ الساردُ تسلسلَ الأحداثِ بالارتدادِ أو الاستباقِ ؛ فإنَّهُ يرمي إلى هدفٍ محددٍ قصرتْ الحكايةُ الأولى عن تحقيقِهِ[2] ، إضافةً إلى تحقيقِ الوظيفةِ العامَّةِ المتمثِّلَةِ في طردِ السأمِ والمللِ عن المتلقي مِن خلالِ تنويعِ أساليبِ السَّردِ والمراوحةِ بينَها بالانتقالِ مِن حاضرِ الحكايةِ إلى ماضيها والانتقالِ من حاضرِها إلى مستقبَلِها.

---

(١) على ضفاف الأمازون ١٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٠٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٣٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٤ ، ٧٩ ، وفي جنوب البرازيل ٧٩ ، ١٠٤ ، وفي شرق البرازيل ٢٩ ، ٤٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٥.

(٢) ينظر : الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة ١١٧.

قدْ يأتي العبوديُّ بالارتدادِ على سبيلِ الإضاءَةِ والتوضيحِ ، إمَّا بالكشفِ عن تاريخِ عنصرٍ مِن عناصرِ الحكايةِ[1] ؛ مثلَ قولِه عن ولايةِ بهيةَ أنَّها : «اشتُهِرَتْ أيضًا عندَ بني قومِنا مِن المسلمينَ في البرازيلِ وعندَ غيرِهم بأنَّها هيَ ولايةُ المسلمينَ الضائعينَ ، وهُم الأفارقةُ المسلمونَ الذي كانَ البرتغاليونَ المستعمرونَ وغيرُهم مِن الأوربيين قدْ جلبوهُم مِن غربِ إفريقيةَ وخاصةً من بلادِ مالي التي كانتْ تمتدُّ حتى سواحل ما يعرفُ الآنَ بدولةِ السنغالِ ، فكانوا يجلبونَ الرقيقَ مِن غربِ إفريقيةَ بالقهرِ والانتهابِ ، أو بالشراءِ مِن المنتهبينَ بأسعارٍ زهيدةٍ يأتونَ بهِ إلى هذهِ الدنيا الجديدةِ مِن أجلِ المغامرينَ»[2] ، ومن ذلكَ قولُهُ : «وإذا بنا نصلُ مدينةَ (لوندرينا) ووجدنا في الاستقبالِ في محطةِ الحافلاتِ الشيخَ أحمدَ صالحِ المحايريَّ ، وهو داعيةٌ إلى اللهِ مبتعثٌ مِن دارِ الإفتاءِ في المملكةِ ، وكنتُ أولَ مَن أشارَ بابتعاثِهِ منذُ أكثرَ مِن عشرِ سنواتٍ»[3].

وقد يكونُ الإيضاحُ على سبيلِ استكمالِ معرفةٍ ما ، إذْ تقتضي بعضُ المعلوماتِ مِن العبوديِّ الرجوعَ إلى الخلفِ ، مثلَ قولِهِ :«وركبتُ إلى المطارِ معَ سائقِ أُجرةٍ كانَ استدعاهُ مكتبُ الفندقِ بأجرةٍ تعادلُ أحدَ عشرَ دولارًا أمريكيةً»[4] ، ومِنهُ أيضًا قولُه : «غادرنا

---

(١) ينظر : الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ٣٣.

(٢) في شرق البرازيل ٣٤.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ٩١. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٢٥ ، ١٢٧، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٥٣ ، وفي شرق البرازيل ٣٣ ، وفي جنوب البرازيل ٤٨.

(٤) الشرق الشمالي من البرازيل ١٩.

(مارنقا) عائدينَ إلى (لوندرينا) معَ الأخِ الكريمِ قاسمِ محمدِ عسافٍ...وهوَ الذي ركبنا معَهُ في المجيءِ إلى (مارنقا)»[1].

كما يستعينُ العبوديُّ بالارتدادِ عندَ المقارنةِ والمقابلةِ بينَ الأماكنِ أو المعالمِ أو الأشياءِ ؛ لإثباتِ المشابهةِ والمماثلةِ أو الاختلافِ أو التَّطَوُّرِ والتَّفَضُّلِ.

ومما جاءَ على سبيلِ المشابهةِ ، قولُهُ في معرِضِ الحديثِ عن مدينةِ ماناوس (Manaus) : «وقدْ ذكَّرَنا منظرُ المنازلِ والحوانيتِ هنا بما كنتُ عهدتُّه في إفريقيةَ حتى لا تكادُ تفرِّقُ بينها»[2] ، ومنهُ أيضًا قولُه : «فهذِهِ زهرةٌ تُسمى (زهرةَ فيكتوريا ريجيا) وغرابتُها في شكلِها ثمَّ في طريقةِ نموِّها ؛ فهي لا تكونُ إلا في المستنقعاتِ والمياهِ الدائمةِ ، وقالوا : إنَّ الورقةَ الواحدةَ مِن ورقِها الذي هو كالصحونِ الواسعةِ تزنُ ثلاثةَ كيلوجراماتٍ وإنَّ الزهرةَ تبقى ثلاثةَ أشهرٍ. وأنَّ ورقها يتفتحُ في النهارِ التماسًا للشمسِ وينغلقُ في الليلِ. وكنتُ رأيتُ زهرةً شبيهةً بها في مكانٍ آخرَ مِن العالمِ بعيدٍ عن هذهِ المنطقةِ وهو جزيرةُ (مورشيوس) في البحر الزنجي المسمى بالمحيطِ الهنديِّ إلى الشرقِ مِن جزيرةِ (مدغشقر)»[3].

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٠٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٨٩ ، وفي غرب البرازيل ٦٢.

(٢) على ضفاف الأمازون ٢٠.

(٣) على ضفاف الأمازون ٤٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٩٦ ، وفي جنوب البرازيل ٣٥ ، وفي شرق البرازيل ٨٠.

وقدْ يستعينُ العبوديُّ بالارتدادِ في سبيلِ مقارنةٍ تُثبِتُ الاختلافَ والمغايرةَ ، من مثلِ قولِهِ : «مرَرنا في المدينةِ ببناءٍ مؤلَّفٍ من عدَّةِ طوابقَ ؛ قالَ لي الأخُ صالحُ البَجْعَةُ إنَّ هذهِ هي المقبرةُ ، فالتفتُّ ألتمسُ المقبرةَ فيما عرفتُهُ مِن شكلِها في معظمِ أنحاءِ العالمِ ، وهو أنْ تكونَ في حديقةٍ أو في أرضٍ فضاءٍ تعلو القبورَ فيها الصلبانُ أو الأهِلَّةُ ، حسبَ معتقداتِ أهلِها ، ولكنَّني لمْ أرَ شيئًا مِن ذلكَ ، وإنَّما هيَ طوابقُ أربعةٌ معتادةٌ كطوابقِ الشققِ السكنيةِ ، إلا أنَّ النوافذَ فيها ضيقةٌ جدًا»(١).

ومِن المغايرةِ وصفُهُ بيوتَ ريفِ مدينةِ كويابا (Cuiabá) بأنَّها : «قليلةٌ متباعدةٌ وعرفتُ أنَّ ذلكَ هو بسببِ سعةِ الأرضِ وكبرِ مساحةِ المزارعِ ؛ حتى لا يكونُ في المزرعةِ الواسعةِ إلا بيتٌ واحدٌ ، وذلكَ بخلافِ ما كنتُ شاهدتُّهُ في مثلِ هذهِ الأريافِ في الصينِ الشعبيةِ حيثُ يزدحمُ الناسُ على الأرضِ الزراعيةِ فتتقاربُ البيوتُ حتى في الريفِ ، بلْ وتكادُ القرى يتصلُ بعضُها ببعضٍ»(٢).

كما أنَّ المقارنةَ قدْ تأتي لإثباتِ تخلُّفِ أحدِ المقارنَين ودونيتِهِ بالنسبةِ إلى الآخرِ ، ومِن ذلكَ ما جاءَ بهِ في أثناءِ حديثِهِ عن مكتبةِ مدينةِ كورتيبا (Curitiba) قربَ ميدانِ براسا تيرا إنتيس (Praça terá antes) حيثُ ذكرَ أنَّها : «كبيرةُ البناءِ مشرفةٌ في هذا المكانِ المهمِّ من وسطِ المدينةِ ، وهذا نابعٌ مِن وعيِهم لأهميةِ المكتباتِ في الحياةِ الثقافيةِ للأمةِ ، وهو أمرٌ أغفلَهُ

(١) في جنوب البرازيل ١٣٧.

(٢) في غرب البرازيل ١٤. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٧٠.

المسلمونَ أو قلَّلُوا مِن أهميتِهِ معَ أنَّ أُمَّتَنا كانتْ الأمةَ الرائدةَ في اتخاذِ خزائنِ الكتبِ وجلبِ الكتبِ الكثيرةِ المتنوعةِ لها»[1].

ومِن قبيلِ ذلكَ حديثُهُ عن أبقارِ بحيرةِ البطِّ الواقعةِ بينَ (بورتو إليقري) و(كرسيوما) ، حيثُ يقولُ : «ورأينا الأبقارَ في المزارعِ ولكنَّها دونَ مزارعِ الأبقارِ في (ماتو قروسو) التي كنتُ فيها قبلَ أيامٍ»[2].

ويأتي بالارتدادِ مُفَضِّلًا مدينةَ كورتيبا (Curitiba) على مدينةِ ماناوس (Manaus) ، فيقولُ عنها أنَّها : «مِن المدنِ الممتازةِ في البرازيلِ أمَّا أنا فإنَّني قارنتُها في ذهني بمدينةٍ برازيليةٍ أخرى نائيةٍ عنها وهي (ماناوس) التي كنتُ فيها قبلَ ثلاثةِ أيامٍ فوجدتُ أنْ لا وجهَ للمقارنةِ سواءً أكانَ ذلكَ مِن جهةِ العملِ التجاريِّ أمْ مِن جهةِ الجوِّ والسُّكَّانِ في ألوانِهم وأخلاقِهم ، فهُم هنا بيضٌ وفيهم شُقرةٌ وهناكَ سمرٌ وفيهم سوادٌ ، وهنا يتأنقونَ في اللباسِ وهناكَ يلبسونَ ما تيسرَ لهم»[3].

ومِن ذلكَ مقارنتُهُ بين ماضي وحاضرِ منطقةِ فوز دو قواسو (Foz do Iguaçu) ؛ حيثُ يقولُ : «وقدْ مضت على زيارتي السابقةِ أكثرَ مِن ثلاثِ سنواتٍ ونصفٍ اختلفَ منظرُ المنطقةِ عمَّا عهدتُهُ فيها ، فقدْ كثُرَتْ الأبنيةُ فيها وصحَّ ما توقعناهُ مِن أنَّها ستكونُ منطقةً راقيةً تكثرُ فيها الأبنيةُ الغاليةُ ، ومنها عددٌ مِن البيوتِ الجديدةِ للإخوةِ المسلمينَ اختاروا بناءَها

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٥.

(٢) في جنوب البرازيل ٥٨. ولمزيد أمثلة ، نظر : في جنوب البرازيل ٣٥ ، ١٢٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٢٣ ، وفي شرق البرازيل ٢٧.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ٢١.

هنا لكونِها ضاحيةً جميلةً جديدةً ولكونِها قريبةً مِن المسجدِ الجامعِ ، وبدا المسجدُ بعدَ أنْ تمَّ بناؤهُ رائعًا مِن الداخلِ ليسَ بداخلِهِ عمودٌ واحدٌ»[١].

ويأتي العبوديُّ بالارتدادِ -أحيانًا- لتعليلِ ظاهرةٍ أو حدثٍ ما ، كأنْ يقولَ في معرضِ وصفِهِ لهيئاتِ أهلِ مدينةِ رصيفي (Recife) : «قدْ ترى عكسَ ذلكَ شخصًا ذا شعرٍ أسودَ وبشرةٍ سمراءَ بلْ رماديةٍ ولكنَّ تقاسيمَ وجهِهِ هيَ تقاسيمُ وجوهِ البيضِ وليسَ فيها مِن ملامحِ السودِ شيءٌ فتعرفُ أنَّ الشخصينِ قدْ انحدرا مِن جنسينِ مختلفينِ في الصفاتِ ، أمَّا هنا فإنَّ الأمرَ اختلطَ ؛ لأنَّ الاختلاطَ قد حصلَ فيما يظهرُ بينَ أكثرَ من جيلينِ ، ومِن أكثرَ مِن جنسينِ»[٢].

ومِن ذلكَ قولُهُ : «يبلغُ عددُ الفلسطينيينَ في مدينةِ (بورتو إليقري) وضواحيها ما بينَ ثلاثِ مئةٍ وخمسينَ وأربعِ مئةِ نسمةٍ...وأغلبُهم مِن المسلمينَ وبينَهم قلةٌ قليلةٌ مِن المسيحيينَ الفلسطينيينَ ولكنَّهم في كلِّ تحركاتِهم وتصرفاتِهم ينطلقونَ مِن مبدأِ كونِهم فلسطينيينَ عربًا ، لا مِن مبدأِ كونِهم مسلمينَ ؛ وذلكَ بسببِ التربيةِ التي كانتْ سائدةً في المدارسِ الحكوميةِ وهي تحتَ الانتدابِ البريطانيِّ ، وبسببِ ما قيلَ لهم مِن أنَّهم إذْا أظهروا أنَّهم مسلمونَ فإنَّ ذلكَ سوفَ يجعلُ الفلسطينيينَ المسيحيينَ ينشقُّونَ عنهم ويجعلُ العالمَ المسيحيَّ ينفرُ عنهم»[٣].

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٧٣.

(٢) في شرق البرازيل ١١٣.

(٣) في جنوب البرازيل ٤٨. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ١٢٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٩.

وقدْ يكونُ الارتدادُ لاستدراكِ فجوةٍ سابقةٍ حصلت في النصِّ ، كما في قولِهِ : «ركبنا طريقَ المطارِ...وكنَّا قدْ أنهينا أمرَنا في فندقِ (أوريا بالاس) في الصباحِ ونقدتُّهُ أجرتَهُ»[1]. ومِن ذلكَ قولُهُ في معرِضِ حديثِهِ عن مطارِ ماناوس (Manaus) : «كانَ أولُ ما لفتَ نظريَ عندما وصلنا المطارَ أنَّهم يعاملونَ الخارجَ مِن ولايةِ الأمازونِ بما يعاملونَ بهِ الخارجَ مِن دولةٍ ليسَ فيها رسومٌ جمركيةٌ ولا قيودٌ على العملةِ ، فقدْ كانوا يفحصونَ أمتعةَ الركابِ ويفتشونَهم تفتيشًا دقيقًا وكانَ الأخُ الفلسطينيُّ قدْ حملني شيئًا مِن النقودِ الأجنبيةِ حصلَ عليها مِن (ماناوس) ويريدُ بها الذهابَ إلى (سان باولو)»[2].

وقدْ يكونُ الهدفُ مِن الارتدادِ هو التمهيدُ للفقرةِ أو افتتاحِها ، ففي رحلتِهِ إلى غربِ البرازيلِ يمهِّدُ العبوديُّ للحديثِ عن صباحِه في كامبو قراندي (Campo Grande) بقولِهِ : «لم أستطعْ أمسِ أنْ أكملَ جولةً حرةً في مدينةِ (كامبو قراندي) هذهِ وذلكَ بسببِ المطرِ وظُلمةِ السحابِ التي تمنعُ وضوحَ الصورةِ ، فخرجتُ في الساعةِ السابعةِ مِن هذا الصباحِ المشمِسِ»[3]. ولا يبعدُ عن ذلكَ تمهيدُهُ لهذِهِ الفقرةِ بقولِهِ : «مثلٌ برازيليٌّ في المعاملةِ : ربَّما يكونُ علِقَ في ذهنِكَ ما ذكرتُهُ مِن حسنِ معاملةِ البرازيليينَ للغريبِ وسهولةِ معاملتِهم على وجهِ العمومِ ، وقدْ صادفتُ اليومَ مثلًا على ذلك»[4].

---

(١) في غرب البرازيل ٤١.

(٢) على ضفاف الأمازون ٦١. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٠٧ ، وفي غرب البرازيل ٥٢ ، وفي جنوب البرازيل ٣٤.

(٣) في غرب البرازيل ٦٥.

(٤) الشرق الشمالي من البرازيل ١٢٥. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٤٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٧ ، وفي غرب البرازيل ٦٥.

وقدْ يأتي العبوديُّ بالارتدادِ في معرِضِ الاستشهادِ لتأكيدِ ظاهرةٍ أو حقيقةٍ ما ، مثلَ قولِهِ مستشهدًا على حسنِ معاملةِ البرازيليينَ وعدمِ استغلالِهم للزائرِ : «مِن ذلكَ أنَّ الفندقَ الذي كنتُ أسكنُ فيهِ في (رصيفي) كانتْ أُجرةُ الغرفةِ في الليلةِ تساوي أوَّلَ ما سكنتُهُ **٣٣** دولارًا ، أمَّا الآنَ فإنَّها لا تساوي بالدولارِ إلا أقلَّ مِن ذلكَ بالثلثِ أو الربعِ ؛ لأنَّ سعرَها ثابتٌ طولَ الشهرِ بالكروزادو الذي ينقصُ صرفُهُ بالنسبةِ إلى الدولارِ يومًا فيومًا»[1]. ومِن ذلكَ أيضًا قولُهُ ناصحًا أعضاءَ الجمعيةِ العربيةِ الفلسطينيةِ في بورتو إليقري (Porto Alegre) بالحفاظِ على الوحدةِ الإسلاميةِ وسلامةِ عقيدةِ أولادِهم : «وإذا كانَ الأمرُ يحتاجُ إلى دليلٍ فانظروا إلى حالةِ اليهودِ أنفسِهم وكيفَ كانوا قبلَ إنشاءِ دولتِهم في فلسطينَ يحافظونَ بلْ يحرصونَ على المحافظةِ على أنسالِهم مِن الضياعِ والذوبانِ في المجتمعاتِ الأخرى ؛ فكانوا يُحضرونَ لهم المعلمينَ ويبنونَ المدارسَ ويتعلمونَ اللغةَ العبريةَ حتى ولو لمْ يكنْ في البلدِ الذي يُقيمونَ فيهِ إلا ثلاثة مِن اليهودِ لعلَّموا أولادَهُم ذلكَ ، وبهذا حافظوا على كيانِهم ، وعدمِ ذوبانِهم في الشعوبِ الأخرى التي يقيمونَ بينها»[2].

هذا فيما يخصُّ ما استطعنا جمعَهُ من وظائفِ الارتدادِ. أمَّا **الاستباقُ** –وإنْ كانَ أقلَّ ورودًا مِن الارتدادِ– فإنَّ العبوديَّ يستعينُ به لتحقيقِ بعضِ الغاياتِ ؛ كأنْ يأتيَ بهِ بقصدِ الإعلانِ عن اللواحقِ مِن أحداثِ الرحلةِ ، مثلَ : «وقدْ فهِمنا ونحنُ في الطائرةِ أنَّنا سننزلُ قبلَ الوصولِ إلى (فوز دو اقواسو) ببلدةٍ صغيرةٍ فيها مطارٌ ريفيٌّ صغيرٌ»[3] ، وبعدَ صفحةٍ تقريبًا يأتي بأحداثِ الهبوطِ في المطارِ الريفيِّ فيقولُ : «وكانَ الهبوطُ في العاشرةِ والدقيقةِ السابعةِ بعدَ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٠٧.

(٢) في جنوب البرازيل ٤٦.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ٤٤.

طيرانٍ استغرقَ ساعةً وثلثًا ودقيقتينِ ، ولمْ أشاهدْ في هذا المطارِ أيَّ طائرةٍ أخرى عدا واحدةٍ صغيرةٍ»[(١)]. ومثلُ ذلكَ -أيضًا- قولُهُ : «ولايةُ (بارييبا) التي نقصدُها الآنَ عاصمتُها التي سننزلُ فيها هيَ جوا بو سوا وهيَ متوسطةُ السعةِ»[(٢)] ، وبعدَ ذلك بأكثرَ مِن عشرِ صفحاتٍ يأتي بخبرِ وصولِهِ إلى جوا بوسوا فيقولُ : «أوَّلَ ما وصِلنا منها [يعني جوا بوسوا] ضواحٍ غيرَ فاخرةٍ»[(٣)].

وقدْ تكونُ غايةُ العبوديِّ من الاستباقِ تعليليةً ، من مثلِ قولِهِ : «سياحةٌ في نهرِ الأمازونِ : أصبحتُ فرحًا بل طربًا لأنَّني سوفَ أذهبُ إلى سياحةٍ في نهرِ الأمازونِ الذي طالما اشتقتُ إلى مجردِ رؤيتِهِ»[(٤)]. ومنهُ قولُهُ : «كنتُ طلبتُ مِن هؤلاءِ الإخوةِ الكرامِ أنْ يوصلوني إلى المكانِ الذي أستأجرُ مِنهُ سيارةً تنقلني مِن (دورادس) إلى (كامبو قرنداي) ؛ لأنَّ رحلتي إلى (سان باولو) مِن مطارِ (كامبو قراندي) ستكونُ في الثالثةِ والنصفِ قبلَ الفجرِ»[(٥)].

وقد يمهِّدُ العبوديُّ أو يوطِّئُ لفقرةٍ أو حدثٍ ما بالاستباقِ ؛ مقدمًا إلى القارئِ فكرةً عن الحدثِ المقبلِ قبلَ أن يصلَ إليهِ السردُ ، ففي رحلتِهِ إلى غربِ البرازيلِ يمهِّدُ لفقرةِ (مزرعةِ الأعشابِ الكثيفةِ) بقولِهِ : «كانَ الغرضُ مِن خروجِنا إلى هذا الريفِ هو ، بالإضافةِ لمجردِ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٤٥.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ١٠٥.

(٣) السابق ١١٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٣٣ ، ٣٤ ، وفي غرب البرازيل ٧٦ ، ١٠٣ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٧.

(٤) في جنوب البرازيل ٤٦.

(٥) في غرب البرازيل ٩٤. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٣٣ ، ٤٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ٩ ، وفي غرب البرازيل ٢٦ ، ١٠٦.

الاطلاعِ على ريفِ المدينةِ ، رؤيةَ مزرعةٍ يملكُها الأخُ مرزوقُ الهواشِ»[1]. وفي قصةِ رحلتِهِ إلى شرقِ البرازيلِ يوطِّئُ لزيارتِهِ مثلثَ الحدودِ بقولِهِ : «واليومَ ستتاحُ لنا زيارةُ مثلثٍ حدوديٍّ آخرَ ، وهوَ الذي يفصلُ بينَ البرازيلِ والبارغواي والأرجنتين»[2].

وقدْ يأتي العبوديُّ بالاستباقِ على هيئةِ توقُّعٍ ، مثلَ ما جاءَ بِهِ في ثنايا حديثِهِ عن السودِ في رصيفي (Recife) ، إذْ يقولُ : «وهوَ حديثٌ يهمُّني على اعتبارِ أنَّهُ ربَّما تقومُ دعوةٌ إسلاميةٌ مخلصةٌ بينَ ذوي الأصولِ الإفريقيةِ مِن أهلِ المنطقةِ فتحرِّكُ مشاعرَهم القديمةَ وتردُّ أفكارَهم إلى منابِعِهم الأصليةِ التي منها الدينُ الإسلاميُّ»[3] ، ومِن ذلكَ قولُهُ عن مستقبلِ الشيعةِ في كورتيبا (Curitiba) : «وأمَّا الشيعةُ الذين هم أقليةٌ بينَ المسلمين في كلِّ بلادِ البرازيلِ ، ما عدا هذهِ المدينةِ (كورتيبا) ، فينبغي تذكيرُهم بأنَّ إظهارَ خلافِهم لأهلِ السنَّةِ وتحزبَهم ضدَّهم هو في الحقيقةِ ليسَ في مصلحةِ الشيعةِ أنفسِهم ؛ لأنَّ ذلكَ سوفَ يسبِّبُ أنْ يتكتَّلَ أهلُ السنةِ وهم الأكثريةُ في البلادِ ضدَّ الشيعةِ»[4].

---

(١) في غرب البرازيل ٥٧.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٨١. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ١٠١ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٥ ، وفي غرب البرازيل ٥٧ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٤ ، ١٢١ ، وفي شرق البرازيل ٤٥.

(٣) في شرق البرازيل ١٣٨.

(٤) على أرض القهوة البرازيلية ٤١. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٨٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٦٣.

والآنَ وبعدَ أنْ درست (الترتيبَ الزمنيَّ) ، فإنَّني سأُثَنِّي بدراسةِ (السُّرعةِ) ؛ لأنّها «إلى جانبِ الترتيبِ والتواترِ واحدةً مِن المقولاتِ الثلاثِ التي تُحلَّلُ وفقَها العلاقاتُ بينَ زمنِ الحكايةِ وزمنِ الخطابِ»[1].

(١) معجم السرديات : (إضمار).

المبحث الثاني :

السرعة

يرى (جنيت) -أحدُ الـمُنَظِّرينَ الكبارِ لعلمِ السَّردِ- أنَّ السُّرعةَ[1]«في القصَّةِ المكتوبةِ تتحدَّدُ بالعلاقةِ بينَ مدَّةٍ هي : مدَّةُ الحكايةِ مقيسةً بالثواني والدقائقِ والساعاتِ والأيَّام والشهورِ ، وطولٍ هوَ طولُ النَّصِّ مقيسًا بالسطورِ والصفحاتِ»[2]؛ بحيثُ «يُمكنُ للزَّمنِ الأوَّلِ أنْ يكونَ أطولَ مِنَ الزَّمنِ الثاني أو معادلًا لهُ أو أقصرَ مِنْهُ»[3]. ومِن خلالِ هذا المقياسِ يمكنُ دراسةُ إيقاعِ السَّردِ في النصِّ السَّرديِّ ، ومِن ثَمَّ مُلاحظةُ تفاوتِ السُّرعةِ مِن مقطعٍ إلى آخرَ. وعلى الرُّغمِ مِن ذلكَ فإنَّ قياسَ سرعةِ زمنِ الخطابِ بالنِّسبةِ إلى السُرعةِ في زمنِ الحكايةِ غيرُ خاضعٍ لمقياسٍ دقيقٍ[4].

ولئنْ تيسَّرَتْ دراسةُ زَمَنِ الخطابِ في القصَّةِ الشَّفَهيَّةِ ، فإنَّ الأمرَ مختلفٌ بالنسبةِ للقصَّةِ المكتوبةِ ؛ لاختلافِ أزْمِنَةِ قراءتِها بينَ القرَّاءِ[5].

وحينما نقولُ بالتعادلِ بينَ السُّرعةِ في الحكايةِ والسُّرعةِ في الخطابِ ، فينبغي التنويهُ إلى أنَّهُ لا مكانَ لـلاتفاقِ الزمنيِّ التامِّ (درجة الصفر) بينَ سرعةِ زمنِ الخطابِ وسرعةِ زَمَنِ

---

(١) اعتمدت هنا مصطلح (جنيت) ، ينظر : خطاب الحكاية ١٠٨. وتركت تسميات استخدمها آخرون ، مثل : الاستغراق الزمني ، استخدمه حميد لحمداني ، ينظر : بنية النص السردي ٧٥. الدَّيْمُومَة ، استخدمت في كتاب مدخل إلى نظرية القصة ، ينظر : مدخل إلى نظرية القصة ٨٩.

الوَتيْرة ، استخدمها حسن بحراوي ، ينظر : بنية الشكل الروائي ١١٩.

الـمُدَّة ، استخدمها محمد القاضي ، ينظر : تحليل النص السردي ٥٩.

(٢) معجم السرديات : (سرعة).

(٣) قاموس السرديات : (الديمومة).

(٤) ينظر: الشعرية٤٩ ، وخطاب الحكاية ١٠١ ، وبناء الرواية لسيزا قاسم ٥٢.

(٥) ينظر : معجم مصلحات نقد الرواية : (سرعة).

الحكايةِ ؛ إذْ يستحيلُ سردُ الأحداثِ بكاملِ تفاصيلِها الدقيقَةِ ، ولَوْ أنَّ ساردًا أرادَ أن ينقلَ مشهدًا كاملًا ، فإنَّهُ لنْ يستطيعَ أنْ يبلغَ بِهِ مرحلةَ الـمُساواةِ الزَّمنيَّةِ التامَّةِ مَعَ المشهدِ كما هوَ في الحكايةِ ؛ إذْ يصعبُ نقلُ الأحداثِ والأقوالِ بسرعةٍ تساوي سرعتَها في الحكايةِ ، كما يتعذَّرُ على الراوي إعادةُ الأوقاتِ الميِّتَةِ[1].

ولابدَّ للرَّاوي مِنَ تغييرِ الإيقاعِ الزَّمنيِّ ، مراعاةً لأهميَّةِ الأحداثِ ؛ فبعضُ الأحداثِ مُهِمٌّ بحيثُ يتطلَّبُ عرضُهُ الوقوفَ على دقائقِهِ وتفاصيلِهِ ، وبعضُها الآخرُ لا يحتاجُ إلى تفصيلٍ لعدمِ أهميَّتِهِ ، وهكذا[2].

ولقدْ ضبطَ (جنيت) هذهِ السرعةَ في أربعِ حركاتٍ سرديَّةٍ ، هي : الإضمارُ ، والمجملُ ، والوقفةُ ، والمشْهَدُ. وهذِهِ الحركاتُ على صنفينِ[3]:

الأولُ : حركاتُ تعجيلِ السَّردِ :

وتنحصرُ تقنياتُ تعجيلِ السَّردِ في حَرَكَتَي : الإضمارِ والمجملِ[4].

---

(١) ينظر : خطاب الحكاية ١٠١ ، والشعرية ٤٨ ، ومعجم السرديات : (مدة) .

(٢) ينظر : خطاب الحكاية ١٠٢ ، وإشكالية الزمن في النص السردي ، عبد العالي بوطيب ، فصول ، ومعجم مصلحات نقد الرواية : (سرعة).

(٣) ينظر : خطاب الحكاية ١٠٨ ، وتحليل النص السردي ، بوعزّة ٩٢.

(٤) ينظر : بنية الشكل الروائي ١٤٤ ، والبنية السردية في الرواية السعودية ٨٦ ، والتقنيات السردية في الروايات السعودية ٣٤١.

أ- **الإضمارُ**[1]: يُعدُّ الإضمارُ أسرعَ الحركاتِ السَّرديةِ مِن حيثُ أنَّهُ «قفزُ السَّردِ على فترةٍ زمنيَّةٍ مِن الحكايةِ بحيثُ لا يكونُ لها وجودٌ في الخطابِ»[2] ، وتُصَنَّفُ تلكَ الفتراتُ المتروكةُ ، بأنَّها أحداثٌ غيرُ مهمَّةٍ في حاضرِ السَّردِ تمَّ إسْقاطُها مِن أجلِ تعجيلِ السَّردِ والإمعانِ في تركيزِهِ[3].

وقدْ ميَّزَ (جنيت) من حيثُ الشكلُ بينَ :

١. الإضمارِ الـمُعلَنِ أو (الصَّريحِ) ؛ وهو الحذفُ الـمُشارُ إليهِ صراحةً في النَّصِّ. وهوَ نوعانِ :

أ ـ إضمارٌ مُحدَّدُ الـمُدَّةِ الزمنيَّةِ الـمُسْقَطَةِ ، مثلَ : «انقضتْ ثلاثُ سنواتٍ».

ب ـ إضمارٌ مبهمٌ ؛ غيرُ مُحدَّدِ المدَّةِ الزمنيَّةِ المسكوتِ عنها ، مثلَ : «انقضتْ سنواتٌ عدَّةٌ».

كما قدْ يكونُ الإضمارُ الصريحُ موصوفًا ، مثلَ : «انقضتْ سنتانِ هانئتانِ».

---

(١) اعتمدت هذه التسمية التي استخدمت في كتاب مدخل إلى نظرية القصة ، ينظر : مدخل إلى نظرية القصة ٩٣ . وتركت تسميات أخرى ، مثل :
الحذف ، استخدمه (جنيت) ، ينظر : خطاب الحكاية ١٠٩ .
القطع ، استخدمه حميد لحمداني ، ينظر : بنية النص السردي ٧٧.
الثغرة ، استخدمته سيزا قاسم ، ينظر : بناء الرواية ٥٤.
القفز ، استخدمته يمنى العيد ، ينظر : تقنيات السرد الروائي ١٢٥.

(٢) معجم السرديات : (إضمار).

(٣) ينظر : معجم مصطلحات نقد الرواية : (حذف) ، وشعرية الخطاب السردي١١٣ ، وتقنيات السرد وآليات تشكيله الفني ٨٢.

٢. الإضمارِ غيرِ الـمُعْلَنِ (الضِّمنيِّ) ؛ ويستخلصُهُ القارئُ الفطنُ مِن خلالِ ما يبدو في النصِّ مِن فجواتٍ تُدرَكُ بِتَتَبُّعِ التَّعاقبِ الزَّمنيِّ للأحداثِ أو استمرارِها[١] ، «مثلَ السكوتِ عن فترةٍ ما مِن حياةِ شخصيَّةٍ ووضعِها في الظلِّ ريثما يجري تقديمُ شخصيَّةٍ أو استعراضُ حدثٍ طارئٍ»[٢].

٣. الإضمارِ الافتراضيِّ ؛ وهو الذي لا يتمُّ اكتشافُهُ إلَّا مِن خلالِ افتراضِ حصولِهِ بالاعتمادِ على ما قدْ نلمسُهُ مِن انقطاعٍ في التواصلِ الزمنيِّ للقصَّةِ ، مثلَ السكوتِ عن وقائعِ فترةٍ مِن المفترضِ أنَّ الحكايةَ تشملُها ، ولعلَّ أقربَ مثالٍ على هذا الشكلِ مِن الإضمارِ تلكَ البياضاتُ المطبعيَّةُ المستخدمةُ في السَّردِ ، والـمُعبَّرُ بها عن إسقاطِ فتراتٍ زمنيَّةٍ مِن الحكايةِ ، وذلكَ بأنْ ينتهي السَّردُ عندَ نقطةٍ محدَّدَةٍ متبوعةٍ ببياضٍ ، ثُمَّ يفاجأُ القارئُ بأنَّ الساردَ يستأنفُ السردَ وقدْ أغفلَ أحداثًا يَفترِضُ التسلسلُ المنطقيُّ للأحداثِ ذكرَها[٣].

ب-**الـمُجْمَلُ**[٤]: ويطلقُ على أحداثِ القصَّةِ المسرودَةِ بشكلٍ مختصرٍ ؛ فمن خلالِ هذهِ الحركةِ يمكنُ اختصارُ أحداثٍ استغرقتْ أيامًا أو شهورًا في بضعِ كلماتٍ أو بضعةِ

---

(١) ينظر : خطاب الحكاية ١١٧ ، ومعجم السرديات : (إضمار).

(٢) بنية الشكل الروائي ١٦٢.

(٣) ينظر : السابق ١٦٤ ، وبنية النص السردي ٥٨ ، وجماليات البناء الروائي عند غادة السمان ١٢٥.

(٤) اعتمدت هذه التسمية التي استخدمها (جنيت) ، ينظر : خطاب الحكاية ١٠٩ ، وتركت تسميات أخرى مثل :

التلخيص ، استخدمته سيزا قاسم ، ينظر : بناء الرواية ٥٤.

الخلاصة ، استخدمه حميد لحمداني ، ينظر : بنية النص السردي ٧٦.

الإيجاز ، استخدمته يمنى العيد ، ينظر : تقنيات السرد الروائي ١٢٧.

سطورٍ أو فقراتٍ دونَ اللجوءِ إلى التفصيل[1] ، مثلَ : «تزوجَ أحمدُ ، وأنجبَ أطفالًا ، ودخلتْ ابنتُهُ البكرُ المدرسةَ». فهذهِ أحداثٌ مديدةٌ أُجمِلتْ في بضعِ كلماتٍ.

ويكونُ الـمُجملُ على نمطينِ ، الأولُ : مجملُ الأفعالِ. ونجدُهُ في تلخيصِ الراوي لبعضِ الأحداثِ ، كما في المثالِ الآنفِ الذِّكرِ. أمَّا النمطُ الثاني ، فإنَّه : مجملُ الأقوالِ ، وهو المعنيُّ بإجمالِ ما تلفَّظَتْ بِهِ الشَّخصياتُ مِن أقوالٍ ، مثلَ : «ويمكنُ إجمالُ ما قالهُ لي بأنَّهُ خلالَ السنواتِ الماضيةِ درسَ في الجامعةِ وتخرَّجَ ثم توظفَ وتزوجَ وأنجبَ أطفالًا»[2].

ثانيًا : حركاتُ إبطاءِ السَّرْدِ :

وتعملُ هذِهِ الحركاتُ على تبطئةِ السَّردِ ، بمحاولةِ نقلِ الواقعِ كما هو ، أو بإيقافِ السَّردِ للتَّعليقِ أو التفسيرِ أو ما شابهَ ذلك ، ويتمُّ ذلكَ من خلالِ حركتينِ ، هما : الـمَشْهَدُ والوقْفَةُ.

أ- **الـمَشْهَدُ** : ويطلقُ على «مواضعِ القصِّ المفصَّلِ الذي قدْ ينطوي على الوصفِ الـمُبَأَّرِ[3] أو الحوارِ»[4] ، وهو على خلافِ السَّردِ المجملِ المهتمِّ بتلخيصِ غيرِ الـمُهمِّ مِن أحداثِ الحكايةِ وأقوالـِها ، ويعملُ المشْهَدُ -إذا افترضنا سلامتَهُ مِن تدخلاتِ الراوي- على إيجادِ نوعٍ مِن التساوي التقريبيِّ بينَ زمنِ الخطابِ وزمنِ الحكايةِ ، كما

---

(١) ينظر : معجم السرديات : (مجمل).

(٢) ينظر : السابق ، وبنية الشكل الروائي ١٥٤.

(٣) الذي يتم من منظور الشخصية ، أي في حالة الرؤية المصاحبة أو التبئير الداخلي.

(٤) معجم السرديات : (مشهد).

قدْ يخلقُ المشهدُ وهمًا تمثيليًّا ، مثلَما يحصلُ عندما تنقلُ مباراةُ كرةِ القدمِ بواسطةِ أحدِ شهودِ العيانِ(١).

ب- **الوَقْفَةُ**(٢):تلكَ المواضعُ من القصَّةِ التي تتَعلَّقُ فيها الحكايةُ بسببِ تعطيلِ السَّردِ ، ويمنحُ الراوي نفسَهُ من خلالِ هذا التعطيلِ فرصةَ التعليقِ أو التَّأمُّلِ أو الترجمةِ أو التفسيرِ أو غيرِ ذلكَ مِن الاستطراداتِ(٣) ، وتختصُّ الوقفةُ بالوصفِ والاستطرادِ الخارجِ عن الحكايةِ ، أمَّا تعليقاتُ الشخصياتِ واستطراداتُها فلا تُوْقِفُ سيرَ السَّردِ ؛ لأنَّها مِن صُلبِ الحكايةِ ، وغالبًا ما تكونُ الوقفةُ وصفيةً(٤).

وتمثِّلُ الوقفةُ أقصى درجاتِ الاستغراقِ الزمنيِّ ؛ إذْ ينتجُ عنها «البطءُ المطلقُ حيثُ لا يوافقُ مقطعٌ ما مِن الخطابِ السَّرديِّ أيَّ مُدَّةٍ في»(٥) الحكايةِ.

---

(١) ينظر : السابق ، وخطاب الحكاية ١٠١ ، وبنية النص السردي ٧٨.

(٢) اعتمدت هذه التسمية التي استخدمها (جنيت) ، ينظر : خطاب الحكاية ١٠٩. وتركت تسميات أخرى مثل :

الاستراحة ، استخدمها حميد لحمداني ، ينظر : بنية النص السردي ٧٦.

تعليقُ الزمن ، استخدمها (تودوروف) ، ينظر : الشعرية ٤٩.

(٣) جرت العادة أن يدرج الوصف الذي يتم عن طريق راو غير مشارك في الأحداث في الوقف ، إلا أن هذا الأمر لا ينطبق على هذه المدونةِ لأن الراوي/ الرحالة مشارك دوما في الأحداث.

(٤) ينظر : معجم السرديات : (وقفة) ، ومعجم مصطلحات نقد الرواية : (وقف) ، وبنية الشكل الروائي ١٧٥ ، وبنية النص السردي ٧٦ ، وتقنيات السرد وآليات تشكيله الفني ٩٩.

(٥) خطاب الحكاية ١٠٨.

الحركاتُ السَّرديةُ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

وبعدَ أن استعرضت المادةَ النظريةَ للحركاتِ السرديةِ ، فإنَّني سأحاولُ فيما يلي التماسَ تلك الحركاتِ في السَّردِ الرحليِّ ؛ على اعتبارِ أنَّهُ سردٌ ذاتيٌّ تركِّزُ فيهِ الذاتُ على علاقتِها بالفضاءِ المرتحَلِ إليه مسجلةً كلَّ ما هو جديرٌ بالرصدِ والكتابةِ من كلِّ ما يمكنُ أنْ يُحدثَ أثرًا في المتلقي المقصودِ ، فلا غرابةَ إذًا عندما نجدُ أنَّ الخطابَ الرحليَّ يقومُ على تعجيلِ السَّردِ في بعضِ مقاطِعِهِ ، وتبطئتِهِ في البعضِ الآخرِ ، منطلقًا بذلكَ مِن أهميةِ الـمكتوبِ[1].

ولعلنا نبدأُ بدراسةِ معجِّلاتِ السَّردِ في هذه المدونةِ ؛ فنجدُ أنَّ العبوديَّ قدْ يستغني عن ذكرِ بعضِ الأحداثِ ، فينشأُ عن ذلكَ ما يسمى **بالإضمارِ** ، وقد استخدمَ العبوديُّ الإضمارَ بأصنافِه الثلاثةِ ؛ إذْ أكثرَ مِن استعمالِ الإضمارِ الضمنيِّ (غيرِ المعلنِ) ، والذي لا يمكنُ استبانتُهُ إلا مِن خلالِ الفجواتِ التي تتخلَّلُ تعاقبَ الأحداثِ ، مِن مثلِ قولِهِ : «الجمعيةُ العربيةُ الفلسطينيةُ : استرحنا قليلًا في الفندقِ ثمَّ غادرناهُ في الثامنةِ معَ غروبِ الشمسِ ولا يزالُ النورُ غامرًا قاصدينَ مقرَّ الجمعيةِ الفلسطينيةِ في ضاحيةٍ من (بورتو إليقري) اسمُها : سوبو كايا ؛ تبعدُ عن المدينةِ اثنينِ وعشرينَ كيلو مترًا. ويلفتُ النظرَ اسمُ الجمعيةِ بالعربيةِ على البابِ الخارجيِّ : الجمعيةُ العربيةُ الفلسطينيةُ»[2] ، فليسَ ثمةَ تسلسلٌ منطقيٌّ بين الأحداثِ ؛ فبعدَ أنْ حدثَنا عن الانطلاقِ إلى الجمعيةِ انتقلَ مباشرةً ليحدثنا عن اسمِ الجمعيةِ المكتوبِ على بابِها الخارجيِّ. ومِن الإضمارِ الضمنيِّ قولُهُ : «هذا وقدْ خرجنا مِن بيتِ الأخِ حسنِ الهواشِ في العاشرةِ والنصفِ ولمْ أجدْ لدي رغبةً في النومِ فنزلتُ في الحاديةَ عشرةَ

(١) ينظر : السرد العربي ٢١٣ ، ومعجم السرديات : (قصص الرحلات).

(٢) في جنوب البرازيل ٤٤.

وجلستُ في مقهاةٍ على الرصيفِ»[1]، فبعدَ أنْ أخبرنا العبوديُّ بخروجِهم من بيتِ مضيفِهم انتقلَ مباشرةً إلى الحديثِ عن عدمِ رغبتِهِ في النومِ ونزولِهِ إلى المقهى.

ونجدُ -أيضًا- أنَّ الإضمارَ الافتراضيَّ حاضرٌ -وإنْ كانَ قليلًا- مِن خلالِ ما يتركُهُ العبوديُّ من بياضاتٍ تكونُ علامةً على حذفِ جزءٍ مِن الأحداثِ والانتقالِ إلى أحداثٍ تاليةٍ مختلفةٍ؛ لاختلافِ اليومِ أو لاختلافِ المكانِ، من مثلِ قولِهِ: «وأعطيتُهم ألفي دولارٍ أمريكيةٍ كانت معي تبرعًا رمزيًّا لجمعيتِهم وإظهارًا لمشاركتِهم الشعورَ في ضرورةِ بناءِ المسجدِ مع الوعدِ القاطعِ بإرسالِ تبرعٍ لهم مناسبٍ مِن رابطةِ العالمِ الإسلاميِّ»[2].

فقدْ أتبعَ ذلكَ ببياضٍ تتلوهُ أحداثُ اليومِ التالي، فيقولُ: «يومُ الجمعةِ ١٩/ ٥/ ١٤٠٨هـ ٨/ ١/ ١٩٨٨م. صباحُ كامبو قراندي: أصبحَ الجوُّ مشرقًا هذا اليومِ على خلافِ العادةِ في الأيامِ قبلَهُ»[3]. ومثلُ ذلكَ قولُهُ: «عُدنا إلى فندقِنا في كنوس، التي هي جزءٌ من مدينةِ (برتو إليقري) يفصلُ بينهما نهرُ (قرافاتاي)، وذلك حوالي الحاديةَ عشرةَ»[4]. فقدْ قطعَ العبوديُّ بعد ذلك الأحداثَ تاركًا مسافةً مِن البياضِ ليبدأَ أحداثَ اليومِ الجديدِ

---

(١) على ضفاف الأمازون ٣١. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١١، ٣٧، وعلى ضفاف الأمازون ٩١، وفي جنوب البرازيل ١٤١، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١١٠، ١٧٢، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٨، ١٦٥، وفي شرق البرازيل ٨٠، ١١٥.

(٢) في غرب البرازيل ٦٣.

(٣) نفسه ٦٤.

(٤) في جنوب البرازيل ١٢٢.

بقولِهِ : «يومُ الاثنينِ ٢٩/ ٥/ ١٤٠٨هـ. جولةٌ في بورتو إليقري : بدأتْ هذه الجولةُ في الساعةِ الثامنةِ من الصباحِ»(١).

كما أَنَنا لنْ نعدمَ الإضمارَ الصريحَ بنوعيهِ ؛ فنجدُ المحدَّدَ منه في قولِهِ : «وبعدَ مُضيِّ ساعةٍ و٣٥ دقيقةً مِن الطيرانِ هبطت الطائرةُ»(٢). ونجدُ المبهمَ في قولِهِ : «وقد بقِينا وقتًا في المصرفِ وتمشَّينا في المنطقةِ ثم عُدنا»(٣) ، ومِن الإضمارِ الصريحِ الموصوفِ قولُهُ : «أمضينا وقتًا مُمتعًا وإنْ كانَ شاقًّا في هذِهِ الغابةِ المظلمةِ»(٤).

وقدْ يلجأُ العبوديُّ إلى **الـمُجْمَلِ** عندما يُلَخِّصُ أفعالًا أو أقوالًا لا تتطلبُ الحاجةُ تفصيلَها فيكتفي عندَ ذلكَ بالمرورِ السَّريعِ عليها(٥). ومِن تلخيصِ الأفعالِ قولُهُ : «مضى أولُ النهارِ كما مضى أولُ نهارِ أمسِ في التسكُّعِ على شاطئِ البحرِ القريبِ مِن الفندقِ والتقاطِ صورٍ لما فيهِ»(٦) ، ومثلُهُ قولُهُ : «كانت زيارتُنا في هذا الصباحِ لضواحٍ حديثةٍ من المدينةِ بدأت

---

(١) في جنوب البرازيل ١٢٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٣٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٤ ، وفي شرق البرازيل ٩٢ ، وفي جنوب البرازيل ٤٩.

(٢) في غرب البرازيل ١٠٤. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ١٣ ، ٦٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٥ ، ١٤٨.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ١٥٦. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١٠٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٩.

(٤) على ضفاف الأمازون ٧٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١٢١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٤٨.

(٥) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ٥٠.

(٦) في شرق البرازيل ٨٠.

العمارةُ فيها منذ عهدٍ قريبٍ ، وهي واسعةُ الشوارعِ خضراءُ المنظرِ كسائر أنحاءِ المنطقةِ وكثيرٌ مِن أبنيتها لا تزالُ تحتَ الإنشاءِ»[١].

وإلى جانبِ تلخيصِ الأفعالِ نجدُ أنَّ العبوديَّ يقومُ بتلخيصِ بعضِ الأقوالِ مِن مثلِ تلخيصِهِ لخطبةِ أحدِهم بقولِهِ : «خطبَ خطبةً جميلةً تَضَمَّنَتْ الحثَّ على تقوى الله ومراقبتِهِ ومعرفةِ واجبِ المسلمِ في العملِ بالإسلامِ»[٢] ، ومِن تلخيصِ الأقوالِ قولُهُ في فقرةٍ بعنوانِ أصولِ سكانِ جوا بسوا (Joao Pessoa) : «التقطَ الدليلُ صورةً لي مع السائقِ الهنديِّ ، الذي أحدُ أجدادِهِ مِن البيضِ كما يقولُ ، وتحدثتُ معهما عن سكانِ ولايةِ (بارييبا) التي عاصمتُها (جوا بسوا) هذهِ ، فكانت خلاصةُ ما ذكراهُ أنَّ ٤٠٪ مِن السُّكَّانِ هُم مِن البيضِ المتغيرينَ»[٣].

وإذا ما تركنا الـمُعجِّلاتِ إلى المبطِّئاتِ فإنَّنا سنجدُ المشهدَ حاضرًا مِن خلالِ الحوارِ ، حيثُ إنَّ للحوارِ مكانتَهُ في هذه المدونةِ ، مِن مثلِ حوارِ العبوديِّ مع مديرِ أحدِ الفنادقِ حولَ صرفِ العملةِ ، إذ يقولُ : «قلتُ لهُ : إنَّ صرفَ الدولارِ الآنَ بالسِّعرِ الموجودِ في الفندقِ ناقصٌ ولا يمكنُ أنْ أرضى بهِ ، فقالَ : هذا صحيحٌ ونحنُ لا نريدُ أنْ نصرفَ لكَ صرفًا ناقصًا ولكنْ هذا هو الصرفُ الرسميُّ ، فقلتُ : إنَّني أريدُ أن أذهبَ اليومَ مع جولةٍ سياحيَّةٍ

---

(١) في غرب البرازيل ٣٩. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٦٥ ، وفي جنوب البرازيل ١٢٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٧٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٢ ، ١٦٥ ، وفي شرق البرازيل ١١٥.

(٢) في غرب البرازيل ٧٨.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ١٣٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٤٥ ، وفي جنوب البرازيل ٨٢ ، ١١٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٢٩.

في المدينةِ وليست معي (كروزوات) أستطيعُ أنْ أدفعَها لأهلِ الجولةِ ، ولا يُمكنني الانتظارُ حتى يفتحَ أهلُ السوقِ يومَ الاثنينِ ، فهل يمكنُ أنْ تَضْمنوا لشركةِ الجولةِ السياحيةِ المبلغَ الذي يريدونَهُ مني إلى يومِ الاثنينِ ، عندما أصرفُ الدولارَ بالسِّعرِ المعتادِ؟ فقالَ المديرُ : يُمكنُنا أنْ ندفعَ المبلغَ للجولةِ ونقيِّدَهُ على حسابِك في الفندقِ»[1] ، ومثلُهُ -أيضًا- ما دارَ بينَهُ وبينَ الدليلةِ السياحيةِ من حوارٍ عن الهنودِ في مدينة سلفادور (Salvador) ، إذْ يقولُ : «قلتُ للدليلةِ : لقد رأيتُ الأفارقةَ هنا فرأيتُ بعضَهم لمْ يتغيروا ، ورأيتُ أكثرَهم قدْ خفَّ سوادُهم ، فماذا عن السكانِ الأصلاءِ الذين يُسمَّونَ هنا بالهنودِ ؟ إنَّني لم أرَ جماعاتٍ منهم كالذينَ رأيتُهم مِن الإفريقيينَ ، فقالت : إنَّ الخُلَّصَ منهم الذين لم يختلطوا بغيرِهم موجودون في أماكنَ منعزلةٍ بعيدةٍ عن المدينةِ أقربُها منها يبعدُ ثلاثَ مئةِ كيلو متر ، وإنَّهم لم يتغيروا عن أشكالِهم التي عُرفوا بها في القديمِ فهم سودُ العيونِ والشعورِ قصارُ الأجسامِ لهم هيئةٌ خاصَّةٌ لا يشاركُهم فيها غيرُهم مِن السكانِ المعروفينَ هنا مِن ذوي الأصولِ البرتغاليةِ والإفريقيةِ ، فقلتُ : إنَّ كونَهم لم يتغيروا هو أمرٌ طبيعيٌّ ؛ لأنَّ هذِهِ هي بلادُهم الأصليةُ لم يطرأْ عليها تغييرٌ ، لذلكَ لا يُتوقعُ أن يطرأَ تغييرٌ على أشكالِهم ؛ فهم لم ينتقلوا مِن بلادِهم إلى بلادٍ غريبةٍ عنهم حتى يؤثرَ فيهم»[2].

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ١٢٥.

(٢) في شرق البرازيل ٦٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٦١ ، ١٠٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣٠ ، ٥٨ ، وفي جنوب البرازيل ٨٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٦ ، وفي شرق البرازيل ١٣٨.

كما نجدُ المشهدَ ماثلًا في أوصافِ هذه المدونةِ ، وإذا ما جئنا إلى الوصفِ فإنَّنا سنجدُه كثيرًا ؛ فمِن وصفِ الأمكنةِ إلى وصفِ الحيواناتِ والتقاسيمِ البشريةِ وغيرِ ذلكَ ممَّا قدْ يصادفُهُ الرحالةُ في الغالبِ.

يقولُ العبوديُّ واصفًا ضواحيَ مدينةِ كورتيبا (Curitiba) وأريافَها : «أخذَت الطائرةُ في التدني فبدَت ضواحي المدينةِ وأريافُها ذاتَ بيوتٍ متفرقةٍ بينَ غاباتٍ وتلالٍ خضرٍ كثيرةٍ كثيفةِ الاخضرارِ ، حتى الطرقُ في هذِهِ الأريافِ تبدو وهي غيرُ مزفتَّةٍ كالوسمِ في جلدِ الدابَّةِ وذلكَ أنَّ الخضرةَ قدْ جلَّلَت الأرضَ كلَّها ما عدا الطرقِ»(١). ويقولُ واصفًا أحدَ المتاحفِ : «وجدناهُ كنيسةً قديمةً عربيةَ الطرازِ ذاتَ صحنٍ تحيطُ بِهِ أروقةٌ بأقواسٍ أندلسيةٍ»(٢). ويصفُ حيوانًا غريبًا رآهُ في البرازيلِ فيقولُ : «والنسناسُ حيوانٌ صغيرٌ يشبهُ القرودَ إلا أنَّه في حجمِ الفأرِ الكبيرِ ، وأهمُّ ما في جسمِهِ ظهورًا : عيناه الكبيرتان وذيلُهُ الطويلُ»(٣).

وهكذا فإنَّ السردَ الرحليَّ سردٌ مشهديٌ(٤)؛ حيثُ إنَّ الرحلةَ مظنةُ اختلاطِ الرحالةِ بالآخرينَ ومشاركتِهم ، مما ينتجُ عنه مادةً حواريةً وقوليةً ، كما يشغلُ الوصفُ المبأَّرُ حيزًا مُهمًا في السردِ الرحليِّ ؛ فالرحالةُ ناقلٌ يَهمُّهُ نقلُ الواقعِ إلى المتلقي في أقربِ صورةٍ ممكنةٍ تعينُهُ على تَمَثُّلِ الواقعِ الغائبِ والغريبِ.

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١١.

(٢) في شرق البرازيل ١٣٣.

(٣) في شرق البرازيل ٧٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٣٧ ، ١٠٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٥١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٩ ، ١٢٣ ، وفي شرق البرازيل ٤٣ ، ١٣٣ ، وعلى ضفاف الأمازون ١١ ، ٦٧ ، وفي غرب البرازيل ١٤ ، ٧٠.

(٤) ينظر : معجم السرديات : (قصص الرحلات).

وإلى جانبِ المشهدِ نجدُ أنَّ للوقفةِ حضورًا ظاهرًا في هذه المدونةِ وفي الرحلةِ عمومًا ؛ فكثيرًا ما تتضمنُ الرحلاتُ نصوصًا أخرى ، مثلَ التقاريرِ أو نصوصِ الرحلاتِ السابقةِ ، كما أنَّ الرحالةَ قد يُدخِلُ في السَّردِ ما يراه مناسبًا مِن الشرحِ والتعليقِ والتفسيرِ والترجمةِ وغيرِ ذلك مما قدْ يضيفُ إلى قصةِ الرحلةِ[1].

وفي هذه المدونةِ نجدُ أنَّ العبوديَّ لا يستغني عن الوقفاتِ السرديَّةِ ؛ كأنْ يقومَ بنقلِ نشرةٍ سياحيةٍ تعريفيةٍ أو تقريرٍ أو معلومةٍ مِن كتابٍ ما ؛ للاستزادةِ في الإيضاحِ ، ففي رحلتِهِ (على أرضِ القهوةِ البرازيليةِ) يوقفُ السردَ لينقلَ لنا تقريرًا كاملًا يقعُ في سبعِ صفحاتٍ تقريبًا ، عن الجمعيةِ الخيريةِ العربيةِ الإسلاميةِ في باراناقوا (Paranagua) كتبَهُ رئيسُ الجمعيةِ وسكرتيرُها[2]. ومثلُهُ قولُهُ في رحلتِهِ إلى شرقِ البرازيلِ : «وعلى هذا الشاطئ غيرِ الجيِّدِ كنيسةٌ رديئةُ المظهرِ ، قالَ الدليلُ : إنَّها للبرتغاليينَ. وهنا أعطانا الدليلُ نشرةً تتضمنُ أيضًا معلوماتٍ مهمةً عن تاريخِ أولندا ، وذكرِ اسمِها وتطورِها. نُثبتُ تلخيصًا لترجمةِ بعضِ ما جاءَ فيها :...»[3].

وكثيرًا ما يوقفُ العبوديُّ السردَ مِن أجلِ التعليقِ على ما سبقَ ، مثلَ قولِهِ عن زيارتِهِ لجامعِ كويابا (Cuiabá) : «في جانبِ المسجدِ جهةَ الجنوبِ ملعبٌ للأطفالِ والصبيانِ ، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًا ؛ لأنَّ الذين يأتون للصَّلاةِ مع أُسَرِهم يحتاجون إلى ما يشغلونَ بِهِ

(١) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ٥٠.

(٢) ينظر : على أرض القهوة البرازيلية ٣١.

(٣) في شرق البرازيل ١٤٣. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٧٤ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٢٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٤ ، وفي شرق البرازيل ١١٦.

أطفالَهم بعدَ الصلاةِ أو قبلَها»(1). ومثلُهُ قولُهُ : «وقدْ ازدادَ عددُ سياراتِ السُّيَّاحِ الذين جاؤوا مِن خارجِ البرازيلِ كالأرجنتين والأرغواي...ولا شكَّ في أنَّ البرازيلَ بلدٌ يصلحُ للسياحةِ حقًّا ، فالمناظرُ الطبيعيةُ موجودةٌ في كلِّ منطقةٍ والشعبُ شعبٌ ودودٌ كريمُ الطباعِ سهلُ المعاملةِ والطرقُ إلى البرازيلِ مِن البلدانِ المجاورةِ كثيرةٌ متصلةٌ والأسعارُ في البرازيلِ رخيصةٌ ، أرخصُ مِن البلدان المجاورةِ»(2).

وقدْ تكونُ الوقفةُ بقصدِ ترجمةِ كلمةٍ أعجميةٍ استدعاها سياقُ القصةِ ، كما جاءَ في قولِهِ : «ولبَّت الفتاةُ الطلبَ بسرعةٍ واختارت فندقًا ذكرت اسمَه : قراندي هوتيل داباها ، و(قراندي هوتيل) معروفٌ ومعناه بالبرتغاليةِ : الفندقُ الكبيرُ ، و (دا) أداةُ إضافةٍ تقعُ بينَ المضافِ والمضافِ إليهِ»(3). ومثلُهُ قولُهُ : «وركبتُ إلى المطارِ مع سائقِ أجرةٍ كانَ استدعاهُ مكتبُ الفندقِ بأجرةٍ تعادلُ أحدَ عشرَ دولارًا أمريكيةً ، وانطلقَ السائقُ الودودُ بسيارتِهِ معَ شوارعِ (ريو) الممتدةِ ، المكتظةِ على سعتِها بالسياراتِ ، وهو يحدثُني بالبرتغاليةِ عن (ريو) وجمالِها إلا ما كان مِن أمرين –على حدِّ قولِهِ– وهما : (اللادرو) واللادرو هو اللصُّ بلغتِهم ، والثاني : الكروزادوا ، وهو عملتُهم الوطنيةُ التي صارت تنقصُ قيمتُها يومًا بعدَ يومٍ»(4).

---

(1) في غرب البرازيل ٢٣.

(2) في جنوب البرازيل ١٠٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٠٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٥ ، ٨١ ، وفي شرق البرازيل ٤٩ ، ٩٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٧ ، ١١٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٩ ، ٩٤.

(3) في شرق البرازيل ٢٨.

(4) الشرق الشمالي من البرازيل ١٩. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٥، ٢٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١١٠ ، ١٤٢ ، وفي شرق البرازيل ٦٩ ، ١٠٩.

وتكونُ الوقفةُ عندَ العبوديِّ أحيانًا لبيانِ معنى كلمةٍ عربيةٍ ، فها هو يقفُ عندَ أحدِ المصطلحاتِ الشائعةِ عندَ العربِ في البرازيلِ فيقولُ : «كلمةُ (ابن عرب) في أمريكا الجنوبيةِ تعني عربيَّ الأصلِ ، ومع أنَّ كلمتي (عربي) و (ابن عرب) تعطيان معنًى واحدًا ، فإنَّهم لا يستعملون كلمةَ (عربي) ولا يكادُ الغريبُ يسمعُها مِن أفواهِهم»[١]. ويقولُ في فقرةٍ عَنْونَ لها بـ(بِراقِ البرازيلِ) : «البِرَاقُ : جمعُ بُرْقَةٍ وهي الرملُ التي تركبُ الحجارةَ»[٢].

وقد يوقفُ العبوديُّ السردَ ليقدمَ للقارئِ بعضَ المعلوماتِ والتعريفاتِ ، مثلَ قولِهِ في إحدى الفقراتِ : «المسلمون في بونتا قروسا : تأسست أولُ جمعيةٍ إسلاميةٍ في (بونتا قروسا) في عامِ ١٩٦٨م ولكنَّها لم تستمر بلْ اضمحلَّت وتوقفَ نشاطُها وانفرطَ عقدُ أعضائها ، ثمَّ تأسست الجمعيةُ الحاليةُ في عامِ ١٩٧٨م وقد تمكنتْ مِن بناءِ المركزِ الإسلاميِّ الذي ذكرتُهُ ، كما اشتروا أرضَ المسجدِ التي يأملون أنْ يبنوا عليها المسجدَ ويكونَ في طابقٍ تحتَهُ مقرٌّ للجمعيةِ الإسلاميةِ ومكتبةٌ حافلةٌ بالمراجعِ...وأكثرُ المسلمين هم مِن لبنانَ وفيهم بعضُ الشيعةِ اللبنانيين ولم يكونوا في الماضي يُحسُّونَ بالفرقِ بينَهم وبينَ أهلِ السنةِ»[٣]. ويقولُ عن ولايةِ باراييبا (Paraiba) : «ولايةُ (بارييبا) التي نقصدُها الآنَ عاصمتُها التي سننزلُ فيها هيَ (جوا بسوا) وهيَ متوسطةُ السعةِ بالنسبةِ إلى مساحةِ الولاياتِ البرازيليةِ الأخرى ؛ إذْ تبلغُ مساحتُها (٥٦,٣٧٢) كيلو مترٍ مربعٍ ، يبلغُ عددُ سكانِها ثلاثةَ ملايينَ و١٥٠ألفِ نسمةٍ أكثرُهم مِن الـ(مولاتو) الذين هُم المختلطون ما بينَ العناصرِ السُّكَّانيةِ الثلاثةِ التي أقدمُها في المنطقةِ الهنودُ الأمريكيون ، وهم السكانُ الأصلاءُ وهم الذين كانوا في البلادِ قبلَ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٠٤.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٧٦.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ١٦٦.

وصولِ الأوربيين إليها ، والأوربيين الذين أكثرُهم البرتغاليون ، والأفارقةِ الذين جلبوا إلى المنطقةِ عبيدًا»[1].

وهكذا فإنَّنا نجدُ الوقفةَ تضاهي المجملَ في كثرةِ الاستعمالِ عندَ العبوديِّ ، كما أنَّ الوقفاتِ تتعددُ وتأتي في أغراضٍ كثيرةٍ بحيثُ يصعبُ حصرُها بالدقةِ ، وإنْ كنَّا قدْ وقفنا على أكثرِ الأغراضِ طرقًا. وليست الوقفةُ على مستوًى واحدٍ في الطولِ والقصرِ ؛ فمنها القصيرُ والمتوسطُ كما رأينا في الأمثلةِ السابقةِ ، ومنها ما يكونُ طويلًا[2] ، وبعضُها استحقت لطولِها أنْ تفردَ في فقرةٍ مستقلةٍ[3].

ولعلَّ سرَّ تكرارِ استخدامِ حركتَي المشهدِ والوقفةِ في هذه المدونةِ يكمنُ في قِصَرِ أيامِ الرحلاتِ ؛ بحيثُ لا تتجاوزُ أكثرُها الأسبوعَ ، مما يحدو بالعبوديِّ إلى تمطيطِ النصِّ مِن خلالِ استخدامِ حركاتِ إبطاءِ السَّردِ.

وإذا كانَ السَّردُ أحدَ مكوناتِ القصِّ الرحليِّ وأهمَّها فإنَّ الوصفَ أيضًا مِن أهمِّ مكوناتِ الخطابِ الرحليِّ.

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ١٠٥. ولمزيد أمثلة ، ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٩ ، ٩٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٧ ، ٧٦ ، وفي شرق البرازيل ٢٥ ، ١١٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٣ ، ٥٤ ، وفي غرب البرازيل ٢٧ ، ٨٦ ، وفي جنوب البرازيل ٥٠ ، ١٠٤.

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : على أرض القهوة البرازيلية ٩٤ ، وفي شرق البرازيل ١٠٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١١٠.

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في شرق البرازيل ١١٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٤ ، وفي جنوب البرازيل ٤٨.

المبحث الثالث :

الوصف

جاءَ في لسانِ العربِ أنَّ الوصفَ : «وصفُكَ الشيءَ بحليتِهِ ونعتِهِ»[١]. أمَّا في كتابِ (نقدِ الشعرِ) فإنَّ الوصفَ يتعيَّنُ في : «ذكرِ الشيءِ كما فيهِ مِن الأحوالِ والهيئاتِ ، ولـمّا كانَ أكثرُ وصفِ الشعراءِ إنَّما يقعُ على الأشياءِ المركَّبةِ مِن ضُروبِ المعاني كانَ أحسنُهم مَن أتى في شعرِهِ بأكثرِ المعاني التي الموصوفُ مركبٌ منها ، ثُمَّ بأظهرِها فيهِ وأولاها حتى يحكيَهُ بشعرِهِ ويمثِّلَهُ للحسِّ بنعتِهِ»[٢].

أمَّا الوصفُ في معجمِ السردياتِ فإنَّهُ : «نشاطٌ فنيٌّ يُمثِّلُ باللغةِ الأشياءَ والأشخاصَ والأمكنةَ وغيرَها»[٣].

ويُعدُّ الوصفُ مِن الممارساتِ العريقةِ لدى جميعِ الأُممِ ، وهوَ عندَ العربِ -خصوصًا- أداةٌ إنشائيةٌ مطروقةٌ مستحسنةٌ ، في حينِ أثارَ الوصفُ في الغربِ ردودَ فعلٍ مُتباينةٍ تميلُ إلى الرفضِ ، بل الإدانةِ أحيانًا[٤].

ومعَ مكانةِ الوصفِ عندَ العربِ إلا أنَّ الغربَ تفوقوا على العربِ في المادَّةِ التنظيريَّةِ للوصفِ[٥] ؛ فقد تعاملَ الدارسونَ الغربيونَ مع الوصفِ «بوصفِهِ مكونًا مِن مكوناتِ الخطابِ ، وبصفتِهِ وحدةً نصيةً متمتعةً بكيانٍ خاصٍّ ولها اشتغالٌ داخليٌّ وبنيةٌ ووظائفُ

---

(١) لسان العرب ٩/ ٣٥٦.

(٢) نقد الشعر ١١٣.

(٣) معجم السرديات : (وصف).

(٤) ينظر : الوصف في النص السردي ١٧ ، والخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة ١٥٣.

(٥) ينظر : الوصف في النص السردي ١٧.

مخصوصةٌ»[1] ولكنهم –رُغمَ تكوينِهم لهذهِ المادةِ النظريةِ– لم يتفقوا حولَ طبيعةِ العلاقةِ بينَ الوصفِ والسردِ.

العلاقةُ بينَ الوصفِ والسَّردِ :

لا يُمثِّلُ الوصفُ مشكلةً لدى المنظِّرينَ السرديينَ العربِ ، بينما يختلفُ النقادُ والمنظرون الغربيون حولَ علاقةِ الوصفِ بالسَّردِ[2] ؛ فمنهم مَن جعلَهما متقابلينِ ، ومنهم مَن أدرجَ الوصفَ في السردِ[3] ، وبعيدًا عن هذا الخلافِ فإنَّ «النصَّ السرديَّ جِماعُ خطاباتٍ تكوينيَّةٍ متغايرةٍ متنافرةٍ ينفردُ كلٌّ منها ببنيةٍ وأساليبَ ووظائفَ مخصوصةٍ ، ومِن هذهِ الخطاباتِ : الوصفُ»[4].

إنَّ بينَ الوصفِ والسردِ مِن التلازمِ والتكاملِ ما يحدوهما إلى التناوبِ والتكاملِ ؛ فالسردُ هوَ الفعلُ الزمانيُّ المتحركُ في مجرى الزمنِ وبواسطتِهِ والمتقدِّمُ مِن خلالِهِ ، أمَّا الوصفُ فإنَّهُ الفعلُ المكانيُّ الذي يتناولُ المكانَ في حالِ ثبوتِهِ ، وكلّ زمانٍ محدَّد بمكانٍ ، كما أنَّه لا يمكنُ تأطيرُ المكانِ إلا مِن خلالِ لحظةٍ زمانيةٍ مُعَيَّنةٍ ، ويُمكنُ اختصارُ ما مضى بالقولِ بأنَّ السردَ هو صورةُ عرضِ الأشياءِ متحركةً ، أمَّا الوصفُ فإنَّهُ الصورةُ التي تعرِضُ الأشياءَ حالَ سكونِها[5].

---

(١) ينظر : الوصف في النص السردي ٢٨.

(٢) ينظر : السابق ٥٩.

(٣) ينظر : بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة ٢١.

(٤) الوصف في النص السردي ٥٨.

(٥) ينظر : السرد العربي ١٩٥ ، وبناء الرواية ٨٢.

ويمكنُ للأشياءِ أنْ توجدَ دونَ الاضطرارِ إلى الحركةِ ولكن لا يمكنُ للحركةِ أنْ توجدَ بلا أشياءٍ ، فتصوُّرُ وصفٍ بلا سَردٍ -كما يرى (جنيت)- أيسرُ مِن تصورِ سردٍ خالٍ مِن الوصفِ ؛ حيثُ إنهما متداخلان بشِدَّةٍ وبِنِسَبٍ مختلفةٍ جدًّا ، وهذا ما جعلَ الجميعَ يتفقُ حولَ قيمةِ الوصفِ وحاجةِ النصِّ السرديِّ إليهِ ؛ فلا يمكنُ للسَّردِ -كما يقولُ (أدام)- أنْ يستغنيَ عن شيءٍ مِن وصفِ الأشياءِ والعواملِ وكذا وصفِ العالمِ ومحيطِ الفعلِ[1].

وإذا كانَ سردُ الرحَّلةِ يعتمدُ على تقديمِ المهمِّ من أحداثِ الرحلةِ فإنَّه سيفتقرُ إلى الوصفِ ليصورَ للقارئِ – من خلالِ الوصفِ- إطارَ تلكَ الأحداثِ بأشيائهِ وأمكنتِهِ وأشخاصِهِ[2].

ويتميَّزُ الوصفُ -غالبًا- بما يهيمنُ على أسلوبِهِ مِن «الأسماءِ والجملِ الاسميةِ وأدواتِ تنظيمِ الفضاءِ اللغويةِ ، وهو يبدو -إذا ما تشكَّلَ مقطعًا- وحدةً قابلةً للعزلِ ونتوءًا طُفيليًّا قد يهدِّدُ إذا ما تضخَّمَ حجمُهُ النصيُّ بانقطاعِ التواصلِ بينَ طرفي الخطابِ»[3].

ومِن خلالِ هيمنةِ أحدِ المكونينِ (السردِ والوصفِ) يمكنُنا أنْ نحدَّدَ نوعيةَ النصِّ السرديِّ ؛ ذلكَ أنَّ «كلَّ جنسٍ أدبيٍّ ، فيما تقولُ (جيرفاي زانجينجا) ، يحدِّدُ قاعدَتَهُ الخاصَّةَ في بابِ الوصفِ ، وأنَّ كلَّ جنسٍ يمنحُ الوصفَ وضعًا مخصوصًا»[4] ؛ فالروايةُ مثلًا يهيمنُ عليها السردُ ؛ فهو الذي «يؤطِّرُ الوصفَ ويستوعبُهُ ، لذلك يغدو البعدُ الزمانيُّ فيها يحتلُّ

---

(١) ينظر : طرائق تحليل السرد الأدبي ٧٥ ، وبحوث في السرد العربي ١٨ ، وبنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة ٣٥.

(٢) ينظر : الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٢٧.

(٣) الوصف في النص السردي ٥٩.

(٤) الوصف في النص السردي ١٨٤.

مكانةً أساسيةً بقياسِهِ بالمكانِ ، أمَّا الرحلةُ فيمكنُ الذهابُ –الآنَ– إلى أنَّها خطابٌ وصفيٌّ ؛ لأنَّها تضعُ في الاعتبارِ الأوَّلِ البعدَ المكانيَّ في زمنٍ معينٍ»[1] ؛ فكثيرًا ما تدفعُنا الرحلةُ إلى «مُعاينةِ المكانِ ومواصلةِ الانتقالِ عبرَ الأمكنةِ التي يقفُ عندَها الرحالةُ واصفًا ، وبصددِ كلِّ مكانٍ تتشكلُ لدينا صورةٌ مجسدةٌ عن هذا المكانِ أو ذاكَ بشكلٍ يجعلُ كلَّ مكانٍ يختلفُ عن غيرِهِ»[2] ، و«على هذا الأساسِ تصبحُ الرحلةُ جنسًا أدبيًّا وصفيًّا بامتيازٍ ، خاصةً أنَّ الوصفَ في الرحلةِ لا يُعدُّ خادمًا للسردِ بل ندًّا لَهُ»[3]؛ فالرحلةُ «نصُّ الصورةِ السرديَّةِ بدونِ منازعٍ ؛ ذلك أنَّ الرحالةَ يصِفُ ليسردَ ويسردُ ليصِفَ»[4].

وما دامَ أنَّ الوصفَ في النصِّ الرحليِّ يحظى على هذا القدرِ مِن الأهميَّةِ فإنَّهُ يجدرُ بنا معرفةُ الـمواطِنِ التي يغلبُ أن يشغلَها الوصفُ في هذه المدونةِ ، كما يجدرُ بنا الوقوفُ على معلناتِ حدَّي المقطعِ الوصفيِّ.

---

(١) السرد العربي ١٩٦.

(٢) نفسه ١٩٨.

(٣) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٧١.

(٤) أدبية الرحلة ٧.

مواطنُ الوصفِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

في حينِ يتناوبُ السردُ والوصفُ ويتداخلانِ على أنَّهما عنصرانِ أساسيانِ في تكوينِ الخطابِ الرحليِّ ؛ فإنَّهُ يهمُّنا أنْ نعرفَ بعضَ مواطنِ المقاطعِ الوصفيةِ في هذه المدونةِ ؛ والتي «تظهرُ في شكلِ وحدةٍ أسلوبيةٍ متمتعةٍ باستقلالٍ نسبيٍّ»(١).

وعلى الرُّغمِ مِن صعوبةِ الإحاطةِ بذلك إلا أنَّ مَن يقرأ رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ يجد فيها مِن الـمَواطنِ ما يُشكِّلُ بيئةً خصبةً يكثرُ أنْ يشغلَها الوصفُ ؛ فتُعدُّ المقدِّماتُ وفواتحُ اليومِ الأوَّلِ مِن أيامِ الرحلاتِ المدروسةِ أهمَّ مواطنِ الوصفِ ؛ بحيثُ يشتملُ أكثرُها على وصفٍ للفضاءِ الـمُرتحلِ إليهِ يكشفُ العبوديُّ مِن خلالِهِ عن أهمِّ المعلوماتِ الجغرافيةِ والاجتماعيةِ والسياسيةِ ، فلو نظرنا مثلًا إلى مقدمةِ العبوديِّ لرحلتِهِ إلى جنوبِ البرازيلِ لوجدنا أنَّها تضمَّنَت قولَه : «ولاية ريو قراندي دو سول : هيَ أقصى ولاياتِ البرازيلِ مِن جهةِ الجنوبِ...وتعتبرُ مِن الولاياتِ الـمُهمَّةِ في البرازيلِ...ويبلغُ عدَدُ سُكانِها ثمانيةَ ملايينَ وأربعَ مئةِ ألفِ نسمةٍ ينتشرونَ في مساحاتِها الخصبةِ التي يصلُ اتساعُها إلى ١٨٤ , ٢٨٢ كيلو مترًا مربعًا. وتشتهرُ بكونِها ولايةَ صناعاتٍ عديدةٍ من أهمِّها : المصنوعاتُ الجلديةُ»(٢) ، وحينَ لا تشتملُ المقدِّمةُ على وصفِ الفضاءِ المرتحلِ إليهِ فإنَّها لا تخلو فاتحةُ اليومِ الأوَّلِ للرحلةِ مِن ذلكَ ، مثلَ قولِ العبوديِّ في أثناءِ سردِهِ لأحداثِ اليومِ الأوَّلِ لرحلتِهِ إلى المنطقةِ الجنوبيةِ الغربيةِ من البرازيلِ : «يومُ السبتِ ٢٧/ ١٠/ ١٩٨٤م : إلى ولايةِ

---

(١) بحوث في السرد العربي ١٨.

(٢) في جنوب البرازيل ١٩. ولمزيد أمثلة ينظر : الشرق الشمالي من البرازيل ١٧ ، وفي شرق البرازيل ١٩.

بارانا : تقعُ ولايةُ (بارانا) في الجنوبِ الغربيِّ مِن البرازيلِ وتبلغُ مساحتُها ١٩٩,٥٦٠ كيلو مترًا مربعًا ، ويبلغُ عددُ سكانِها أحدَ عشرَ مليونًا ومئةَ ألفِ نسمةٍ ، وتعتبرُ أعظمَ مُنتجٍ ومُصَدِّرٍ للبُنِّ في العالمِ ؛ ذلكَ بأنَّ البرازيلَ أكبرُ دولةٍ مُنتجةٍ ومصدِّرٍ لحبوبِ البُنِّ في العالمِ ، وهذهِ الولايةُ هي أُولى الولاياتِ البرازيليةِ في إنتاجِ القهوةِ ، وهي أيضًا مِن أعظمِ الولاياتِ في إنتاجِ الخشبِ ، وبخاصةٍ مِنه خشبُ الـ(بارانا) الذي سُميت بِهِ هذِهِ الولايةُ (بارانا) ؛ لوجودِ هذا الخشبِ الثمينِ فيها»[1].

وتعدُّ بداياتُ الفصولِ -إنْ صحَّ تسميتُها فصولًا- أحدَ مواطنِ الوصف في هذه المدونةِ ؛ مِن قبيلِ ما بدأ العبوديُّ بِهِ فصلَ ولايةِ ريو قراندي (*Rio Grande*) في الرحلةِ إلى الشرقِ الشماليِّ من البرازيلِ ، حيثُ يقولُ : «ولايةُ ريوقراندي دو نورتي . العاصمةُ (ناتال) . الموقعُ : في الشمالِ الشرقيِّ مِن المنطقةِ الشماليَّةِ الشرقيَّةِ. عددُ السُّكانِ ٢٥٨٢٣٣٩. المساحةُ : ٥٣٣٠٦,٨ كم مربعٍ. الكثافةُ السكانيةُ: ٤٤,٤٨ نسمةً/ كم مربعٍ»[2]. وفي الرحلةِ إلى جنوبِ البرازيلِ نجدُ أنَّ العبوديَّ يفتتحُ الفصلَ الـمُسمَّى بولايةِ سانتا كاترينا (Santa Catarina) بقولِهِ : «ولايةُ (سانتا كاترينا) مِن الولاياتِ ذاتِ الصفةِ المَمَيَّزةِ في البرازيلِ ، فهيَ مِن الناحيةِ الاقتصاديةِ تُعتبرُ أكثرَ الولاياتِ تصديرًا ، إذا قيسَ ذلك بعدِدِ سُكانِ الولايةِ ، وهيَ مشهورةٌ بانتشارِ التعليمِ بينَ أهلِها وبشيءٍ ظاهرٍ هو أنّها ربَّما كانت أكثرَ ولاياتِ البرازيلِ بياضًا»[3].

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٨. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٩.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٤٧.

(٣) في جنوب البرازيل ٦٩. لمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٩٣ و ١٠٣ ، و الشرق الشمالي من البرازيل ١٠٥.

وكثيرًا ما تُبتَدَأُ فقراتُ هذه المدونةِ بوصفٍ يُمهِّدُ للأحداثِ مِن خلالِه ، مِن مثلِ قولِ العبوديِّ : «**الفطورُ الفاخرُ** : وجدتُ إفطارَ هذا الفندقِ كالإفطارِ في أفخرِ الفنادقِ البرازيليةِ ؛ فقد وضعوهُ على موائدَ مفتوحةٍ طويلةٍ فيها ما يخطُرُ ببالكَ»(١).

ولا يعني ذلك قَصْرُ مواضعِ الوصفِ على تلك المواقعِ من السردِ فقط ؛ فالوصفُ شائعٌ في جميعِ الـمَواضعِ السرديَّةِ لهذهِ المدونةِ.

وإلى جانبِ تلكَ المواطنِ فإنَّه يمكنُنا الاهتداءُ إلى المقاطعِ الوصفيةِ في هذه المدونةِ مِن خلالِ بعضِ العباراتِ الممهِّدَةِ والمفتَتِحةِ للمقاطعِ الوصفيَّةِ والخاتمةِ لها ، وتُعرفُ هذهِ العباراتُ بـ : مُعلناتِ حدَّي المقطعِ الوصفيِّ(٢).

معلناتُ حدَّي المقطعِ الوصفيِّ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

يَظهرُ المقطعُ الوصفيُّ «في شكلِ وِحدَةٍ أسلوبيةٍ متمتِّعَةٍ باستقلالٍ نسبيٍّ ومزوَّدَةٍ ببعضِ العلاماتِ التي تعلنُ للقارئِ أنَّ الملفوظَ سيندرجُ أو قد اندرجَ في مقطعٍ غلبَ عليهِ الوصفُ وأنَّ عقدَ قراءةٍ جديدٍ سيقومُ في النصِّ -أو قامَ فيهِ بعدُ- وأنَّ القارئَ سيكونُ -أو كانَ- في وضعِ مخاطبةٍ جديدٍ ذي أفقِ انتظارٍ جديدٍ أيضًا»(٣).

وقدْ تنبعُ تلكَ المقاطعُ الوصفيةُ مِن «ظهورِ اسمٍ جديدٍ -سواءً دلَّ على مكانٍ أو شخصٍ أو شيءٍ أو ترتيبٍ عدديٍّ- يجعلُ المرويَّ لهُ ينتظرُ أنْ يوصفَ ، سواءً طالَ

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٥٤. ولمزيد من الأمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١٣٥، ١٥٢ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٢٣ ، ١٣٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٩، ٢٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٨٠ ، ٨٢ ، وفي غرب البرازيل ٦٢.

(٢) ينظر : الوصف في النص السردي ٦٤.

(٣) بحوث في السرد العربي ١٨.

الوصفُ فشكَّلَ مقطعًا أو قَصُرَ فكانَ بِضعَ صفاتٍ ، وسواءً تلا الوصفُ الاسمَ مباشرةً أو تأخرَ قليلًا أو كثيرًا»[1].

ويُعدُّ المقطعُ التالي من هذه المدونةِ أحدَ مقاطعِ الوصفِ التاليةِ لظهورِ اسمٍ أو مصطلحٍ جديدٍ : «وكلُّهم مِن الجنسِ البرازيليِّ ؛ الذي ارتضيتُ لنفسي أنْ أطلقَ عليهِ هذا المصطلحَ وإنْ لمْ يكنْ هناكَ جنسٌ برازيليٌّ متفقٌ على إطلاقِ هذا الاسمِ عليه ولكنَّهُ الجنسُ الغالبُ الأكثرُ في البرازيلِ ، وهوَ جنسٌ أبيضُ ولكنَّهُ ليسَ بأصهبَ ؛ فبياضُهُ في الأغلبِ الأعمِّ هو كبياضِ العربِ الشماليينَ ، أو بياضِ السُمرِ مِن الأوربيينَ الجنوبيينَ»[2]. ومِن قبيلِ هذا المقطعِ قولُ العبوديِّ : «والأستاذُ حسنُ الهواشُ وهوَ سوريُّ الأصلِ ؛ مِن أسرةِ الهواشِ التي اعتنَتْ بزيارتي وهيَ أسرةٌ ذاتُ مكانةٍ في هذِهِ البلادِ الاستوائيةِ»[3]. ومِن قبيلِ هذه المقاطعِ ، أيضًا ، الأوصافُ التاليةُ لأسماءِ الأماكنِ المرتحلِ إليها ، مِن مثلِ قولِ العبوديِّ : «غادرنا مطارَ برازيليا عاصمةَ البرازيلِ ، ومعنى اسمها : البرازيليةُ. وهيَ العاصمةُ الحديثةُ للبلادِ...ومعَ ذلكَ كبُرَت هذِه العاصمةُ (برازيليا) بسرعةٍ رُغمَ صِغَرِ سنِّها -إنْ صحَّ

---

(1) السابق٢٠.

(2) في شرق البرازيل ٢٥.

(3) على ضفاف الأمازون ١٥. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٧٥ ، ٧٦ ، وفي غرب البرازيل ١٧ ، ٤٥ ، وفي شرق البرازيل ٧٨ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٢ ، ٩١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٨٥ ، ١٥٠ ، وفي جنوب البرازيل ٥٣ ، ٩٤.

التعبيرُ- فبلغَ عددُ سكانِها الآنَ ما نافَ على المليونِ ، وبلغَ سكانُ المدنِ أو المحلّات المتَّصلَةِ بها ما قاربَ المليونَ أيضًا»(١).

وقد يكونُ الـمُعلِنُ عن بدايةِ الوصفِ زوالَ حاجبٍ مانعٍ للرؤيةِ ، مثلَ : «تجلَّى الغيمُ فكانَ الجوُّ صاحيًا واتضحت الأرضُ مِن تحتِ الطائرةِ أرضًا خضراءَ شاسعةً أكثرُها مِن حقولٍ مزروعةٍ لا يدركُ البصرُ مِن الطائرةِ لها مدًى ، وفيها نهرٌ متَّسِعٌ مُتَشَعِّبٌ في هذِهِ الأرضِ»(٢).

وقد يكونُ مانعُ الرؤيةِ ستارةً مسدَلةً فيكونُ الإعلانُ عن الوصفِ بإزاحتِها ، مثلَ : «أزحتُ ستارةَ النافذةِ معَ شروقِ الشمسِ على منظرٍ جليلٍ ، وهو منظرُ الشمسِ حينَ ترسلُ نهرًا مِن الأضواءِ إلى صفحةِ البحرِ المحيطِ ، ربَّما لتحاولَ أنْ تهدئَ مِن غُلوائِهِ وهو يمسحُ رمالَ الشاطئِ الحمرَ لا يفترُ عن ذلكَ»(٣).

وقدْ يكونُ المعلنُ إطلالةً مِن خلالِ نافذةٍ أو شُرفةٍ أو مرتفعٍ ما ، ففي إحدى إطلالاتِهِ مِن إحدى النوافذِ يقولُ العبوديُّ : «وبإطلالةٍ مِن النافذةِ على حديقةِ الفندقِ كانَ المنظرُ رائعًا إذْ كانَ كلُّ شيءٍ هادئًا حتى فروعُ النارجيلِ التي كانت تميلُ معَ كلِّ نَسمةِ ريحٍ هي ساكنةٌ ساجيةٌ كأنَّما هي في لحظةِ تأمُّلٍ أو تعبُّدٍ (وإنْ مِن شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحمدِهِ) تُوَشِّحُها زهورٌ

---

(١) في شرق البرازيل ٢٤. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٤٤ ، ٩٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٣ ، ٣٣ ، وفي شرق البرازيل ٣٣ ، ١٣٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٢٤ ، ١٥٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٢ ، ١٢٧ ، ١٤١ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٦ ، ١٢٥ .

(٢) في شرق البرازيل ٩٦. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٤١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١١ ، ١٢٥.

(٣) في شرق البرازيل ١٦٠ . ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٧١ .

مختلفةُ الألوانِ لا يجمعُ بينَها إلا الجمالُ الفتَّانُ في هذا المكانِ الوسنانِ ، ولا تسمعُ صوتًا أو ترى حركةً إلا زقزقةَ عصافيرٍ بعيدةٍ أو خفقةً مِن جناحي طائرٍ جذلانَ»[1] ، ومِن ذلك -أيضًا- قولُ العبوديِّ : «وقد أسرعتُ إلى شرفةِ غرفتي المطلَّةِ على المحيطِ مِن دونِهِ شارعُ الشاطئِ فإذا بالناسِ قد خرجوا مبكِّرينَ إلى الشوارعِ وتبادروا شاطئَ البحرِ كأنَّما يخافون أنْ يفوتَهم ، وكلَّما ارتفعت الشمسُ زادَت أعدادُهم حتى كادَت تكسوَ أرضَ الشاطئِ كلَّه»[2] ، ومنه أيضًا قولُهُ : «وقفنا في مكانٍ مرتفعٍ مِن الشاطئِ مفروشٍ ببُسطٍ خضرٍ على ارتفاعِهِ ، ويطلُّ على شاطئِ البحرِ اللازورديِّ الهادئِ الذي تمتدُّ مياهُهُ كذلك ثمَّ تصبحُ زرقاءَ جميلةً توشِّحُها الرمالُ البيضُ ، وفي جانبٍ منها شاطئُ نهرِ (أرارانقوا) وهو يصبُّ في البحرِ ، إحدى ضفتيهِ رمليةٌ بيضاءُ والأخرى معشبةٌ خضراءُ»[3]. وممَّا يمكنُ إلحاقُهُ بذلكَ ما يتيحُهُ ارتفاعُ الطائرةِ مِن قدرةٍ على الوصفِ والاستجلاءِ ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ حالَ الإقلاعِ أو الهبوطِ ؛ حيثُ تكونُ المسافةُ بينَ الواصفِ والموصوفِ قريبةً يستطيعُ العبوديُّ مِن خلالِها أنْ يصفَ ما تحتَهُ وصفًا شاملًا ، مِن مثلِ قولِهِ في أثناءِ الاقترابِ مِن مطارِ ماسيو (Maceio) في شرقِ البرازيلِ : «بدأت الطائرةُ التدنيَ فوقَ هذِهِ الحقولِ المزدهرةِ التي بدَتْ أكثرَ اتساعًا وبخاصةٍ وجودُ سهولٍ قليلةِ التلالِ وغاباتٍ في وديان بينِها...وأهمُّ ما يميِّزُ المنطقةَ بحيراتٌ وتجمُّعاتُ مياهٍ متصلةٌ بنهرٍ تبينَ فيها بعدُ أنَّها تُفضي إلى البحرِ لأنَّ المدينةَ واقعةٌ على المحيطِ الأطلسيِّ ، إلَّا أنَّ المنازلَ القريبةَ مِن المطارِ لم تكنْ بهيجةَ المنظرِ ، ولا تُوحي بالغنى ، وربَّما كانت هذِهِ هي الأقسامُ الشعبيةُ مِنها ، وقدْ رأيتُ قربَ المدينةِ أشياءَ رأيتُها قربَ مدينةِ

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ١٢٣.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٣.

(٣) في جنوب البرازيل ١٠٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٨٢ ، ١١٤ ، ١٢١، ١٣١.

(سلفادور) ، وهيَ أبنيةٌ على التلالِ تقربُ منها بحيراتٌ عدةٌ ، ومستنقعاتٌ للمياهِ في الأماكنِ المنخفضةِ ، وكثرةُ أشجارِ النارجيلِ»(١). ومنه قولُهُ في رحلتِهِ الجويةِ مِن برازيليا (Brasília) إلى ماناوس (Manaus) : «وعندما نهضَت الطائرةُ تجلَّت رؤيةُ البحيرةِ الاصطناعيةِ التي تقومُ في المنظرِ -في العاصمةِ برازيليا- مقامَ النهرِ أو البحيرةِ الطبيعيةِ...وبدَتْ هذِهِ البحيرةُ كأنَّها الخورُ الصغيرُ مِن النهرِ تتوسطُ العاصمةَ وتخترقُ جزءًا هامًّا مِن طرقِها ، إنْ لم نقلْ العاصمةَ هي التي تلتفُّ مِن حولِها أو تحيطُ بجزءٍ مِنها ، كما بدَتْ بيوتُ الضواحي في المدينةِ تحيطُ بِها الحدائقُ وهي منثورةٌ بانتظامٍ بسقفِها الحمرِ وسطَ الخضرةِ الغامرةِ ، ولا يرى المرءُ أثرًا لترابِ الأرضِ مِن الطائرةِ بسببِ شمولِ الخضرةِ...ثمَّ تجاوزت الطائرةُ سماءَ العاصمةِ برازيليا إلى منطقةٍ مِن التلالِ الخضرِ تتخلَّلُها وديانٌ غيرُ عميقةٍ جميلةُ المنظرِ»(٢).

وقدْ يكونُ الـمُعلِنُ -أيضًا- حلُولَ الراوي في فضاءِ الموصوفِ ، مثلَ قولِ العبوديِّ : «وعندما دخلتُ إلى هذِهِ الطائرةِ -وهي خاليةٌ مِن الركَّابِ- استطعتُ أنْ أرى مقاعدَها كلَّها فإذا بي أجدُها نظيفةً بل غايةً في النظافةِ...كما أنَّ مقاعدَها واسعةٌ والفراغُ ما بينَ الصفوفِ مِن المقاعدِ مناسبٌ»(٣).

---

(١) في شرق البرازيل ٩٦.

(٢) على ضفاف الأمازون ١١. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١١ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، والشرق الشمالي ٢١ ، وفي شرق البرازيل١١٠ ، وفي غرب البرازيل ١٣ ، ٤٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٧.

(٣) في غرب البرازيل ١٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٤١،٩٥. وفي جنوب البرازيل ١٠٠.

وهناكَ ألفاظٌ يغلبُ استخدامُها عندَ التمهيدِ للمقاطعِ الوصفيةِ في هذه المدونةِ ، نذكرُ منها : ألفاظُ الإصباحِ ، مِن مثلِ قولِ العبوديِّ : «أصبحنا على شمسٍ مشرقةٍ ، وكأنَّما كانَ الناسُ قد صحو مِن نومٍ مثلما صحَت الشمسُ مِن الغيمِ فخرجوا إلى الشوارعِ وانتشروا في الشاطئِ»(١). ومِن تلكَ الألفاظِ : الفعلُ الماضي الناقصُ (كانَ)(٢) ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ في إحدى جولاتِهِ النصفِ ليليةٍ : «كانت الأنوارُ ساطعةً في الشوارعِ ، وكانَت الحركةُ لا تزالُ نَشِطَةً في هذِهِ الساعةِ المتأخرةِ ، وكانَ المارَّةُ موجودين بهيئةٍ طبيعيةٍ وكذلك الحافلاتُ وسياراتُ الأجرةِ»(٣) ، ومِنهُ قولُهُ عن مأدبةٍ دُعيَ إليها : «وكانت مأدبةً عربيةً بكثرةِ طعامِها وتنوُّعِهِ إلى حدٍّ كنتُ أودُّ أنْ لا تبلُغَهُ بالكثرةِ فكانت الصُّحونُ تعودُ إلى داخلِ البيتِ في بعضِ الأحيانِ وهيَ مليئةٌ بنوعٍ مِن الطعامِ مِن أجلِ إفساحِ المجالِ لصُحونٍ أخرى قادمةٍ إلى المائدةِ»(٤).

ومِما يمكنُ إلحاقُهُ بهذِهِ الـمُمَهِّدَاتِ : الضميرُ (هوَ) أو (هيَ) أو (هُم) ، ففي المثالِ الآتي نجدُ أنَّ الوصفَ تَلا الضميرَ (هُم) في أكثر مِن مرَّةٍ : «وولايةُ (بهيَّة) هذِهِ التي عاصمتُها (سلفادور) مشهورةٌ عند البرازيليين بأنَّها ولايةُ الـ(مولاتو) ، وهم المختلطونَ الذين وُلِدوا ما بينَ الأجناسِ الثلاثةِ مِن سُكَّانِها الذين تتباينُ ألوانُهم في الأصلِ ، وهُم : السودُ الذين

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٦٤ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٣٣ ، ١٥٦.

(٢) ينظر : الوصف في النص السردي ٦٤.

(٣) في شرق البرازيل ٣١.

(٤) في غرب البرازيل ٨٦. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ١١٩ ، ١٦٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٦٨ ، وفي غرب البرازيل ٤٦.

جَلَبَهم البرتغاليونَ عبيدًا ليَعملوا في المزارعِ الواسعةِ في هذهِ الأرضِ التي كانت بِكرًا ، والهنودُ الأمريكيونَ ؛ وهُم سكانُ البلادِ الأُصلاءِ الذين كانوا موجودين فيها قبلَ أنْ يصلَها المكتشفونَ الأوربيونَ ، والجنسُ البرتغاليُّ على وجهِ الخصوصِ والأوربيُّ على وجهِ العمومِ»[1]. ومِن الوصفِ الذي تلا الضميرَ (هي) قولُهُ : «وقد سارعَت البائعةُ وهي برازيليةٌ أصيلةٌ»[2] ، وممَّا تلا الضميرَ (هو) قولُ العبوديِّ : «ثُمَ أسرعوا بتقديمِ ضيافةِ الطائرةِ وهو شطيرةٌ (سنداويتش) مأدومةٌ بالزبدِ ثمَّ كأسٌ مِن الكوكاكولا أو القوارانا»[3]. وإذا كنَّا قد وقفنا على ما تيسرَ لنا جمعُهُ مِن معلناتِ الافتتاحِ فإنَّهُ يجدرُ بنا الوقوفُ على شيءٍ مِن معلناتِ اختتامِ المقطعِ الوصفيِّ في هذه المدونةِ.

معلناتُ اختتامِ المقطعِ الوصفيِّ : يمكنُ أنْ نهتديَ إلى اختتامِ المقطعِ الوصفيِّ مِن خلالِ مجموعةٍ مِن القرائنِ ؛ فقد يكونُ المعلنُ عن قَفْلِ المقطعِ الوصفيِّ في هذه المدونةِ لفظٌ يدلُّ على تركِ المكانِ الموصوفِ والانتقالِ منهُ[4] ؛ مثلَ : «وصلنا للشاطئِ بلْ دخلنا فيه ، وجزءٌ منه رمليٌّ جيدٌ ولكنَّه قصيرٌ ، وباقيهِ صخريٌّ تنبعثُ مِنه رائحةٌ عَفِنَةٌ ، فتركناه إلى اليابسةِ»[5] ، ومثلَ : «وأرضُ الحيِّ مفروشةٌ بالحجارةِ بديلة مِن الأسفلتِ ممَّا يدلُّ على قِدَمِهِ ، وأشجارُ

---

(١) في شرق البرازيل ٣٣.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٤٣.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ٤٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٣٩ ، ٧٤ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٠٦.

(٤) ينظر : الوصف في النص السردي ٦٩.

(٥) في شرق البرازيل ٤١.

الظلِّ العاليةُ فيهِ هي أشجارٌ مِن النارجيلِ غيرِ النظرِ. **ميناءُ صيدِ السمكِ** : تركنا هذا الحيَّ القديمَ»[١].

وقد يختمُ المقطعُ الوصفيُّ في هذه المدونةِ بحضورِ حاجزٍ يمنعُ استمرارَ الوصفِ لاستحالةِ الرؤيةِ إلى الموصوفِ[٢] ؛ مِن قبيلِ حضورِ السحابِ في المثالِ الآتي : «ارتفعت الطائرةُ والمطرُ ينزلُ فاتَّضحَ منظرُ مطارِ برازيليا الذي هو بطبيعةِ أرضِهِ على مكانٍ مرتفعٍ بعدَ مكانٍ منخفضٍ كسائرِ أرضِ هذِهِ العاصمةِ البرازيليةِ كلِّها الجميلةِ بأرضِها وأناسِها ، ثمَّ حالَ سحابٌ بينَنا وبينَ رؤيةِ الأرضِ وصارَ مطبقًا أكثرَ الرحلةِ»[٣] ، ومن قبيلِ ذلك أيضًا قولُ العبوديِّ : «وعندما قامَت متأنيةً بالنسبةِ إلى سرعةِ الطائراتِ النفَّاثةِ تمتَّعتُ مرةً ثانيةً بمنظرِ الغاباتِ التي تكادُ تكونُ متشابكةً مِن عماراتِ (سان باولو) الممتدةِ امتدادَ البصرِ مِن الطائرةِ ، ثمَّ صارت توشِّحُها المنازلُ ذاتُ الطوابقِ القليلةِ في ضواحي المدينةِ ، إلَّا أنَّ سحابًا أبيضَ نشرَ مِن أجنحتِهِ ستورًا على باقي المدينةِ لم يستطع النظرُ إزاحتَها»[٤].

وقد يكونُ معلِنُ الاختتامِ هو نزولُ الطائرةِ في المطارِ مما يعني فقدانَ تلكَ المنصَّةِ العُلويةِ المخوِّلةِ للوصفِ ، ومِن ذلك قولُ العبوديِّ : «أمَّا المنطقةُ التي تحيطُ بالمطارِ فإنَّها كلَّها

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٦٤. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٠١ ، وعلى ضفاف الأمازون ٨٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٥٤.

(٢) بحوث في السرد العربي ٢٤.

(٣) في غرب البرازيل ١٣.

(٤) على أرض القهوة البرازيلية ١٢٢. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٤٣.

حدائقُ ملتفةٌ أو أنَّها أماكنُ كالحدائقِ الملتفَّةِ ، وقد هَبَطَت الطائرةُ هبوطًا حادًّا اضطرَّ معَه الطيارُ إلى كبحِ جماحِها بالكابحاتِ بحدَّةٍ»[1].

ومِن معلناتِ الاختتامِ -أيضًا- انتهاءُ فقرةِ الوصفِ والانتقالُ إلى فقرةٍ أُخرى ، ويتضحُ لنا ذلك جليًّا في قولِ العبوديِّ : «أمَّا الناسُ الذين أراهُم الآنَ مِن الحاجزِ الزُّجاجيِّ فإنَّهم قد انتشروا في الأسواقِ أكثرَ مما كانَ عليه الحالُ قبلَ ساعتينِ ، وذلك لكونِ الجوّ قد أصبحَ أقلَّ حرًّا ، فظهروا على سجيتِهم في الشوارعِ ؛ شعبًا ملونًا عجيبًا يسيرونَ دونَ تكلُّفٍ أو تزمُّتٍ ، وبعضُهم تظهرُ عليهِ رقةُ الحالِ ، ونسبةُ السُّودِ أو الذين تقربُ ألوانُهم مِن السَّوادِ فيهم كبيرةٌ»[2]؛ فقد أعلنَ العبوديُّ عن ختامِ هذا الوصفِ بانتقالِهِ إلى فقرةٍ جديدةٍ عنونَ لها بقولِهِ : «**إلى ميناءٍ أمازونيٍّ**».

وينبغي الإقرارُ بصعوبةِ حصرِ معلناتِ المقطعِ الوصفيِّ في مدونةٍ مثلِ هذه المدونةِ ، ولكنْ قدْ يمكنُ الوقوفُ على ما كَثُرَ ورودُهُ وأصبحَ ظاهرةً يمكنُ الوقوفُ عليها.

وكما تتعدَّدُ معلناتُ وخاتماتُ المقطعِ الوصفيِّ في هذه المدونةِ فإنَّها تتعدَّدُ أيضًا أنواع الوصفِ ؛ حيثُ لا يقتصرُ الوصفُ على نوعٍ مُحدَّدٍ.

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٢. لمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٩٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١١٧، ١٢٧.

(٢) على ضفاف الأمازون ٢٧. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ١٠٩ ، وفي جنوب البرازيل ٩٣ ، وفي غرب البرازيل ٥٣-٥٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٦٣-١٦٤ ، وفي شرق البرازيل ٥٤.

بعضُ أنواعِ الوصفِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

يمكنُ التركيزُ على ثلاثةٍ مِن أنواعِ الوصفِ في هذهِ المدونةِ ، وهي :

١- الوصفُ عن طريقِ الفعلِ :

ونجدُهُ حينما «تعوَّضُ القائمةُ المميزةُ للوصفِ -أيِّ وصفٍ- بترسيمةٍ أو خُطاطةٍ سرديَّةٍ ، فيصبحُ القاموسُ قصَّةً»(١) مصغَّرَةً تشملُ سلسلةً مِن الأفعالِ النحويَّةِ لوصفِ عملٍ أو شيءٍ ما ؛ من قبيلِ قولِ العبوديِّ عن عملِ أصحابِ أحدِ المطاعمِ : «وقد جاؤوا في أولِ الأمرِ بالصحونِ الكثيرةِ التي تحتوي على المقبِّلاتِ المتعدِّدَةِ مثلِ الحُمصِ والمتبلِ والتبولةِ والخضرواتِ الطريَّةِ المتنوِّعةِ...ثمَّ أحضروا الأطباقَ الباردَةَ ، ومِن ذلكَ اللحمُ النيءُ أو الكِبَّةُ النيةُ والخبزُ اللبنانيُّ المعروفُ هنا بالخبزِ العربيِّ»(٢) ، ومن قبيلِ ذلك -أيضًا- قولُ العبوديِّ : «ثمَّ مرَرْنا بمجموعةٍ مِن أطفالٍ سُمرِ الألوانِ ، أظنُّهم مِن أطفالِ الأمريكيين ، صعدُوا شجرتينِ متباعدتينِ عاليتينِ ثمَّ أمالُوا غصونَ تلكَ الشجرتينِ كلَّ واحدٍ منهما إلى الأخرى حتى اقتربَتا فتماسكُوا بالأيدي بينَ تصفيقِ المشاهدين مِن السُيَّاحِ وإعجابِهم»(٣).

ويعدُّ التشخيصُ أو التجسيدُ أحدَ أشكالِ هذا النمطِ ، حيثُ «تُسندُ صفاتٌ تخصُّ عادةً الكائنَ الحيَّ البشريَّ إلى عناصرِ الموصوفِ الجامدةِ»(٤) ؛ مِن قبيلِ وصفِ العبوديِّ لشروقِ الشمسِ بقولِهِ : «أزحتُ ستارةَ النافذةِ معَ شروقِ الشمسِ على منظرٍ جليلٍ ، وهو منظرُ

---

(١) الوصف في النص السردي ٧٧.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٢٣.

(٣) على ضفاف الأمازون ٧٥. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٠٣ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٥ ، وفي شرق البرازيل ٣٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٥٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٨٨.

(٤) الوصف في النص السردي ٨٠.

الشمسِ حينَ ترسلُ نهرًا مِن الأضواءِ إلى صفحةِ البحرِ المحيطِ ، ربَّما لتحاولَ أنْ تهدئَ من غُلوائهِ وهو يمسحُ رمالَ الشاطئِ الحُمرَ لا يفترُ عن ذلكَ»[1].

ومِن شأنِ هذا النمطِ أنْ يخفِّفَ مِن المقابلةِ المعهودةِ بينَ الوصفِ والسَّردِ ، بحيثُ يستعملُ الوصفُ التراكيبَ النحويةَ المستخدمةَ في السردِ ، مما يوقعُ بعضَ اللَّبسِ حولَ هذا النمطِ بحيثُ يختلطُ الوصفُ بالسردِ في شكلٍ يصعبُ فصلُهُ ، ولكنْ يمكنُ التَفْرِقَةُ بينهما أحيانًا مِن خلالِ «النظرِ في ترتيبِ الأفعالِ داخلَ المقطعِ...فإنْ أمكنَ التلاعبُ بهذا الترتيبِ بالتقديمِ والتأخيرِ أو الحذفِ عُدَّ المقطعُ سرديًّا ، وإذا كانَ الترتيبُ الـمُعطى هو الترتيبُ الوحيدُ الممكنُ عُدَّ المقطعُ وصفيًّا»[2].

٢- الوصفُ المنقولُ :

يكونُ الوصفُ منقولًا حينما توجِّهُ شخصيةٌ -غير شخصيةِ الرحالةِ- الوصفَ إلى شخصيةٍ أخرى في السردِ ، ويندرجُ هذا النوعُ مِن الوصفِ في الحواراتِ ، مِن مثلِ قولِ العبوديِّ : «فقلتُ للدليلةِ : لقد رأيتُ الأفارقةَ هنا فرأيتُ بعضَهم لم يتغيروا ، ورأيتُ أكثرَهم قد خفَّ سوادُهم ، فماذا عن السكانِ الأصلاءِ الذين يُسَمَّونَ هنا بالهنودِ الحمرِ ؟ إنَّني لمْ أرَ جماعاتٍ منهم كالذين رأيتُهم مِن الإفريقيينَ ، فقالت : إنَّ الخلَّصَ مِنهم الذينَ لم يختلِطوا بغيرِهم موجودون في أماكنَ منعزلةٍ بعيدةٍ عن المدينةِ أقربُها منها يبعدُ ثلاثَ مئةِ كيلو متر ، وإنَّهم لم يتغيروا عن أشكالِهم التي عرفوا بِها في القديمِ فهم سودُ العيونِ

(١) في شرق البرازيل ١٦٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٣ ، ٥١.

(٢) الوصف في النص السردي ٨٤.

والشعورِ قصارُ الأجسامِ لهم هيئةٌ خاصةٌ لا يشاركُهم فيها غيرُهم مِن السكانِ المعروفينَ هنا مِن ذوي الأصولِ البرتغاليةِ والأفريقيةِ»[١].

وقد يكونُ الوصفُ منقولًا مِن مصدرٍ مِن المصادرِ الأخرى -غيرِ الشخصياتِ- مِن قبيلِ الوصفِ الآتي ، وقد نقلَهُ العبوديُّ عن كتابِ (البنِّ والمسقطيِّ) لجميلِ صفديٍّ : «كانت مسقطُ المتمتعةُ بمركزِها الجغرافيِّ كمستودعٍ تجاريٍّ ما بينَ الموانئِ العربيةِ والخليجِ الفارسيِّ»[٢].

٣- وصفُ الرحالةِ المباشرِ :

تتطلبُ الرحلةُ توظيفَ الرحالةِ لجميعِ إمكانياتِهِ واستنفارَ حواسِّهِ الخمسِ ، وبخاصةٍ الحاسةُ البصريَّةُ ؛ لكونِها هي التي تُعطي للأشياءِ قيمتَها مِن خلالِ وصفِها وتقريبِها والتعريفِ بها[٣].

وتَحظى الرؤيةُ في الرحلةِ بأهميةٍ كُبرى لكونِها هي الـمَعبرُ الذي يتمُّ المرورُ عن طريقِهِ إلى الأشياءِ الموثَّقةِ والمسجَّلةِ في التجربةِ الرحليَّةِ[٤]؛ فقد يكونُ مكانُ الواصفِ ثابتًا[٥] فتتخذُ هذهِ الرؤيةُ مرتفعًا أو شرفةً أو نافذةً ، مما يتيحُ للرحالةِ القدرةَ على الوصفِ الشاملِ ، فمِن خلالِ وقوفِ العبوديِّ على قمَّةِ جبلِ القديسةِ تيريزا (Teresina) في بورتو إليقري

---

(١) في شرق البرازيل ٦٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١٣٦ ، وفي جنوب البرازيل ٨٠ ، ٨٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٧٥ ، ٧٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٧.

(٢) في شرق البرازيل ١٠٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١٤٨ ، ١٥٠ ، وفي جنوب البرازيل ٧٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٥.

(٣) ينظر : السابق ٨٨ ، والرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٢٦.

(٤) ينظر : الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٢٧ ، وشعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ٢٢٣.

(٥) ينظر : الوصف في النص السردي ٨٩.

(Porto Alegre) استطاعَ أنْ يُمِدَّنا بالوصفِ الآتي : «ويشرفُ المرءُ مِن هذِهِ القِمَّةِ على مناظرَ جميلةٍ بل رائعةٍ منها : منطقةٌ متَّسعةٌ مِن نهرِ (واييبا) العظيمِ ، وهو يمرُّ بقلبِ مدينةِ (بورتو إليقري) في جانبِ الميناءِ النهريِّ الواسعِ...والنهرُ متَّسعٌ في بعضِ الحالاتِ يصِلُ اتساعُهُ ما بينَ عشرةِ كيلو متراتٍ وخمسةَ عشرَ كيلو مترًا ، وهو يمرُّ بجهاتٍ مِن مدينةِ (بورتو إليقري) ، وليسَ المنظرُ مقتصرًا على هذا النهرِ العظيمِ (قواييبا) بل إنَّ روافدَ لهُ تُرى مِن هذا المكانِ وهيَ تصبُّ فيه وتجعلُ مناطقَ مِن ضواحي مدينةِ (بورتو إليقري) لا تكادُ تُرى لأنَّها غارقةٌ في الجنَّاتِ بسببِ وفرةِ المياهِ وكثرةِ الأمطارِ وشُمولِ الخضرةِ ، وتُرى مِن جهةٍ أخرى على شاطئِ النهرِ مناطقُ جميلةٌ متَّسعةٌ ، مِنها ملعبٌ رياضيٌّ عالميٌّ ذكروا أنَّه يتَّسعُ لربعِ مليونِ شخصٍ»[1].

وفي المقابلِ فإنَّهُ قد يكونُ مكانُ الواصفِ متغيرًا كأنْ يكونَ الوصفُ حالَ إقلاعِ الطائرةِ أو سيرِ السيارةِ أو الحافلةِ أو القَاربِ أو يكونُ الواصفُ ماشيًا على الأقدامِ ، وهو في كلا الحالينِ يصفُ ما يرى أنَّهُ جديرٌ بالرصدِ ، والذي يهمُّ أنَّه قد يكونُ للمسافةِ بينَ الواصفِ والموصوفِ أو السُّرعةِ في المرورِ بالموصوفِ دورٌ في دقَّةِ الوصفِ وفي درجةِ العلمِ بالشيءِ الموصوفِ[2].

---

(١) في جنوب البرازيل ١٣١. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٣٣ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٠، ١١٤.

(٢) ينظر : الوصف في النص السردي ٩٣.

منصَّاتُ الرؤيةِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

تتعدَّدُ في هذه المدونةِ مستوياتُ الرؤيةِ إلى الموصوفِ بتعدُّدِ الأمكنةِ الموصوفِ مِن خلالِـها ، ويمكنُنا ردُّ جميعِ مستوياتِ الرؤيةِ في هذه المدونةِ -مِن حيثُ المواقعُ المكانيةُ- إلى : الرؤيةِ الجويَّةِ والرؤيةِ الأرضيَّةِ.

أولًا : الرؤيةُ الجويَّةُ :

تُعدُّ الطائراتُ هي وسيلةُ التنقُّلِ الأُولى للعبوديِّ بينَ المدنِ والعواصمِ والدولِ البرازيليةِ ، ويهتمُّ العبوديُّ كثيرًا بالحصولِ على مقعدٍ بجانبِ النافذةِ لتتسنى له الرؤيةُ ومِن ثَمَّ الوصفُ ، ومِن شأنِ هذا النوعِ مِن الرؤيةِ أنْ يكونَ لهُ تأثيرُهُ الواضحُ في الموصوفاتِ لكونِ الرؤيةِ في هذا المستوى «عاجزةً عن رسمِ المعالِمِ بأشكالِـها وأحجامِها الحقيقيةِ»(١). ولأنَّ الطائرةَ تمرُّ في رحلتِها بدرجاتٍ مختلفةٍ مِن الارتفاعِ والهبوطِ فقد رأينا أن نُقَسِّمَ الرؤيةَ الجويةَ إلى رؤيةٍ عن بعدٍ ورؤيةٍ عن قربٍ :

أ- **الرؤيةُ الجويَّةُ عن قربٍ** : وهي الرؤيةُ التي تتمُّ حالَ إقلاعِ الطائرةِ -قبلَ استوائها في الجوِّ- أو حالَ تدنيها للهبوطِ.

١- الرؤيةُ حالَ الإقلاعِ : كثيرًا ما يصفُ العبوديُّ المنطقةَ المحيطةَ بالمطارِ ، وتنقصُ قدرتُهُ على الوصفِ الدقيقِ كلَّما ازدادَت الطائرةُ ارتفاعًا ، ولعلَّ المثالَ الآتيَ يمثِّلُ ما قلته أقربَ تمثيلٍ ؛ حيثُ يقولُ العبوديُّ : «تجلَّت طبيعةُ المنطقةِ للنَّظرِ مِن المطارِ ، فكانَ أهمَّ منظرٍ في ضواحي المدينةِ هو منظرُ الرملِ الأبيضِ كأنَّهُ الثلجُ إلى جانبِ الرملِ الأحمرِ الذي هو في لونِ الذَّهبِ ، ثمَّ منظرُ ضواحٍ شعبيةٍ مِن مدينةِ

---

(١) ينظر : أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس ٤٩.

(سلفادور) سيئةِ المظهرِ ، ونهرٌ يتَّسِعُ في مواضعَ حتى تؤلِّفَ مياهُهُ عددًا مِن المستنقعاتِ ، ثمَّ دخلنا في جوِّ الريفِ ذي التلالِ الخُضرِ المتطامنةِ ، وارتفعت الطائرةُ فارتدَّ البصرُ إلى داخلِها...»(١)؛ ونجدُ أنَّ الوصفَ هنا ينقطعُ بارتفاعِ الطائرةِ لصعوبةِ التحديدِ في الوصفِ حالَ الارتفاعِ.

٢- الرؤيةُ حالَ الهبوطِ : وهي الرؤيةُ قُبيلَ نزولِ الطائرةِ في المطارِ ومنذُ أنْ تبدأَ الطائرةُ في التدني للهبوطِ ، وسنجدُ أنَّ الوصفَ من هذا الموقعِ يكونُ أكثرَ تركيزًا كلَّما ازدادَت الطائرةُ في مستوى الهبوطِ ، ولعلَّ في المثالِ الآتي تجسيدًا لما قُلناهُ : «بدأت الطائرةُ التدنيَ فوقَ هذِهِ الحقولِ المزدهرةِ التي بَدَت أكثرَ اتساعًا وبخاصةٍ وجودُ سهولٍ قليلةِ التلالِ وغاباتٍ في وديانٍ بينها...وأهمُّ ما يميزُ المنطقةَ بحيراتٌ وتجمعاتُ مياهٍ متصلةٌ بنهرٍ تَبَيَّنَ فيما بعدُ أنَّها تُفضي إلى البحرِ ؛ لأنَّ المدينةَ واقعةٌ على المحيطِ الأطلسيِّ ، إلا أنَّ المنازلَ القريبةَ مِن المطارِ لم تكنْ بهيجةَ المنظرِ ولا تُوحي بالغنى ، وربما كانت هذِهِ هيَ الأقسامُ الشعبيةُ مِنها ، وحتى الشوارعُ التي رأيناها مِن الطائرةِ غيرُ مزفَّتَةٍ ، وقد رأيتُ قربَ المدينةِ أشياءَ رأيتُها قربَ مدينةِ (سلفادور) وهي أبنيةٌ على التلالِ تقربُ منها بحيراتٌ عدَّةٌ ، ومستنقعاتٌ للمياهِ في الأماكنِ المنخفضةِ ، وكثرةُ أشجارِ النارجيلِ. هبطت الطائرةُ...»(٢) ؛ فلو تأملنا هذا المثالَ

---

(١) في شرق البرازيل ٩٥. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٣ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٢٢.

(٢) في شرق البرازيل ٩٦. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١١٠ ، وفي غرب البرازيل ١٣، ٤٣ ، وفي جنوب البرازيل ٣٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٤، ١٢٦، ١١، ١١٧.

لوجدنا أنَّ الوصفَ بدأ غيرَ مركَّزٍ (بدأت الطائرةُ التدنيَ فوقَ هذه الحقولِ المزدهرةِ التي بَدَت أكثرَ اتساعًا وبخاصةٍ وجودُ سهولٍ قليلةِ التلالِ وغاباتٍ في وديانٍ بينها). ثم أصبحَ الوصفُ أكثرَ تركيزًا في قولِهِ : (وأهمُّ ما يميِّزُ المنطقةَ بحيراتٌ وتجمعاتُ مياهٍ متصلةٌ بنهرٍ تبينَ فيما بعدُ أنَّها تُفضي إلى البحرِ ، لأنَّ المدينةَ واقعةٌ على المحيطِ الأطلسيِّ ، إلا أنَّ المنازلَ القريبةَ مِن المطارِ لم تكن بهيجةَ المنظرِ ولا توحي بالغنى ، وربما كانت هذِهِ هي الأقسامُ الشعبيةُ منها) ، ثمَّ نجدُ أنَّ الوصفَ يزدادُ دقةً وتحديدًا في قولِه : (وحتى الشوارعُ التي رأيناها من الطائرةِ غيرُ مزفتةٍ ، وقد رأيتُ قربَ المدينةِ أشياءَ رأيتُها قربَ مدينةِ سلفادور وهي أبنيةٌ على التلالِ تقربُ منها بحيراتٌ عدةٌ ، ومستنقعاتٌ للمياهِ في الأماكنِ المنخفضةِ وكثرةُ أشجارِ النارجيلِ).

ب- **الرؤيةُ الجويَّةُ عن بعدٍ** : ونجدُها حينما تجِدُّ الطائرةُ في طيرانِها وتستوي في كبدِ السماءِ ، وحصيلةُ الرؤيةِ الخارجيَّةِ في هذِهِ الحالِ أوصافٌ مختصرةٌ مبهمةٌ بعيدةٌ عن التحديدِ ، فتغيبُ لذلك «المعالمُ الأكثرُ تمفصلًا ؛ كالشوارعِ والبيوتِ والبناياتِ الرسميَّةِ والمرافِقِ التي تستدعي اقترابًا أكثرَ وزمنًا أطولَ وسرعةً أقلَّ»[١] ، ولنأخذْ مثلًا قولَ العبوديِّ في رحلتِهِ إلى شرقِ البرازيلِ : «تجلَّى الغيمُ فكانَ الجوُّ صاحيًا واتَّضحت الأرضُ مِن تحتِ الطائرةِ أرضًا خضراءَ شاسعةً أكثرُها مِن حقولٍ مزروعةٍ لا يدركُ البصرُ مِن الطائرةِ لها مدًى ، وفيها نهرٌ متسعٌ متشعبٌ في هذِهِ الأرضِ»[٢] ؛

---

(١) أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس ٥٨.

(٢) في شرق البرازيل ٩٦. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ١٣ ، ٦٦ ، وفي جنوب البرازيل ٤١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٣، ١١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢١ ، ٢٣.

إنَّ أقصى درجةٍ مِن التحديدِ في هذا الوصفِ هي وصفُهُ للنَّهرِ بأنَّهُ متشعبٌ ، وتلكَ مرحلةٌ بعيدةٌ عن الدقَّةِ.

وقد تصعبُ الرؤيةُ في هذِهِ المرحلةِ لظهورِ حائلٍ مِن ضبابٍ أو سحابٍ أو غيرِهِ ، يصعبُ معَهُ تحديدُ الأشياءِ الموصوفةِ ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ متحدثًا عن رحلتِهِ الجويةِ مِن سان باولو (Sao Paulo) إلى كورتيبا (Curitiba) : «كنتُ أُمَنِّي النفسَ برؤيةِ أرضِ المنطقةِ مِن الطائرةِ في هذا الوقتِ المناسبِ مِن اليومِ غيرَ أنَّ غيمًا أبيضَ خفيفَ الظلِّ على الأرضِ ثقيلًا على عيني قد أخذَ يتطفلُ أو يتدلَّلُ فيبسطُ أردانَهُ ما بينَ طائرتِنا اللاهثةِ في السماءِ وبينَ الأرضِ التي لا نرى منها إلا خُضرةً باهتةً اختلطت بنسيجِ هذا الغيمِ الأبيضِ فمنحَتْنا منظرًا أنيقًا»(١) ؛ إنَّ أقصى ما استطاعَ العبوديُّ أنْ يراهُ تلكَ الخضرةَ الباهتةَ والمختلطةَ بنسيجِ الغيمِ ، ويمثلُ ذلكَ أقصى درجاتِ البُعدِ عن التحديدِ لصعوبةِ الرؤيةِ في تلكَ الأحوالِ.

وقدْ تنحجبُ الرؤيةُ تمامًا لوجودِ مانعٍ مِن ظلامٍ أو سحابٍ أو نحوِهما ، مثلما حصلَ في أثناءِ الرحلةِ مِن رصيفي (Recife) إلى ناتال (Natal) حيثُ يقولُ العبوديُّ : «رانَ الظلامُ مبكرًا لأنَّ هذِهِ هي عادةُ البلدانِ القريبةِ مِن خطِّ الاستواءِ فلم نَعُد نُبصِرُ شيئًا مِن الأرضِ تحتَنا»(٢). وقد يضطرُّ ذلكَ العبوديَّ إلى تركِ الموصوفاتِ الأرضيَّةِ إلى وصفِ ما يقرُبُ مِنهُ مِن العالمِ الخارجيِّ ، مثلَ السحابِ وأشعةِ الشمسِ(٣) ؛ مِن قبيلِ ما حصلَ في الرحلةِ مِن

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٠.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٤٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٩٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١١٦، ١٢٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٢، ٦٧.

(٣) ينظر : أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس ٥١.

برازيليا (Brasília) إلى ماناوس (Manaus) حيثُ يقولُ العبوديُّ : «مَنَعَنا ارتفاعُ الطائرةِ وغيماتٌ متطفلةٌ علينا أو نحنُ متطفلون عليها مِن رؤيةِ الأرضِ إلى أنْ تظافرت معَ أخواتٍ لها كثيراتٍ فألَّفَت سحابًا حالَت بينَنا وبينَهُ رؤيةُ ما تحتَ الطائرةِ...لم تعدْ نافذةُ الطائرةِ تمدُّ العينَ بما يشغلُ النظرَ فلا ترى إلا الشمسَ الساطعةَ والقبةَ الزرقاءَ ؛ قبةَ السماءِ»(١).

وقد يتركُ العبوديُّ وصفَ الفضاءِ الخارجيِّ لصعوبةِ الرؤيةِ أو عدَمِ وجودِ ما يشغلُ الرؤيةَ فيتحولُ ببصرِهِ إلى وصفِ ما يحلو لَهُ مِن فضاءِ الطائرةِ ، ومِنه وصفُهُ في أثناءِ رحلتِهِ إلى كويابا (Cuiabá) ، حيثُ يقولُ : «حالَ سحابٌ بيننا وبينَ رؤيةِ الأرضِ وأصبحَ مطبقًا أكثرَ الرحلةِ ، وأخذوا يقدِّمونَ الطعامَ وهو جيدٌ إلا أنَّ السَّلَطَةَ عليها شرائحُ من لحمِ الخنزيرِ البشعِ المنظرِ ثمَّ كانَ مسكَ الختامِ للوجبةِ ذلكَ الفنجانُ الصغيرُ مِن القهوةِ البرازيليةِ»(٢) ، ومن ذلكَ قولُهُ في أثناءِ رحلتِهِ الجويةِ مِن برازيليا (Brasília) إلى ماناوس (Manaus) : «لم تعدْ نافذةُ الطائرةِ تمدُّ العينَ بما يشغلُ النظرَ فلا ترى إلا الشمسَ الساطعةَ والقبَّةَ الزرقاءَ قبةَ السماءِ...فانصرفَ النظرُ إلى داخلِ الطائرةِ فشاهدَ المضيفاتِ البرازيلياتِ اللائي يختارونهنَّ مِن ذواتِ الأصلِ الأبيضِ»(٣).

---

(١) على ضفاف الأمازون ١٢ . ولمزيد أمثلة ينظر : في جنوب البرازيل ٣٧ ، وفي غرب البرازيل ١٣، ٤٣ .

(٢) في غرب البرازيل ١٣ .

(٣) على ضفاف الأمازون ١٢ . ولمزيد أمثلة ينظر : في غرب البرازيل ٤٣ ، وفي شرق البرازيل ٩٥ ، وفي جنوب البرازيل ٣٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٥ .

وإذا كانَ العبوديُّ يلجأُ -غالبًا- إلى التنقُّلِ بينَ الولاياتِ والمدنِ عبرَ الخطوطِ الجويَّةِ ، فإنَّهُ في المقابلِ يقضي معظمَ وقتِهِ في الأرضِ راكبًا أو ماشيًا على قدميهِ للتجوالِ وإنجازِ المهماتِ.

ثانيًا : الوصفُ مِن خلالِ الرؤيةِ الأرضيةِ :

ويمكنُ تقسيمُ هذا المستوى مِن الرؤيةِ إلى : الرؤيةِ في أثناءِ السيرِ في الحافلةِ أو السيارةِ أو القَاربِ ونحوِهِ ، والرؤيةِ حالَ الثبوتِ وفي أثناءِ المشي على الأقدامِ.

أ- الرؤيةُ في أثناءِ السيرِ راكبًا :

كما أنَّ للرؤيةِ الجويَّةِ أثرًا على دقَّةِ الوصفِ وتركيزِهِ فلهذا المستوى مِن الرؤيةِ أيضًا تأثيرٌ ظاهرٌ على التركيزِ والدقةِ في الوصفِ ، ويبدو الوصفُ من خلالِ هذا المستوى من الرؤيةِ أكثرَ تعاقبًا مِن الوصفِ مِن خلالِ الرؤيةِ الجويةِ «حيثُ يقومُ الرصفُ المتتالي للعناصرِ المرصودةِ على علاقةِ التجاورِ المكانيِّ الواقعِ بينِها باعتبارِها أماكنَ عبورٍ»(١) قد تمَّ المرورُ بها ، ويشيرُ التتالي «إلى كيفيةِ وجودِ المراقبِ واقعيًّا ، بحيثُ يكونُ في مستوًى واحدٍ مِن مرئياتِهِ ، ومِن ثمَّ تتعذرُ عليه الرؤيةُ الشاملةُ التي»(٢) تتيحُها الرؤيةُ مِن الجوِّ أو مِن مكانٍ مرتفعٍ ، كما يشيرُ التتالي إلى وتيرةِ تقدمِ الراوي بصفةٍ أفقيةٍ نحوَ مرصوداتِهِ(٣). وخيرُ مثالٍ على ذلك قولُ العبوديِّ في رحلتِهِ إلى جنوبِ البرازيلِ : «أخَذَت الرُّبى الخضرُ تقتربُ مِن الطريقِ شيئًا فشيئًا كلَّما أمعنَ جهةَ الشمالِ وأسرعَت الجداولُ التي كانت تندسُّ تحتَها وهي تغذُّ السيرَ إلى بحيرةٍ غيرِ بعيدةٍ ، وأصبحَ البصرُ لا يرى إلا الجمالَ أينما توجَّهَ ، وحتى الجمالُ الأخضرُ فإنَّ أكثرَهُ

---

(١) أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس ٥٦.

(٢) نفسه.

(٣) ينظر : السابق ٥٧.

مثمرٌ نافعٌ كالحقولِ التي تُنتجُ الأغذيةَ كالأرزِ والصويا ، وقد جمَّلوا الطريقَ بأنْ غرسوا في وسَطِهِ زهورًا متنوعةَ الألوانِ زادَتهُ بهجةً على بهجةٍ ، وقد لَطُفَ الجوُّ بعدَ نزولِ المطرِ وغابت الشمسُ.

عناقُ البحيرةِ والروابي : ثمَّ قَرُبَت الروابي الخضرُ مِن الطريقِ جهةَ الشمالِ وزحفَت البحيرةُ إليه مِن جهةِ اليمينِ حتى تعانقا في مشهدٍ غايةٍ في الروعةِ والجمالِ وصارَ لا يُفرِّقُ بينهما إلا هذا الطريقُ الأسودُ الضيقُ...وهذِهِ البحيرةُ ذاتُ الصفحةِ الورديَّةِ لأنَّ سحابًا حمرًا كانت قد انعكسَت على صفحاتِها الوضاءَةِ يسمُّونَها (لاقو باروس) أي بحيرةَ باروس. والرُّبى الخضرُ قد ازدانَت بحللٍ سندسيةٍ كأنَّها تشهدُ عُرسَ هذِهِ البحيرةِ الطَّهورِ...استمرت هذِهِ الجنَّةُ الأرضيةُ حتى وصلَ الطريقُ قريةً صغيرةً اسمَها (أوزوريو) فيها محطةٌ للكهرباءِ ، وبعدَها زادَ ارتفاعُ الرُّبى الخُضرِ حتى صارت هضابًا خُضرًا تُعانقُ السحابَ –وقد عانقَتْهُ بالفعلِ– فصارَ يُكَلِّلُ هاماتِها بأكاليلَ مِن نورِهِ ، وصارَ يُجَلِّلُ أكتافَها بأرديةٍ بيضٍ كأنَّها ذوبُ الفضةِ الفياضِ ، ثُمَّ أخذَ الطريقُ يُسايرُ البحيرةَ والبصرُ يصافحُ صفحاتِها الرقراقةَ ويرى بينَ الحينِ والآخرِ جزيرةً من جُزرِها خضراءَ زاهيةً ، ومررنا بجسرٍ فوقَ نهرٍ قادمٍ مِن الهضابِ ذاهبٍ إلى البحيرةِ...»(١) ، ففي هذا المثالِ نجدُ أنَّ العبوديَّ قصدَ إلى تحديدِ بعضِ المرئياتِ ، كما نجدُ الدقةَ في الوصفِ إلى درجةٍ استطاعَ العبوديُّ مِن خلالِها أنْ يُنبِّهَنا إلى اختلافِ الزهورِ المزروعةِ ، كما أنَّ هذا الوصفَ –أيضًا– يمثلُ درجةً كبيرةً مِن التعاقبِ الذي يواكبُ سيرَ المركبةِ الأفقيَّ.

---

(١) في جنوب البرازيل ٥٤. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٤٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٦ ، وفي غرب البرازيل ٢٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٦ ، ٨٦.

ويبدو الوصفُ مِن على ظهرِ القاربِ أقلَّ دقة مِن الوصفِ في أثناءِ السيرِ في السيارةِ أو الحافلةِ ؛ رُبَّما لأنَّ القاربَ لا يقتربُ كثيرًا من الموصوفاتِ ، ولنأخذْ مثلًا بعضَ موصوفاتِ العبوديِّ في أثناءِ خوضِه على القاربِ لعُبابِ نهرِ الأمازونِ العظيمِ ، حيثُ يقولُ : «وكانَ تحرُّكُ القاربِ في الموعدِ المحدَّدِ لذلكَ من قبلُ وهو التاسعةُ ، وعندما توسَّطَ القاربُ النهرَ ورأيتُ ضفافَهُ على الجانبينِ مِن ذلكَ الموقعِ تَيَقَّنْتُ أنَّهُ أعرضُ مِن نهرِ النيلِ عندَ مرورِهِ مِن القاهرةِ عدَّةَ مراتٍ...وكانت ضفافُ النهرِ بعدَ مفارقةِ المدينةِ تتميزُ بوجودِ الخضرةِ وأشجارِ الغاباتِ وإنْ كنَّا نرى على البُعدِ تلَّةً ربَّما كانت جزءًا مِن قريةٍ أو ضاحيةٍ بعيدةٍ مِن المدينةِ وعلى تلكَ التلَّةِ بيوتٌ ذاتُ سقوفٍ مِن الصفيحِ مسنَّمةٍ لكي تنزلقَ عنها الأمطارُ الكثيرةُ في هذهِ المنطقةِ ، ورأيتُ شعبةً مِن النهرِ قد دخلت في منطقةِ الغاباتِ لا أشكُّ في أنَّها لكبرِها لو كانت في غيرِ هذِهِ المنطقةِ المائيةِ العظيمةِ لصارت نهرًا مذكورًا بل مشهورًا»(١).

وإذا كانت الرؤيةُ تتضحُ كلما ازدادَ السيرُ بطأً وازدادَ الواصفُ قربًا مِن الموصوفِ فإنَّ الوصفَ يكونُ أكثرَ تركيزًا وأدقَّ تفصيلًا في الرؤيةِ حالَ الثبوتِ أو المشي على الأقدامِ.

ب- رؤيةُ الماشي على الأقدامِ :

إذا كانت أوصافُ رؤيةِ الراكبِ السائرِ تأتي على هيئةِ أوصافٍ مقتضبةٍ في جزئياتٍ متتاليةٍ فإنَّ رؤيةَ الماشي تعملُ على وصفِ المتتالياتِ في شكلٍ مفصلٍ لترصدَها في شكلٍ موَسعٍ ودقيقٍ ؛ فالواصفُ في هذا المستوى من الرؤيةِ يكونُ أكثرَ قدرةً على التَّعَمُّقِ في الفضاءاتِ الموصوفةِ ؛ لأنَّ بإمكانِهِ أنْ يرصدَ مرئياتِهِ مِن مواقعَ مختلفةٍ ، كما أنَّ بإمكانِهِ

(١) على ضفاف الأمازون ٣٢. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٧٣.

اختراقَ الفضاءاتِ المغلقةِ (مساجد ، كنائس ، متاحف) ووصفَ أشيائها الداخليةِ[1] ، ومِن شأنِ ذلك أنْ يزيدَ مِن قدرتِهِ على الوصفِ بشكلٍ مفصلٍ ودقيقٍ ، ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ وصفَهُ لأحدِ الفنادقِ بأنَّهُ : «فخمٌ ضخمٌ يشغلُ مساحةً شاسعةً تكادُ تكفي لحيٍّ مِن الأحياءِ في الأماكنِ المتخلفةِ فقد حجزوا جانبًا واسعًا مِن شاطئِ البحرِ فألحقوهُ بِهِ ونثروا غُرَفَهُ وسطَ جنَّةٍ خضراءَ تُغلِّفُها وتكادُ تُخفيها لولا وجودُ الممراتِ المبَلَّطَةِ بينَها التي كتبوا عليها أسماءَ الأجنحةِ وأرقامَ الغرفِ فيها.

ومَدْخَلُهُ واسعٌ فخمٌ كأنَّهُ مدخلُ قصرٍ ملكيٍّ كبيرٍ وقد كتبوا على مدخلِهِ أنَّه مِن ذواتِ النجومِ الخمسِ...فرأيتُ الجزءَ الرئيسيَّ مِن الفندقِ في بناءٍ مجتمعٍ ضخمٍ وليسَ كالأجنحةِ التي فيها غرفتي ، وقدْ جعلُوهُ على هيئةِ غُرَفٍ دائرةٍ بصحنٍ واسعٍ مكشوفٍ تتوسطُهُ بركةٌ فخمةٌ للسباحةِ بجانبِها بركتان صغيرتانِ إحداهما للأطفالِ والثانيةُ لمن لا يحسنونَ العومَ والسباحةَ في المياهِ العميقةِ مِن الكبارِ.

ويتألفُ مِن طابقينِ لا ثالثَ لهما لأنَّ الأرضَ واسعةٌ ومِن أجلِ الهدوءِ وعدمِ الازدحامِ ، وفي الفندقِ قاعاتٌ واسعةٌ لأنواعِ الرياضةِ ، وملاعبُ للأطفالِ ، وأماكنُ قد علَّقوا الفرشَ بينها للنومِ فيها ؛ وهي معلَّقَةٌ كما كانَ سكَّانُ البلادِ القدماءِ يفعلون حيثُ كانوا يربطونَ فراشَ النومِ بينَ شجرتين»[2]. فنجدُ في هذا المثالِ أنَّ الواصفَ الماشيَ استهلَّ الوصفَ بوصفٍ عامٍّ للفندقِ ثُمَّ بدأَ يقتربُ ويصفُ أشياءَهُ حتى أنَّهُ استطاعَ أنْ يقرأَ بعضَ

---

(١) ينظر : أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس ٦٣.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ١٢٠. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٥٩ ، وفي شرق البرازيل ١٣٢، ١٣٥ ، وفي غرب البرازيل ٥٩ ، وفي جنوب البرازيل ١٠١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٦٠.

المكتوبِ ، وبعدَ دخولِهِ الفندقَ يصفُ الجزءَ الرئيسيَّ للفندقِ ويقفُ على عناصرِهِ ويحدِّدُ بعضَها ويُقرِّبُها للقارئِ إلى درجةٍ يصلُ معها إلى معرفةِ عددِ البرَكِ وأنواعِها وطريقةِ ربطِ فرشِ النومِ في الحديقةِ.

وقد يقتربُ العبوديُّ مِن الموصوفِ بدنيًّا وروحيًّا فيكونُ الوصفُ ملتبسًا بالشعورِ(١) ، من قبيلِ قولِهِ عن زيارتِهِ لشلالاتِ بلعومِ الشيطانِ : «لمْ أستطعْ عندَ رؤيتِها أنْ أُعَبِّرَ عمَّا في نفسي مِن المشاعرِ تجاهَ منظرِها إلا بالتكبيرِ : اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ! عندما وصلنا إليها كانَ هناكَ حشدٌ مِن سياراتِ المتنزهينَ...فأوقفنا السياراتِ ثُمَّ نزلنا مِن مصعدٍ إلى حيثُ يشاهدُ المرءُ الشلالاتِ وهي تسقطُ مِن علٍ ، فيرفعُ رأسَهُ يشاهدُ ذلك...وإذا نزلنا إلى أسفلَ اختلطت المرئياتُ بالمسموعاتِ بالمشاعرِ في سمعِكَ وبصرِكَ وذهنِكَ فأصبحتَ لا تستطيعُ أنْ تُعبِّرَ في وقتٍ واحدٍ عن روعةِ ما تحسُّ بِهِ أو تسمعُهُ أو تبصرُهُ ؛ إذ تتساقطُ المياهُ في تدافعٍ محمومٍ إلى الأسفلِ...إنَّ زمجرةَ هذه الشلالاتِ التي لا تكادُ تدعُ لكَ فرصةَ التَّحَدُّثِ معَ أصحابِك لأنَّها تشغلُ كلَّ حيِّزٍ في سمعِك وتريدُ أنْ تستأثرَ بتفكيرِكَ فتزاحمها على ذلك روعةُ مناظرِها وهي تتكسرُ على جوانبِ هذا الجبلِ الذي تسقطُ مِن فوقِهِ وتتفرقُ إلى قطعٍ مِن الغيمِ الرقيقِ الأبيضِ الذي تنعكسُ عليه أشعةُ الشمسِ الساطعةُ فتحيلُهُ إلى ذوبٍ مِن الفضةِ بيضٍ تسيرُ أو تطيرُ وتتركُ بصرَكَ وهو حائرٌ حسيرٌ»(٢) ، نجدُ في هذا المثالِ أنَّ العبوديَّ ينصُّ على دهشتِهِ تجاهَ هذِهِ المساقطِ النهريَّةِ العظيمةِ ، حتى إنَّ منظرَ هذِهِ المساقطِ شَغَلَ كلَّ حيزٍ في سمعِهِ واستأثرَ بفكرِهِ.

---

(١) ينظر : أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس ٦٦.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٥٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٥٧.

وإذا كانت دقةُ الوصفِ راجعةً إلى موقعِ الرؤيةِ ، فإنَّهُ يمكنُنا دراسةُ أشكالِ الوصفِ انطلاقًا مِن مواقعِ الرؤيةِ أيضًا.

مستوياتُ تركيزِ الوصفِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ:

يمكنُ ردُّ تركيزِ المقاطعِ الوصفيةِ إلى ثلاثةِ مستوياتٍ ، هيَ :

ـ الوصفُ المكثَّفُ : ونعني بهِ الوصفَ الموجزَ الذي لا يهتمُّ بالتفاصيلِ والدقائقِ[١] ، بل يقتصرُ على التقاطِ الملامحِ المكثَّفةِ ذاتِ الدلالاتِ[٢] ، ويلجأُ إليهِ الرحالةُ عندما يعجزُ عن الإحاطةِ بالموصوفِ ، أو حينَ لا يرغبُ في التفصيلِ[٣].

ـ الوصفُ الشاملُ : ويشكِّلُ ظاهرةً بارزةً في هذه المدونةِ ؛ فكلَّما حلَّ العبوديُّ بفضاءٍ واسعٍ حاولَ أن يرسمَ لَهُ منظرًا شاملًا يتناولُ أهمَّ معالِـمِهِ[٤].

ـ الوصفُ الاستقصائيُّ : ونجدُهُ حينما يكونُ أفقُ الرؤيةِ محدَّدًا ؛ فيلجأُ الواصفُ حينَها إلى وصفِ الأمكنةِ المحدَّدَةِ بشكلٍ مفصلٍ يهتمُّ بالأشياءِ والتفاصيلِ والدقائقِ[٥].

وانطلاقًا مما سبقَ فإنهُ يمكنُ دراسةُ مستوياتِ تركيزِ الوصفِ في هذه المدونةِ مِن خلالِ الجدولِ الآتي :

---

(١) ينظر : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٣٨٩.

(٢) السابق ٢٧٣.

(٣) ينظر : الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٣١.

(٤) ينظر : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٣٧٩.

(٥) السابق ٢٧٣ ، ٣٨٩.

المثال	مستوى الرؤيةِ المكانيِّ	مستوى التركيز	المحدِّدات
بدأتْ الطائرةُ التدنيَ بسرعةٍ لقربِ المسافةِ فظهرَت المدينةُ [رصيفي] واسعةً ممتدةً ذاتَ وسطٍ جيِّدٍ مِن الأبنيةِ العاليةِ ذاتِ الطوابقِ المتعدِّدَةِ (العمارات) وضواحٍ بعضِها رديءِ المظهرِ ، وتقعُ المدينةُ على ساحلِ البحرِ المحيطِ ، وهي أقلُّ تلالًا مِن سلفادور إذ وسطُها متسعٌ(١)	جويَّة عن قربٍ	شاملٌ	فضاءٌ واسعٌ=اهتمامٌ بالمعالمِ الرئيسةِ : عمران + سعة + تعداد + تقييم +تخطيط+ تضاريس.
وقفنا في مكانٍ مرتفعٍ من الشاطئِ مفروشٍ ببسطٍ خضرٍ على ارتفاعِهِ ويُطِلُّ عل شاطئِ البحرِ اللازورديِّ الهادئِ الذي تمتدُّ مياهُهُ كذلك ثُمَّ تصبحُ زرقاءَ جميلةً توشِحُها الرمالُ البيضُ ، وفي جانبٍ مِنها شاطئُ نهرٍ (أرارانقوا) وهو يصبُّ في البحرِ ، إحدى ضفتيهِ رمليةٌ بيضاءُ والأخرى معشبةٌ خضراءُ(٢)	مَطل	شامل	فضاءٌ واسعٌ = اهتمامٌ بالمعالمِ: لون + تقييم + تضاريس + تخطيط + طبيعة.
كان الجوُّ صاحيًا ولذلك استطعنا أنْ نرى في المنطقةِ تلالًا خضرًا غيرَ عاليةٍ تتكسرُ عليها أمواجُ المحيطِ الأطلسيِّ(٣)	جويةٌ عن بعدٍ	مكثف موجز	اختزلَ وصفَ منطقةٍ كبيرةٍ في كلماتٍ معدودةٍ تصفُ ما استطاعَ أن يراهُ مِن تضاريسِها ولونِها.
يقولُ واصفًا مزرعةَ أحدِ مسلمي غربِ البرازيلِ : وتبلغُ مساحةُ مزرعتِهِ ثلاثَ مئةِ ألفِ مترٍ مربعٍ...ومِن طريفِ ما فيها مجموعةٌ مِن الحيوانِ الأليفِ مِنها : خشفٌ -أي ظبيٌ صغيرٌ- وقطٌ وكلبٌ...ثمَّ قُمنا بجولةٍ في المزرعةِ ؛ رأينا الأشجارَ المثمرةَ فيها وخاصةً العمبَةَ (المانجو) قد أثقلتْها ثمارُها وكذلك أشجارُ الموزِ المثمرةِ والجوافا ، وأشارَ الأخُ الهواشُ إلى هذِهِ الأشجارِ وإلى دواجنَ مِن الطيورِ والبطِّ...ومِن أجملِ ما رأيتُهُ في المزرعةِ وأكثرِهِ غرابةً بالنسبةِ إلينا أنَّ=	عن قربٍ / في أثناءِ المشيِ راجلًا	استقصائي	فضاءٌ محددٌ = اهتمامٌ بالعناصرِ والتفاصيلِ : مساحة +تعداد + نوع + وزن+ حجم + عناصر محددة.

(١) في شرق البرازيل ١١٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٤، ٤٤ ، في شرق البرازيل ٩٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٠، ٦٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١١٧، ١٢٢.

(٢) في جنوب البرازيل ١٠٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١٣١، ١١٤.

(٣) على ضفاف الأمازون ٦٦. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٩٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٣ ، وفي جنوب البرازيل ٤١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٣ ، ١١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢١ ، ٢٣.

المثال	مستوى الرؤيةِ المكانيِّ	مستوى التركيز	المحدِّدات
=فيها نبعين...وهما نهرانِ صغيرانِ ...ومِن الطريفِ أيضًا أنَّنا رأينا بركةً في المزرعةِ فيها البطُّ(١)			
واصلت الحافلةُ سيرَها في شوارعِ ومحلاتِ مدينةِ (سلفادور) فمرَرْنا بمصانعَ للشوكلاتَةِ ، وسلَكَت الحافلةُ شوارعَ متوسطةَ السعةِ ، بعضُها مرصوفةٌ بالحجارةِ وليسَ بالإسفلتِ...ومِن اللطيفِ في الأمرِ أنَّ حدائقَ تلكَ البيوتِ في بعضِها أشجارُ الجوافا المثمرةِ التي شَمَمْتُ رائحتَها العطرةَ مِن السيارةِ. وأغلبُها بيوتٌ صغيرةٌ مسنمةُ السقوفِ ، سقوفُها مِن الآجرِ غيرِ النظرِ ، أي الذي يكونُ لونُهُ رماديًّا مِن التغيُّرِ بالعوارضِ الجويَّةِ(٢)	عن قربٍ/ راكبًا	استقصائي	فضاءٌ محددٌ = اهتمامٌ بالعناصرِ والتفاصيلِ : مواد + رائحة + حجم + شكل + تقييم + لون.

ولا يعني ذلكَ الاطرادَ مطلقًا ؛ فقدْ يوجزُ العبوديُّ الوصفَ حالَ الرؤيةِ الأرضيةِ معَ إمكانيةِ الشمولِ ، منِ قبيلِ قولِهِ : «وسارَ الطريقُ في خضرةٍ شاملةٍ»(٣) ، وربَّما يكونُ ذلكَ لخلوِّ الطريقِ مِن الأشياءِ الجديدةِ التي يمكنُ الاحتفاءُ بها ، كما أنَّ العبوديَّ قد يصفُ وصفًا شاملًا معَ قدرتِهِ على الوصفِ الاستقصائيِّ ؛ من قبيلِ قولِهِ عن بيتِ أحد مسلمي جنوبِ البرازيلِ : «وبيتُهُ دارةٌ (فيلا) جيدةٌ واسعةٌ ، مؤثثةٌ بأثاثٍ يتسمُ بالذوقِ الرفيعِ»(٤). ويمكنُ ردُّ كلِّ ذلك إلى ظروفِ الوصفِ أو قيمةِ الموصوفِ.

(١) في غرب البرازيل ٥٩. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٤٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٩ ، وفي شرق البرازيل ١٣٢، ١٣٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٦٠.

(٢) في شرق البرازيل ٥٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٥٤ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٧ ، وفي غرب البرازيل ٢٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣٣.

(٣) في جنوب البرازيل ١٠٩.

(٤) نفسه١٢٢.

بنيةُ الوصفِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

أولًا : الموصوفاتُ :

يقتضي سردُ أحداثِ الرحلةِ وصفَ ما يراهُ الرّحّالةُ جديرًا بالوصفِ ومعينًا على إدراكِ الأحداثِ ، فقراءةُ النصِّ الرحليِّ هي رحلةٌ على متنِ النصِّ ، مما يقتضي إيرادَ الكثيرِ مِن الأوصافِ المتعدِّدَةِ ، «فالرحالةُ يصفُ المواضعَ والعمرانَ والأشياءَ والأشخاصَ والأنشطةَ الإنسانيةَ المختلفةَ والظواهرَ الطبيعيةَ وغيرَها»(١) ، ومع هذِهِ الكثرةِ وهذا التَّعدُّدِ لا يمكنُ لنا تحديدُ الموصوفاتِ بشكلٍ دقيقٍ ؛ لأَنَّهُ «لا حصرَ لها ولا عدَّ ، ولكنَّ قائمتَها غالبًا ما تكونُ محدودةً في نصٍّ قصصيٍّ بعينِهِ»(٢) ، وبالنظرِ إلى هذه المدونةِ فإنَّهُ يمكنُنا أنْ نخرجَ بمجموعةٍ مِن الموصوفاتِ كَثُر ورودُها في النصِّ :

أ- المكانُ :

«يشكلُ المكانُ رحى النصِّ في النصِّ الرحليِّ ؛ فعبرَهُ يُفعَّلُ الوصفُ ، وتنفعِلُ الحواسُّ لأجلِ رصدِهِ ، إنْ بالبصرِ أو بالبصيرةِ»(٣). إنَّ الوصفَ في الرحلةِ يرتبطُ «بالمكانِ وما يثيرُهُ مِن انفعالاتِ الرحالةِ»(٤).

و«إذا كان المكانُ في السَّردِ التخييليِّ هو نقطةُ انطلاقٍ مِن أجلِ تحريكِ خيالِ القارئِ فإنَّهُ في الرحلةِ مكانٌ حقيقيٌّ يودُّ الساردُ أنْ ينقلَهُ بواسطةِ اللغةِ إلى مَن لم يشاهدْهُ ليتخيَّلَهُ ، ولهذا لا يصبحُ الوصفُ المرتبطُ بالمكانِ ذا خاصَّةٍ زُخرفيةٍ أو تزيينيةٍ كما في السرودِ التخييليَّةِ ، وإنَّما

---

(١) معجم السرديات : (قصص الرحلات).

(٢) الوصف في النص السردي ١١١.

(٣) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ٢٤.

(٤) نفسه ٢٦.

يصبحُ هدفُ الوصفِ توثيقَ الشيءِ كما هوَ موجودٌ والاحتفاظَ بِهِ كمشهدٍ سيصبحُ أثريًّا بعدَ حينٍ»(١) ؛ إذْ يعدُّ وصفُ المكانِ «تقنيةً إنشائيةً تتناولُ وصفَ أشياءَ الواقعِ في مظهرِها الحسيِّ ، وهو نوعٌ من التصويرِ الفوتوغرافيِّ لما تراهُ العينُ»(٢) ، ووصفُ المكانِ الرحليِّ لا يعدو كونَهُ تصويرًا حقيقيًّا للمكانِ الواقعيِّ ، «لذلك لا نتوقعُ مِن المكانِ في الرحلاتِ إلا المرجعَ الذي يشكِّلُ الخلفيةَ الطبيعيةَ لأحداثِ فعلِ السفرِ عبرَ الطريقِ الممتدِّ مِن نقطةِ الانطلاقِ إلى نقطةِ الوصولِ ثُمَّ العودةِ ، وهذا الخطُّ الأفقيُّ تتعدَّدُ مناظرُهُ ؛ فهناك»(٣): المطاراتُ والمحطاتُ والطرقُ والمدنُ والقرى والأريافُ والأنهارُ والشواطئُ والأوديةُ والمنازلُ والفنادقُ والأماكنُ المقدسةُ والمطاعمُ وغيرُها.

ويحرصُ العبوديُّ على إدراجِ أسماءِ المكانِ الموصوفِ(٤) ، وقد يتبعُها بسببِ التسميةِ فيصبحُ الوصفُ حينَها توثيقًا مكانيًّا وزمانيًّا للمكانِ الموصوفِ(٥) ، مِن قبيلِ قولِهِ : «تبيَّنَ أنَّ تسميتَهُ صحيحةٌ وهيَ (متحفُ الفنِّ الذهبيِّ) وليسَ المتحفُ الذهبيُّ...وجدناهُ كنيسةً قديمةً عربيةَ الطرازِ ، ذاتَ صحنٍ تحيطُ بِهِ أروقةٌ بأقواسٍ أندلسيةٍ ، وكانت هذهِ الكنيسةُ مطليةً بالذهبِ في بعضِ مواضعِها مِن الداخلِ فعَلِقَ بها هذا الاسمُ ، وكانَ تأسيسُها في عامِ

---

(١) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٢١٦.

(٢) شعرية الخطاب السردي ٧٠.

(٣) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٢١٧.

(٤) ينظر على سبيل المثال : في جنوب البرازيل ١١٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٩٦ ، وفي شرق البرازيل ١٢٥ ، وفي غرب البرازيل ٧٧ ، على أرض القهوة البرازيلية ٩٨.

(٥) ينظر : الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٧٩.

١٦٩٦م وهو تاريخٌ قديمٌ بالنسبةِ إلى هذِهِ البلادِ»[١] ، نجدُ أنَّ العبوديَّ في هذا المقطعِ يسترسلُ في تناولِ الاسمِ في امتداداتِهِ الزمنيَّةِ كاشفًا عن سببِ التسميةِ وارتباطِها بالمكانِ الواقعيِّ.

ويستقطبُ المكانُ اهتمامَ الساردِ حيثما حلَّ ؛ لكونِهِ «العنصرَ الحيويَّ الدافعَ لنماءِ الرحلةِ وسيرِها نحوَ الاكتمالِ»[٢] ، فكثيرًا ما نجدُ أنَّ أوصافَ الأمكنةِ تتعاقبُ بتعاقبِ الأحداثِ ، فينقلُنا العبوديُّ مِن مكانٍ إلى آخرَ ، وكلَّما تجدَّدَ المكانُ تجدَّدَت الأحداثُ والأخبارُ والمناظرُ[٣]. وسأحرِصُ فيما يلي أنْ أصنِّفَ الموصوفاتِ المكانيَّةَ في هذه المدونةِ إلى مجموعةٍ مِن الموضوعاتِ ، وهي :

الطرقُ : لِلطُّرقِ دِلالةٌ مهمةٌ على الأمنِ والطبيعةِ والنظافةِ والنظامِ ، كما أنَّها مقياسٌ لتقدُّمِ الدولةِ وقوةِ اقتصادِها ، وأحدُ أوصافِ الطرقِ في هذه المدونةِ وصفُ العبوديِّ للطريقِ مِن بورتو إليقري (Porto Alegre) إلى كرسيوما (Karasuma) ، حيث يقولُ : «والطريقُ مِن الطُّرقِ المُهِمَّةِ عندَهُم في هذِهِ الولايةِ ، وهو اتحاديٌّ لأنَّهُ يربطُ أكثرَ مِن ولايةٍ واحدةٍ...وهو طريقٌ سريعٌ قد رأيتُهُ اليومَ مزدحمًا بالسياراتِ ؛ لأنَّ اليومَ هو السبتُ ، يومُ العطلةِ الأسبوعيةِ...ومعَ ذلك فإنَّ هذا الطريقَ دونَ طرقِنا الحديثةِ في المملكةِ ، وهو أيضًا

---

(١) في شرق البرازيل ١٣٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٥٩ ، وفي شرق البرازيل ١١٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٢٧.

(٢) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٢٧٢.

(٣) نفسه ٢٢١.

يعتبرُ سريعًا إلا أنَّهُ غيرُ مغلقٍ مِن الجانبينِ إلا بموانعَ طبيعيةٍ كالحشائشِ الكثيفةِ والأشجارِ الصغيرةِ الناميةِ ، أو حدودِ المزارعِ التي لا تلاصقُ الطريقَ بصفةٍ مباشرةٍ»(١).

المطاراتُ والمحطَّاتُ : المطاراتُ والمحطاتُ هيَ واجهاتُ الدولِ والمدنِ ، فيدلُّ حسنُها وانتظامُها على حسنِ بلادِها ، وللعبوديِّ اهتمامٌ خاصٌ بالمطاراتِ ، من قبيلِ قولِهِ عن مطارِ ناتال (Natal) : «والمطارُ صغيرٌ ، ضيقُ الأبنيةِ لكونِهِ مطارَ عاصمةٍ إقليميةٍ صغيرةٍ بالنسبةِ إلى المدنِ الكبيرةِ وبخاصةٍ (رصيفي) التي أقلعْتُ مِنها ، وليسَ في المطارِ إلا سيرٌ متحركٌ قصيرٌ لنقلِ الأمتعةِ»(٢). ولم تكنْ محطَّاتُ السيرِ البريِّ بمنأًى عن وصفِ العبوديِّ ، مِن مثلِ قولِهِ : «ووجدتُ المحطةَ واسعةً غاصةً بالمسافرين القادمين مِن ركَّابِ الحافلاتِ ، وفيها مكاتبُ عديدةٌ لقطعِ التذاكرِ ، وكلُّ جهةٍ أو شركةٍ لها مكتبٌ خاصٌّ ، وهي نظيفةٌ معتنًى بها»(٣).

المدنُ والأحياءُ والضواحي والقرى والأريافُ : يعدُ وصفُ المدنِ والقرى والأريافِ أحدَ العتباتِ المهمةِ لافتتاحِ الفصولِ والفقراتِ في هذه المدونةِ ، وتحظى المدنُ -خاصةً- عندَ العبوديِّ بأهميةٍ كبرى ؛ لكونِها منطقةَ التجمُّعِ السكانيِّ والسوقِ الاقتصاديِّ وبها يُمضي أكثرَ وقتِهِ ، يقولُ العبوديُّ واصفًا كرسيوما (Karasuma) إحدى مدنِ جنوب البرازيلِ :

---

(١) في جنوب البرازيل ٥٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٥٨ ، ٧٣ ، وفي شرق البرازيل ١١٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٩٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٦٠ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٦.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٥٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٢١ ، وفي شرق البرازيل ٩٩.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ١٠٦.

«**هذه كرسيوما** : قالَ لنا الإخوةُ الكرامُ في التعريفِ بمدينةِ (كرسيوما) ؛ إنَّها تُعتبرُ عاصمة الفحمِ الحجريِّ في البرازيلِ ؛ فهي ترقدُ فوقَ منجمٍ ضخمٍ مِن هذا الفحِمِ وهيَ أيضًا عاصمةُ (السيراميكِ)...وعندما دخلنا المدينةَ مارِّينَ بالمنطقةِ الصناعيةِ فيها ؛ حيثُ مررنا بمصانعَ أخرى للبلاطِ ، وذلك في جوٍّ ريفيٍّ أخضرَ بالغِ الندى والرطوبةِ...وتقعُ المدينةُ على تلالٍ متطامنةٍ واسعةٍ بحيثُ تشرفُ على جزءٍ مِن أرضِها الخضراءِ إذا كنتَ على ظهرِ تلةٍ مِن تلك التلالِ التي هي في الحقيقةِ مناطقُ مرتفعةٌ ارتفاعًا قليلًا ، فترى المنطقةَ بخضرتِها وتموجِها وتظهرُ المدينةُ مِن هذا المرتفعِ غارقةً في الجناتِ الخضرِ ؛ إذ الأشجارُ والحشائشُ ملتفةٌ في جوٍّ بالغِ الخضرةِ ، وتقعُ المصانعُ على يمينِ القادمِ إلى المدينةِ ويسارِهِ قبلَ أنْ يدخلَ إليها ، ومنها مصنعٌ للملابسِ»[1].

وفي وصفِ العبوديِّ للمدنِ نجدُهُ يهتمُّ بقلبِ المدينةِ متخذًا مِنه مقياسًا اقتصاديًا واجتماعيًا وحضاريًا ، يقولُ عن وسطِ مدينةِ بيليم (Belém) : «وصلنا وسطَ المدينةِ أو قلبَها التجاريَّ ويتألفُ مِن أبنيةٍ متعددةِ الطوابقِ (عمارات) غيرِ متلاصقةٍ ولكنَّ أكثرَها غيرُ بهيجِ المنظرِ ويخيَّلُ إليك أنَّهُ ينقُصُها الطلاءُ الجيدُ ، وبينَها بيوتٌ مبنيةٌ مِن طابقٍ أو طابقينِ لا تزيدُ على ذلكَ ، إلَّا أنَّ المرورَ فيها منظَّمٌ ، فمِن الإشاراتِ الضوئيةِ إلى الخطوطِ البيضِ في أرضِ الشوارعِ»[2].

---

(١) في جنوب البرازيل ٨٠.

(٢) على ضفاف الأمازون ٨٦. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١٢٨ ، وفي غرب البرازيل ٥١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٧.

كما أنَّ لأحياءِ المدينةِ وضواحيها وقُراها قيمةٌ ظاهرةٌ لدى العبوديِّ ، فالأحياءُ مقياسٌ مهمٌّ للحالةِ الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ للسكانِ ، يقولُ عن حيٍّ مِن أحياءِ ماناوس (Manaus) : «ثمَّ مررنا بحيٍّ شعبيٍّ -أو على الأدقِّ- بحيٍّ للفقراءِ منازلُهُ مِن الخشبِ والصفيحِ وتنبعثُ الروائحُ الكريهةُ منهُ فتسبقُ العينَ إلى الأنفِ لكي تصدَّ العينَ عن رؤيتِها ؛ وذلك أنَّها مبنيَّةٌ على فرعٍ من نهرٍ تنزلُ إليه فضلاتُ البيوتِ ، ولكنَّ الفقراءَ الذين لا يجدون بيوتًا بنوا على ضفتي هذا النهرِ بيوتًا لهم مِن الخشبِ أو الصفيحِ ؛ لأنَّ ذلك في نظرِهم خيرٌ مِن لا بيوتٍ»(١). وتُشكِّلُ الأريافُ مقياسًا حقيقيًّا لطبيعةِ المنطقةِ ونشاطِها الزراعيِّ ؛ يقولُ العبوديُّ عن الريفِ حولَ مدينةِ ناتال (Natal) : «وصلنا الريفَ الخالصَ وهو ريفٌ غيرُ جميلٍ بالنسبةِ إلى أرضِ البرازيلِ الجميلةِ الخضراءِ ؛ إذ أكثرُهُ أعشابٌ بريةٌ وأشجارٌ مِن أشجارِ النارجيلِ تبدو كأنَّها لا تَلقى العنايةَ ، ثُمَّ حَسُنَ منظرُ الريفِ وظهرَت بعضُ الحقولِ الزراعيةِ التي ربَّما كانت لأعلافِ الحيوانِ ، وحَسُنَ منظرُ النارجيلِ فصارَ نظِرًا ومعهُ أشجارٌ مِن أشجارِ الفاكهةِ المحليَّةِ التي مِن أبرزِها هنا أشجارُ البابايِ»(٢).

الأماكنُ المقدَّسةُ : غالبُ مُهِمَّاتِ رحلاتِ العبوديِّ هي مهماتٌ دينيةٌ في الأصلِ ؛ تهتمُّ بالجالياتِ المسلمةِ في البرازيلِ ، وتُعدُّ المساجدُ أحدَ مظاهرِ وجودِ الأقليَّاتِ المسلمةِ ، ومِن شأنِها أنْ تدلَّ على مدى ترابطِ المسلمينَ وأهميتِهم وتأثيرِهم وتمسُّكِهم بدينِهم ، ويهتمُّ العبوديُّ بالجانبِ المعماريِّ للمساجدِ ؛ فلحسنِ بناءِ المساجدِ دورٌ في جذبِ السُّكانِ

---

(١) على ضفاف الأمازون ١٩. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٦٦ ، وفي شرق البرازيل ٨٦ ، وفي جنوب البرازيل ٧٨، ١١٨.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ١١٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٢٦ ، وفي جنوب البرازيل ٥٢ ، ١٠٢ ، وفي غرب البرازيل ٥٥، ٧٠.

والمتنزهينَ والسُّوَّاحِ ، كما حظيت مناراتُ المساجدِ باهتمامٍ خاصٍّ مِن قِبَلِ العبوديِّ لكونِها هيَ شعارُ المسجدِ والفارقُ بينَهُ وبينَ دورِ العبادةِ الأخرى ، ولنستبينَ ذلك فإنَّنا سنقفُ على وصفِهِ لجامعِ فوز دو قواسو (Foz do Iguaçu) ، حيثُ يقولُ : «وقد اكتملَ بناءُ المسجدِ وصارَ مفخرةً مِن مفاخرِ المسلمينَ في هذِهِ المنطقةِ المهمَّةِ مِن أرضِ القارَّةِ الأمريكيَّةِ الجنوبيَّةِ حيثُ تلتقي حدودُ البرازيلِ بحدودِ (الأرجنتين) و(بارغواي) ، ويُرى الجامعُ شامخَ المنارِ ظاهرَ الشِّعارِ في البلدانِ الثلاثةِ...وبدا المسجدُ بعدَ أنْ تمَّ بناؤه رائعًا مِن الداخلِ ليسَ بداخلِهِ عمودٌ واحدٌ ، بلْ هوَ قائمٌ على أعمدةٍ داخلَ الحيطانِ تركبُها القبَّةُ الكبيرةُ التي تشبهُ القبَّةَ في مسجدِ الصخرةِ في القدسِ ، ورأيتُ هؤلاءِ الأخوة قد عملوا ما استطاعوهُ مِن أجلِ أنْ يصبحَ المسجدُ تحفةً رائعةً لمبنًى مِن أبنيةِ الطرازِ الإسلاميِّ المعتنى بِهِ ، إذْ نقشُوا ما تحتَ القبةِ بآياتٍ قرآنيةٍ كريمةٍ بخطوطٍ جميلةٍ ، وكذلك عملوا في حيطانِ المسجدِ ، وقد زيَّنوا المحرابَ بزخارفَ جميلةٍ مستوحاةٍ مِن الفنِّ الإسلاميِّ العريقِ ، وكذلك عملوا بالمنبرِ...ولم يبخلوا بشيءٍ مِن المالِ الذي جمعُوهُ قرشًا قرشًا على المسجدِ ، حتى أنَّهم فرشوا الدرجَ الذي يَصعَدُ بِهِ النساءُ إلى الشرفَةِ الخاصةِ بهنَّ مِن الجامعِ بالسجادِ الفاخرِ حتى صارَ مَن يدخلُهُ يتخيَّلُ أنَّهُ في قصرٍ مِن القصورِ ، ولذلك نظرَ أهلُ المدينةِ هذِهِ وما حولَها إلى المسجدِ على أنَّهُ إضافةٌ حضاريَّةٌ»(١). ولم تخلُ هذه المدونةُ مِن وصفٍ لبعضِ الكنائسِ مِن مثلِ قولِهِ عن أحدِ الكنائسِ الواقعةِ في الميدانِ المركزيِّ لبورتو إليقري (Porto Alegre) : «...وعلى هذا

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٧٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٢٠ ، ٨٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٦ ، ٦٢ ، ١٠٧ ، ١٤٤.

الميدانِ أماكنُ ذاتُ أهميةٍ ، مِنها المحكمةُ العُليا ، وكنيسةٌ اسمُها : الكنيسةُ المركزيَّةُ ، وهي ضخمةٌ واسعةٌ قد رسموا عليها مِن الظاهرِ صورًا ملونةً تُمثِّلُ مشاهدَ الكنيسةِ»(١).

الفنادقُ : تُعدُّ الفنادقُ والنُزُلُ مؤشرًا مهمًّا مِن مؤشراتِ النشاطِ السياحيِّ في المدنِ والعواصمِ ، فإليها يأوي الزوارُ والسُّواحُ ؛ لذا فإنَّنا نجدُ في هذه المدونةِ مجموعةً مِن الأوصافِ لفنادقَ أوى إليها العبوديُّ في رحلاتِهِ ، ومنها قولُهُ الآتي عن أحدِ فنادقِ رصيفي (Recife) : « ويقعُ الفندقُ في حيٍّ قريبٍ مِن المطارِ اسمُهُ (بوفياج) ، وهو فندقٌ قديمُ الطرازِ جدًّا ، يشبِهُ الطرازَ الأندلسيَّ العربيَّ ، ومؤلفٌ مِن أربعِ طبقاتٍ ، وتعلوُهُ شرفةٌ أشبهُ برأسِ الصومعةِ وهي المنارةُ المغربيةُ إلا أنَّهُ واسعُ الغرفِ ، وقد حافظوا على قِدَمِهِ وزادوا مِن مظهرِهِ حتى يكتسبَ صبغةً متميزةً ، ومِن ذلك أنَّ الغرفَ فيها حِلَقٌ تُطرقُ كالتي كانت موجودةً في الأبوابِ الخارجيةِ للدورِ في بلادِنا القديمِ ، وحتى الخزائنُ لها حلقاتُ حديدٍ كحلقاتِ الأبوابِ ، وكلُّها مطليٌّ باللونِ الأسودِ والبُنِّيِّ حتى تعطي المظهرَ القديمَ ، وفي كلِّ غرفةٍ جهازٌ للاستقبالِ الإذاعيِّ كبيرٌ قديمٌ ذو صندوقٍ خشبيٍّ ، نسينا رؤيتَهُ في بلادِنا منذُ سنواتٍ.

وواجهةُ الفندقِ من الزجاجِ الملونِ وكذلك بعضُ النوافذِ فيه ، ولم يعجبْنا ذلك فنحنُ لم نجئْ هنا لنبحثَ عن القديمِ ، وإنَّما جئنا للبحثِ عن الجديدِ في هذا العالمِ الجديدِ»(٢).

---

(١) في جنوب البرازيل ١٣٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٥٦ ، ٦٣ ، ١٣٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٩.

(٢) في شرق البرازيل ١١١.

ويقولُ العبوديُّ عن أحدِ فنادقِ ماناوس (Manaus) : «والفندقُ رُغمَ كونِهِ معدودًا مِن فنادقِ الدرجةِ الأولى ، وهوَ أشهرُ الفنادقِ في المدينةِ نفسِها ، فإنَّهُ لا يبدو بهيجَ المنظرِ ولا شيقَ الطلاءِ ، بلْ إنَّ منظرَهُ مِن الخارجِ يُشعِرُ بالكآبةِ ، وغُرَفَهُ لا تدلُّ على العنايةِ التي تَلَزمُ لغرفِ الفنادقِ الحديثةِ ، ولكن فيهِ بعضَ المزايا ؛ فأنا أطلُّ مِن الشرفةِ في غرفتي على نهرِ الأمازونِ الذي لا يبعدُ عن الفندقِ إلا بحوالي مئةَ مترٍ ، كما أنَّهُ في وسطِ المدينةِ حيثُ يشاهدُ المرءُ مِن الشرفةِ حركةَ السياراتِ وأفواجَ الشعبِ»(١).

البيوتُ : تُعدُ البيوتُ والمباني الحكوميةُ أحدَ علاماتِ الحضارةِ والتنظيمِ والاقتصادِ والطبيعةِ ، وقد اهتمَّ العبوديُّ بوصفِها لإعطاءِ صورةٍ دقيقةٍ عن البلادِ الـمُرتحلِ إليها وعن سُكانِها ، ومِن وصفِهِ للبيوتِ قولُهُ : «ثُمَّ مررنا ببيوتٍ هنديَّةٍ قليلةٍ على ضفةِ النهرِ مُقامةٍ مِن الخشبِ ذاتِ أسقفٍ مسنمةٍ»(٢). ومِنه قولُهُ عن بيوتِ كويابا (Cuiabá) : «ولقد سارعتُ عندما رأيتُ بعضَ الأماكنِ بقوليَ : إنَّها ليسَ فيها بيوتٌ وإذا بِها بعدَ التدقيقِ فيها بيوتٌ ولكنَّها غارقةٌ في الجناتِ الخضرِ ؛ فهيَ في أغلبِها مؤلفةٌ مِن طابقٍ واحدٍ أو طابقينِ ، ويقصُرُ ارتفاعُها عن ارتفاعِ الأشجارِ حولهَا حاشا قلبَ المدينةِ التجاريَّ وبعضَ الأماكنِ التي فيها أبنيةٌ عاليةٌ»(٣).

---

(١) على ضفاف الأمازون ٢٣. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٢٥ ، وفي جنوب البرازيل ٤٤ ، وفي غرب البرازيل ١٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٩.

(٢) على ضفاف الأمازون ٤٢.

(٣) في غرب البرازيل ٢٧. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٤ ، وفي شرق البرازيل ٥٣ ، ٧٠ ، وفي جنوب البرازيل ٩٥.

الآثارُ والمتاحفُ : تعتبرُ الآثارُ والمتاحفُ مِن أهمِّ الأماكنِ المرغوبةِ للسُوَّاحِ ، مِن حيثُ احتواؤها على شيءٍ مِن تاريخِ البلادِ ، ونجدُ أنَّ هذه المدونةَ لم تخلُ مِن زياراتٍ لهذه الأماكنِ ، من قبيلِ الزيارةِ التاليةِ لمتحفِ الفنِّ الذهبيِّ : «تبيَّنَ أنَّ تسميتَهُ صحيحةٌ وهيَ (متحفُ الفنِّ الذهبيِّ) وليسَ المتحفُ الذهبيُّ ، دفعنا رسومَ الدخولِ ألفَ كروزيرو...وجدناهُ كنيسةً قديمةً عربيةَ الطرازِ ، ذاتَ صحنٍ تحيطُ بِهِ أروقةٌ بأقواسٍ أندلسيةٍ ، وكانت هذِهِ الكنيسةُ مطليةً بالذهبِ في بعضِ مواضعِها مِن الداخلِ فعلِقَ بها هذا الاسمُ ، وكانَ تأسيسُها في عام ١٦٩٦م وهو تاريخٌ قديمٌ بالنسبةِ إلى هذِهِ البلادِ ، ومع ذلك فإنَّها -وقد صارت متحفًا- تحتوي الآنَ على تماثيلَ عديدةٍ مطليةٍ باللونِ الذهبيِّ ، وأهمُّ ما فيها تماثيلُ عديدةٌ للمسيحِ -عليه السلامُ- مصلوبًا»(١).

بعضُ المرافقِ : من قبيلِ الحدائقِ والأسواقِ والحوانيتِ والمحالِّ التجاريةِ والمقاهي والمطاعمِ بموائدِها. ولم تكن الحدائقُ بمعزلٍ عن زياراتِ العبوديِّ ومِن ثَمَّ وصفِها ، ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ زيارتَهُ لحديقةِ (أوربا) في غربِ البرازيلِ إذْ يقولُ عنها : «وصلنا منطقةً خارجَ المدينةِ اسمَها (جاردين أوربا) أي حديقةُ أوربًّا ، وهي مرتفعةٌ ملتفةُ النباتِ حتى إنَّ الحشائشَ البريةَ فيها يزيدُ ارتفاعُها على قامةِ الرجلِ وقد التقطتُّ فيها صورةً مع بعضِ الإخوةِ لأُبيِّنَ ارتفاعَ هذه الأعشابِ وكثافتَها معَ أنَّها واقعةٌ بجانبِ إزفلتِ الطريقِ مباشرةً»(٢).

---

(١) في شرق البرازيل ١٣٣. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٧٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٥٤ ، ١٥٧.

(٢) في غرب البرازيل ٨٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٤٤.

وللأسواقِ أهميةٌ لدى العبوديِّ ؛ فهي أحدُ المرافقِ والمقاييسِ الاقتصاديةِ والحضاريةِ ومكانُ تجمُّعِ الشعبِ بجميعِ طبقاتِهِ ، يقولُ العبوديُّ عن أحدِ أسواقِ شرقِ البرازيلِ : «تركَنا الدليلُ نمشي في سوقٍ صغيرٍ في الهواءِ الطلْقِ يشرفُ مثلَ باقي التلةِ على مناظرَ منخفضةٍ حولَهُ ، وهذا السوقُ أكثرُ ما يباعُ فيه المأكولاتُ الخفيفةُ ، ومنها أطعمةٌ تحتاجُ للتحضيرِ مثلُ الطحينِ ، وذلكَ كلُّهُ في بسطاتٍ وهي البضائعُ المنشورةُ على وجهِ الأرضِ أو على موائدَ صغيرةٍ مخصصةٍ للبيعِ ، والباعةُ فيها أكثرُهم مِن السوداواتِ ذواتِ الأصولِ الأفريقيةِ ، وبعضِهنَّ لم تتغيرْ ألوانُهنَّ ولا حتى طريقةُ البيعِ عندهنَّ ممَّا جعلُني أتذكرُ الأسواقَ الإفريقيةَ المماثلةَ حيثُ تكونُ فيها البضائعُ البسيطةُ معروضةً على الأرضِ مثلَ هذِهِ وتكونُ البائعاتُ مِن النساءِ»(١). ويقولُ عن حوانيتِ مدينةِ ماناوس (Manaus) : «ولذلك كانَ أولُ ما لفتَ نظري فيها اليومَ أسواقٌ فيها حوانيتُ تشبهُ الحوانيتَ المؤقتةَ المؤلَّفةَ مِن المظلاتِ والخيامِ ، وأكثرُ ما فيها مِن السِّلَعِ الملبوساتُ والحقائبُ وبعضُ الحاجاتِ الصغيرةِ...»(٢).

كما وصفَ العبوديُّ ما مرَّ بهِ من المطاعمِ والمقاهي ، من مثلِ وصفِهِ لمطعمٍ مِن مطاعمِ الـ(قاووش) بقولِهِ : «مِن أعجبِ المطاعمِ في البرازيلِ مطاعمُ الشواءِ المتميزةُ ، التي يحلو لبعضِهم أنْ ينسبَها إلى قومٍ مِن سَكَنَةِ جنوبِ البرازيلِ يقالُ لهُم الـ(قاووش) ، ويحلو لبعضِ العربِ أنْ ينسبَ أولئك القاووشيينَ إلى العَرَبِ...وعادتُهم أنْ ينصبوا مائدةً مستطيلةً فيها ما اشتهيتَهُ مِن أنواعِ السَلَطاتِ والخضرواتِ والبقولِ والحبوبِ كالأرزِّ واللوبيا والفاصوليا

---

(١) في شرق البرازيل ١٥٨.

(٢) على ضفاف الأمازون ٢٤. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١٠٢.

وأنواعِ الخبزِ ، يختارُ الآكلُ منها ما يشاءُ بصحنِهِ ويأخذُ المقاديرَ التي يريدُ ، وقد يتردَّدُ مرةً أو مرتينِ أو أكثرَ مِن مرتينِ على تلك الموائدِ ، ثُمَّ يجلسُ إلى مائدةٍ في المطعمِ فيأتيَ إليهِ العمالُ بأنواعٍ متنوعةٍ مِن الشِّواءِ مِن سائرِ أعضاءِ البقرةِ ، وقد رسموا في المطعمِ صورةَ ثورٍ ضخمٍ على واجهةٍ متفردةٍ مِن الحائطِ وكتبوا أسماءَ لحمِهِ على كلِّ عضوٍ مِن أعضائهِ حتى يتذكرَ الآكلُ ما يريدُ أنْ يأكلَ مِنهُ أو يتذوَّقَهُ مِن سائرِ أعضائهِ شواءً نضيجًا لذيذًا ، ويعرِضونَ معه أيضًا شواءً مِن الطيورِ وغيرِها ما عدا الأسماكِ ؛ فلها مطاعمُ خاصةٌ بها»(١).

وإلى جانبِ المطاعمِ نجدُ في هذه المدونةِ وصفًا لبعضِ المقاهي ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ عن أحدِها : «وكأنَّ المقهى نفسَهُ بأثاثِهِ ورياشِهِ قطعةٌ مِن غاباتِ المنطقةِ ، فكلُّ الذي فيهِ هو مِن الخشبِ الرثِّ ذي لونٍ أحمرَ أدهمَ ، وهو اللونُ الذي بينَ السوادِ والبياضِ ، وزادَ المنظرَ انسجامًا أنَّ الذين يخدمونَ فيه هُم كذلك ، أي : سمرٌ قد لوَّحَتْهُم الشمسُ النديةُ فأصبحوا منها في حلَّةٍ نُحاسيَّةٍ»(٢).

مصادرُ المياهِ : لا تخلُو هذه المدونةُ مِن وصفٍ لمصادرَ مائيةٍ مرَّ بِها العبوديُّ ، ولاسيما أنَّ بلادَ البرازيلِ قد اشتُهِرت بالأنهارِ والبحيراتِ والسدودِ ؛ وكثيرًا ما يهتمُ العبوديُّ بوصفِ الأنهارِ ، ومِن وصفِهِ لها قولُهُ عن أحدِ أنهارِ مدينةِ كويابا (Cuiabá) : «كانَ أهمَّ ما لفتَ نظريَ قبلَ الوصولِ إلى المدينةِ نهرٌ خضمُّ المياهِ يتلوى في الريفِ القريبِ مِن المدينةِ نفسِها وقد

---

(١) في شرق البرازيل ١٥٣.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٨٣. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ١٩، ٧١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٤١.

اتَّسعَ مجراهُ وبدَت مياهُهُ حمراءَ ممَّا يدلُّ على أنَّ الفصلَ هو فصلُ الأمطارِ إنْ لم يكنْ قد أصابَهُ فيضانٌ حملَ معَهُ الطميَ الأحمرَ إليه»[1].

وإلى جانبِ وصفِ الأنهارِ نجدُ أنَّ الرحالةَ/ الساردَ قدْ وصفَ بعضَ ما رآهُ من السدودِ البرازيليةِ ، مثلَ وصفِهِ للسدِّ العظيمِ الـمُسمَّى بـ(إيتابوي) : «قَصدْنا السدَّ العظيمَ الذي يسمونَهُ إيتابوي وهو أكبرُ سدٍّ أقيمَ على مجرًى مائيٍّ في العالمِ ؛ فهو إذًا أكبرُ مِن السدِّ العالي في مصرَ كما قرَّرَهُ الذين أخبرونا»[2]. ومثلُ ذلك وصفُهُ لبعضِ البحيراتِ الطبيعيةِ والصناعيةِ ، يقولُ العبوديُّ عن بحيرةِ برازيليا (Brasília) : «وعندما نهضت الطائرةُ تجلَّت رؤيةُ البحيرةِ الاصطناعيةِ التي تقومُ في المنظرِ في العاصمةِ برازيليا مقامَ النهرِ أو البحيرةِ الطبيعيةِ...وبَدَت هذِهِ البحيرةُ كأنَّها الخورُ الصغيرُ مِن النهرِ تتوسطُ العاصمةَ وتخترقُ جزءًا هامًا مِن طرقِها إنْ لم نقلْ إنَّ العاصمةَ هي التي تلتفُّ حولَها أو تحيطُ بجزءٍ مِنها ، كما بَدَت بيوتُ الضواحي في المدينةِ تحيطُ بها الحدائقُ وهي منثورةٌ بانتظامٍ بسقوفِها الحمرِ وسطَ الخضرةِ الغامرةِ»[3].

كما لم تخلُ هذه المدونةُ مِن وصفِ بعضِ الشلالاتِ ، من قبيلِ الوصفِ الآتي لشلالاتِ (كاتاراتس) العظيمةِ : «هي مساقطُ عظيمةٌ للمياهِ مِن نهرِ (قواسو) الذي هوَ نهرٌ برازيليٌّ أصلًا...تأتي إليه مِن مستوى الشارعِ وإذا نزلنا إلى أسفلَ اختلطت المرئياتُ بالمسموعاتِ

---

(١) في غرب البرازيل ١٤. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٥٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣٢ ، وفي جنوب البرازيل ١٢٣ ، وفي شرق البرازيل ١٣١.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٦٨.

(٣) على ضفاف الأمازون ١٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٧٣ ، وفي جنوب البرازيل ٥٥.

بالمشاعرِ في سمعِكَ وبصرِكَ وذهنِكَ فأصبَحتَ لا تستطيعُ أنْ تُعبِّرَ في وقتٍ واحدٍ عن روعةِ ما تحسُّ بِهِ أو تسمَعُهُ أو تبصرُهُ ؛ إذْ تتساقطُ المياهُ في تدافعٍ محمومٍ إلى الأسفلِ كأنَّما هيَ جماعاتٌ مِن الناسِ أصابها الجنونُ»(١).

وكما وصفَ العبوديُّ الأنهارَ والشلالات فقد وصفَ العيونَ والمنابعَ ؛ حيثُ يقولُ عن أحدِها : «فَوَقَفنا عندَ ماءٍ رقراقٍ ينحدرُ مِن قِمَّةِ الجبلِ إلى كَتِفِهِ التي نحنُ فيها فشرِبنا مِن هذا الماءِ الصافي الزلالِ»(٢).

ولم تخلُ هذه المدوَّنةُ –أيضًا– مِن شيءٍ مِن وصفِ البحارِ ؛ إذْ يقولُ العبوديُّ عن مرأى أحدِ البحارِ وقتَ الشروقِ : «أزحتُ ستارةَ النافذةِ معَ شروقِ الشمسِ على منظرٍ جليلٍ ، وهو منظرُ الشمسِ حينَ ترسلُ نهرًا مِن الأضواءِ إلى صفحةِ البحرِ المحيطِ ، رُبَّما لتحاولَ أنْ تهدئَ مِن غُلوائِهِ وهو يمسحُ رمالَ الشاطئِ الحُمرَ لا يفترُ عن ذلك ، وكان منظرُ البحرِ في هذِهِ الساعةِ رائعًا فالأمواجُ كانت رفيقةً بالشاطئِ بل رقيقةً مَعَهُ»(٣).

الشطآنُ والرمالُ : وإلى جانبِ مصادرِ المياهِ هناك الشطآنُ والسهولُ والرمالُ ، وكثيرًا ما تستهوي الشواطئُ البرازيليةُ العبوديَّ ؛ فهي مكانُ تنزُّهِ الناسِ وتجمُّعِهم في البرازيلِ ، ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ وصفَهُ لشواطئِ أرارانقوا (Araranguá) في جنوبِ البرازيلِ حيثُ يقولُ : «قصدنا شاطئَ البحرِ ، بلْ هو شاطئُ البحرِ والنهرِ ، لأنَّ النهرَ والبحرَ يلتقيانِ فيه فرأيتُ عجبًا مِن كثبانٍ رمليةٍ خضرٍ ؛ أي قد جلَّلتْها الخضرةُ التي هي خضرةٌ ربيعيةٌ

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٥٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١٢٠.

(٢) في جنوب البرازيل ١١٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٦٠.

(٣) في شرق البرازيل ١٦٠.

بسبَبِ موسمِ الأمطارِ في هذا الفصلِ مِن السنةِ...وكلا الساحلينِ رمليٌّ جميلٌ يصلحُ للسيرِ عليهِ والاسترخاءِ فوقَهُ بعدَ السباحةِ»(١).

وقدر راحَ العبوديُّ يقارنُ بينَ بعضِ رمالِ البرازيلِ وبينَ رملِ بلادِهِ ، ولنأخذْ أحدَ أوصافِهِ لرمالِ جنوبِ البرازيلِ : «**أرملٌ كرملِ القصيمِ؟** عادت إلى ذهني تسميةُ الأرضِ التي كنَّا مررنا بِها قبلَ ذلكَ بأرضِ الرملِ ، وعادَ الجوابُ للسؤالِ الذي سألتُهُ عن الرملِ في هذِهِ البلادِ الخضراءِ ، وإذا بنا نجدُ الرملَ في شاطئِ مدينةِ الأبراجِ هذِهِ ، إنَّه رملٌ أحمرُ رُغمَ قربِهِ مِن البحرِ ، وقد اعتدنا أنْ نرى رملَ الشاطئِ أبيضَ ، ولكنَّ ذلك يدلُّ على أنَّهُ رملٌ خارجٌ مِن اليابسةِ. وهذا الرملُ في الشاطئ هو الذي جَعَلَ هذه المدينةَ مصيفًا للأثرياءِ والمترفينَ ، يتقلبونَ على رمالِـها ، ويغسِلون متاعبَهم على شواطئها ، ويكحلُون عيونَهم بمرأى شطآنِها وأبراجِها الطبيعيةِ ، ولكنَّني أنا الذي عشتُ في بلادِ الرملِ (بلادِ القصيمِ) مِن قلبِ جزيرةِ العربِ عجبتُ لوجودِ هذا الرملِ في هذِهِ البلادِ الخضراءِ»(٢).

هكذا يتجلى المكانُ في هذه المدونةِ -بمدنِهِ وقُراهُ وأريافِه وأسواقِه ومساجدِه- عامرًا معينًا على استرسالِ السَّردِ ومِن ثَمَّ نبوعِ الوصفِ مرةً أخرى.

وإذْ أردُّ الأوصافَ إلى مواضيعَ تَجمعُ شتاتَها فإنَّهُ ينبغي عليَّ أنْ أعترفَ بالعجزِ عن احتواءِ جميعِ الأوصافِ ؛ فهناك القليلُ المتنوعُ الذي يصعبُ حصرُهُ ، ولعلَّ فيما جمعتهُ مِن وصفِ المكانِ صورةً واضحةً عمَّا لم يُذكرْ.

---

(١) في جنوب البرازيل ٩٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٤١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٣٢.

(٢) في جنوب البرازيل ٦٣. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٧٤ ، ٩٧.

ب - **الأشخاصُ والأجناسُ البشريةُ** : تضمُّ هذه المدوَّنةُ مجموعةً من أوصافِ الشخصياتِ والأجناسِ البشريَّةِ ؛ وما ذلكَ إلا لأنَّ البرازيلَ احتوتْ أجناسًا بشريةً شتى ، ففيها الأسودُ والأبيضُ والأوربيُّ والعربيُّ إضافةً إلى أهلِ البلادِ الأصليين ، يقولُ العبوديُّ واصفًا الجنسَ البرازيليَّ المتكونَ مِن عرقياتٍ متعدِّدَةٍ : «وكانت الطائرةُ مليئةً بالرُّكَّابِ وكلّهم مِن الجنسِ البرازيليِّ الذي ارتضيتُ لنفسي أنْ أطلقَ عليه هذا المصطلحَ وإنْ لم يكن هناك جنسُ إنسانٍ برازيليٍّ متفقٍ على إطلاق هذا الاسمِ عليهِ ، ولكنَّه هو الجنسُ الغالبُ الأكثرُ في البرازيلِ ، وهو جنسٌ أبيضُ ولكنَّهُ ليسَ بأصهبَ ؛ فبياضُهُ في الأغلبِ الأعمِّ هو كبياضِ العربِ الشماليينَ أو بياضِ السُّمرِ مِن الأوربيينَ الجنوبيينَ ، وكانَ في هذا الجنسِ الأوربيِّ بعضُ المهاجرينَ الشقرِ الذين جاؤوا مِن بلادٍ أوروبيَّةٍ شماليةٍ كألمانيا أو هولندا ولكنَّ بعضَهم تزاوجَ معَ الجنسِ الذي ذكرتُهُ فاكتسبَ بعضَ خصائصِهِ ، وبعضَهم أثَّر عليه الجوُّ البرازيليُّ الحارُّ أو الشبيهُ بالحارِ فأذهبَ عنه بعضَ بياضِهِ حتى أدخلَهُ في ذلك الجنسِ البرازيليِّ الذي ذكرتُهُ أو كادَ ، وفي البرازيلِ طوائفُ أخرى وإنْ شئتُ قلتُ أجناسٌ أخرى مِن السودِ والسمرِ المختلطينَ الذين يسمونَهم هنا (المولاتو) بمعنى المختلطين ، ولكنَّ هؤلاءِ وأولئك لا يؤلفونَ الأغلبيةَ من شعبِ البرازيلِ»[1].

أمّا وصفُ الشخصياتِ فإنَّنا لا نعثرُ عليهِ في هذه المدونةِ إلا بشكلٍ ظاهريٍّ مختصرٍ كما هيَ طبيعةُ وصفِ الشخصياتِ في الرحلاتِ عمومًا[2] ، ومِن قبيلِ ذلك وصفُهُ لدليلٍ

---

(١) في شرق البرازيل ٢٥. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٢ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٣١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٢١ ، وفي شرق البرازيل ٦٨.

(٢) ينظر : أدبية الرحلة ٤١.

سياحيٍّ بقولِهِ : «وهو مِن المختلطينَ ما بينَ الأوربيينَ والمختلطينَ مِن المواطنينَ ، فبدا لونُهُ في لونِ أعرابِ الصحراءِ وإنْ كانَ لتقاسيمِ وجهِهِ صفةٌ بل صفاتٌ أخرى»(١) ، ويمكنُ ردُّ عدم انتشارِ وصفِ الشخصياتِ في الرحلةِ عمومًا إلى هيمنةِ الرحالةِ (البطل) ، كما يمكنُ ردُّ ذلكَ إلى اهتمامِ غالبِ الرحلاتِ بالمكان دونَ الشخصياتِ.

ج- الأشياءُ : يمتلئُ المكانُ بالأشياءِ ويزخرُ بِها العالمُ الخارجيُّ ، وتمثِّلُ قوةً هائلةً يتفاعلُ معها الإنسانُ ، كما تؤدي الأشياءُ دورًا دلاليًّا يستمدُّ القارئُ مِنهُ بعضَ الإشاراتِ(٢)، ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ وصفَ العبوديِّ لمكوناتِ إحدى غُرَفِ الفنادقِ بقولِهِ : «كانت مفروشةً بسجادٍ ثمينٍ أو جيدٍ ، وفي الغرفةِ ثلاجةٌ مليئةٌ بالأشربةِ وجهازُ تلفازٍ ملونٌ وسريرانِ»(٣) ، ويصفُ العبوديُّ ما مرَّتْ به الدليلةُ من أشجارِ غاباتِ الأمازونِ ، فيقولُ : «مرَّت بشجرةٍ قالت : إنَّ عروقَهَا تمتدُّ ستينَ مترًا في التربةِ رُغمَ أنَّ الأرضَ نديةٌ ولكنَّ الشجرةَ شرِهةٌ إلى الماءِ ، وشجرةٌ أخرى ضخمةٌ ، في جذعِها أماكنُ داخلةٌ شبيهةٌ بالأركانِ الضيقةِ في الغرفةِ الصغيرةِ ، وشجرةٌ أخرى عاليةٌ ، قالت : إنَّها تُخرِجُ عصيرًا يشبهُ الحليبَ»(٤).

---

(١) على ضفاف الأمازون ٧٢. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٤٥ ، وفي شرق البرازيل ٧٤، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٠ ، وفي جنوب البرازيل ٥٠ ، وفي غرب البرازيل ٤٥.

(٢) ينظر : بناء الرواية ١٠٠.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ٥٤.

(٤) على ضفاف الأمازون ٤٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٦٣ ، وفي غرب البرازيل ٦٠ ، وفي جنوب البرازيل ٤٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٦١.

وقد يؤدي الاهتمامُ بالأشياءِ دورًا توثيقيًّا ، ذلك أنَّ طبيعةَ هذا الاهتمامِ تسمحُ بتحويلِ الرحلةِ إلى مرجعٍ غنيٍّ بالمعارفِ والمعلوماتِ المختلفةِ ذاتِ الطبيعةِ المرجعيَّةِ التوثيقيَّةِ(١) ، فحينَ يُحَدِّدُ العبوديُّ بعضَ عناصرِ الأمكنةِ الموصوفةِ فإنَّهُ يلتقطُ لها صورةً كتابيةً تبقى مدى الأيامِ ، ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ وصفَهُ لمتحفِ الفنِّ الذهبيِّ بقولِهِ : «تبيَّنَ أنَّ تسميتَهُ صحيحةٌ وهيَ (متحفُ الفنِّ الذهبيِّ) وليسَ المتحف الذهبيّ ، دفعنا رسومَ الدخولِ ألفَ كروزيرو...وجدناهُ كنيسةً قديمةً عربيةَ الطرازِ ، ذاتَ صحنٍ تحيطُ بِهِ أروقةٌ بأقواسٍ أندلسيةٍ ، وكانت هذهِ الكنيسةُ مطليَّةً بالذهبِ في بعضِ مواضِعِها مِن الداخلِ فعلِقَ بها هذا الاسمُ ، وكانَ تأسيسُها في عامِ ١٦٩٦م وهو تاريخٌ قديمٌ بالنسبةِ إلى هذِهِ البلادِ ، ومع ذلك فإنَّها -وقد صارت متحفًا- تحتوي الآنَ على تماثيلَ عديدةٍ مطليةٍ باللونِ الذهبيِّ ، وأهمُّ ما فيها تماثيلُ عديدةٌ للمسيحِ -عليه السلامُ- مصلوبًا»(٢).

د- **الشعورُ النفسيُّ والأوصافُ المعنويةُ** : تناولَ العبوديُّ -في نطاقٍ ضيقٍ- بعضَ دواخلِه النفسيةِ أو دواخلِ مَنْ رآهُم ، ولنأخذْ مثالًا على ذلك وصفَهُ لمشاعرِهِ عندما رأى مساقطَ شلالاتِ (كاتاراتس) العظيمةَ إذ يقولُ : «لم أستطعْ عندَ رؤيتِها أنْ أعبرَ عمَّا في نفسيَ مِن المشاعرِ تجاهَ منظرِها إلا بالتكبيرِ : اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ! عندما وصَلنا إليها كانَ هناك حشدٌ مِن سياراتِ المتنزهينَ والذين يقضونَ عطلَتَهم الأسبوعيةَ في مُشاهدَةِ هذِهِ الشلالاتِ لأنَّ اليومَ هو الأحدُ ، فأوقفنا السياراتِ ثُمَّ نزلنا مِن مصعدٍ إلى حيثُ يشاهدُ المرءُ الشلالاتِ وهيَ تسقطُ مِن علٍ فيرفعُ رأسَهُ يشاهدُ ذلك ، وذلكَ في مقابلِ رسمٍ قليلٍ لاستعمالِ المصعدِ

(١) أدبية الرحلة ٤١.

(٢) في شرق البرازيل ١٣٣. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٧٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٩.

أو لنَقُل المهبطَ ، لأَنَّهُ يهبطُ إلى أسفلَ عندما تأتي إليهِ مِن مستوى الشارعِ وإذا نزلنا إلى أسفلَ اختلطت المرئياتُ بالمسموعاتِ بالمشاعرِ في سمعِكَ وبصرِكَ وذهنِكَ فأصبحتَ لا تستطيعُ أن تُعَبِّرَ في وقتٍ واحدٍ عن روعةِ ما تحسُّ بِهِ أو تسمعُهُ أو تبصرُهُ»(١).

ومِن وصفِهِ لمشاعرِ الآخرينَ قولُهُ عن ركابِ إحدى الحافلاتِ البرازيليَّةِ : «الركابُ كما عهدنا أهلَ البرازيلِ ذوو طبيعةٍ سمحةٍ ومُحبةٍ لإفادةِ الآخرين لولا حاجزُ اللغةِ ، والحقيقةُ أنَّ الرحلةَ في الحافلةِ هي ممتعةٌ حقًا»(٢).

هـ - **الحركةُ** : الحركةُ هي دليلُ الكثافةِ السكانيَّةِ وعنوانُ تَحَضُّرِ الشعوبِ وانتظامِها ، وفي وصفِ الحركةِ يقولُ العبوديُّ : «ومما ينبغي ذكرُهُ أنَّ مدينةَ (كويابا) تضمُّ سبعَ مئةِ ألفِ نسمةٍ. وبعد استجلاءِ المنطقةِ الجميلةِ عُدنا إلى اجتيازِ الجسرِ المقامِ فوقَ نهرِ (كويابا) حيث صِرنا في مدينةِ (بارزيا قراندي) التي فيها مطارُ (كويابا). وقد كانَ مرورُ السياراتِ فوقَ الجسرِ كثيفًا بلْ إنَّ السياراتِ في المدينةِ كلِّها كثيرةٌ كثرةً ظاهرةً»(٣).

ز- **الجوُّ** : ويُعدُّ وصفُ الجوِّ مِن أهمِّ مؤشراتِ الطبيعةِ ، كما يدلُّ على الفصلِ السنويِّ المرتَحَلِ فيه ، ووصفُ الجوِّ مِن الأوصافِ المطروقةِ في هذه المدونةِ ، يقولُ العبوديُّ واصفًا جوَّ الريفِ بينَ كامبو قراندي (Campo Grande) ودورادس (Dourados) : «ومما لاحظتُهُ هنا أنني رأيتُ الأبقارَ -في مزارعِ تربيةِ الأبقارِ الواقعةِ على الطريقِ- ترعى والمطرُ ينزلُ ، ولم أرَ أهلَها قد اهتموا بإدخالِها الحظائرَ عن المطرِ ، ولعلَّ السببَ في ذلك هو طيبُ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٥٠.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ١١٥. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٥٧ ، ٦٤.

(٣) في غرب البرازيل ٤٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٣١ ، ١٦١ ، وفي غرب البرازيل ٦٦.

الجوِّ في هذِهِ الولايةِ الذي يكادُ يكونُ معتدلًا أو حارًّا طيلةَ السنةِ ولا يكونُ باردًا إلا لأيامٍ قليلةٍ في فصلِ الشتاءِ عندَهم الذي هو فصلُ الصيفِ عندَنا. وقد رأيتُ الجوَّ عندما كفَّ المطرُ وأشرقَت الشمسُ قد صارَ جوًّا ربيعيًّا بعدَ أنْ كانَ حارًّا ؛ فالمطرُ هنا ينزلُ مدرارًا تعقبُهُ شمسٌ حارَّةٌ»(١).

ح – **المشاهدُ** : قد يكونُ الموصوفُ في هذه المدونةِ مشهدًا متحركًا يصِفُ أفعالَ الطبيعةِ أو الأشخاصِ أو الجماداتِ ، ولنأخذْ مثالًا على ذلك وصفَ العبوديِّ لمنظرٍ عجيبٍ مرَّ بهِ ، حيثُ يقولُ : «ومِن المناظرِ الغريبةِ –ولا نستطيعُ أنْ نقولَ إنَّها لطيفةٌ– منظرُ امرأةٍ أوربيةِ المظهرِ ، وإنْ لم نكنْ نعرفُ إلى أيِّ بلدٍ تنتمي ، رأيتُها تحملُ رضيعَها وقد أذهلَها المنظرُ إلَّا أنَّ طفلَها لم يشاركْها ذلكَ فأخذَ يصيحُ ويتطلَّعُ إلى أنْ يردَ مِن صدرِ أُمِّهِ ما حاولَ الرذاذُ أنْ يعوِّضَهُ عنهُ ، فذُهِلَتْ عن نفسِها وأخرجَتْ ثديَها أمامَ الناسِ تُلقِمَهُ رضيعَها ، لا تبالي في ذلك عذلَ عاذلٍ أو لومَ لائمٍ –إنْ وَجَدَتْ لائمًا–»(٢).

---

(١) في غرب البرازيل ٧٣. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٢٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٨ ، وفي جنوب البرازيل ١١٨ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٣.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٥٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٧٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٥ ، وفي غرب البرازيل ١٠٣.

ثانيًا : بنيةُ المقطعِ الوصفيِّ :

عندما نقولُ : يأتي «الوصف في النصِّ السرديِّ أشكالًا مختلفةً»[1] فلا يعني خلوَّ تلك الأشكالِ مِن بنيةٍ يُمكنُ تحديدُها ودراستُها ؛ فمِن الممكنِ «تحديدُ اشتغالٍ أساسيٍّ مسؤولٍ عن رابطةِ النسبِ المشتركةِ بينَ جميعِ أشكالِ ظهورِ الوحدةِ البنائيةِ النصيَّةِ التي تُسمى عادةً الوصف»[2] ، ثمةَ إذًا نظامٌ للوصفِ يمكنُ استبانتهُ بطرقٍ مختلفةٍ ، ولو نظرنا إلى مجملِ المقاطعِ الوصفيةِ لوجدنا أنَّهُ يمكنُ اختزالُ أيٍّ مِنها في كلمةٍ تُشَكِّلُ عنوانًا تجتمعُ حولَهُ عناصرُ الوصفِ ؛ فوصفُ منزلٍ -مثلًا- يمكنُ اختزالُهُ بكلمةِ منزلٍ وهكذا ، ويمكنُ استخلاصُ بنيةٍ أساسيةٍ للوصفِ تتألفُ مِن :

١- الكلمةِ التي تختزلُ الوصفَ ، وهي ما يُسمى بـ(التَّسْمِيَةِ).

٢- الكلماتِ المتجاورةِ في شكلِ قائمةٍ ، والمرتبطةِ ببعضِها في نصٍّ ما ، ويطلقُ عليها (التَّوْسِعَةُ) ، وللواصفِ أنْ يأتي بالتَّوْسِعةِ على هيئةِ قائمةٍ أو مدونةٍ وله أنْ يأتي بها في شكلِ مسانيدَ ، وللواصفِ أيضًا أنْ يتخفَّفَ مِن هذِهِ القائمةِ أو المدونةِ أو المسانيدِ ؛ فقد يكتفي باثنتين منها فقط[3].

ويمكنُ التماسُ تلكَ البنيةِ فيما وردَ في هذه المدونةِ مِن أوصافٍ ؛ ولنأخذْ مثلًا قولَ العبوديِّ عن الجمعيةِ العربيةِ الفلسطينيةِ في بورتو إليقري (Porto Alegre) : «أعجبني **مبنى الجمعيةِ** الذي يبلغُ اتساعُهُ ثلاثةً وثلاثينَ ألفًا وخمسَ مئةِ مترٍ مربعٍ ، كُلُّهُ أشبَهُ ما يكونُ بالحديقةِ العامَّةِ التي زُيِّنَت بالتماثيلِ والمجسَّماتِ الجماليةِ والمداخلِ والمخارجِ والشلالاتِ والصخورِ المجلوبةِ ، مما لا يصدِّقُ المرءُ مَعَهُ أنْ تستطيعَ جمعيةٌ خيريَّةٌ -تجمعُ نقودَها مِن

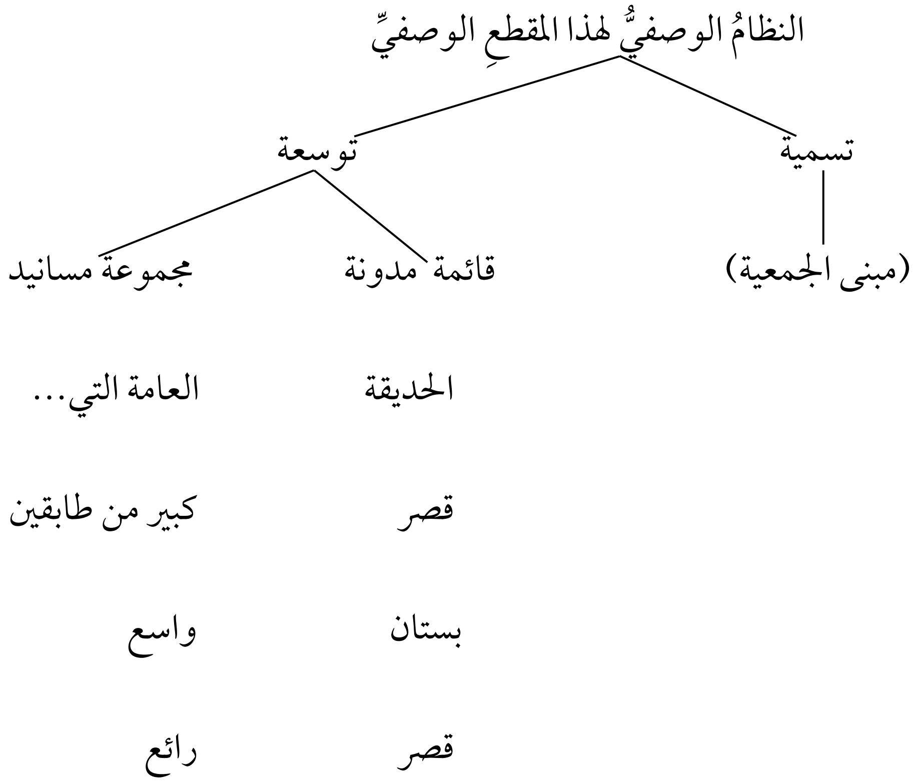
---

(١) الوصف في النص السردي ١١٣.

(٢) السابق ١١٤.

(٣) ينظر : السابق.

أعضائها- الحصولَ على مثلِهِ ، وفي وسطِهِ قصرٌ كبيرٌ مِن طابقينِ ، رُوعيَ فيهِ الجمالُ والفخامةُ ، فهو إذًا بستانٌ واسعٌ ، وقصرٌ رائعٌ»[1].



ويخضعُ الوصفُ لإرادةِ الساردِ ، فليسَ ثمَّةَ حدودٌ مرسومةٌ ، فللساردِ أنْ يولِّدَ مِن البنيةِ الأساسيةِ ملفوظًا وصفيًّا أطولَ ، وتبقى المقاطعُ الوصفيةُ خاضعةً لأنماطٍ مِن الأنظمةِ تقومُ بتنسيقِ عناصرِها وفقَ خُطَطٍ معينةٍ ، ولا يمكنُ دراسةُ نظامِ الوصفِ إلا بعدَ تحديدِ العملياتِ الوصفيةِ الأساسيةِ[2].

(١) في جنوب البرازيل ٤٤.

(٢) ينظر : الخطاب القصصي ١٨٧ ، والوصف في النص السردي ١١٥.

العملياتُ الوصفيةُ الأساسيةُ :

يتشكلُ الوصفُ مِن خلالِ عملياتٍ لغويةٍ أساسيَّةٍ تُسمى العملياتُ الوصفيةُ[1] ، وهي :

١- عمليتا الترسيخِ والتعيينِ :

إذا كانَ المقطعُ الوصفيُّ لا يخلو -غالبًا- مِن تسميةٍ كما قُلنا ، فإنَّ هذِهِ التسميةَ قد تكونُ في بدايةِ المقطعِ ، فينشأُ عن ذلك ما يُسمى (ترسيخًا) ، وقد تكونُ التسميةُ في نهايةِ المقطعِ الوصفيِّ فَيَنتجُ عن ذلك ما اصطُلِحَ على تسميتِهِ بـ(التَّعْيينِ)[2].

أ- الترسيخُ :

«الترسيخُ هو استهلالُ المقطعِ الوصفيِّ بذكرِ مرجعِهِ ، أي بتسميةِ موضوعِهِ ، وهو عمليةٌ يُربطُ بفضلِها الموضوعُ / العنوانُ الذي هو اسمٌ من أسماءِ اللغةِ بما هو ثقافيٌّ مشتركٌ بينَ الواصفِ والموصوفِ لَهُ ، فعندما نقرأُ (حديقة) في بدايةِ مقطعٍ وصفيٍّ فإنَّنا نستحضرُ خصائصَ وعناصرَ بعينِها نتوقعُ أنْ نجدَها في سائرِ المقطعِ ، وعندما يُستهلُّ المقطعُ بالموضوعِ / العنوانِ (المنزل) نتوقعُ خصائصَ وعناصرَ نستثني مِنها إذا كانَ المنزلُ عربيَّ المعمارِ عناصرَ وخاصياتٍ كالمدخنةِ والسطحِ المنحرفِ...ويكونُ الموصوفُ المرسَّخُ اسمًا مفردًا»[3] ؛ مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ : «و**النسناسُ** حيوانٌ صغيرٌ يشبهُ القرودَ ، إلا أنَّهُ في حجمِ الفأرِ الكبيرِ ، وأهمُّ ما في جسمِهِ ظهورًا : عيناهُ الكبيرتان وذيلُهُ الطويلُ»[4]. كما أنَّ

---

(١) معجم السرديات ٢٩٧.

(٢) ينظر : الوصف في النص السردي ١١٦.

(٣) نفسه.

(٤) في شرق البرازيل ٧٨.

الموصوفَ قدْ يكونُ اسمًا جمعًا مثلَ قولِ العبوديِّ : «مررنا **ببيوتٍ** هنديةٍ قليلةٍ على ضفةِ النهرِ مُقامةٍ مِن الخشبِ ذاتِ أسقفٍ مُسَنَّمَةٍ»(١). وقد يكونُ الموصوفُ المرسَّخُ مركَّبًا اسميًّا ، مثلَ : «وبهيَّةُ هذِهِ اشتُهِرَت أيضًا عندَ بني قومِنا مِن المسلمين في البرازيلِ وعندَ غيرِهم بأنَّها هيَ ولايةُ **المسلمين الضائعين** ؛ وهم الأفارقةُ المسلمون الذين كانَ البرتغاليون المستعمرون وغيرُهم مِن الأوربيين جلبوهم مِن غربِ إفريقيَّةَ»(٢). وقد لا يكونُ الترسيخُ في مفتَتَحِ المقطعِ الوصفيِّ وذلك لغاياتٍ أسلوبيةٍ مقصودةٍ غالبًا ، كقولِ العبوديِّ : «البحيرةُ الصغيرةُ الصناعيةُ **بحيرةُ نادي التجديفِ** التي أقامَها مِن أجلِ أنْ يمارسَ أعضاؤهُ هوايةَ التجديفِ في الماءِ فيها»(٣).

و«يمكنُ في أثناءِ الوصفِ ترسيخُ الموضوعِ / العنوانِ (رئيسًا كانَ أو فرعيًّا) مرةً أخرى أو أكثرَ ، أي : تثبيتُهُ مِن جديدٍ أو التذكيرُ بِهِ. ويتمُّ التذكيرُ باستخدامِ عبارةٍ لا تُكَرِّرُ الموضوعَ / العنوانَ بحرفِهِ وإنَّما تُعيدُ صياغتَهُ محافِظَةً في الآنِ نفسِهِ على معناهُ»(٤) ، كما عليهِ الحالُ في وصفِ العبوديِّ الآتي : «القلعةُ (الموضوع / العنوان) قديمةُ الطرازِ حقًّا ، ذاتُ عقودٍ تبدو على البعدِ شبيهةً بالعقودِ الأندلسيَّةِ وما هيَ بِها ، **وهيَ** (إعادَةُ صياغةٍ..تذكيرٌ) مبنيةٌ مِن الحجارةِ...**وللقلعةِ** (إعادةُ صياغة..تثبيته من جديد) صحنٌ وهو الأرضُ

(١) على ضفاف الأمازون ٤٢.

(٢) في شرق البرازيل ٣٤.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ١٥٢.

(٤) الوصف في النص السردي ١٢٨.

المبلَّطَةُ»(١). ويكونُ اللجوءُ إلى إعادةِ الصياغةِ «غالبًا عندما يمتدُّ المقطعُ إلى درجةٍ يخشى مَعَها الواصفُ أنْ ينسى الموصوفُ لَهُ الموضوعَ / العنوانَ ، كما أنَّ هذِهِ العمليةَ...تتيحُ تَجنُّبَ التكرارِ والوقفَ على مخزونِ الواصفِ اللغويِّ وقدرتِهِ على قولِ الشيءِ نفسِهِ في عباراتٍ مختلفةٍ»(٢).

ب- التعيينُ :

هوَ عمليةٌ مناقضةٌ لعمليةِ الترسيخِ ؛ فالموضوعُ / العنوانُ لا يُذكرُ إلا في نهايةِ المقطعِ الوصفيِّ(٣). وهو في هذه المدونةِ قليلٌ لا يُضاهي الترسيخَ الحاضرَ في أغلبِ الأوصافِ ، وما ذلك إلَّا لأنَّ النصَّ الرحليَّ في غالبِهِ نصٌّ مباشرٌ بعيدٌ عن التشويقِ أو الإلغازِ ، ولكنْ لن نعدمَ في هذه المدونةِ أوصافًا سُمِّيَ فيها الموضوعُ مِن خلالِ عمليةِ التعيينِ ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ : «رأيتُ منظرًا شدَّني على البعدِ كما لم يشد انتباهيَ منظرٌ آخرُ في البرازيلِ ، وذلك لكونِهِ ذكَّرنِي بمسقطِ رأسي بلادِ القصيمِ وسطَ الجزيرةِ العربيةِ الشماليَّ ، وذلكَ هو **منظرُ الكثبانِ الرمليةِ الذهبيةِ**»(٤) ، لقد تأخرَ في هذا الوصفِ «ذكرُ الموضوعِ / العنوانِ فأصبحَ الوصفُ بحثًا والموصفُ لغزًا....فكلَّما أُجِّلَ ذكرُ الشيءِ الموصوفِ إلى أواخرِ الملفوظِ

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٥٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١٢٥ ، وفي شرق البرازيل ٢٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٠-١١ ، وفي غرب البرازيل ٤٤ ، ٨١.

(٢) الوصف في النص السردي ١٣٠.

(٣) نفسه ١١٨.

(٤) الشرق الشمالي من البرازيل ٧٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٤٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٨٣ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، وفي جنوب البرازيل ١٢٩ ، وفي غرب البرازيل ٣١.

الوصفيِّ كانت قراءةُ هذا الملفوظِ الوصفيِّ نازعةً إلى أنْ تكونَ بحثًا عن معنى ، عن خبرٍ ، عن اسمِ الشيءِ الموصوفِ ذاتِهِ»[١].

وقد لا يكونُ الموضوعُ / العنوانُ مرسَّخًا ولا مُعيَّنًا ، ومعَ ذلك فإنَّهُ يمكنُ التَّعَرُّفُ عليهِ مِن سياقِ الوصفِ مثلما هو الشأنُ في هذا المقطعِ : «وزَّعَ الطيَّارُ على الرُّكابِ قطعةً مِن الكعكِ الليِّنِ (الكيك) وشطيرتينِ مِن الخبزِ بينَهما شريحةٌ من لحمِ الخنزيرِ ، أمَّا الشرابُ فإنَّهُ الماءُ القراحُ ، أخذَ أحدُ الركابِ دورَ المضيفِ فصارَ يسكبُ للناسِ مِن زجاجةٍ من الماءِ المعدنيِّ ويسقيهم»[٢] ؛ فبمجردِ ربطِ المقطعِ بالسياقِ قبلَهُ يتضحُ أنَّ الموصوفَ في هذا المثالِ هو وجبةُ الضيافةِ التي قُدِّمَت إليهم في الطائرةِ. وإذا كانت المقاطعُ الوصفيةُ تجتمعُ -غالبًا- حولَ تسميةٍ واحدةٍ فإنَّها قد تتفرقُ خاصيَّاتُها وتتعددُ عناصرُها ويتولَّدُ عن الموصوفِ موصوفٌ أو موصوفاتٌ أخرى.

٢- عمليةُ تحديدِ المظاهرِ :

«المقصودُ بالمظاهرِ هو : خاصياتُ الموصوفِ وعناصرُهُ. ويتجسَّمُ تحديدُ المظاهرِ ، العمليةُ الوصفيةُ الأساسيةُ ، في عمليتين فرعيتين :

أ- **إبرازِ الخاصِّيَّاتِ** : المقصودُ بالخاصيَّاتِ ؛ أشكالُ الموصوفاتِ وألوانُها وأحجامُها وأبعادُها وغيرُها. وقد تُقصرُ هذِهِ العمليةُ على الموضوعِ / العنوانِ»[٣] ، مثلَ قولِ العبوديِّ : «...السكانُ الأمريكيون الأصلاءُ الذين يُسَمَّونَ بالهنودِ

---

(١) الوصف في النص السردي ١١٨.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ١١٣.

(٣) الوصف في النص السردي ١٢٣.

الأمريكيين ولهم أشكالُهم المميزةُ وألوانُهم غيرُ الصافيةِ وتقاسيمُ وجوهِهِم بلْ وأجسامهم المخالفةُ للإفريقيين والأمريكيين ، فهُم سمرُ الألوانِ لكنَّها سمرةٌ غيرُ قاتمةٍ ، وقلَّ أنْ تجدَ فيهم مَن هو صافي اللونِ ، وأقربُ ما يقرِّبُ صُوَرَهُم أنْ تقولَ : إنَّ فيهم تقاطيعَ مغوليةً وإنْ لم تستطع أنْ تقولَ إنَّهم مِن أصلٍ مغوليٍّ ؛ فعيونُهم ليست واسعةً وفيهم كثيرٌ ذوو عيونٍ ضيقةٍ...وصدورُهم عريضةٌ أيضًا ويغلبُ القصرُ على قاماتِهم»(١). وقد تمتدُّ الخاصيَّاتُ إلى عناصرِ الموضوعِ أو عناصرِ عناصرِهِ ، من قبيلِ قولِ العبوديِّ : «وتجولنا في المنطقةِ التي يقعُ فيها الفندقُ وهي تلَّةٌ مرتفعةٌ تُطِلُّ على البحرِ ذاتُ بيوتٍ غاليةٍ وأبنيةٍ متعدِّدَة الطوابقِ»(٢).

ب- **التَّجْزِئَةِ أو التَّشْظِيَةِ** : وتتمثلُ هذِهِ العمليةُ في تجزئةِ الموضوعِ / العنوانِ المرسَّخِ إلى عناصرِهِ المباشرةِ ، وهذِهِ إلى مكوناتِها المباشرةِ وهكذا دواليك(٣) ، مِن مثلِ قولِ العبوديِّ : «تجولنا في ضاحيةٍ (الموضوع / العنوان) مِنها تتألفُ مِن داراتٍ (فيلا) (عنصر من عناصر الموضوع) أغلبُها مؤلفٌ مِن طابقٍ واحدٍ ، ولكلِّ دارٍ حديقةٌ (عنصر من عناصر الدارات) خضراءُ...ورأيتُ الأسوارَ الخارجيَّةَ لهذِهِ البيوتِ (عنصر من عناصر الدارات) قصيرةً»(٤). فيمكنُ للموصوفِ أنْ يتحولَ إلى موصوفاتٍ والموصوفاتُ تتحولُ بدورِها إلى موصوفاتٍ وهكذا.

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٦٩.

(٢) في شرق البرازيل ٤٣.

(٣) الوصف في النص السردي ١٢٤.

(٤) في جنوب البرازيل ٨٩.

«إنَّ عمليةَ تحديدِ المظاهرِ هي أسُّ الوصفِ ، سواءً تقلَّصَ الوصفُ فلم يتجاوز المفردةَ أو المركبَ أو امتدَّ ليُشَكِّلَ مقطعًا ، وبما أنَّ الخاصيةَ لا يمكنُ أنْ تتفرعَ إلى خاصياتٍ ثانويةٍ فإنَّ أصلَ الامتدادِ الوصفيِّ هو تجزئةُ العناصرِ أو تَشَظِّيها ، ويكونُ ذلك بتحويلِ عناصرِ الموضوعِ / العنوانِ إلى مواضيعَ / عناوينَ فرعيةٍ تُحَدَّدُ مظاهرُها بذكرِ خاصياتِها وعناصرِها ، وبتحويلِ هذِهِ العناصرِ إلى مواضيعَ / عناوينَ فرعيةٍ قد تُعامَلُ المعاملةَ نفسَها»[1] ، ولعلَّ المثالَ التاليَ يجسدُ ما قيلَ ، حيثُ يقولُ العبوديُّ عن أحدِ الفنادقِ : «وهو فندقٌ (موضوع / عنوان) قديمُ الطرازِ حقًّا...قد حافظوا على قِدَمِهِ وزادوا مِن مظهرِهِ حتى يكتسبَ صبغةً متميزةً ، ومِن ذلك أنَّ الغرفَ (عنصر = موضوع/ عنوان فرعي) فيها حلقٌ (عنصر العنصر «غرف») تُطرقُ كالتي كانت موجودةً في الأبوابِ الخارجيةِ للدورِ في بلادِنا القديمِ ، وحتى الخزائنُ (عنصر العنصر «غرف») لها حلقاتُ (عنصر عنصر العنصر=موضوع / عنوان فرعي) حديدٍ كحلقاتِ الأبوابِ وكلُّها مطليٌّ باللونِ الأسودِ والبنيِّ حتى تُعطي المظهرَ القديمَ ، وفي كلِّ غرفةٍ جهازٌ للاستقبالِ الإذاعيِّ (عنصر العنصر «غرف») كبيرٌ قديمٌ ذو صندوقٍ (عنصر عنصر العنصر= موضوع / عنوان فرعي) خشبيٍّ نسينا رؤيتَهُ في بلادِنا منذ سنواتٍ ، وواجهةُ الفندقِ (عنصر=مضوع / عنوان فرعي) مِن الزجاجِ الملوَّنِ»[2].

«ويمكنُ نظريًّا مواصلةُ عمليةِ تحويلِ العناصرِ إلى مواضيعَ / عناوينَ فرعيةٍ إلى ما لا نهايةَ لَهُ ، فيتشعَّبُ الوصفُ ويمتدُّ المقطعُ الوصفيُّ وتتعدَّدُ مستوياتُهُ التي يُعدُّ أولُها المستوى

(١) الوصف في النص السردي ١٢٤.

(٢) في شرق البرازيل ١١١.

الذي يحوي الموضوعَ / العنوانَ وعناصرَهُ مباشرةً ، فيتمُّ التحولُ مِن العامِّ إلى الخاصِّ ومِن الكلِّ إلى الجزءِ ومِن الجزءِ إلى جزءِ الجزءِ ، وهكذا دواليكَ»(١).

ويتبينُ مما سبقَ «أنَّ بعضَ العملياتِ الوصفيةِ النصيةِ اختياريٌّ وبعضَها الآخرَ إجباريٌّ ، والواصفُ حرٌّ فيما يستخدمُهُ مِنها وفي التَّصرُّفِ في ترتيبِهِ ، ولكنَّهُ لا يستطيعُ -في كلتا الحالتين- الاستغناءَ عن تحديدِ مظاهرِ الموصوفِ ، ويتجلَّى في الآنِ نفسِهِ أنَّ علاقةَ الترسيخِ بالتعيينِ علاقةُ حضورٍ بغيابٍ ، فهُما لا يلتقيانِ في المقطعِ الوصفيِّ الواحدِ ، وهذا يعني أنَّ وجودَ عمليةِ إعادةِ الصياغةِ مرتهنٌ بعمليةِ الترسيخِ وحدها»(٢).

وما دامتْ عمليةُ التفريعِ في المقاطعِ الوصفيةِ اختياريةً غيرَ خاضعةٍ لحدودٍ معينةٍ فإنَّهُ يمكنُ إعدادُ رسمٍ تشجيريٍّ لهذِهِ العمليةِ يوضِّحُ تماسكَ البنيةِ الوصفيةِ ومتانتَها :

شجرةُ الوصفِ :

إنَّ «الوصفَ -في العملِ السرديِّ خصوصًا والأدبيِّ عمومًا- عملٌ واعٍ ومقصودٌ ولا يخلو إنتاجُهُ مِن عسرٍ أو تعقيدٍ ، وتُعدُّ شجرةُ الوصفِ أداةً إجرائيةً لكشفِ ما يقيمُهُ الوصفُ مِن علاقاتٍ بينَ مكوناتِهِ ، ولتجليةِ بعضِ ما يبذلُهُ الواصفُ مِن جهدٍ حتى يستقيمَ الوصفُ وحدةً نصيةً متمتعةً باستقلالٍ نسبيٍّ»(٣) ، ولنستبينَ ذلك فإنَّنا سنمثِّلُ بمقطعينِ وصفيين مِن هذه المدونةِ ونرسمُ لكلٍّ منهما شجرتَهُ المناسبةَ :

---

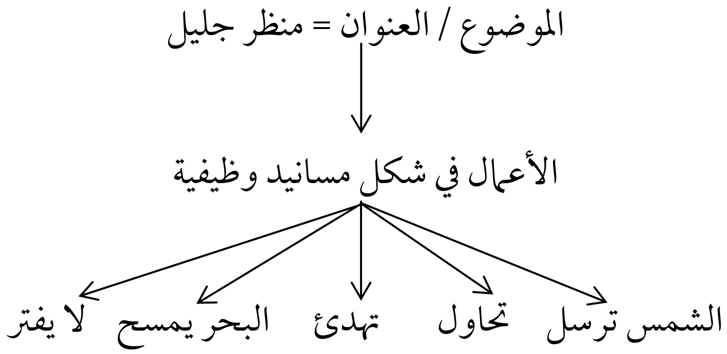
(١) الوصف في النص السردي ١٢٧.

(٢) السابق ١٣٠.

(٣) نفسه ١٣١.

المقطعُ الأَوَّلُ :

«أزحتُ ستارةَ النافذةِ معَ شروقِ الشمسِ على منظرٍ جليلٍ ، وهو منظرُ الشمسِ حينَ ترسلُ نهرًا مِن الأضواءِ إلى صفحةِ البحرِ المحيطِ ؛ ربَّما لتحاولَ أنْ تهدئَ مِن غلوائهِ وهو يمسحُ رمالَ الشاطئِ الحمرَ لا يفترُ عن ذلك»(١).



نجدُ في هذا المثالِ أنَّ الأفعالَ هي قوامُ الوصفِ ، وقد أفصحَت لنا شجرةُ الوصفِ المرسومةُ عن مستوًى واحدٍ في الوصفِ شَمِلَ الأعمالَ الأساسيَّةَ التي تكوَّنَ مِنها ذلك المنظرُ الجليلُ.

المقطعُ الثاني :

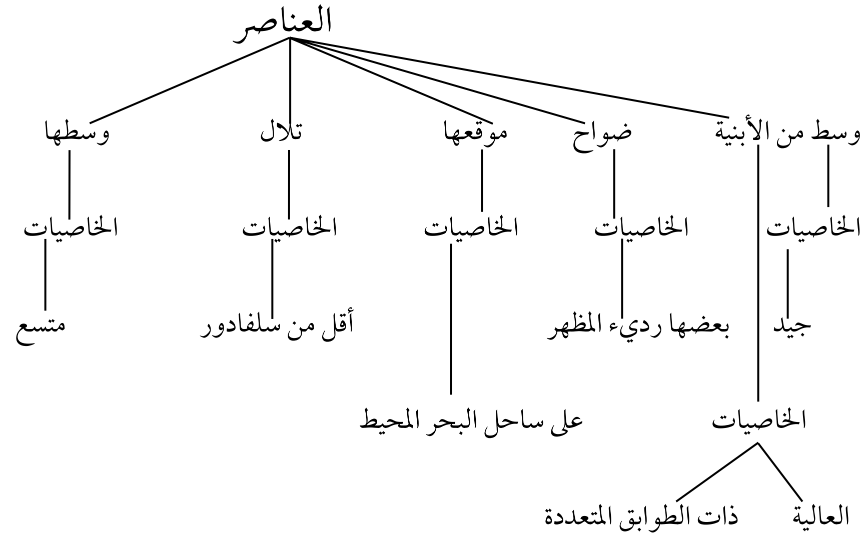
«ظهرت المدينةُ واسعةً ممتدةً ذاتَ وسطٍ جيدٍ مِن الأبنيةِ العاليةِ ذاتِ الطوابقِ المتعددةِ (العمارات) وضواحٍ بعضُها رديءُ المظهرِ ، وتقعُ المدينةُ على ساحلِ البحرِ المحيطِ ، وهي أقلُّ تلالًا مِن (سلفادور) إذ وسطُها متسعٌ»(٢).

---

(١) في شرق البرازيل ٦٠ . ولمزيد أمثلة ينظر : على أرض القهوة البرازيلية ١٣ ، ٥١ .

(٢) في شرق البرازيل ١١٠ .

الموضوع / العنوان = المدينة



تكشفُ لنا هذِهِ الشجرةُ عن مستويينِ للوصفِ في هذا المقطعِ ، يتكونُ المستوى الأوَّلُ مِن الموضوعِ / العنوانِ = المدينةِ ، ومِن عناصرِ هذا الموضوعِ / العنوانِ (وسط ، ضواح ، موقع ، تلال ، وسطها) ، أمَّا المستوى الثاني فإنَّهُ يتكونُ مِن العنصرِ الذي أصبحَ بدورِهِ موضوعًا / عنوانًا فرعيًا (وسط من الأبنية) ومن خاصيَّاتِهِ (العالية ، ذات الطوابق المتعددة).

وما دامَ المقطعُ الوصفيُّ غيرُ مقيدٍ بحدودٍ معيَّنةٍ فإنَّ لمستوياتِهِ -كذلك- أنْ تتعددَ بحسبِ تفرُّعِهِ وتسلسلِهِ ، إلا أنَّهُ يجبُ الإقرارُ بأنَّهُ لا يمكنُ في وصفِ الأفعالِ «تفريعُ الأفعالِ إلى ما لا نهايةَ لهُ مثلما هي الحالُ بالنسبةِ إلى سائرِ الموصوفاتِ»(١).

ويمكنُ أنْ نخرجَ مِن هاتينِ الشجرتينِ بقدرةِ الوصفِ في هذه المدونةِ على التوحيدِ ؛ فمعَ امتدادِ الوصفِ وتشعُّبِهِ إلا أنَّ جميعَ مكوناتِهِ تبقى متماسكةً بفضلِ الموضوعِ / العنوانِ ، فإليهِ تعودُ وهو الجامعُ لشتاتِها ؛ فمهما كثُرَت الفروعُ فلابدَّ لها مِن العَودِ إلى الأصلِ.

---

(١) الوصف في النص السردي ١٣٥.

وكما أنَّ للوصفِ قدرةً على التوحيدِ فإنَّ لَهُ -في المقابلِ- قدرةً على التجزئةِ فما إنْ يذكر الموضوعُ / العنوانُ حتى يختفي تاركًا المجالَ للخاصياتِ والعناصرِ أنْ تنوبَ عنه.

ولو أعدْنا النظرَ في شجرةِ المقطعِ الثاني لوجدنا أنَّها تكشفُ عن أهميةِ المكوناتِ الوصفيةِ فما قد يُعتبرُ ثانويًّا سرعانَ ما يأخذُ مكانَهُ مِن الاهتمامِ الوصفيِّ ويصبحُ لَهُ تفريعُهُ الخاصُّ ، ولو رجعنا إلى مواقعِ مكوناتِ الوصفِ مِن الشجرةِ لوجدنا أنَّ الموضوعَ/ العنوانَ يحتلُّ المرتبةَ الأولى ، يليهُ في المرتبةِ موقعُ مكوناتِهِ المباشرةِ ثُمَّ مكوناتُ مكوناتِهِ المباشرةِ[١].

وبما أنَّ لكلِّ «خطابٍ وصفيٍّ شكلًا تنظيميًّا أوَّليًّا بسيطًا توضعُ وفقَهُ الموصوفاتُ ، وتوضعُ وفقَهُ الموصوفاتُ وصفاتُها»[٢] فإنَّنا لن نعدمَ -في هذه المدونةِ- بعضَ الأدواتِ الإجرائيةِ المستخدمةِ والفاعلةِ في تنظيمِ المقطعِ الوصفيِّ واتساقِ مكوناتِهِ.

ومِن ذلك -مثلًا- **وصفُ المباني المنطلقُ مِن الخارجِ إلى الداخلِ** ، كما يبدو في المثالِ التالي :

«ويقعُ الفندقُ في حيٍّ قريبٍ مِن المطارِ اسمُهُ (بوفياج) ، وهو فندقٌ قديمُ الطرازِ جدًّا ، يشبهُ الطرازَ الأندلسيَّ العربيَّ ، ومؤلفٌ مِن أربعِ طبقاتٍ ، وتعلُوه شرفةٌ أشبهُ برأسِ الصومعةِ وهي المنارةُ المغربيةُ ، إلا أنَّهُ واسعُ الغرفِ ، وقد حافظوا على قِدمِهِ وزادوا مِن مظهرِهِ حتى يكتسبَ صبغةً متميزةً ، ومِن ذلك أنَّ الغرفَ فيها حلقٌ تُطرقُ كالتي كانت موجودةً في الأبوابِ الخارجيةِ للدُّورِ في بلادِنا القديمِ ، وحتى الخزائنُ لها حلقاتُ حديدٍ كحلقاتِ الأبوابِ ، وكلُّها مطليٌّ باللونِ الأسودِ والبنيِّ حتى تُعطي المظهرَ القديمَ ، وفي كلِّ

---

(١) ينظر : الوصف في النص السردي ١٣٦.

(٢) الوصف في الرواية العربية الحديثة ٤٩.

غرفةٍ جهازٌ للاستقبالِ الإذاعيِّ كبيرٌ قديمٌ ذو صندوقٍ خشبيٍّ نسينا رؤيتَهُ في بلادِنا منذُ سنواتٍ»[1] ، ففي هذا المثالِ نجدُ أنَّ الوصفَ ينطلقُ مِن الخارجِ (قديم الطراز ، مؤلف من أربع طبقات ، تعلوه) إلى الداخلِ (واسع الغرف ، الغرف فيها...).

ويعدُّ **الانطلاقُ مِن الخاصِّ إلى العامِّ** أحدَ الأدواتِ الإجرائيةِ للوصفِ في هذه المدونةِ ، من قبيلِ قولِ العبوديِّ : «أنزلوني في غرفةٍ ممتازةٍ مِن جناحٍ جديدٍ في وسطِ حديقةِ الفندقِ»[2]، الغرفةُ في هذا المثالِ جزءٌ مِن الجناحِ كما أنَّ الجناحَ يقعُ وسطَ حديقةِ الفندقِ.

وقد ينطلقُ الوصفُ في هذه المدونةِ **مِن العامِّ إلى الخاصِّ** ، مثلَ قولِ العبوديِّ : «...فرأيتُ الجزءَ الرئيسيَّ مِن الفندقِ في بناءٍ مجتمعٍ ضخمٍ...وقد جعلوهُ على هيئةِ غُرفٍ دائرةٍ بصحنٍ واسعٍ مكشوفٍ ، تتوسطُهُ بِركةٌ فخمةٌ للسباحةِ بجانِبِها بركتانِ صغيرتان»[3] ، فقد بدأَ العبوديُّ في هذا المقطعِ بوصفِ هيكلِ الفندقِ ثُمَّ أخذَ يصفُ ما يتوسَّطُ هذا الهيكلَ.

ومِن الأدواتِ المستخدمةِ لتنظيمِ المقاطعِ الوصفيةِ في هذه المدونةِ : **الوصفُ مِن الأعلى إلى الأسفلِ** ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ واصفًا أحدَ سائقي الأجرةِ : «...سائقٌ هنديُّ الأصلِ ، أي : مِن السكانِ الأمريكيينَ الأصلاءِ ، يدلُّ على ذلك انتفاخُ وجهِهِ واستدارتُهُ إلى جانبِ قصرِ رقبتِهِ وغِلَظِ جسمِهِ رُغمَ كونِهِ مربوعَ القامةِ ، ولكنَّهُ كسائرِ البرازيليين سمْحُ الخُلقِ

(١) في شرق البرازيل ١١١ . ولمزيد أمثلة ينظر : الشرق الشمالي من البرازيل ٥٩ ، ١٢١ .

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٢٠ .

(٣) السابق ١٢١ .

بعيدٌ عن الاختيالِ»[1] ، فقد بدأ العبوديُّ هنا بوصفِ السائقِ من الأعلى (الوجه) ثُمَّ نزلَ ليصفَ (الرقبةَ) ثُمَّ (الجسمَ).

ومِن الأدواتِ -أيضًا- **التحوُّلُ مِن الماديِّ إلى المعنويِّ** ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ عن البيضِ المتغيِّرين : « فكسفَتْ ألوانُهم وزايَلَها الرونقُ والصفاءُ ، ولكنَّهم لا يزالون البيضَ المعروفينَ في تقاسيمِ وجوهِهِم وتقاطيعِ أجسامِهِم ، ومِن الغريبِ أنَّهم مثلما زايلَ أجسامَهم المظهرُ الأوربيُّ النقيُّ زايلَ نفوسَهم الشعورُ الأوربيُّ القوميُّ ، وزايلَها الغرورُ والشعورُ بالتفوقِ على الآخرين»[2] ، فبعدَ أنْ وصفَ هنا ألوانَ البرازيليين البيضِ وتقاسيمَ وجوهِهِم راحَ ليصفَ شعورَهم.

يتجلى مِن المقاطعِ الآنفةِ الذكرِ الدورُ المهمُّ لأدواتِ التنظيمِ في «بناءِ المقطعِ الوصفيِّ وفي اتساقِهِ وفي دفعِ تُهمَةِ الفوضى عن الوصفِ ، ويتبيَّنُ منها كذلك تعدُّدُ أشكالِ تنظيمِ النصوصِ الوصفيةِ وتنوُّعُها»[3] في هذه المدونةِ.

وإذا كانَ الوصفُ -كما رأينا- «أسلوبَ كتابةٍ وخطابًا لَهُ بنيةٌ شكليةٌ وطرائقُ اشتغالٍ داخليَّةٌ [فإن] لَهُ أيضًا بينةً دلاليةً متينةَ الصلةِ بسياقِها السرديِّ والمقاصدِ التواصليَّةِ للوصفِ»[4].

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٥٠.

(٢) نفسه ٧٠.

(٣) الوصف في النص السردي ١٥٣.

(٤) نفسه ١٧٤.

وظائفُ الوصفِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

ونعني بالوظائفِ الأدوارَ التي يضطلعُ بها الوصفُ في السَّردِ ، ومِن هذا المبدأِ فإنَّنا سنقفُ على أهمِّ وظائفِ الوصفِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ.

إنَّ توقُّفَ السارِدِ عن السردِ وإيقافَهُ للقارئِ على عنصرٍ مِن عناصرِ عالمِ النصِّ لا بدَّ وأنْ يكونَ مقصودًا لَهُ دِلالَتُهُ وأهميَّتُهُ[1] ، وللوصفِ في هذه المدونةِ مجموعةٌ مِن الوظائفِ يمكنُ تقسيمُها إلى : وظائفَ حكائيةٍ ووظائفَ دلاليةٍ.

أولًا : الوظائفُ الحكائيَّةُ : و«هي الوظائفُ المتعلقةُ بالحكايةِ مِن جهةِ أحداثِها وزمانِها والقائمينَ بها»[2].

أ- الوظيفةُ التعليميَّةُ أو الإخباريَّةُ : ولا يكادُ يخلو مِنها أيٌّ مِن الأوصافِ في هذه المدونةِ ؛ فالأوصافُ تهدفُ دائمًا[3] إلى بثِّ المعارفِ وإكسابِها المتلقين ؛ فيمكنُ اكتسابُ المعرفةِ مِن خلالِ الاطِّلاعِ على خاصياتِ الموصوفِ وعناصرِهِ وما يتفرعُ منها[4] بحيثُ يمكنُ لقارئِ الرحلةِ أنْ يسافرَ مِن خلالِ النصِّ ويعرفَ الكثيرَ عن البلدِ المرتحلِ إليهِ بعاداتِهِ وتقاليدِهِ وتضاريسِهِ واقتصادِهِ وغيرِها ، ففي حينِ لا يَعرفُ أكثرُ القرَّاءِ شيئًا عن سياراتِ الرمالِ يأتي العبوديُّ بمجموعةٍ مِن الأوصافِ تقرِّبُها وتجعلُها قريبةً مِن ذهن المتلقي ، فيقولُ :

---

(١) الوصف في النص السردي ١٧٤.

(٢) نفسه ١٨٥.

(٣) تقل درجة التعليم والإخبار بقدر الهدف الجمالي للوصف. ينظر : الوصف في النص السردي ١٨٥.

(٤) ينظر : الوصف في النص السردي ١٨٥ ، ١٨٦ ، والرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٩٤.

«بقيَ أنْ تعرفَ أنَّ السيارةَ الرمليةَ صغيرةَ الحجمِ ، خفيفةَ الوزنِ ، لا تُستعملُ لغيرِ اجتيازِ الرملِ»(١).

وقريبٌ من ذلك وقوفُهُ على (بقرة السمك) المجهولةِ عندَ الأكثريةِ وقولُهُ عنها : «هي سوداءُ عجيبةُ الشكلِ تنسابُ في حوضِ الماءِ وتأكلُ العلفَ كما تأكلُهُ البقرةُ ، وقالت الدليليةُ : إنَّها تعيشُ على أكلِ الحشيشِ في نهرِ الأمازونِ وهيَ في سائرِ أمرِها كالسمكِ المعتادِ»(٢).

ومِن ذلك استعانتُهُ بوصفِ مضيفِيهِ للـ(قاووش) أهلِ الشِّواءِ المميِّزِ ، إذ ينقلُ عنهم قولَهم : «وهم جماعةٌ مِن الناسِ تعيشُ في جنوبِ البرازيلِ في منطقةٍ كانت تابعةً للبارغواي فاستولَت عليها البرازيلُ في القديمِ...فيهم شبهٌ مِن العربِ مِن نواحٍ عديدةٍ ، مما حَمَلَ بعضَ الناسِ على القولِ بأنَّ أصلَهم مِن المغاربةِ...يمارسون عاداتٍ تختلفُ عمَّا يمارسُهُ الناسُ في البرازيلِ ، ومِن ذلك أنواعٌ مِن اللباسِ كالسراويلِ الطويلةِ والثيابِ القصيرةِ فوقَها ، والرقصُ الذي يشبِهُ الرقصَ العربيَّ ، وهُم رعاةٌ يعيشون على رعيِ الأبقارِ وتربيةِ الخيولِ فهم فرسانٌ مهرةٌ»(٣) ، فيمكنُ للقارئِ أنْ يخرجَ مِن هذا الوصفِ بمعلوماتٍ وافيةٍ عن هذا الجنسِ الغريبِ مِن شعبِ البرازيلِ.

ويصفُ إحدى الزهورِ الغريبةِ بقولِهِ : «تُسمَّى زهرةُ (فيكتوريا ريجيا) وغرابتُها في شكلِها ثُمَّ في طريقةِ نموِّها فهيَ لا تكونُ إلا في المستنقعاتِ والمياهِ الدائمةِ...إنَّ الورقةَ

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٨٥.

(٢) على ضفاف الأمازون ٨٠.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ١٣١.

الواحدةَ مِن ورقِها -الذي هو كالصحونِ الواسعةِ- تزنُ ثلاثةَ كيلو جراماتٍ ، وإنَّ الزهرةَ تبقى ثلاثةَ أشهرٍ ، وإنَّ ورقَها يتفتحُ في النهارِ التماسًا للشمسِ وينغَلِقُ في الليلِ»[1].

ولو ذهبنا نتلمسُ المعرفةَ في أوصافِ هذه المدونةِ لوجدنا أنَّها مبثوثةٌ في جميعِ الأوصافِ لا يكادُ يخلو مِنها أيٌّ مِن الأوصافِ على اختلافِها.

«وعلى هذا الأساسِ لمْ تعد الرحلةُ أداةً للتعريفِ بالمسالكِ والممالكِ مِن جهةٍ أو بالفضاءاتِ المختلفةِ مِن جهةٍ ثانيةٍ ؛ بلْ أصبحت الرحلةُ أداةً للتعريفِ بمستوياتٍ عديدةٍ مِن الأخبارِ والمعارفِ والمرادفاتِ والصفاتِ والصِّيَغِ التعبيريةِ والصورِ المقارنةِ ، هكذا أصبحَ الوصف موسومًا بعدوى الهجانةِ ببعدِها التعليميِّ التي سمَحَت بتوظيفِ أساليبَ عدةٍ»[2].

وتأتي هذِهِ الوظيفةُ مدعومةً بما أظهرَهُ العبوديُّ من قدرةٍ لُغويةٍ استطاع مِن خلالِها أنْ يصورَ العالمَ الواقعيَّ ويقرِّبَهُ للمتلقي وكأنَّهُ يراهُ.

ب- **الوظيفةُ التَمْثِيْلِيَّةُ أو التصويريةُ** : ويكونُ الوصفُ مِن خلالِ هذهِ الوظيفةِ بمثابةِ عينٍ يطلُّ منها المتلقي على الموصوفِ[3] ؛ إذ تقومُ هذِهِ الوظيفةُ على «مُصادرةٍ تقولُ إنَّهُ بإمكانِ الكاتبِ المطابقةَ بينَ الكلماتِ والعالمِ ، أي أنَّهُ بإمكانِهِ تمثيل العالمِ بواسطةِ اللغةِ»[4]؛ حيثُ يمكنُ رسمُ أدقِّ الأشياءِ والتفاصيلِ مِن خلالِ الاستخدامِ

---

(١) على ضفاف الأمازون ٤٨.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٩٧.

(٣) ينظر : بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة ٥٥.

(٤) الوصف في النص السردي ١٨٨.

الأمثلِ للغةِ في الوصفِ ، ونعني بالاستخدامِ الأمثلِ استعمالَ المصطلحاتِ الدقيقةِ والأساليبِ البلاغيةِ التي تُقَرِّبُ الموصوفَ إلى المتلقي ؛ «فالحقيقةُ ماثلةٌ في الأشياءِ ، واللغةُ يمكنُ أنْ تنسخَ الواقعَ ، وأنْ تجعلَ كلَّ شيءٍ ماثلًا للقارئِ في صورتِهِ ولونِهِ ورائحتِهِ وفي مجموعِ تواجدِهِ الكاملِ»(١). وتظهرُ قدرةُ العبوديِّ التصويريةُ مِن خلالِ وصفِهِ لمساقطِ مياهِ نهرِ (قواسو) وتصويرِهِ لشعورِهِ تِجاهها ، حيثُ يقولُ : «لم أستطع عندَ رؤيتِها أنْ أعبِّرَ عمَّا في نفسي مِن المشاعرِ تَجاهَ منظرِها إلَّا بالتكبيرِ : اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ! عندما وصلنا إليها كانَ هناك حشدٌ مِن سياراتِ المتنزهينَ...فأوقفنا السياراتِ ثُمَّ نزلنا مِن مصعدٍ إلى حيثُ يشاهدُ المرءُ الشلالاتِ وهي تسقطُ مِن علٍ ، فيرفعُ رأسَهُ يشاهدُ ذلك...وإذا نزلنا إلى أسفلَ اختلطت المرئياتُ بالمسموعاتِ بالمشاعرِ في سمعِكَ وبصرِكَ وذهنِكَ فأصبحتَ لا تستطيعُ أنْ تُعبِّرَ في وقتٍ واحدٍ عن روعةِ ما تحسُّ بِهِ أو تسمعُهُ أو تبصرُهُ ؛ إذ تتساقطُ المياهُ في تدافعٍ محمومٍ إلى الأسفلِ ، كأنَّما هي جماعاتٌ مِن الناسِ أصابَها الجنونُ فأَقْدَمَتْ على الانتحارِ الجماعيِّ بالسقوطِ مِن حالقٍ ، أو كأنَّما هي إنْ شئتَ أسرابًا متلاصقةً مِن الغرانيقِ البيضِ تهوي إلى الماءِ لتلتقطَ مِنه الغذاءَ ، أو إنْ شئتَ قلتَ : إنَّها الغواني البيضُ قد تعاقدنَ بالأيدي وتعانقنَ بالرؤوسِ وهُنَّ يتقافزنَ عارياتٍ للاستحمامِ إلى ماءٍ رقراقٍ تضطربُ صفحتُهُ لسقوطِهنَّ وتتناثرُ رغوتُهُ في كلِّ اتجاهٍ.

إنَّ زمجرةَ هذِهِ الشلالاتِ التي لا تكادُ تدعُ لك فرصةَ التحدُّثِ معَ أصحابِكَ ؛ لأنَّها تشغلُ كلَّ حيزٍ في سمعِكَ وتريدُ أنْ تستأثرَ بتفكيرِكَ فتزاحمَها على ذلك روعةُ مناظرِها وهي تتكسرُ على جوانبِ هذا الجبلِ الذي تسقطُ مِن فوقِهِ وتتفرقُ إلى قطعٍ مِن الغيمِ الرقيقِ الأبيضِ الذي تنعكسُ عليه أشعةُ الشمسِ الساطعةُ فتحيلُهُ إلى ذوبٍ مِن الفضَّةِ بيضٍ تسيرُ أو تطيرُ وتتركُ بصرَكَ وهو حائرٌ حسيرٌ. وإذا رأيتَ الشلالاتِ يتطايرُ رذاذُها مجتمعًا قلت إنَّهُ الدخانُ أو البخارُ

---

(١) بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة ٥٥.

الذي تثيرُهُ النارُ غيرَ أنَّك تفهمُ بعدَ تَفَهُّمٍ وتأمُّلٍ أنَّ الماءَ على وجهِ الأرضِ وليسَ فيه نارٌ ولا يكونُ لَهُ بخارٌ حارٌّ فتعجبُ مِن فعلِ النارِ في هذا الماءِ المدرارِ ، وتتيقنُ قولَ التُّهاميِّ :

ومكلفُ الأيامِ دونَ طباعِها   متطلبٌ في الماءِ جذوةَ نارِ

فإذا نَفيتَ عنها صفةَ النارِ وأنتَ مستطيعٌ ذلك بسهولةٍ فإنَّ صوتَ وقوعِها في الهاويةِ تحتَكَ -لأنَّهم قد أقاموا جسورًا مِن الحديدِ فوقَ الهاويةِ- يُذَكِّرُكَ بإطلاقِ النارِ مِن مجموعةٍ مِن المدافعِ التي تتدافعُ في انطلاقِها ، فلا تدري أتسكتُ تتأملُ أم تتكلمُ لتلفتَ أنظارَ رفاقِكَ إلى هذِهِ المشاهدِ الفريدةِ الرائعةِ معَ أنَّهم مثلُك يشاهدونَها وربَّما يكونون مثلَكَ قد بهرَهَم منظرُها عندما شاهدوها أوَّلَ مرَّةٍ»[١].

فلو تأملنا هذا المقطعَ الوصفيَّ لوجدنا أنَّهُ وصفٌ متكاملٌ أخذَ العبوديُّ فيه المتلقيَ إلى تلك المساقطِ العظيمةِ وأوقفَهُ عليها ، بلْ إنَّهُ وجَّهَ الخطابَ إلى المتلقي مباشرةً وأصبحَ يحاورُهُ ويحاولُ أنْ يُقرِّبَ إليه الصورةَ بأدقِ تفاصيلِها مِن وصفٍ لتدافعِ الماءِ وتطايرِ الرذاذِ ، ولم يكتف بذلكَ بلْ وصفَ تأثيرَ مرأى ذلك المشهدِ على نفسِهِ ومَن مَعَهُ.

لقد استطاعَ العبوديُّ هنا أنْ يوظِّفَ اللغةَ بمصطلحاتِها (حالق ، أسراب ، رقراق ، وغيرها) وبلاغتِها (تشبيه = كأنَّما هي جماعاتٌ مِن الناسِ. كأنَّما هي إنْ شئتَ أسرابٌ متلاصقةٌ مِن الغرانيقِ البيضِ تهوي إلى الماءِ لتلتقطَ منه الغذاءَ. إنَّها الغواني البيض) وفنونِها (شعر : ومكلفُ الأيامِ...).

وإذا سلَّمنا بأنَّ «كلَّ وصفٍ وظيفتُهُ التمثيلُ»[٢] ، فإنَّ ذلك لا ينافي تفاضلَ الأوصافِ في دقَّتِها وقدرتِها على تأديةِ هذِهِ الوظيفةِ ببراعةٍ.

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٥٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٥٧.

(٢) الوصف في النص السردي ١٩٠.

ويمكنُ للمقطعِ الوصفيِّ الواحدِ أنْ يجمعَ بينَ أكثرَ مِن وظيفةٍ ؛ ولو نظرنا في أوصافِ هذه المدونةِ لوجدنا أنَّ هناك مِن المقاطعِ الوصفيةِ ما يكونُ -إضافةً إلى الوظائفِ الأخرى- خادمًا للسَّردِ معينًا على تسلسلِهِ.

د- **الوظيفةُ السرديةُ** : يقومُ بهذِهِ الوظيفةِ كلُّ وصفٍ لَهُ علاقةٌ بسيرِ الأحداثِ ونموِّها(١) ، وتتجلى هذِهِ الوظيفةُ حينما تُسْتَهَلُّ أحداثُ الحكايةِ أو الفصلِ أو اليومِ أو الفقرةِ بالوصفِ ، فمِن شأنِ ذلك أنْ يمهدَ للأحداثِ بعدَهُ ويشوقَ لقراءتها جالبًا انتباهَ المتلقي قبلَ ذلكَ كلِّهِ(٢) ، فلو نظرنا مثلًا إلى رحلةِ العبوديِّ (على ضفاف الأمازون) لوجدنا أنَّ العبوديَّ قد استهلَّها بقولِهِ : «مدينةُ (ماناوس) مِن المدنِ المهمةِ في البرازيلِ وربَّما يكفي في الدلالةِ على أهميتِها أنَّها عاصمةُ منطقةِ الأمازونِ بما يعنيه نهرُ الأمازونِ العظيمُ مِن ضخامةٍ ووفرةٍ في المياهِ عرفَهُ بها أكثرُ الناسِ حتى تلاميذُ المدارسِ ، وبما تدلُّ عليه كلمةُ الأمازونِ مِن غاباتٍ هائلةِ المساحةِ مظلمةِ الأرجاءِ حافلةٍ بالمياهِ وبالأشجارِ»(٣).

فهذا المقطعُ الوصفيُّ يؤطِرُ المكانَ المرتحلِ إليه بطبيعتِهِ ومعالمِهِ البارزةِ ، ويتولَّدُ مِن هذا الوصفِ أيضًا مجموعةٌ مِن الأسئلةِ (لماذا قرنها بالأمازون؟ لماذا أطنب عند ذكر الأمازون؟ لماذا وصف الغابات الأمازونية بهذا الوصف؟) ، ومِن شأنِ تلك الأسئلةِ أنْ تطرحَ أمامَ المتلقي مجموعةً مِن الإجاباتِ المتوقعةِ والمنتظرةِ ، ونجدُ أنَّ المتلقيَ من خلالِ

---

(١) الوصف في النص السردي ١٩٠.

(٢) ينظر : بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة ١٢٠ ، والوصف في الرواية العربية الحديثة ٣٨٧.

(٣) على ضفاف الأمازون ٩. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٨.

هذه الأوصافِ ينخرطُ مباشرةً في جوِّ الحكايةِ ويحاولُ أنْ يستشرفَ الآتي من أحداثِها واضعًا الاحتمالاتِ الممكنة لتتمةِ الحكي ، كما يمكنُ عدُّ ذلك استباقًا يعلنُ إعلانًا غيرَ مباشرٍ عمَّا سيجري عرضُهُ(١).

وتتجلى وظيفةُ الوصفِ السرديةُ في هذه المدونةِ مِن خلالِ «الوصفِ الاستذكاريِّ الذي يرتدُّ»(٢) واصفًا أشياءَ سابقةً للنقطةِ التي وصلَ إليها السردُ ، يقولُ العبوديُّ : «وذكرتُ بهذِهِ المناسبةِ مدينةَ (ماناوس) عاصمةَ الأمازونِ أكثرَ بلادِ العالمِ خصبًا وأوسعَها غاباتٍ ويشقُّها نهرُ الأمازونِ أكبرُ أنهارِ العالمِ ، وكيفَ أنَّها كانت ولا تزالُ تستوردُ الخضرواتِ كالطماطمِ»(٣).

ومِن الوصفِ الاستذكاريِّ قولُهُ : «خلافَ ما كنتُ شاهدتُهُ في مثلِ هذِهِ الأريافِ في الصينِ الشعبيةِ حيثُ يزدحمُ الناسُ على الأرضِ الزراعيةِ فتتقاربُ البيوتُ حتى في الريفِ بلْ وتكادُ القرى يتصلُ بعضُها ببعضٍ»(٤).

وللوصفِ دورُهُ السرديُّ المهمُّ من حيثُ طردُ السأمِ والمللِ عن المتلقي بالمراوحةِ بينَهُ وبينَ السردِ ، كما يُعدُّ الوصفُ «خلفيةً لتفعيلِ السَّردِ ، فالسفرُ يقودُ إلى المشاهدةِ ثُمَّ إلى الوصفِ وبعدَ ذلك التعليقُ أو التحوُّلُ إلى السرودِ بحثًا عن مشاهداتٍ أخرى

---

(١) ينظر : بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة ٥٦.

(٢) نفسه ١٣٢.

(٣) في غرب البرازيل ٢٨.

(٤) السابق ١٤.

أو استرجاعاتٍ وصفيةٍ»[1]. وإذا كنَّا قد وقفنا على الوظائفِ الحكائيةِ فإنَّهُ يجدرُ بنا الوقوفُ على بعضِ الوظائفِ الدلاليةِ.

ثانيًا : الوظائفُ الدلاليةُ :

أ- **الوظيفةُ الرمزيَّةُ** : قد يكونُ الوصفُ في هذه المدونةِ «قابلًا لقراءتين وحاملًا لمعانٍ ظاهرةٍ وأخرى بعيدةٍ خافيةٍ»[2] ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ عن نزلاءِ أحدِ الفنادقِ أنَّهم : «مِن المترفينَ والأثرياءِ الذين أكثرُهم مِن البيضِ وبعضُهم مِن المتغيرينَ قليلًا»[3] ، فلهذا الوصفِ معنًى ظاهرٌ مباشرٌ بقصدٍ ومعنًى آخرُ غيرُ مباشرٍ وهو الإشارةُ إلى رقيِّ هذا الفندقِ وفخامتِهِ ، بحيثُ أنَّهُ لا يَحُلُّ فيه إلا الطبقة العليا مِن المترفين الأثرياءِ ولا مكانَ للسودِ الخُلَّصِ في هذا الفندقِ ، وهُم المعروفون بالبساطةِ لقلَّةِ ذاتِ اليدِ ، وما كانَ لهذِهِ الفئةِ مِن النزلاءِ أنْ تنزلَ في هذا الفندقِ لولا فخامتُهُ وجدارتُهُ.

وعندما يقولُ العبوديُّ عن غرفةِ أحدِ الفنادقِ : «وجدتُ أنَّها خاليةٌ مِن الفراشِ وإنَّما هي بلاطٌ أقرعُ...وفي الغرفةِ ثلاجةٌ مليئةٌ بالأشربةِ وجهازُ تلفازٍ ملوَّنٌ وسريرانِ وهُما مثلُ سائرِ الأثاثِ ليسا فاخرين»[4] ، فإنَّهُ يرمزُ بذلك إلى تدني مستوى هذا الفندقِ حتى أنَّهُ ينقصُهُ بعضُ الأثاثِ مثلُ الفراش.

---

(١) الرحلة في الأدب العربي ، حلفي ١٩١.

(٢) الوصف في النص السردي ١٩٧.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ١٢١.

(٤) السابق ٥٣.

وحينَ يصفُ أحدَ الطرقِ بقولِهِ : «الطريقُ إليه طينيٌّ غيرُ مسفلتٍ ، ومعَ ذلك حالتُهُ رديئةٌ وجوانبُهُ تكادُ تنهارُ والطينُ نفسُهُ قد تشقَّقَ بفعلِ المطرِ وعدمِ العنايةِ ، حتى أصبحَ بالمكانِ النَّائي في الخلاءِ أشبَهَ مِنه في جانبِ مدينةٍ يُفترضُ أنْ تكونَ عصريةً»(١) ، فإنَّه لا يقدِّمُ معرفةً مباشرةً فقط ، بلْ يرمزُ أيضًا إلى ضعفِ الخدماتِ البلديةِ في هذِهِ المنطقةِ وربَّما نقصِ المواردِ الاقتصاديةِ.

ب- **الوظيفةُ التعبيريةُ** : يقومُ الوصفُ على «الاختيارِ ، اختيارِ الموصوفِ والمنظورِ والمعجمِ ، وهذا الاختيارُ بصمةٌ مِن بَصَمَاتِ الذاتِ الواصفةِ وأثرٌ مِن آثارِها ، ويؤدي المعجمُ دورًا أساسيًّا في التعرفِ إلى عواطفِ الذاتِ الواصفةِ وأحاسيسِها مِن فرحٍ وحزنٍ وإعجابٍ واستنكارٍ وغيرِها»(٢) ، وبذلك فإنَّ الوصفَ يكونُ «مبيِّنًا لشكلِ الموصوفِ ولمكانتِهِ في النفسِ فيرتمي الموضوعيُّ في أحضانِ الذاتيِّ»(٣) ، وتُعدُّ الرحلةُ مِن أكثرِ الأجناسِ الأدبيةِ ذاتيةً وذلك للحضورِ القويِّ لذاتِ الرحالةِ في الوصفِ ؛ «لأنَّ الموصوفاتِ لا تُرى في الغالبِ إلا بمنظورِها ولا تُرسم إلا مِن خلال أحاسيسِها»(٤)؛ إذ يمكنُ أن نلتمسَ من خلالِ صورِ تَمَثُّلِ الرحالةِ للفضاءِ «إيقاعَ استرخائِهِ أو توتُّرِهِ النفسيِّ ، فالرحالةُ وهو يصفُ المكانَ ويتأمَّلُهُ لا بدَّ أنْ يبصمَ على شكلِ تمظهرِهِ شيئًا مِن مشاعرِهِ وحالتِهِ النفسيةِ حيثُ لا يستبعدُ أنْ يُفعمَ شكلُ المكانِ -كما هو متخيلٌ في النصِ الرحليِّ- بالحمولةِ

(١) على ضفاف الأمازون ٢٧.

(٢) الوصف في النص السردي ٢٠٠.

(٣) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٧١.

(٤) معجم السرديات ٣٤١.

السيكولوجيةِ لذاتِ الرحَّالةِ الذي يتأثرُ وهو يرتحلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ ويحسُّ ويشعرُ ويحكي ويتأملُ ويصفُ»(١).

ولنستبينَ ذلكَ في هذه المدونةِ فإننا سنستعينُ بالمثالِ الآتي في وصفِ أحدِ المناظرِ المبهرةِ ، حيثُ يقولُ العبوديُّ : «بعدَ أنْ لبثنا هنيهةً عندَ الشلالِ الأقربِ (من شلالاتِ بلعومِ الشيطانِ) الواقعِ في الأرضِ البرازيليةِ سِرنا منهُ معَ جسرٍ معلقٍ على هيئةِ ممرٍ ضيقٍ لمشاهدةِ الجزءِ الثاني مِن الشلالِ الذي هو واقعٌ فوقَ أرضٍ أرجنتينيةٍ ، ولكنَّ هذا الجسرَ يوغلُ في شقِّ الجبلِ الخطرِ الذي مِن أجلِهِ سُمِّيَ المكانُ بلعومَ الشيطانِ ، ولكنَّ المرءَ لا يستطيعُ أنْ يتفادى الرذاذَ المتطفلَ القادِمَ مِن الشلالاتِ -وإن كانت على مسافاتٍ بعيدةٍ- لأنَّ الريحَ كانت تهبُّ نشطةً فكانَ يصافحُ الوجوهَ ويقبِّلُ الشفاهَ ويتسلَّلُ بينَ الزوارِ على هيئةِ رذاذٍ خفيفِ الظلِّ كثيفِ الطلِّ ، وهذا أمرٌ قد يكونُ مقبولًا لمن لا يلبسُ نظَّارةً يحيلُ هذا الرذاذُ المرئياتِ مِن خلالِها إلى عالمٍ متراقصٍ مِن الخيالاتِ المجنَّحَةِ الغريبةِ فلا يبقى أمامَكَ كي تستجلي المنظرَ إلَّا أنْ تخلعَ نظارتيك وقد خالفتا طبيعتَهما في إيضاحِ المرئياتِ ، وعندئذٍ تملأُ عينيكَ مِن متعةٍ روحيةٍ لا تطمعُ في مثلِها في الخيالِ»(٢).

فالعبوديُّ يصفُ في هذا المقطعِ فضاءَ الجسرِ الموصلِ إلى أقربِ منطقةٍ مِن مساقطِ مياهِ الشلَّالِ فنلحظُ الوصفَ الدقيقَ لمشاعرِه إثرَ التفاعلِ الإيجابيِّ معَ المنظرِ ، وقد أسهمَ في ذلك معجمُ ألفاظِه ؛ فقد استطاعَ من خلالِه أن يجسِّدَ المنظرَ ببراعةٍ (يوغل في شق الجبل الخطر ، الرذاذ المتطفل ، تهب نشطة ، يصافح الوجوه ، يقبل الشفاه ، يتسلل بين الزوار ، رذاذ

(١) شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ، نموذج القلصادي ١٥١.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٥٦.

خفيف الظل ، كثيف الطل ، عالم متراقص ، خيالات المجنحة الغريبة ، متعة روحية) ؛ ونجدُ هنا أنَّ القيمةَ الإخباريَّةَ والمعرفيَّةَ للمقطعِ ضعيفةٌ ؛ لأنَّ الواصفَ لا يصفُ مشهدًا بقدرِ ما يخبرُ عمَّا تركَ هذا المشهدُ في نفسِهِ من شعورٍ.

وقد ندرُكُ مِن خلالِ المعجمِ المستخدمِ في الوصفِ وقوفَ الساردِ معَ الموصوفِ أو ضدِّهِ.

ج- **الوظيفةُ الإيديولوجيةُ أو القيميَّةُ** : لا يختلفُ الدارسون حولَ تجذُّرِ النصوصِ في الإيديولوجيا ؛ فلا تخلو النصوصُ أيًا كانتْ مِن هدفٍ قِيَمِيٍّ ، ويمكنُ أن يكونَ الوصفُ أحدَ الطرقِ الموصلةِ إلى هذه القيمِ ، وقد يكونُ الوصفُ غيرَ مشحونٍ بالألفاظِ القيميِّةِ ولكنَّهُ معَ ذلك يؤدي وظيفةً إيديولوجيةً[١]؛ لأنَّنا حينَ «نسعى -بوصفِنا قراءً لنصٍّ رحليٍّ- إلى لملمةِ كلِّ المكانِ المرتحلِ فيهِ ومنهُ وإليهِ وعبرَهُ ونسجِ صورتِهِ المترسِّخَةِ في مسرودِ السفرِ فإنَّنا لا نستطيعُ إدراكَها إلا مِن خلالِ بصرِ الراوي/ الرحالةِ وبصيرتِهِ المنعكستينِ عبرَ اللغةِ ، وهي تمامًا رؤيةٌ غيرُ محايدةٍ ولا يمكنُها أنْ تكونَ بريئةً لخضوعِها لمسارِ التذويتِ ، أي أنَّ المكانَ المعكوسَ نصيًّا ينتقلُ إلينا عبرَ وسيطٍ لهُ ثقافتُهُ وتحيزاتُهُ الإيديولوجيةُ مِن خلالِ اللغةِ التي تظلُّ في جميعِ الأحوالِ مرآةً نسبيةً مخاتلةً مخادعةً ، ومهما يكُنْ مِن أمرٍ فإنَّ رصدَ الرحالةِ لصورِ الأمكنةِ عبرَ نصِّهِ الرحليِّ بهذِهِ الطريقةِ أو تلك ، يُفضي بنا إلى تمثُّلِ طبيعةِ تفكيرِهِ في الفضاءاتِ التي يعبرُها»[٢]؛ فحينَ يكونُ المقطعُ مكسوًّا بألفاظِ الاستحسانِ يتبينُ لنا

---

(١) ينظر : الوصف في النص السردي ٢٠١.

(٢) شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ١٥٠.

موقفُ الساردِ المتقبلِ والمؤيدِ لهذهِ الصفةِ الإيجابيةِ ، كما أنَّ استخدامَ الساردِ «لفظًا مستهجنًا يوجِّهُ التأويلَ وجهةً سلبيةً ويكشِفُ موقفَ الواصفِ والمعاييرَ التي يستندُ إليها في النظرِ إلى الموصوفِ»(١). وقد يكونُ الرفضُ لبعضِ القيمِ ناشئًا عن كونِ الرحالةِ «يحملُ مَعَهُ سلطةً مكانيةً أخرى ، قد تخالفُ سلطةَ المكانِ المستضيفِ ، ومِن الطبعيِّ أنْ يحصلَ التصادي والمواجهةُ ؛ لأنَّ المسألةَ تتعلقُ بهويةٍ حضاريةٍ وثقافيةٍ تأبى أنْ تتنازلَ لغيرِها ، وترفضُ أنْ تهادنَ أو تضمحلَّ ، فهي راسخةٌ في شخصيةِ الرحالةِ متعلقةٌ بدمائِهِ ووجودُها يشكِّلُ وجودَهُ»(٢).

ومِن أوصافِ هذه المدونةِ المحشوةِ بألفاظِ الرفضِ قولُ العبوديِّ : «ومِن المناظرِ الموجودةِ في المقهى منظرُ رجلٍ عليهِ (تبانٌ) وهو السروالُ القصيرُ الذي يلبسُهُ الرجالُ للسباحةِ في الماءِ ومعهُ امرأتُهُ ، ولا يبالون هنا أنْ تكونَ زوجتَهُ أو صاحبتَهُ أو قريبتَهُ فليسَ لديهم مِن الدينِ أو مِن الوقتِ أو حتى مِن الفضولِ ما يجعلُهم يبالونَ بذلكَ فضلًا عن أنْ يسألوا عنهُ حتى يعرفوهُ ، وهي مثلُه تلبسُ لباسَ الاستحمامِ ومعَ الرجلِ طبلٌ ينقرُ عليه ومعَ المرأةِ آلةٌ موسيقيةٌ وطنيةٌ محليةٌ وهما يعزفانِ موسيقًى هنديةً أمريكيةً يسمونَها محليةً ، وهما أيضًا في لونِ أخشابِ المقهى التي مِنها الطاولاتُ والكراسي وباقي الأثاثِ العاري مِن كلِّ شيءٍ ليِّنٍ كالجلدِ أو القماشِ ، وقد أخذا يعزفانِ ولمْ أرهما يسألان ، ولا أدري لم يفعلانِ ذلك إلا إذا كانا يستمتعانِ بِهِ مِن دونِ أنْ يتطلعا إلى أثرِ ذلك في وجوهِ الناسِ وكلماتِهم ، واستمرَّا فترةً طلبا فيها مِن المقهى ما يشربان كما فعلَ سائرُ الناسِ»(٣) ، يظهرُ لنا مِن خلالِ قراءةِ

---

(١) الوصف في النص السردي ٢٠٤.

(٢) شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ٢١٣.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ٨٤.

المقطعِ أنَّ العبوديَّ يقفُ موقفَ الرافضِ لمجوعةٍ مِن الأخلاقياتِ (الارتباط غير الشرعي ، اللامبالاة وعدم مراعاة الآخرين ، التعري والسفور ، الفراغ وإهدار الوقت) ، وقد قُبِّحت صورةُ الشخصينِ الموصوفينِ لقُبحِ فعلِهما حتى إنَّ العبوديَّ جعلهما في مصافِّ أثاثِ المقهى (وهما أيضًا في لونِ أخشابِ المقهى التي منها الطاولاتُ والكراسي وباقي الأثاث) ، وبذلك استطاعَ العبوديُّ إيصالَ رسالتِهِ إلى المتلقي في قالبٍ وصفيٍّ أدبيٍّ كفلَ لَهُ التأثيرَ في أخلاقياتِ المتلقي.

ويُنصفُ العبوديُّ أهلَ البرازيلِ ممتدحًا ما يتميزون به مِن أخلاقياتٍ فيقولُ : «الركابُ كما عهدنا أهلَ البرازيلِ ذوو طبيعةٍ سمحةٍ ومحبةٍ لإفادةِ الآخرين لولا حاجزُ اللغةِ»(١).

وإلى كلِّ ما مضى مِن وظائفَ فإنَّهُ يمكنُ للوصفِ أنْ يؤديَ وظيفةً جماليةً تُوَشِّي السردَ بمجموعةٍ من التراكيبِ والأساليبِ.

د- **الوظيفةُ الجماليةُ أو التزيينيةُ أو الزخرفيةُ** : ولا يعني ذلك اقتصارُ الوصفِ على هذِهِ القيمةِ الشكليةِ فقط ؛ لأنَّ الوصفَ الرحليَّ «محكومٌ بقانونِ الإفادةِ أو تقديمِ المعرفةِ ، وهكذا يصبحُ الترصيعُ تجميلًا للرحلةِ في حدودِ الإفادةِ»(٢) ، على أنَّهُ يندرُ في هذه المدونةِ وجودُ هذا النوعِ مِن الوصفِ ، ومِن المقاطعِ الوصفيةِ الجماليةِ ، قولُ العبوديِّ عن شلالاتِ بلعومِ الشيطانِ :

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ١١٥. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٧٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٨١ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٨ ، وفي شرق البرازيل ١١٥.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٩٩.

«بعدَ أنْ لبثنا هنيهةً عندَ الشلالِ الأقربِ الواقعِ في الأرضِ البرازيليةِ ، سِرْنا منه معَ جسرٍ مُعَلَّقٍ على هيئةِ ممرٍّ ضيقٍ لمشاهدةِ الجزءِ الثاني مِن الشلالِ الذي هو واقعٌ فوقَ أرضٍ أرجنتينيةٍ ، ولكنَّ هذا الجسرَ يوغلُ في شقِّ الجبلِ الخطرِ الذي مِن أجلِهِ سُميَ المكانُ بلعومَ الشيطانِ ، ولكنَّ المرءَ لا يستطيعُ أنْ يتفادى الرذاذَ المتطفلَ القادمَ مِن الشلالاتِ –وإنْ كانت على مسافاتٍ بعيدةٍ– لأنَّ الريحَ كانت تهبُّ نشطةً فكان يصافحُ الوجوهَ ويقبِّلُ الشفاهَ ويتسلَّلُ بينَ الزوارِ على هيئةِ رذاذٍ خفيفِ الظلِّ كثيفِ الطلِّ ، وهذا أمرٌ قد يكونُ مقبولًا لمن لا يلبسُ نظَّارةً يحيلُ هذا الرذاذُ المرئياتِ مِن خلالِها إلى عالمٍ متراقصٍ مِن الخيالاتِ المجنِّحةِ الغريبةِ فلا يبقى أمامكَ كي تستجليَ المنظرَ إلا أنْ تخلعَ نظارتيك وقد خالفتا طبيعتَهما في إيضاحِ المرئياتِ ، وعندئذٍ تملأُ عينيك مِن متعةٍ روحيةٍ لا تطمعُ في مثلِها في الخيالِ.

وإذا تركتَ الخيالَ جانبًا –وأنتَ لا تستطيعُ أنْ تتركَهُ إلا إلى حينٍ– فإنَّك تجدُ بجانبِكَ وجوهًا صبيحةً قد استغرقَها هذا المنظرُ الفريدُ فصارت في منظرٍ عجيبٍ مِنه ؛ قد فغرتْ مِنها الأفواهُ ، واتسعتْ العيونُ ، ولمعت الخدودُ مِن هذا الطلِّ الودودِ ، وهي قبلَ ذلك قدْ أخذَت زينتَها ، وارتدَتْ مِن الحُلَلِ ما اقتربَ مِن أنْ يكونَ لا حليةَ لصغرِهِ أو قصرِهِ أو لشفافيةِ منظرِهِ.

وقد تجدُ وجهًا شاردًا في الخيالِ ، يوجِّهُ إليكَ نظراتٍ تتبعُها كلماتٌ ؛ لأنَّ روعةَ المنظرِ قد أطلقت لسانَهُ ولوَّنَت خيالَهُ فظنَّ أنَّك صديقُهُ أو رفيقُهُ ، أو ربَّما لم يكنْ كذلك وإنَّما اعتقدَ أنَّ الصحبةَ في استجلاءِ هذِهِ المناظرِ الرائعةِ هي كصحبةِ الكأسِ التي ذَكرَ الندماءُ القدماءُ أنَّها يجبُ أنْ تُرعى ، حتى إذا أطلَقَ خيالَهُ مِن عقالِهِ عَرَفَ أنَّ هذِهِ اللجةَ مِن الرذاذِ الذي يشبِهُ الضبابَ ، وذلك المنظرُ الذي لا يخضعُ مخبرُهُ إلى أنْ يقدروهُ حقَّ قدرِهِ ، أو أنْ يذكرَ حقَّ ذكرِهِ ، فإنَّهُ يعرِفُ أنَّهُ قد أخطأَ في النظرِ ، ولم يصبْ في الخبرِ ، فعادَ لسانُ حالِهِ أو مقالِهِ أو ربَّما ابتساماتٌ خفيفةٌ خفةَ هذا الرذاذِ يستميحكُ بها عذرًا عن ذنبٍ لم يجنِهِ ، وخطأٍ ربَّما اعتبرتَهُ أنتَ صوابًا إذا كنتَ قد أطلتَ عن بلدكَ غيابًا ولم تتخذْ لك عوضًا عن أهلِهِ أصحابًا»(١).

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٥٦.

إنَّ القارئَ لهذا الوصفِ يلاحظُ شيئًا من التوازي التركيبيِّ على المستوى النحويِّ : (خفيف الظل كثيف الطل) (واتسعت العيون ولمعت الخدود) (أطلقت لسانه ولونت خياله) (يقدروه حق قدره أو أن يذكر حق ذكره) (أخطأ في النظر ولم يصب في الخبر).

ويلاحظُ في المستوى البلاغيِّ تعددَ الأساليبِ الـمُعبِّرةِ عن احتفاءِ الواصفِ بهذا المنظرِ ، فقد وظَّفَ علومَ البلاغةِ الثلاثةِ ؛ فأحسنَ استثمارَ الخبر (هو واقع...يوغل...) ، واستثمرَ علمَ البيانِ من خلالِ استعانتِهِ بالاستعارةِ (الطل الودود) والتشبيهِ (اعتقد أن الصحبة في استجلاء هذه المناظر الرائعة هي كصحبة الكأس التي ذكر الندماء القدماء أنها يجب أن ترعى) و (الرذاذ الذي يشبه الضباب) ، أمَّا علمُ البديعِ فقد أخذَ ببعضِهِ حينَ جاءَ بشيءٍ مِن الطباقِ (خفيف/ كثيف) والمحسناتِ اللفظيةِ من جناسٍ (الظل / الطل) (الخدود / الودود) والسجعِ الذي قد يكونُ متساوي الفِقَرِ (خفيف الظل كثيف الطل) (أطلقت لسانه ولونت خياله) (أن يقدروه حق قدره أو أن يذكر حق ذكره) أو غيرَ متساوي الفقرِ (اعتبرته أنت صوابا...غيابا...أصحابا).

وتعبِّرُ مجموعةُ الأساليبِ المستخدمةِ في هذا المقطعِ عن خَلْقِ مرجعٍ جديدٍ ، مِن خلالِ القُدراتِ اللغويةِ ، مختلفٍ عن المرجعِ خارجَ النصِّ (المنظرِ الجميلِ) ، ومِن شأنِ ذلك أنْ ينشأَ عنهُ نصٌ جميلٌ[1].

هـ- **الوظيفةُ التَّوثيقيةُ** : يؤدي الوصفُ في الرحلةِ دورًا مهمًّا من حيثُ تخزين الأشياءِ الموصوفةِ ؛ إذْ يصبحُ هدفُ الوصفِ توثيقَ الموصوفاتِ كما هي والاحتفاظَ

---

(١) ينظر : الوصف في النص السردي ٢٠٧.

بِها كمشاهدَ ستصبحُ أثرًا بعدَ حينٍ[1] ، وكم حفِظَتْ لنا الرحلاتُ مِن معارفَ وأخبارٍ وعاداتٍ وحالاتٍ ما كانَ لها أنْ تخلدَ لولا وصفُها في أحدِ نصوصِ الرحلةِ ، ولنأخذْ مثالًا على ذلك وصفَ العبوديِّ لمثلثِ الحدودِ الفاصلِ بينَ البرازيلِ والأرغواي والأرجنتين إذ يقولُ : «وهو مثلثٌ آمنٌ لا خطورةَ فيهِ ، بلْ هو جميلٌ يستحقُّ أنْ يزارَ لجمالِهِ قبلَ أنْ يزارَ لاستجلاءِ حالِهِ فهو يقعُ عندَ التقاءِ نهرين كبيرين مِن أنهارِ المنطقةِ هما نهرُ (بارانا) العظيمُ أسفلَ مِن السدِّ ونهرُ (قواسو) الذي ينبعُ مِن أرضِ البرازيلِ وكلاهما نهرٌ كبيرٌ فيمتزجُ النهران أو قُل يفنى الأصغرُ ، منهما وهو (قواسو) ، بالأكبرِ وهو (بارانا) ، يفنى كما يفنى الحبيبُ في حبيبِهِ ، وكلا النهرين يَجري في وادٍ عميقٍ بلْ سحيقٍ وتُطِلُّ عليهما مِن تلالٍ عاليةٍ تَرى منهما أنصابًا ثلاثةً منصوبةً على الأرضِ قد طُليَت بأعلامِ الدولِ الثلاثِ المتجاورةِ ، فالنُّصُبُ الذي يمثلُ دولةَ البرازيلِ مقامٌ في أرضِها الحدوديةِ على الضفَّةِ الجنوبيةِ لنهرِ (قواسو) ، ويقابلُهُ على الضفةِ الشماليةِ نُصُبُ الأرجنتينِ منتصبًا في أرضِ الأرجنتينِ ، وإنْ شئتَ التجاوزَ قلتَ : إنَّها أعلامٌ لتلكَ الدولِ من الحجارةِ ، وفي الضفةِ الغربيةِ مِن نهرِ (بارانا) ينتصبُ شاهدُ الحدودِ في أرضِ (بارغواي) قد طُلِيَ بالألوانِ التي تمثلُ علمَ (بارغواي)»[2].

فيمكنُ لهذا الوصفِ أنْ يبقى وثيقةً تاريخيةً توثِّقُ حالةَ الحدودِ بينَ هذِهِ الدولِ ، كما توثِّقُ حالةَ السلامِ والوئامِ بينَ الدولِ الثلاثِ زمَنَ الوصفِ.

---

(١) ينظر : الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٩٤ ، وفن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٢١٧.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٨٢.

ومِن ذلك قولُ العبوديِّ التالي عن البحيرةِ الصناعيةِ : «وعندما نهضت الطائرةُ تجلَّت رؤيةُ البحيرةِ الاصطناعيةِ التي تقومُ في المنظرِ في العاصمةِ برازيليا مقامَ النهرِ أو البحيرةِ الطبيعيةِ ، ومعنى وصفِها بالصناعيةِ أنَّها لم تكن موجودةً بهذا الشكلِ مِن قبل...وبدَتْ هذِهِ البحيرةُ كأنَّها الخورُ الصغيرُ مِن النهرِ تتوسطُ العاصمةَ وتخترقُ جزءًا هامًّا مِن طُرقِها إنْ لم نقلْ أنَّ العاصمةَ هي التي تلتفُّ حولَها أو تحيطُ بجزءٍ مِنها»(١)؛ فربَّما يُنسى خبرُ هذِهِ البحيرةِ مع تقادمِ الأيامِ ولكنْ سيبقى هذا الوصفُ محتفظًا بأصلِ تكوينِها وموقِعِها مِن العاصمةِ برازيليا (Brasília).

ولو نظرنا في الكثيرِ مِن أوصافِ هذه المدونةِ لوجدنا أنَّها يمكنُ أنْ تشكلَ وثائقَ تاريخيةً تُوَثِّقُ الأماكنَ والبناياتِ والحالةَ السياسيةَ أو الاقتصاديةَ أو الاجتماعيةَ زمنَ كتابةِ الرحلةِ.

ويتضحُ لنا مما سبقَ لزومُ الوصفِ أداءَ وظيفةٍ أو أكثرَ(٢)؛ ولو نظرنا إلى مجموعِ المقاطعِ في هذه المدونةِ لوجدنا أنَّها لا تخلو مِن الوظيفةِ الإخباريةِ التعليميةِ ، فهذِهِ الوظيفةُ لا تُمانعُ مِن اجتماعِها معَ أيِّ وظيفةٍ أخرى.

وما دُمنا في مبحثِ الوصفِ فإنَّهُ يمكنُ ربطُ الوصفِ بفنٍّ آخرَ قريبٍ منه وهو الرسمُ ؛ فقد ربطَ النقادُ كثيرًا بينَ الرسمِ والأدبِ مِن حيثُ أنَّ الأدبَ لونٌ مِن التصوُّرِ ، ولا ريبَ أنَّ هذِهِ العلاقةَ أكثرُ لصوقًا بالوصفِ على وجهِ الخصوصِ ؛ حيثُ إنَّ مهمةَ الواصفِ تكمنُ في رسمِ الواقعِ من خلالِ الكلماتِ ، وإذ يمكنُنا الربطُ بينَ الوصفِ والرسمِ فإنَّهُ يمكنُنا أيضًا

---

(١) على ضفاف الأمازون ١٠.

(٢) ينظر : الوصف في النص السردي ٢١٣.

ربطُ الوصفِ بفنٍّ بصريٍّ آخرَ قريبٍ مِن فنِّ الرسمِ ، بلْ إنَّ البعضَ عدَّهُ بديلًا لفنِّ الرسمِ[1] ألا وهو فنُّ التصويرِ الضوئيِّ/ الفوتوغرافيِّ ، ونعني بِه الصورَ الملتقطةَ بواسطةِ آلاتِ التصويرِ المعروفةِ[2]؛ فمِن شأنِ هذا النوعِ مِن التصويرِ تقريبُ الواقعِ المحكيِّ إلى ذهنِ المتلقي ، وحملُ فكرةٍ معينةٍ ، «ولا يمكنُ إنكارُ علاقةِ الفنونِ وارتباطِها وتكاملِها والتفاعلِ الذي يقومُ بينَها مما يصبحُ عمليةَ تلقيحٍ وإخصابٍ بينَ الفنونِ»[3].

(١) ينظر : بناء الرواية ١١١ ، والتصوير والحياة ٨٦ ، وبلاغة النص المرئي والمكتوب (القصيدة والصورة الفوتوغرافية) ، مجلة كتابات ، الجمعية المصرية للدراسات السردية ، أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ، ع٢ ، ص٧٧.

(٢) ينظر : عصر الصورة ٢٣.

(٣) بناء الرواية ١١٠.

التصويرُ الفوتوغرافيُّ

يواجهُنا في هذه المدونةِ نوعانِ مِن الصورِ ؛ الأولُ قائمٌ على الملفوظِ ويمكنُ اختزالُهُ في الصورِ الوصفيَّةِ ، أمَّا النوعُ الثاني فإنَّهُ قائمٌ على ما أُدرِجَ في الرحلاتِ مِن صورٍ ضوئيةٍ (فوتوغرافية)(١)، وحيثُ إنَّ النصَّ الرحليَّ نصٌّ أدبيٌّ يهدفُ إلى تقديمِ عالمٍ ما يُفترضُ أنَّهُ مجهولٌ لدى المتلقي فإنَّ ذلك يتطلبُ الاستعانةَ بالصورِ الضوئيةِ(٢) التي مِن شأنِها أن تساعدَ في تقريبِ وتحديدِ الواقع للمتلقي ، مما يُدخلُ المتنَ الكلاميَّ «في علاقةٍ جدليةٍ مع المرئي»(٣) يَنتجُ عنها نصٌّ متماسكٌ ذو قدرةٍ فائقةٍ على التعبيرِ والتصويرِ.

وتؤدي تلك الصورُ المصاحبةُ للنصِّ دورًا أساسيًّا في بناءِ الدلالةِ والقيامِ بالتأويلِ النصيِّ ، سواءً من حيثُ دعمُ تركيزِ وجهةِ القراءةِ وحصرِ مسارِها أو مِن حيثُ إتمامُ ما أرادَ السياقُ إيصالَهُ(٤)؛ مما حدا ببعضِ النقادِ أنْ يَعدَّ الصورَ الفوتوغرافيةَ (نصوصًا موازيةً)(٥) أو نصوصًا ملحقةً على أقلِّ تقديرٍ ؛ حيثُ «تتناثرُ الصورُ الفوتوغرافيةُ العديدةُ كشكلٍ تعبيريٍّ يضافُ إلى النصِّ»(٦).

---

(١) ينظر : الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ١٥٤.

(٢) نفسه ١٥٥.

(٣) الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا ٣٠٢.

(٤) ينظر : شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ١٠٣.

(٥) ينظر : تشكيل المكان وظلال العتبات ٤٤ ، وشعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ١٠٣ ، والرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والبلاد الروسية ٢٨٧.

(٦) تشكيل المكان وظلال العتبات ٤٤.

وتفْضلُ الصورةُ النصَّ الكتابيَّ بأنَّها تُشكِّلُ لغةً عالميةً تؤدي دورَها التواصليَّ بطريقةٍ أرقى وحساسيةٍ أعلى ؛ فلأيِّ إنسانٍ مهما كانت لغتُهُ وثقافتُهُ أنْ يتعرَّفَ على الصورةِ ويفهمَها ويتذوقَها ويستمتعَ بها[1].

وحينما تحاولُ الصورةُ الفوتوغرافيةُ نقلَ الواقعِ فإنَّها -وبالتأكيد- لن تستطيعَ نقلَ الواقعِ بحذافيرِهِ ، ولكنَّها -على الأقلِّ- الشبيهُ الأقربُ للواقعِ[2]؛ حيثُ إنَّها لا تمسكُ إلا بلحظةٍ واحدةٍ مِن لحظاتِ الواقعِ وهي لحظةُ التقاطِ الصورةِ ، ويبقى الواقعُ بعدَها عرضةً للتَّغَيُّرِ والتَّطورِ أو التَّراجعِ.

وتحملُ الصورةُ الفوتوغرافيةُ -غالبًا- بينَ ثناياها فكرةً يمكنُ تأوُّلُها في أثناءِ رؤيتِها فكأنَّما التُقِطَتْ لتقولَ أو تُعبِّرَ[3] ، وينشأُ عن ذلك «نسقٌ دلاليٌّ أيقونيٌّ يواكبُ النسقَ الدلاليَّ اللغويَّ ويماشي رؤيتَهُ وغائيتَهُ ، والصورةُ أيضًا وثيقةٌ لا تنفصلُ عن المحتوى الرئيسيِّ للرحلاتِ ، بل تدعمُهُ وتقويهِ بوظيفتِها الدلاليةِ ودلالتِها التمثيليةِ ، وإذا علمنا بأنَّ عصرَنا هو عصرُ حضارةِ الصورةِ بامتيازٍ ، أدركنا خطورةَ وأهميةَ توظيفِها في»[4] النصِّ الرحليِّ. ولا بدَّ لكاتبِ الرحلةِ العصريَّةِ مِن الاهتمامِ بالنسقينِ معًا : اللغويِّ والأيقونيِّ ؛ فالصورةُ «وحدَها لا تستطيعُ نقلَ خبرٍ بدقةٍ دونَ الوقوعِ في شَرَكِ الخطأِ في التأويلِ ، ولهذا تبقى الكلماتُ ضروريةً بالنسبةِ لها ، إذ تمنحُها -دون منازعٍ- معنًى حقيقيًّا ، ومِن هنا حاجةُ الصورةِ الفوتوغرافيةِ وغيرِها إلى تعليقٍ يتمِّمُها ويموضِعُها لتُقرَأَ دون تأويلٍ خاطئٍ.

(١) ينظر : ثقافة الصورة ودورها في إثراء التذوق الفني لدى المتلقي ١٢٩.

(٢) ينظر: الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا ٢٨٧.

(٣) السابق ٢٨٨.

(٤) نفسه ٢٨٨.

فالتعليقُ يضبطُ القراءةَ ويوجهُها عبرَ ربطِ البنيةِ الفوتوغرافيةِ (الأيقونيةِ) بالبنيةِ اللغويةِ (الميتا أيقونيةِ) ، بل إنَّ هناك تعالقًا بينَهما ييسرُ إنتاجَ المعنى ويؤمِّنُ الفهمَ ويضمنُ التواصلَ وتبليغَ الإرساليةِ»[1] ، لذا فقد رأينا مِن الضرورةِ أنْ نُتبعَ دراسةَ الصورةِ المكتوبةِ بدراسةٍ للصورةِ المرئيةِ لنتعرفَ على خصائصِ ومميزاتِ النسقين معًا.

الصورةُ الفوتوغرافيةُ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

إنَّ المتأملَ في الصورةِ الفوتوغرافيةِ في هذه المدونةِ يرى أنَّها ظاهرةٌ تستحقُّ التَّتَبُّعَ والدراسةَ ، ولا يُستغربُ اهتمامُ العبوديِّ بالصورةِ إذا أدركنا أهميَّتَها مِن حيثُ تبصيرُ القارئِ بالواقعِ مِن خلالِ «إلقاءِ نظرةٍ واحدةٍ ولو خاطفةٍ ، ولذلك اعتُبرت مِن قبل الباحثِينَ في مجالِ الصورةِ السبيلَ المثاليَّ للتواصلِ»[2].

إنَّ «بلاغةَ هذا العصرِ هي الصورةُ بكلِّ ما تحملُهُ مِن تَطَوُّرٍ تكنولوجيٍّ ، وهو ما دفعَ للحديثِ عن بلاغةٍ بصريةٍ تُعنى بالخطابِ البصريِّ وترصدُ أنماطَهُ بأدواتٍ مغايرةٍ للبلاغةِ التقليديةِ»[3].

وكما قلنا بتنوُّعِ الموصوفاتِ فإنَّنا نقولُ ، هنا ، بتنوُّعِ الـمُصوَّراتِ.

المصوراتُ :

تتنوعُ الـمُصَوَّراتُ في هذه المدونةِ ، فمِن مصوراتٍ طبيعيةٍ إلى مصوراتٍ دينيةٍ إلى مصوراتٍ أخرى تنمويةٍ وهكذا ، ونجدُ الكثيرَ مِن الصورِ في هذه المدونةِ اهتمَّتْ بالطبيعةِ

---

(١) الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا ٢٨٨.

(٢) نفسه ٢٨٩.

(٣) بلاغة النص المرئي والمكتوب (القصيدة والصورة الفوتوغرافية) ، مجلة كتابات ، الجمعية المصرية للدراسات السردية ، أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ، ع٢ ، ص٨٤.

بكلِّ ما تعنيهِ مِن بحارٍ وشواطئَ وأنهارٍ وشلالاتٍ وسدودٍ وجبالٍ وكثبانٍ رمليةٍ وأريافٍ وواحاتٍ وحدائقَ وغاباتٍ(١) وما إلى ذلك مما يعطي المتلقيَ تصورًا عامًّا للطبيعةِ والمناخِ والنشاطِ المهيأِ لذلك البلدِ.

وإلى جانبِ تصويرِ الطبيعةِ نجدُ أنَّ العبوديَّ يهتمُّ بتصويرِ المباني والمرافقِ والمساجدِ(٢) وكلِّ ما مِن شأنِهِ أنْ يعكسَ النشاطَ الاقتصاديَّ والعمرانيَّ ، أو الدينيَّ إنْ كانت تلك المصوراتُ مساجدَ أو مدارسَ إسلاميةً ، ويمكن أنْ نُلحقَ بذلك الصورَ التي التقطَها العبوديُّ لبعضِ المدنِ والقرى والأحياءِ والأوساطِ التجاريةِ(٣) الدالَّةِ على مدى تطورِ البلدِ وازدهارِه وتوسعِه.

---

(١) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٣٩ ، ٦٤ ، ١١٣ ، وفي غرب البرازيل ١٥ ، ٧١ ، ٩٩ ، وفي شرق البرازيل ٣٦ ، ٨٣ ، ١٠٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٣ ، ٦٠ ، ١٥١، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٥٠ ، ٧٢ ، ٨١ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٨ ، ٤٠ ، ٤٩ .

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٤٥ ، ١١٥ ، وفي غرب البرازيل ١٨ ، ٦٩ ، ٧٨ ، وفي شرق البرازيل ٤٢ ، ٥٤ ، ٩٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٦ ، ١١٤ ، ١٣٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٥ ، ٢٩ ، ١٤٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٥ ، ٢٢ ، ٥٥ ، ٨٩.

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، وفي غرب البرازيل ٢٣ ، ٤٩ ، ٦٤ ، وفي شرق البرازيل ٤٣ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٧ ، ١٤٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٤٠ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٤ ، ٥٦ ، ٧٣.

وللطُّرقِ أيضًا نصيبٌ مِن التصويرِ ، سواءً أكانت تجاريةً أو بريةً ، مزفتةً أو ترابيةً(١) ، ومما يمكنُ إلحاقُهُ بالطرقِ تلك الجسورُ والممراتُ المتنوعةُ التي حرصَ العبوديُّ أنْ يصورَها ويطلعَ المتلقي عليها(٢) ، ولا شكَّ أنَّنا حينما نرى مستوى الطرقِ بكثافتِها والجسورِ والممراتِ بمختلفِ مستوياتِها فإنَّنا سنتمكنُ مِن تقييمِ البلدِ تقييمًا عامًّا ونستطيعُ أخذَ فكرةٍ جيدةٍ عن مستواهُ الخدميِّ والتنمويِّ.

كما نجدُ في هذه المدونةِ الكثيرَ مِن الصورِ البشريةِ تمَّ التقاطُها لشخصيةٍ أو شخصيتين أو أكثرَ(٣) ، ونجدُ كذلك العديدَ مِن الصورِ الجماعيةِ صُوِّرَت لتبقى تذكارًا بعدَ تعاقبِ الشهورِ والأعوامِ(٤) ، ولذلك دورٌ مهمٌّ في حفظِ الجهودِ وعكسِ مدى التعاونِ والاتحادِ بينَ أفرادِ الجالياتِ المسلمةِ في البرازيلِ ، كما أنَّ لذلك دورًا مُهمًّا مِن حيثُ إطلاعُ المتلقي على الصفاتِ الخَلقيةِ لمختلفِ سكانِ البرازيلِ.

---

(١) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٥١ ، ١١٠ ، ١٣٩ ، وفي غرب البرازيل ٢٦ ، ٥٥ ، ٥٨ ، وفي شرق البرازيل ٦٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٤ ، ٧٠ ، ٩٧ ، ١٤٦ ، ١٦٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٩ ، ١٣٠.

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٥٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥، وفي غرب البرازيل ٦٠، ٩٨ ، وفي شرق البرازيل ١٢٦، ١٣١ ، ١٣٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٥٦ ، ٥٨.

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٥١ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، وفي غرب البرازيل ١٩ ، ٧٥ ، ٩٠ ، وفي شرق البرازيل ٢٥ ، ٣٢ ، ٤٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٥٨ ، ١٧٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٠.

(٤) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٤٥ ، ٨١ ، ٨٥ ، وفي غرب البرازيل ٣٨ ، ٥٠ ، ٨١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٢٧ ، ٣٤ ، ١٢٩.

ومِن بينِ صورِ هذه المدونةِ صورٌ التقطتْ لتجسِّدَ بعضَ أحداثِ الرحلةِ وتقرِّبَها إلى ذهنِ المتلقي(1) ؛ بحيثُ يلتقطُ العبوديُّ الصورةَ وقتَ حدوثِ الشيءِ أو فعلِهِ ، ولا شكَّ أنَّ لهذِهِ الخاصيَّةِ الحيويةِ دورَها المهمَّ في تحديدِ الواقعِ أو الإفصاحِ عمَّا سكتَ عنه النصُّ مِن أحداثِ الرحلةِ.

وكما تتعدَّدُ المصوراتُ فإنَّها تتعدَّدُ مواقعُ الصورِ مِن هذهِ المدونةِ ، فليسَ ثَمَّةَ مكانٌ محدَّدٌ أو ملحقٌ معينٌ.

مواقعُ الصورِ الفتوغرافيةِ مِن المدونةِ :

تتخذُ الصورُ الفوتوغرافيةُ مواقعَ مختلفةً مِن هذه المدونةِ ، ويمكنُ حصرُ هذه المواقعِ في التالي:

١- الصورةُ الفوتوغرافيةُ الغلافيةُ :

«قد تقفزُ الصورةُ إلى غلافِ الكتابِ فتكُونُ أكثرَ تأثيرًا وأشدَّ جاذبيةً وأقوى على بصمِ ذاكرةِ المتلقي»(2) ، وقدْ أخذَ العبوديُّ بذلكَ ؛ حيثُ وضعَ على غلافِ كلِّ رحلةٍ مِن رحلاتِهِ صورًا فوتوغرافيةً يمكنُها أنْ تقدِّمَ للمتلقي فكرةً أو لمحةً سريعةً عن البلادِ أو الولايةِ المرتحلِ إليها.

ولا شكَّ أنَّ توظيفَ بعضِ المناظرِ على غلافِ الرحلاتِ «يخدمُ استراتيجيةَ شدِّ انتباهِ المتلقي منذُ الوهلةِ الأولى...وهي استراتيجيةٌ أيقونيةٌ مشاكلةٌ لتلك التي تحرِّكُ قصديةَ

---

(1) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٩٤ ، وفي غرب البرازيل ٤٨ ، ٦١ ، ٧٩ ، وفي شرق البرازيل ٧٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٨٢ ، ٨٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥.

(2) الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا ٢٩٢.

البطاقةِ البريديةِ وغائيتَها»[1] ، وقد لا يكتفي العبوديُّ بوضعِ صورةٍ فوتوغرافيةٍ واحدةٍ على الغلافِ ؛ فنجدُ أنَّ غلافَ رحلتِهِ إلى غربِ البرازيلِ يحملُ مجموعةً مِن الصورِ يمكنُها أنْ تمدَّ المتلقي بفكرةٍ عامةٍ عن تلك الجهةِ المرتحلِ إليها ؛ ففيها النهرُ والواحةُ والطريقُ والمباني التجاريةُ وهكذا.

٢- الصورةُ الفوتوغرافيةُ داخلَ نصِّ الرحلةِ :

لو تأمَّلنا الصورَ الفوتوغرافيةَ المبثوثةَ في نصوصِ هذه المدونةِ لوجدنا أنَّها تتخذُ أماكنَ متعددةً مِن النصِّ ؛ فليست على مستوًى مكانيٍّ واحدٍ ، وسنحاولُ فيما يلي أنْ نحصرَها في ثلاثةِ مواضعَ نصيةٍ :

أ- الصورةُ الفوتوغرافيةُ الافتتاحيةُ :

ويكونُ محلُّ هذِهِ الصورةِ فيما بينَ النصِّ والعنوانِ ، ولهذِهِ الصورةِ دورٌ جليٌّ في تشويقِ المتلقي وتهيئتِهِ لما سيتمُّ سردُهُ ، ويمكنُ أنْ نعدَّ هذِهِ الصورَ الافتتاحيةَ إحدى براعاتِ الاستهلالِ أو حسنِ الابتداءِ في النصِّ[2].

ب- الصورةُ الفوتوغرافيةُ في ثنايا السردِ :

غالبًا ما تأتي الصورُ الفوتوغرافيةُ في هذه المدونةِ مبثوثةً في ثنايا السردِ ، ولكنَّنا إذا تأملنا هذِهِ الصورَ نجدُ أنَّها تأتي أحيانًا متزامنةً معَ السردِ ومعيْنَةً لهُ ؛ بحيثُ تُمِدُّ المتلقي بلمحةٍ

---

(١) الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا ٢٩٢.

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : على أرض القهوة البرازيلية ٥٠ ، ٧٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٧٥ ، ١٠٩ ، وفي جنوب البرازيل ٥٧ ، وفي شرق البرازيل ٣٢ ، ٥٤ ، وفي غرب البرازيل ١٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ٤٨.

عن الواقعِ المتحدَّثِ عنهُ[1] ، وفي أحايينَ أخرى نجدُ أنَّ العبوديَّ يدرجُ الصورَ في ثنايا السردِ لكونِها أحدَ مكوناتِ الفضاءِ المكانيِّ الـمُتَحَدَّثِ عنه[2] ، أو لكونِها داخلةً في العنوانِ عمومًا[3] ، ولهذا النوعِ مِن الصورِ دورُهُ المهمُّ في تقريبِ الواقعِ وتحديدِ الفكرةِ وتعويضِ النقصِ مِن خلالِ إعطاءِ لمحةٍ مختصرةٍ عن بعضِ ما أُهمِلَ مِن أحداثِ ومشاهدِ الرحلةِ.

ج- الصورةُ الفوتوغرافيةُ الختاميةُ :

في حينِ تحتلُّ الصورةُ المواقعَ سالفةَ الذكرِ مِن النصِّ ، فإنَّنا نجدُ في هذه المدونةِ صورًا لا يمكنُ الاستهانةُ بِها قد اختُتِمَ بها سَردُ فصلٍ أو فقرةٍ ما[4] ، وربَّما يكونُ لذلك أهميتُهُ مِن حيثُ إعطاءُ لمحةٍ عما قَصَّرَ السردُ عن ذكرِهِ ، وقد يكونُ الهدفُ مِن إدارجِ تلك الصورِ في هذا الموقعِ هو منحُ ذاكرةِ المتلقي صورةً تذكاريةً تعْلَقُ في ذهنِهِ وتكونُ آخرَ عهدِهِ بالفقرةِ

---

(١) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٧٧ ، ١٣٩ ، وفي شرق البرازيل ٧٨ ، ١٢٧، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٥ ، ٤٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٠ ، ٩٥ ، وفي غرب البرازيل ٢٦ ، ٥٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٤ ، ٤٣.

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٤٥ ، ٨٧ ، وفي شرق البرازيل ٣٦ ، ١٢٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٢ ، ٦٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٨ ، ٩٧ ، وفي غرب البرازيل ١٩، ٦٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ١١ ، ١٨.

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٨٥ ، ٩٤ ، وفي شرق البرازيل ٢٥، ٣٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٩ ، ١٤٣ ، وفي غرب البرازيل ٣٨، ٤٨ ، ٧٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ٤٦ ، ٥١.

(٤) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : في جنوب البرازيل ٥٥ ، ٧٧ ، ١٠٧ ، وفي شرق البرازيل ٨٦ ، ١٢٩، ١٥٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٤ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٨ ، ٩٠، ١٥٥ ، وفي غرب البرازيل ٥٠ ، ٨٩ ، ٩٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٥ ، ٢٣ ، ٨٥.

أو الفصلِ ، وكما يُعلمُ فإنَّ الصورةَ في العادةِ أبقى في الذاكرةِ وأدعى للتَّذَكُّرِ مِن النصِّ المكتوبِ.

خصائصُ الصورةِ الفوتوغرافيةِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ:

تؤدي الصورُ الفوتوغرافيةُ في النصوصِ دورَها الأساسيَّ من حيثُ تميزُها ببعضِ الخصائصِ ؛ فلكونِها «الشبيهَ الكاملَ للواقعِ»(١) فإنَّها تؤدي «دورَ الإيهامِ بالواقعِ بامتيازٍ ؛ لأنَّها تقولُ هذا ما عاينَهُ الرحالةُ هناك حقيقةً ، وبالصورةِ يخلقُ لك أيَّها المتلقي فرصةً لتعيدَ إنتاجَ نفسِ المعاينةِ وتستشعرَ نفسَ الإحساسِ»(٢) ، وقارئُ رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ يجدُ نفسَهُ في رحلةٍ ماتعةٍ يرتحلُ فيها معَ العبوديِّ ويطَّلعُ مَعَهُ على الطبيعةِ بشتى صنوفِها فيرى المدنَ والقرى والأريافَ ، كما لا يخلو الأمرُ مِن رؤيةِ بعضِ المرافقِ مثلَ الأسواقِ والمتاحفِ والمطاراتِ وغيرِها.

«وقبلَ أن تكونَ الصورةُ الفوتوغرافيةُ نقلًا عن الواقعِ (وهذا هو استعمالُها الاجتماعيُّ الأكثرُ شيوعًا) هي إذًا تسجيلٌ لحالةٍ ضوئيةٍ في مكانٍ معيَّنٍ ووقتٍ محدَّدٍ»(٣) ، وإنْ شئتَ فقُل عنها أنَّها : تحنيطُ أو تسجيلُ الواقعِ ، وهذِهِ الخاصيةُ التسجيليةُ جعلت مِن الصورِ في هذه المدونةِ سجلًّا تاريخيًّا حافلًا أو وثائقَ ومستنداتٍ(٤) يمكنُ الرجوعُ والاستنادُ إليها ؛ فمعَ

---

(١) الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا ٣٠٢.

(٢) السابق ٢٩٦.

(٣) الصورة ٢٠٠.

(٤) ينظر : الصورة ٢٠٦ ، وعصر الصورة ٣٣.

تعاقبِ الأيَّامِ والأعوامِ ستتحولُ تلكَ الصورُ إلى «وعاءٍ حافظٍ للتراثِ»(١) ، وقد تبزُّ قيمتُها قيمةَ النصِّ لكونها أقدرَ على الكشفِ والتفصيلِ.

والمتأملُ في الصورِ المدرجةِ في هذه المدونةِ يجدُ أنَّ الكثيرَ منها بدأَ يأخذُ أهميتَهُ التاريخيةَ مِن حيثُ أنَّهُ رصدٌ لنشاطاتٍ وجهودٍ إسلاميةٍ مضى عليها أكثرُ مِن ربعِ قرنٍ ؛ فقد التقطَ العبوديُّ صورًا للعديدِ مِن المنشآتِ الإسلاميةِ الـمُنفَّذةِ أو المقبلةِ على التنفيذِ(٢) ، والتي يمكنُ مِن خلالِـها رصدُ الحركةِ الإسلاميةِ في البرازيلِ ، علمًا أنَّ ذلك لا ينافي الأهميةَ التاريخيةَ والوثائقيةَ لجميعِ ما أدرجَ من الصورِ ؛ إذ يجبُ عدم الاستهانةِ بأيِّ صورةٍ مِن الصورِ ، فربعُ قرنٍ مِن الزمانِ كفيلٌ بأنْ يجعلَ مِن أيِّ صورةٍ فوتوغرافيةٍ سندًا مهمًّا ، «وعندما تتحولُ الصورةُ الفوتوغرافيةُ إلى صورٍ (إرشيفيةٍ) فإنَّ قدرًا كبيرًا مِن الأهميةِ التاريخيةِ يُعزى إليها»(٣).

وتؤدي الصورةُ الفوتوغرافيةُ في هذه المدونةِ دورًا أساسيًّا مِن حيثُ تشويقُ القارئِ إلى متابعةِ الرحلةِ(٤) ، وأيُّ متلقٍ لا تتحركُ همَّتُهُ إلى القراءةِ وهو يرى صورَ تلك الطبيعةِ الساحرةِ على الغلافِ أو داخلَ الرحلةِ ، ولا يمكنُ تجاهلُ الأهميةِ لما يحصلُ مِن جدليةِ المرئيِّ مع المقروءِ ومِن شأنِ ذلكَ أنْ يستدرجَ المتلقيَ ليخوضَ تجربةَ التَّعرفِ ويواصلَ قراءةَ الرحلةِ.

---

(١) التصوير والحياة ٩٣.

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : على أرض القهوة البرازيلية ٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، وفي جنوب البرازيل ٨٥ ، وفي غرب البرازيل ١٨ ، ٧٨.

(٣) ينظر : عصر الصورة ٣٣.

(٤) ينظر : مشوار كتب الرحلة ٩٥.

كما تؤدي الصورةُ الفوتوغرافيةُ في هذه المدونةِ دورَها المهمَّ مِن حيثُ الاختصارُ للمؤلفِ أو المتلقي ، والتحديدُ والتركيزُ[1] ؛ فقدْ يحتاجُ الوصفُ الدقيقُ لحدثٍ أو فضاءٍ ما إلى صفحةٍ واحدةٍ يبقى بعدَها الموصوفُ في حيِّزِ الخيالِ بعيدًا عن الإدراكِ الحسِّيِّ ، بينما يمكنُ للمتلقي أنْ يدركَ ذلك الموصوفَ ويُلمَّ بكاملِ تفاصيلِهِ بشكلٍ دقيقٍ ومحدَّدٍ مِن خلالِ صورةٍ واحدةٍ لا يكلِّفُهُ تأمُّلُها سوى ثوانٍ معدودةٍ ، ولننظرْ على سبيلِ المثالِ إلى صورةِ تلكَ المقهاةِ الحالمةِ الواقعةِ في جزيرةِ الشمسِ على ضفةِ النهرِ الذهبيِّ[2] ، فأيُّ نصٍّ يمكنُهُ أن يحيطَ بذلك المنظرِ ويصفَهُ وصفًا دقيقًا ، ولو عوَّلنا في ذلك على براعةِ العبوديِّ في الوصفِ فلن يستطيعَ المتلقي -مهما كانت قدراتُهُ- إدراكَ ذلك المنظرِ بالشكلِ المحدَّدِ والمختصرِ الذي تؤديهِ الصورةُ المرفقةُ.

إنَّ التصويرَ هو الطريقةُ المناسبةُ والمثلى لكشفِ التفاصيلِ بشكلِها وحجمِها ولونِها ، ويحرصُ العبوديُّ مِن خلالِ التصويرِ الفوتوغرافيِّ على أنْ يقدِّمَ للمتلقي بعضَ التفاصيلِ الدقيقةِ ، ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ صورَ محرابِ جامعِ كويابا (Cuiabá) ، إنَّهُ لَيُمْكِنُ للمتلقي مِن خلالِ هذهِ الصورِ أنْ يدركَ المساحةَ والشكلَ واللونَ ، كما يمكنُه أنْ يرى النقوشَ حتى أنَّهُ ليستطيعُ قراءةَ ما نُقشَ على المحرابِ مِن القرآنِ والذكرِ[3].

وللصورةِ في هذه المدونةِ دورُها الفعالُ مِن حيثُ المراوحةُ بينَ أساليبِ الطرحِ ، فللانتقالِ مِن السردِ إلى الصورةِ ومِن الصورةِ إلى السَّردِ دورُهُ الكبيرُ في طردِ السأمِ والمللِ

---

(١) ينظر : الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا ٢٩٦ ، ومشوار كتب الرحلة ٩٥.

(٢) في غرب البرازيل ٩٨.

(٣) في غرب البرازيل ٢١.

عن عينِ المتلقي ، كما يمكنُ اعتبارُ بعضِ الصورِ استراحاتٍ يُمتِّعُ المتلقي فيها عينيهِ ويتلذَّذُ بالتوقُّفِ عندَها متناسيًا عناءَ قراءةِ السَّردِ[1] ، ولاسيما أنَّ العبوديَّ قد أظهرَ عنايتَهُ وبراعتَهُ الجماليةَ الملموسةَ في التقاطِ الكثيرِ مِن الصورِ.

جمالياتُ الصورةِ الفوتوغرافيةِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

لقد أظهرَ العبوديُّ براعتَهُ وعنايتَهُ الفائقةَ في التقاطِهِ للعديدِ مِن الصورِ الجماليةِ التي لا يملُّ المتلقي مِن تقليبِ نظرِهِ وإعادتِهِ فيها ، والتكوينُ الجماليُّ يكشفُ عن «قدرةِ المصورِ على ترتيبِ موضوعِ الصورةِ في أوضاعٍ مريحةٍ للعينِ وهي قدرةٌ ذاتيةٌ نابعةٌ من صميمِ المصورِ وموهبةٌ حباهُ الله بها وميزةٌ داخليةٌ ذاتيةٌ يمتازُ بها عن سواهُ»[2].

والمتأملُ في بعضِ صورِ هذه المدونةِ يجدُ أنَّ العبوديَّ أظهرَ قدرةً ذوقيَّةً عاليةً في اختيارِها وأبدعَ إبداعًا فائقًا في التقاطِها ، بحيثُ تصلحُ لأنْ تكونَ مناظرَ مستقلةً يتمتَّعُ بها الناظرونَ ، ولنأخذْ مثلًا صورةَ تلك الضفةِ الواقعةِ على مصبِّ النَّهرِ في ولايةِ سانتا كاترينا (Santa Catarina)[3] ، فلا يكادُ يرى المتلقي منها إلا زهورًا وأعشابًا يشقُّها النهرُ في منظرٍ خلابٍ ينمُّ عن ذوقِ ملتقطِها وقدرتِهِ على الإبداعِ في التصويرِ ، ومِن هذِهِ

---

(١) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: في غرب البرازيل ٧١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٧٤ ، ١٤٤، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٧ ، ٥٣ ، ١٣٧ ، وفي شرق البرازيل ٨٣ ، ١٣١ ، وفي جنوب البرازيل ٥٧ ، ٦٤.

(٢) التصوير والحياة ٨٩.

(٣) في جنوب البرازيل ٥٧.

الصورِ تلكَ الصورةُ الملتقطةُ لجانبٍ من شلالاتِ بلعومِ الشيطانِ في (فوز دو قواسو)[1] ، فالمتلقي يحارُ من حسنِ هذه الصورةِ ولا يملكُ إلا أنْ يتعجبَ مِن جمالِها ومِن قدرةِ ملتقطِها.

ويحرصُ العبوديُّ عندَ التقاطِهِ للصُّورِ على اختيارِ زاويةٍ تخدمُ الغرضَ المنشودَ مِن الصورةِ ، بحيثُ «يتمُّ إبرازُ غرضٍ وهدفٍ وفحوى الصورةِ الأساسِ عن طريقِ زيادةِ المساحةِ التي يشغلُها»[2] مِن مربَّعِ الصورةِ ، ولننظرْ مثلًا إلى الصورةِ الملتقطةِ لجامعِ دورادِس (Dourados) [3] ، فقد اختارَ العبوديُّ لالتقاطِ هذهِ الصورةِ زاويةً جعلت الجامعَ يظهرُ مستأثرًا بمعظمِ أجزاءِ الصورةِ ؛ ليتمكنَ المتلقي مِن الاطلاعِ على الجامعِ ويعرفَ مساحتَهُ وتفاصيلَهُ ، ومِن ذلك تلك الصورةُ التي التقطَها العبوديُّ لاثنتينِ من الأفريقياتِ في السوقِ الإفريقيِّ -كما أسماهُ- في سلفادور (Salvador)[4] حيثُ استحوذتْ صورتهما على جلِّ مربَّعِ الصورةِ فبدتا واضحتينِ وظهرَتْ ملامحُهما جليةً بزيِّهما الإفريقيِّ وزينتِهما ، وكانَ ذلك في معرِضِ تسويغه لتسميتِهِ هذا السوق الواقع في سلفادور (Salvador) بالسوقِ الإفريقيِّ.

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٥٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١٣١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٧ ، وفي غرب البرازيل ٩٨ ، ٩٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٥١.

(٢) التصوير والحياة ٩١.

(٣) في غرب البرازيل ٧٨.

(٤) في شرق البرازيل ٧١. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٥ ، ٣٢ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٩ ، ١٢٩ ، وفي جنوب البرازيل ١١٥ ، ١٢٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٤٨ ، ٥٠ ، وفي شرق البرازيل ٤٢ ، وفي غرب البرازيل ٣٣.

وحينَ تكونُ الفكرةُ المنشودةُ عامةً أو شاملةً فإنَّنا نجدُ أنَّ العبوديَّ يختارُ زاويةً تُبرزُ الفضاءَ المصورَ بجميعِ أشيائِهِ الظاهرةِ في تناسقٍ وانسجامٍ بحيثُ تظهرُ الصورةُ كوحدةٍ جماليةٍ متكاملةٍ[1] ، ولننظرْ مثلًا إلى صورةِ شاطئِ (إيقاب بو) في لوندرينا (Londrina)[2] ؛ فقد ظهرَت صورةُ العبوديِّ ورفيقِه واقفين على أرضٍ مغطَّاةٍ بالحشائشِ ترتعُ فيها مجموعةٌ مِن الخرافِ ، ومِن خلفِ ذلك البحيرةُ ، ومِن وراءِ ذلك كلِّهِ تظهرُ الضفةُ الأخرى مِن البحيرةِ بخمائلها ومساكنِها وأشجارِها تظلُّها السماءُ الملبدَةُ بالغيومِ ، كلُّ ذلك استطاعَ العبوديُّ أنْ ينظمَهُ في صورةٍ واحدةٍ متناسقةٍ منسجمةٍ ، ومِن قبيلِ ذلك تلكَ الصورةُ التي التقطَها العبوديُّ لوسطِ مدينةِ بورتو إليقري (Porto Alegre) التجاريِّ[3] ، وقد شمِلَت هذه الصورةُ الوسطَ التجاريَّ بما يحيطُ بِهِ مِن شوارعَ وأشجارٍ وتضاريسَ ، والأهمُّ مِن ذلك تلك العماراتُ الواقعةُ فيه والمكونةُ مِن طوابقَ كثيرةٍ ، ومعَ هذا الشمولِ للصورةِ إلا أنَّهُ يمكنُ للمتلقي أنْ يميزَ أشكالَ العمارات ويعدَّ طوابقَها.

ومِن براعةِ العبوديِّ في التقاطِ الصورِ أنَّنا نجدُهُ يراعي توزيعَ العناصرِ الأساسيةِ في الصورةِ ، بحيثُ يتجنبُ إظهارَ جزءٍ كبيرٍ مِن السماءِ والأرضِ و/ أو الماءِ ، فلو نظرنا مثلًا في إحدى الصورِ ، وهي صورةُ الجبلِ الواقفِ على شاطئِ البحرِ في أرارانقو (Araranguá)

---

(١) ينظر : التصوير والحياة ٩١.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ١٣٧.

(٣) في جنوب البرازيل ١٢٦. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١١١ ، ١٣١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٨ ، ٧٤ ، وفي غرب البرازيل ١٥ ، ١٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٨١ ، وفي جنوب البرازيل ٥٧ ، ١٠٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٤ ، ٢٣.

في البرازيلِ والواقعِ على نهرٍ يصبُّ في هذا البحرِ[1] لوجدنا أنَّهُ يمكنُنا تقسيمُ الصورةِ إلى ثلاثةِ عناصرَ رئيسةٍ أخذَ كلٌّ منها نصيبَهُ مِن الصورةِ ، فللجبلِ نصيبٌ وللنهرِ نصيبٌ وللسماءِ نصيبٌ دونَ أنْ يطغى أحدٌ منها على الآخرِ ، ومثلُ ذلك تلك الصورةُ الملتقطةُ لـمُلتقى الحدودِ بينَ البرازيلِ والأرجنتينِ والبارغواي[2] ؛ فقد قامَ العبوديُّ بتوزيعِ أجزاءِ هذهِ الصورةِ بعنايةٍ ، فللسماءِ نصيبٌ وللسَّهلِ نصيبٌ وللنهرِ نصيبٌ ، كلُّ ذلك جاءَ في شكلٍ متوازنٍ متناسقٍ.

ويحرصُ العبوديُّ على اختيارِ خلفياتٍ لائقةٍ عندما يلتقطُ صورًا للأشخاصِ ، ويكونُ اختيارُ الخلفيةِ نابعًا مِن موضوعِ السردِ ، فعندما يكونُ الحديثُ عن مسجدٍ أو منشطٍ فإنَّك تجدُهُ يتَّخذُ مِن ذلك المسجدِ أو المنشطِ خلفيةً لصورةِ الأشخاصِ[3] ، وعندما يكونُ الحديثُ عن الطبيعةِ أو الطرقِ والجسورِ والأماكنِ عامةً فإنَّهُ يختارُ أحسنَ المناظرِ ليجعلَها خلفيةً لصورةِ الأشخاصِ[4] ، وهكذا.

وقد يكونُ الفضاءُ أو الحدثُ الـمُصَوَّرُ مُهمًّا لدى العبوديِّ بحيثُ يتطلبُ الأمرُ تصويرَهُ مِن عددٍ مِن الزوايا المختلفةِ ؛ فكلَّما «تغيَّرتْ زوايا التصويرِ زادَت الفرصةُ

---

(١) في جنوب البرازيل ٦١.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٨١. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٦٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٣٧ ، وفي شرق البرازيل ٣٨ ، ١٣٥ ، وفي غرب البرازيل ٦٢ ، ٩٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٨ ، ٨٢.

(٣) ينظر : في غرب البرازيل ٢١ ، ٣٨ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٤ ، ٦٦ ، وفي جنوب البرازيل ٤٥ ، ٨٥.

(٤) ينظر : الشرق الشمالي من البرازيل ٧٥ ، ١٤٥ ، وفي غرب البرازيل ٦٦ ، ٧٥ ، وفي شرق البرازيل ٣٨ ، ٧٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٥٤ ، ٧٢ ، وفي جنوب البرازيل ٥١ ، ٥٩.

للحصولِ عل تشكيلٍ جماليٍّ جيدٍ»[1] ، ويبدو ذلك جليًّا في تصويرِ العبوديِّ لعددٍ مِن المساجِدِ ، ولننظرْ مثلًا إلى صورةِ مسجدِ باراناقوا (Paranagua) ؛ حيثُ اختارَ العبوديُّ زاويةً تُظهِرُ واجهةَ المسجدِ[2] ، ثمَّ اختارَ زاويةً أخرى تُظهِرُ بعضَ أروقةِ المسجدِ مع القُبَّةِ والمنارةِ[3] ، ثُمَّ التقطَ صورةً ثالثةً مِن زاويةٍ مختلفةٍ تُظهِرُ مجسَّمَ المنارةِ كاملًا مع شيءٍ مِن القُبَّةِ وزاويةِ المسجدِ[4] ، كلُّ ذلك جاءَ في سبيلِ توثيقِ هذا المسجدِ المهمِّ بالنسبةِ لهذِهِ المنطقةِ النائيةِ مِن العالمِ الإسلاميِّ ، ومثلُ ذلك أيضًا صورُ جزيرةِ الشمسِ ؛ حيثُ اختارَ العبوديُّ زاويةً تُوَضِّحُ الممرَّ المنتهي بهذِهِ الجزيرةِ[5] ، ثُمَّ اختارَ زاويةً أخرى تُظهِرُ الجزيرةَ وعليها المطعمُ والمقهاةُ وحولَها النهرُ الرقراقُ مِن فوقِهِ الممرُّ المعلَّقُ[6] ، أمَّا الصورةُ الثالثةُ فتُظهِرُ وسطَ الممرِّ معَ جزءٍ مِن النهرِ وشيءٍ مِن ضفةِ الجزيرةِ[7].

---

(١) التصوير والحياة ٩١.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٢٧.

(٣) السابق ٢٨.

(٤) نفسه ٣٢.

(٥) في غرب البرازيل ٩٨.

(٦) السابق ٩٩.

(٧) نفسه ٩٨ ، ٩٩. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، وفي غرب البرازيل١٨ ، ١٩ ، ٢٢، ٣٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩.

المبحث الرابع :

الحوار

إذا كانَ الوصفُ -وقبلَهُ السردُ- أحدَ المكوناتِ والأساليبِ الأساسيةِ في القصِّ فإنَّ الحوارَ أيضًا مكوِّنٌ و«أسلوبٌ مِن أساليبِ القصِّ مثلُ الوصفِ والسردِ بحصرِ المعنى»[١].

ويمكنُ تعريفُ الحوارِ بأَنَّهُ «الأداةُ القصصيةُ المتمثلةُ في نقلِ الأقوالِ أو حكايتِها بالتمثيلِ»[٢]. وهو في القصِّ المرجعيِّ «نقلٌ حقيقيٌّ ؛ لأَنَّهُ إيرادٌ لأقوالٍ قِيلت حقًّا خارجَ القصةِ»[٣] ، وللحوارِ مِن الأهميَّةِ في القصِّ ما جعلَهُ «ثالثَ الأدواتِ القصصيةِ الرئيسيةِ أي : السردُ (حكايةُ الأعمالِ) والوصفُ (حكايةُ السماتِ والأحوالِ)»[٤].

ويختلفُ الحوارُ عن الوصفِ والسردِ من حيثُ إنَّ «مادَّتَهُ ليست الأعمالَ (مثلما هو الشأنُ في السردِ) وليستْ السماتَ والأحوالَ (مثلما هو الشأنُ في الوصفِ) ، وإنَّما هي أقوالُ الشخصياتِ باعتبارِها لبنةً مِن لَبناتِ المغامرةِ نُقِلَت لتصيرَ قسمًا مِن أقسامِ الخطابِ»[٥].

لذا فليسَ «النصُّ السرديُّ كلًّا متجانسًا وإنَّما هو جماعُ خطاباتٍ تكوينيةٍ يتمتَّعُ كلٌّ مِنها ببنيةٍ ووظائفَ مخصوصةٍ ، ومِن هذه الخطاباتِ : الحوارُ»[٦].

---

(١) معجم السرديات : (حوار).

(٢) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٣٦.

(٣) السابق.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) بحوث في السرد العربي ٥٩.

يمكنُ تمييزُ الحوارِ في كافةِ السرودِ «مِن خلالِ تغيرِ طبيعةِ المادةِ في النصِّ القصصيِّ ، وذلك باعتبارِ أنَّ الحوارَ ليسَ نقلًا للأعمالِ مثلَ السردِ ولا هو نقلٌ للسِّمات مثلَ الوصفِ وإنَّما هو نقلٌ للأقوالِ»(١) كما ذكرتُ.

وغالبًا ما يتيسرُ ضبطُ مواضعِ الحوارِ في النصِّ لوجودِ قرائنَ تدلُّ عليها ، ونحنُ نجدُ أنَّ قرائنَ الحوارِ في هذه المدونةِ تتعيَّنُ في «العلاماتِ السرديَّةِ المتمثلةِ في أفعالِ القولِ وما شاكلَها»(٢)؛ فقد افتُتِحَ الكثيرُ مِن حواراتِ هذه المدونةِ بفعلِ القولِ ، من قبيلِ قولِ العبوديِّ : «وقلتُ للأخوينِ المرافقينِ...كيفَ يجرؤُ هؤلاءِ على التعرِّي في هذا المكانِ الذي ليسَ فيه سباحةٌ؟ فقالا : ماذا يصنعون؟ إنَّ البحرَ عنهم بعيدٌ ؛ فهو -أي البحرُ- وهو المحيطُ الأطلسيُّ ، يبعدُ شرقًا مِن هنا (١٣٠) كيلومترًا»(٣).

كما افتُتِح الكثيرُ مِن الحواراتِ في هذه المدونةِ بأفعالٍ مشاكلةٍ لفعلِ القولِ ، ويظهرُ ذلك جليًّا في قولِ العبوديِّ : «وقد أبديتُ لموظفٍ في الفندقِ عجبي مِن كثرةِ الناسِ في هذهِ

---

(١) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٤٢.

(٢) السابق ٤٨.

(٣) في جنوب البرازيل ١٠٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٨٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٤١ ، ١٢٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٩ ، ٩١ ، ١٣٠.

الأيامِ في الشاطئِ فذكرَ أنَّ فيهم سُيَّاحًا كثيرًا جاؤوا مِن بلادِ البرازيلِ الجنوبيةِ الباردةِ في هذهِ الأيامِ ليقضوا بعضَ الوقتِ في هذِهِ المنطقةِ المعتدلةِ»[1].

ومِن العلاماتِ السرديَّةِ الدالَّةِ على الحوارِ في هذه المدونةِ الاستفهامُ أو الاستفسارُ ؛ فغالبًا ما يتبعُ ذلكَ ردٌّ مباشرٌ مِن طَرَفٍ آخرَ فيتولَّدُ عن ذلك ما يُسمى بالحوارِ ، ودائمًا ما يُصدَّرُ الاستفهامُ أو الاستفسارُ في هذه المدونةِ بلفظِ (السؤالِ) ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ : «وقد سألتُ أصحابي الذين في السيارةِ عن الغرضِ مِن رفعِ هذه البيوتِ عن الأرضِ هنا فأجابوا بما كنتُ عرفتُهُ مِن قبلُ وهو أنَّ ذلك لاتقاءِ الرطوبةِ »[2] ، ومِن قبيلِ ما دارَ بينَ العبوديِّ والدليلِ من حوارٍ في إحدى الاستراحاتِ في مدينةِ أولينيدا (*Olinda*) ، إذ يقولُ : «سألتُ الدليلَ بهذِهِ المناسبةِ عن نخلِنا (نخلِ التمرِ) وعمَّا إذا كانَ يوجدُ في هذِهِ البلادِ ، فأجابَ : إنَّهُ يوجدُ مِنه ثلاثُ نخلاتٍ في المدينةِ كلِّها جاؤوا بها مِن الجزيرةِ العربيةِ (أربيا) ، وعلى هذا تكونُ في هذِهِ المدينةِ أنواعٌ ثلاثةٌ مِن النخيلِ : هي النارجيلُ ونخيلُ الزيتِ ونخيلُ التمرِ ، وإنْ كانت نخلةُ التمرِ لا تثمرُ»[3].

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٣٥ ، وفي شرق البرازيل ٦٦ ، وفي غرب البرازيل ١٧، ٦٣ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٦ ، ٣١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٣٢ ، ١٤٦.

(٢) على ضفاف الأمازون ١٩.

(٣) وفي شرق البرازيل ٥٤. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٦٤ ، ١٧٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥١ ، وفي شرق البرازيل ١١٠، ١٣٨ ، وفي جنوب البرازيل ٨٣ ، وفي غرب البرازيل ٢٨ ، ٦١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٢ ، ٧٨.

وليست حواراتُ هذه المدونةِ بمستوًى واحدٍ ؛ فمنها ما يشاركُ فيه الرحالةُ/ العبوديُّ ومِنها ما يكونُ العبوديُّ فيه مجردَ ناقلٍ للحوارِ.

مراتبُ الحوارِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ:

يقومُ الحوارُ في هذه المدونةِ على الكلامِ الظاهرِ المتبادلِ بينَ شخصيتينِ أو أكثرَ ، فليسَ ثمةَ حواراتٌ باطنيةٌ أو داخليةٌ.

ويمكنُنا جعلُ الحوارِ في هذه المدونةِ على مرتبتينِ ، تتكونُ المرتبةُ الأولى مِن الحواراتِ التي يكونُ فيها الرحالةُ طرفًا مشاركًا في الحوارِ.

فقد ينعقدُ الحوارُ بينَ العبوديِّ وأحدِ الأشخاصِ المعنيينَ بالزيارةِ أو أحدِ رفاقِ الطريقِ في الرحلةِ ، كما عليه الحالُ في هذا الحوارِ : «عندما أبديتُ للأخِ خالدِ حيمورَ عجبي مِن كثافةِ الأعشابِ والأشجارِ وشمولِ الخضرةِ في هذِهِ المدينةِ قالَ : لا عجبَ مِن ذلك لأنَّها عاصمةُ ولايةِ (ماتو قروسو) التي تَعني الأعشابَ الكثيفةَ»[1].

ومثلُ ذلك الحوارُ الآتي بينَ العبوديِّ ومرافقيهِ ، حيثُ يقولُ : «قلتُ للأخوينِ المرافقينِ...كيفَ يجرؤُ هؤلاءِ على التَّعَرِّي في هذا المكانِ الذي ليسَ فيه سباحةٌ؟ فقالا : ماذا يصنعون؟ إنَّ البحرَ عنهم بعيدٌ»[2].

---

(١) في غرب البرازيل ١٧.

(٢) في جنوب البرازيل ١٠٩. ولمزيد أمثلة ينظر : في غرب البرازيل ٢٤ ، ٧٣ ، وفي جنوب البرازيل ٨٣ ، وفي شرق البرازيل ٩٥ ، ١١٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٩ ، ٤٦ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٦ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٥١ ، ٦٦.

وقد ينعقدُ الحوارُ -أيضًا- بينَ العبوديِّ والسائقِ أو الدليلِ أو المترجمِ أو أحدِ خدمِ ومسؤولي الفنادقِ والمطاراتِ ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ : «سألتُ مرافقيَّ عما إذا كانَ الناسُ هنا يُكثرونَ مِن شُربِ الكحولِ ، فذكرَ السائقُ أنَّهُ لا يقربُ الكحولَ مطلقًا ، أمَّا الدليلُ فإنَّهُ لم يجزم الأمرَ ، وقالا معًا : هناك طوائفُ مِن الشبَّانِ لا يشربونَ الكحولَ لأنَّهُ غالٍ ومضرٌ بالجسمِ»(١).

أمَّا المرتبةُ الثانيةُ من مراتبِ الحوارِ في هذه المدونةِ فإنَّها الحواراتُ الخاليةُ من مشاركةِ الرحالةِ ؛ بحيثُ ينتهي دورُ الرحالةِ/ العبوديِّ عندَ نقلِ الحوارِ إلى المتلقي ، مِن قبيلِ قولِه : «قالت إحدى السائحاتِ للدليلِ : ما بالُ كنائسِكم التي مرَرنا بها كلِّها مغلقةً؟ فقالَ : سوفَ نمرُّ بواحدةٍ مفتوحةٍ»(٢).

والملاحظُ أنَّهُ يغلبُ على الحواراتِ مِن المرتبةِ الثانيةِ -على ندرتِها- طابعُ القِصرِ والاختصارِ والبُعدِ عن الاستطرادِ ، وقد يرجعُ ذلك إلى هيمنةِ شخصيةِ الرحالةِ (البطل في الرحلة) ؛ فالحوارُ الذي ينقصُهُ الرحالةُ هو حوارٌ جانبيٌّ غيرُ جديرٍ بالتفصيلِ بالنسبةِ للرحلةِ القائمةِ على هيمنةِ شخصيةِ الرحالةِ.

وكما أنَّ الحوارَ في هذه المدونةِ ليسَ على مرتبةٍ واحدةٍ ، فإنَّهُ في المقابلِ لا يستقرُّ على نمطٍ موحَّدٍ.

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٧٨. ولمزيد أمثلة ينظر : الشرق الشمالي من البرازيل ٥٢ ، ٩٢ ، وفي غرب البرازيل ١٠٢ ، وفي شرق البرازيل ٣٠ ، ٦٨ ، ٨١ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٩.

(٢) وفي شرق البرازيل ١٥٥. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١١٣ ، وفي شرق البرازيل ٦٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٠.

أنماطُ الحوارِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

تختلفُ أنماطُ الحوارِ في هذه المدونةِ بحسبِ «العلاقةِ بينَ المتحاوِرِيْنِ...فإذا كانت العلاقةُ غيرَ متكافئةٍ -بسببِ جهلِ أحدِ الطرفينِ ما يعلمُهُ الآخرُ- هيمنَ السؤالُ الحقيقيُّ وجوابُهُ ، وبذلك يكونُ الحوارُ تعليميًّا تنتقلُ فيهِ المعارفُ والأخبارُ مِن الشخصيةِ التي تعلمُها إلى الشخصيةِ أو الشخصياتِ التي تجهلُها»(١).

وحينَ ندرسُ حواراتِ هذه المدونةِ ندركُ سيطرةَ هذا النمطِ مِن الحوارِ على أكثرِ الحواراتِ ، ويمكنُنا ردُّ ذلك إلى الغريزةِ الاستطلاعيةِ لدى العبوديِّ ، وحرصِهِ على تحميلِ المتلقي بمعلوماتٍ وافيةٍ عن البلدِ المرتحلِ إليهِ ، والجالياتِ الـمُسْلِمَةِ المستوطنةِ إنْ وُجِدَت.

ولننظرْ على سبيلِ المثالِ إلى قولِهِ : «وبمناسبةِ رؤيةِ الكنيسةِ سألتُ هؤلاءِ الإخوةَ المسلمينَ الذين هُم مِن العاملينَ في الجمعيةِ الإسلاميةِ في (مارنغا) وبالتالي يكونونَ مِن أهلِ الخبرةِ بمثلِ هذِهِ الأمورِ ، عمَّا إذا كانت توجدُ بينَهم أَيَّةُ مشكلةٍ مع النصارى الذين هم الأكثرُ عددًا في هذِهِ البلادِ وهُمْ أيضًا أقدمُ هجرةً إليها ، فأجابوا بالنفيِ وقالوا : لا توجدُ أيةُ مشكلةٍ بينَنا وبينَهم ، ولا يضعُ أحدٌ مِن الحكومةِ أو مِن الشعبِ البرازيليِّ أيةَ عراقيلَ أمامَ المسلمين للقيامِ بأمورِ دينِهم ، بلْ لا تُوجد أيةُ صعوباتٍ أمامَ مَن يرغبُ في القيامِ بنشرِ الدعوةِ الإسلاميةِ ، بلْ ذكروا أنَّ رئيسَ الكاثولوكيينَ في (مارنغا) رحَّبَ بوجودِ المسجدِ في حفلِ وضعِ الحجرِ الأساسيِّ لبنائِهِ ، وأثنى على المسلمين وقالَ مِن بينِ ما قالَهُ : إننا نُرحِّبُ بالمأذنةِ التي سترتفعُ معانقةً لبرجِ الكنيسةِ فيذكرُ فيها اسمُ الله»(٢).

---

(١) معجم السرديات : (حوار).

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٩٩.

نجدُ أنَّ هذا الحوارَ محملٌ بالعديدِ مِن المعلوماتِ المهمةِ عن الحريَّةِ الدينيةِ المتهيِّئة لأهلِ تلك البلادِ ، ومِن قبيلِ ذلكَ حوارُ العبوديِّ معَ الدليلةِ في أحدِ المقاهي في سلفادور (Salvador) ؛ حيثُ يقولُ : «قلتُ للدليلةِ : لقد رأيتُ الأفارقةَ هنا فرأيتُ بعضَهم لم يتغيروا ورأيتُ أكثرَهم قد خفَّ سوادُهم ، فماذا عن السكانِ الأصلاءِ الذين يسمَّونَ هنا بالهنودِ الحمرِ ؟ إنَّني لم أرَ جماعاتٍ منهم كالذين رأيتُهم مِن الإفريقيين ، فقالت : إنَّ الخلَّصَ مِنهم الذين لم يختلطوا بغيرِهم موجودون في أماكنَ منعزلةٍ بعيدة عن المدينةِ ، أقربُها منها يبعدُ ثلاثَ مئةِ كيلو متر ، وإنَّهم لم يتغيروا عن أشكالِـهم التي عُرفوا بِها في القديمِ فهُم سودُ العيونِ والشعورِ قصارُ الأجسامِ لهم هيئةٌ خاصَّةٌ لا يشاركُهُم فيها غيرُهم مِن السكانِ المعروفين هنا مِن ذوي الأصولِ البرتغاليةِ والإفريقيةِ»(١)؛ لقدْ حملَ هذا الحوارُ معلوماتٍ مسندةً إلى أهلِ الخبرةِ مِن البرازيليينَ ، وبهذا الإسنادِ فإنَّ المعلوماتِ ستكونُ محلَّ ثقةِ القارئِ والباحثِ عن أحوالِ أهلِ تلك البلادِ.

وقدْ يكونُ عدمُ التكافؤِ أيضًا ظاهرًا في بعضِ الحواراتِ المبنيةِ على الطلبِ ؛ لكونِها ليستْ مظنةَ التساوي في الغالبِ ، ولنأخذْ مثلًا الحوار الآتي بينَ العبوديِّ والدليلِ ؛ حيثُ يقولُ : «وكان أنْ بادرني قائلًا : لنذهبْ الآنَ إلى السهرةِ ، وقد كانت الساعةُ قاربت الحاديةَ عشرةَ ، فقلتُ لَهُ : إنَّهُ ليسَ مِن عادتي السهرُ ، ولو سهرتَ أنتَ لم تستطع التبكيرَ معي غدًا ،

---

(١) في شرق البرازيل ٦٨. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ١٩ ، ٥١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٦٤ ، وفي شرق البرازيل ٣٢ ، ١٣٧ ، وفي جنوب البرازيل ٨٣ ، وفي غرب البرازيل ٢٤ ، ٢٨، ٤٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٦.

ثُمَّ اتفقتُ معهُ على أنْ يحضرَ في السابعةِ غدًا»[١]؛ فمِن خلالِ هذا الحوارِ الـمُفتتحِ بالطلبِ ندركُ عدمَ التكافؤِ ؛ حيثُ إنَّ الطلبَ جاءَ مِن طرفِ الدليلِ المتفوقِ على العبوديِّ بمعرفتِهِ لمسالكِ البلدِ ومَرَافِقِهِ.

وقد تكونُ العلاقةُ متكافئةً بينَ طرفِي الحوارِ ، فليسَ ثمةَ تفوقٌ لأحدِ الطرفينِ على الآخرِ ، مِن قبيلِ تلك الحواراتِ المبنيةِ على النِّقاشِ بينَ أطرافِ الحوارِ[٢] ، كما عليهِ الحالُ في النقاشِ التالي حولَ فكرةِ وضعِ حفلٍ لافتتاحِ جامعِ فوز دو قواسو (Foz do Iguaçu) ، حيثُ يقولُ العبوديُّ : «استشاروني في موضوعِ الاحتفالِ بافتتاحِ المسجدِ احتفالًا رسميًّا يدعونَ إليه رؤساءَ الدولِ الإسلاميةِ لإرسالِ ممثلينَ لهم ، وكذلك كبارَ الشخصياتِ في العالمِ الإسلاميِّ ، وقد زيَّنتُ لهم هذِهِ الفكرةَ وأعطيتُهم أسماءَ الأشخاصِ الذين تُسْتَحسنُ دعوتُهم مِن المملكةِ العربيةِ السعوديةِ»[٣].

ومِن قبيلِ ما تكافأَ فيهِ طرفا الحوارِ ، تلكَ الحواراتُ التي يكونُ قوامُها الأخبارُ أو التعليقاتُ المتبادلةُ بينَ المتحاورين ، مِن قبيلِ ما يلي : «أبديتُ لموظَّفٍ في الفندقِ عجبي مِن

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٥٤. ولمزيد أمثلة ينظر : في غرب البرازيل ٩٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٣٠ ، وفي شرق البرازيل ٨٣ ، وفي غرب البرازيل ٦٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٤.

(٢) ينظر : الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٥٣.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ١٧٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٤٦ ، ١١٣ ، وفي غرب البرازيل ٣٨ ، ٦٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٢٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٤٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٩.

كثرةِ الناسِ في هذِهِ الأيامِ في الشاطئِ ، فذكرَ أنَّ فيهم سياحًا كثيرًا جاؤوا مِن بلادِ البرازيلِ الجنوبيةِ الباردةِ في هذِهِ الأيامِ ليقضوا بعضَ الوقتِ في هذِهِ المنطقةِ المعتدلةِ»[١].

وفي حينِ يختلفُ الحوارُ في هذه المدونةِ على مستوى المرتبةِ والنمطِ فإنَّهُ يتمتعُ -غالبًا- بمستوًى لغويٍّ موحَّدٍ.

لغةُ الحوارِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

لقد حاورَ الرحالةُ العديدَ مِن أبناءِ الجالياتِ العربيةِ كما حاورَ العديدَ مِن البرازيليينَ ، وعلى «الرُّغمِ مِن إمكاناتِ الرحلةِ الواسعةِ في توليفِ اللغاتِ واللهجاتِ والأصواتِ»[٢] إلا أنَّ اللافتَ للنظرِ أنَّهُ ليسَ ثمَّةَ تفاوتٌ على مستوى اللغاتِ أو اللهجاتِ في الحوارِ ؛ فلم تخرج غالبُ الحواراتِ عن نطاقِ لغةِ الرحالةِ (الراوي) ؛ حيثُ تمَّت صياغةُ أقوالِ شخصياتِ الحوارِ بلسانِ وعبارةِ العبوديِّ[٣] رغمَ اختلافِ اللغةِ ، كما في حوارِ العبوديِّ مع إحدى النساءِ البرازيلياتِ ؛ حيثُ يقولُ : «طلبتُ مِن هذهِ المرأةِ البرازيليةِ المكالمةَ فكانَ أنْ أشارَت إلى محرابٍ صغيرٍ وقالت : ادخلْ فيهِ ففيه الهاتفُ»[٤] ، فلم ينقلْ العبوديُّ في هذا الحوارِ قولَ الشخصيةِ بلغتِها ولسانِها ، بلْ اكتفى بنقلِ المضمونِ بلغتِهِ ولسانِهِ مزيلًا بذلك القطيعةَ

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٦٦ ، وفي غرب البرازيل ١٠٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٩ ، ١٠٨ ، ١٤٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٦.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٣١.

(٣) ينظر : معجم السرديات : (خطاب غير مباشر) .

(٤) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٨. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٥٠ ، وفي غرب البرازيل ١٠٠ ، وفي شرق البرازيل ٦٨ ، ١٣٨ ، وفي جنوب البرازيل ٣٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٥٠.

التلفظيةَ بينَ تلفُّظِهِ وتلفُّظِ الشخصيةِ[1] ، ومثل ذلك كلّ حوارٍ لم يُراعَ فيه فارقُ اللغاتِ أو اللهجاتِ ، وربَّما يكونُ سببُ ذلك أنَّ المتلقيَ المستهدفَ بالكتابةِ قارئٌ يفهمُ ويقرأُ اللغةَ العربيةَ الفصحى فقط.

ومع تقيُّدِ العبوديِّ بالعربيةِ الفصحى في أغلبِ الحواراتِ -لكونِها لغتَهُ الرسميةَ- إلا أنَّ الحوارَ يظلُّ وليدَ بيئتِهِ الشفهيةِ اليوميَّةِ المباشرةِ البعيدةِ عن التكلُّفِ.

أسلوبُ الحوارِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

رُغمَ تقيُّدِ العبوديِّ بالمعجمِ الصحيحِ والتراكيبِ السليمةِ في الحوارِ إلا أنَّنا نلمسُ تأثرَ الحواراتِ بالأسلوبِ الشفهيِّ ؛ فَلَهُ شبهٌ بالشفهيِّ من عدةِ أوجهٍ[2] ندركُها من خلالِ البساطةِ التي اتسمت بِها الحواراتُ ، فنجدُ أنَّ كيفياتِ الأداءِ في الحواراتِ قائمةٌ على الأساليبِ البسيطةِ والمباشرةِ ، مثلَ الاستفهامِ أو السؤالِ المتبوعِ بالإجابةِ مِن الطرفِ الآخرِ[3] ، ولنقرأْ على سبيلِ المثالِ قولَ العبوديِّ : "توجدُ إلى الشمالِ مِن الجامعِ منطقةٌ سكنيةٌ سألتُ الإخوةَ عمَّا عرفوهُ مِن شعورِ أهلِها حينَ عَلِموا بأنَّ المسجدَ سيُبنى بقربِهم وهم مِن المسيحيينَ ، فأجابوا بأنَّهُ شعورُ الارتياحِ وربَّما شعورُ الغبطةِ ؛ لأنَّهُ سيكونُ مكانَ تجمعٍ مهمٍّ للعربِ ، والعربُ سمعتُهم في البرازيلِ طيبةٌ ، والشعبُ يحبُّهُم أكثرَ مِن أيِّ جاليةٍ أخرى -كما قالوا لنا- إضافةً إلى شعورِهم بأنَّ وجودَ المسجدِ هنا سيرفعُ مِن مستوى منطقتِهم ويجعلُها

---

(١) ينظر : معجم السرديات : (خطاب غير مباشر).

(٢) ينظر : معجم السرديات : (حوار).

(٣) ينظر: الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٩٥.

مرغوبةَ السُّكنى ، وهذا مِن شأنِهِ على المدى البعيدِ أنْ يرفعَ مِن أقيامِ العقاراتِ فيها»[1] ، إننا نجدُ في هذا المثال ملاحظةً يتبعُها سؤالٌ مباشرٌ متبوعٌ بإجابةٍ مباشرةٍ مِن الطرفِ الآخرِ ، كلُّ ذلك تمَّ دونَ أدنى كُلفةٍ أو إغراقٍ.

ومِن مظاهرِ البساطةِ والشفهيةِ : الميلُ إلى التعليلِ[2] في بعضِ الحواراتِ ، بحيثُ يقدَّمُ السببُ بشكلٍ مباشرٍ يوافقُ آنيةَ الشفهيِّ ، بعيدًا عن التعقيدِ أو الصعوبةِ ، مِن قبيلِ هذا الحوارِ : «سألتُ الدليلَ قائلًا : كنتُ أظنُّ أنَّ عددَ السودِ في هذِهِ المدينةِ يكونُ أكثرَ مما رأيتُهُ فيها ! فأجابَ قائلًا : تبلغُ نسبةُ السودِ في مدينةِ رصيفي الآنَ ٢٥٪ ، وكانت تلكَ النسبةُ تبلغُ في السابقِ٦٠٪ غيرَ أنَّ كثيرين منهم تغيَّرَت ألوانُهم إلى البياضِ الباهتِ ، أو إلى السمرةِ وخرجوا مِن دائرةِ السودِ»[3].

كما أنَّ مِن سماتِ البساطةِ والشفهيَّةِ في حواراتِ هذه المدونةِ : بناءُ الحوارِ على الطلبِ[4] ؛ فقد بُنيَت بعضُ الحواراتِ على الطلبِ المباشرِ ، مِن قبيلِ قولِ العبوديِّ : «وكنتُ طلبتُ مِن هؤلاءِ الإخوةِ الكرامِ أنْ يوصلوني إلى المكانِ الذي أستأجرُ مِنهُ سيارةً تنقلني مِن دورادسَ إلى كامبو قراندي ؛ لأنَّ رحلتي إلى سان باولو مِن مطارِ كامبو قراندي ستكونُ في الثالثةِ والنصفِ قبلَ الفجرِ...ولكنَّهم أبوا ذلك واستعظموه وقالوا : لا بدَّ أن تحملَكَ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٦٤. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ١٩ ، ٥١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٩ ، ١٧٢ ، وفي شرق البرازيل ٣٢ ، ٦٨ ، ١٣٧ ، وفي جنوب البرازيل ٨٣ ، وفي غرب البرازيل ٢٤ ، ٢٨أ ٤٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٦ ، ٥٠.

(٢) ينظر : الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٩٥.

(٣) في شرق البرازيل ١١٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١٠٩ ، وفي غرب البرازيل ٦١، والشرق الشمالي من البرازيل ٧٨.

(٤) ينظر : الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٩٥.

سيارتُنا إلى هناك ، وسوفَ يذهبُ معكَ أكثرُ مِن واحدٍ ، وبعدَ أخذٍ وردٍّ وقد أصرَرْتُ على أنْ لا أركبَ مع الشيخِ نورِ الدينِ لأنَّهُ كانَ قد حضرَ اليومَ إلى (كامبو قراندي)...»[١]؛ فنجدُ في هذا الحوارِ طلبًا مباشرًا غيرَ مسبوقٍ بشيءٍ مِن التمهيدِ أو التقديمِ.

ويُعدُّ (العرضُ)[٢] أحدَ الأساليبِ التي تقتربُ ببعضِ حواراتِ هذه المدونةِ مِن الأسلوبِ الشفهيِّ واليوميِّ ؛ إذ هو مِن المداولاتِ اليوميةِ المعهودةِ بينَ الناسِ ، ومِن ذلك ما جرى في شأنِ طبيبٍ من مسيحيي لبنانَ اشتهرَ بتعاونِهِ وخدمتِهِ للجاليةِ المسلمةِ في (مارنغا) ؛ حيثُ يقولُ العبوديُّ : «عرضتُ عليهِ الإسلامَ بعدَ أنْ رأيتُهُ صلى معنا صلاةَ الظهرِ ، فقالَ إذا سافرَ الإخوةُ أعضاءُ الجمعيةِ الإسلاميةِ إلى بلادِكم فسأكونُ معهم»[٣].

ويندرجُ ضمنَ سماتِ البساطةِ ما يصحبُ الحوارَ «من هيئاتٍ وإيماءاتٍ وحركاتٍ وكلِّ ما يخبرُ عن ظروفِ التواصلِ»[٤] المباشرةِ ، ولنأخذْ مثالًا على ذلك الحوارَ الإشاريَّ التالي المدرجَ ضمنَ حدثِ زيارةِ جزيرةِ الشمسِ والوصولِ إليها عبرَ الجسرِ المعلَّقِ ، إذ يقولُ العبوديُّ : «أعجبنا تعليقُهُ فوقَ مياهِ النهرِ الذهبيةِ التي أَفعمَت مجرى النهرِ فوجدناهُ مغلقًا

---

(١) وفي غرب البرازيل ٩٤. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٣٠ ، وفي شرق البرازيل ٨٣ ، وفي غرب البرازيل ٦٣.

(٢) ينظر : الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٩٥.

(٣) وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٠٨. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٦٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٠٨ ، وفي غرب البرازيل ١٠٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٤.

(٤) معجم السرديات : (حوار).

بقفلٍ مِن الحديدِ مما يلي ضفةَ النهرِ التي نحنُ عليها وأُسرةٌ فيهِ يشيرونَ إشارةً لبعدِهِم- أنْ لا شيءَ الآنَ في المطعمِ فأشرنا إليهم أنَّنا نريدُ رؤيةَ المكانِ»[1].

ويمكنُ عدُّ التعبيرِ عن الشعورِ أحدَ سماتِ البساطةِ والشفهيةِ في الحوارِ ، وقدْ تضمَّنتْ هذه المدونةُ عددًا من الحواراتِ تعبِّرُ عن شعورِ العبوديِّ بالعَجبِ تجاهَ شيءٍ ما ، مِن قبيلِ قولِهِ : «عندما أبديتُ للأخِ خالدِ حيمورَ عجبي مِن كثافةِ الأعشابِ والأشجارِ وشمولِ الخضرةِ في هذِهِ المدينةِ قالَ : لاعجبَ مِن ذلك لأنَّها عاصمةُ ولايةِ (ماتو قروسو) التي تعني الأعشابَ الكثيفةَ ؛ فماتو : عشبٌ ، وقراسو : كثيفٌ باللغةِ البرتغاليةِ ، وقد أسمَوها بهذا الاسمِ لكثرةِ أعشابِها وكثافةِ نباتِها وشمولِ ذلك لكافةِ أرجائها»[2].

وإلى كلِّ ما مضى فإنَّ البساطةَ تظهرُ في مضامينِ الحواراتِ ومعانيها ؛ إذ تعتمدُ في جلِّها على «تقديمِ بعضِ المعلوماتِ في حدودِ مواضيعِ الأقوالِ»[3] ؛ فليسَ ثمَّةَ تشتيتٌ للمتلقي أو إحالاتٌ لأشياءَ ماضيةٍ أو لاحقةٍ ، ومِن شأنِ هذِهِ الآنيَّةِ في الطرحِ أنْ تعطيَ الحوارَ خصوصيةَ الشفهيةِ والبساطةِ ، ولننظرْ مثلًا في هذا الحوارِ : «ولذلك قالوا : إنَّ تربيةَ الأبقارِ هنا يصحبُها أيضًا تربيةُ الطيورِ كالدجاجِ ، أمَّا الأغنامُ فإنَّ هناك ولاياتٍ أخرى تنتشرُ فيها أكثرَ مِن ولايةِ (ماتو قروسو) هذِهِ القريبةِ مِن خطِّ الاستواءِ ، وبهذِهِ المناسبةِ سألتُهم عن سعرِ اللحمِ البقريِّ عندَهم ، فأجابوا أنَّ المتوسطَ مِنهُ يباعُ بدولارٍ أمريكيٍّ ونصفٍ للكيلو الواحدِ

---

(١) وفي غرب البرازيل ٩٨. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٢٨ ، ٦٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٣٨ ، ٦٣ ، ١٠٧.

(٢) في غرب البرازيل ١٧. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٢١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٣٧.

(٣) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ١٤١.

والجيدَ بها يساوي دولارينِ ، ومعنى الجيدِ منهُ أنْ يكونَ أيضًا خاليًا مِن العظمِ»[1] ، فلو تأمَّلنا هذا الحوارَ لوجدنا أنَّهُ مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بموضوعِ الحديثِ قبلَهُ.

وإذْ تطرَّقنا للمضامينِ فإنَّنا نجدُ تفاوتًا ملحوظًا مِن حيثُ كميَّةُ الكلماتِ والأسطرِ التي تتكونُ منها حواراتُ هذه المدونةِ ، مما يُحَتِّمُ علينا دراسةَ الكمِّ في الحوارِ.

كمُّ الحوارِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

يختلفُ الحيِّزُ الذي يشغلُهُ الحوارُ في هذه المدونةِ باختلافِ المواضيعِ المطروقةِ ؛ فتكثرُ الكلماتُ وتتعدَّدُ الأسطرُ عندما يكونُ للحوارِ قيمتُهُ وفائدتُهُ العلميةُ -الجغرافيةُ أو التاريخيةُ أو الاجتماعيةُ أو الاقتصاديةُ أو الدينيةُ- ، وتنخفضُ الكلماتُ وتقلُّ الأسطرُ في مقابلِ ذلك.

ولنتبينَ ذلك فإنَّنا نثبتُ حوارَ العبوديِّ الآتي في معرِض الحديثِ عن زيارتِهِ مدينةَ كرسيوما (Karasuma) البرازيليةَ ، حيثُ يقولُ : «وسألتُهم بهذِهِ المناسبةِ عن سُكّانِ هذِهِ المنطقةِ قبلَ أنْ يعمرَها الأوربيون ويكتشفوها ، فأجابوا أنَّهم السكانُ الأصلاءُ الذين كانوا موجودين في قارةِ أمريكا الجنوبيةِ قبلَ وصولِ الأوربيين ، ويطلَقُ عليهم اسمُ الهنودِ معَ أنَّهم مختلفون في خصائصِ الأجسامِ والعاداتِ ، حتى المظاهرِ في بعضِ الأحيانِ ، وذلك بسببِ اتساعِ المنطقةِ وتباعدِ أقسامِها بعضِها عن بعضٍ ، قالوا : وقد انقرضوا الآنَ أو كادوا ؛ لأنَّهم اندمجوا في السكانِ الذين كثروا وكانوا مِن بلدانٍ مختلفةٍ ولم يكنْ التمييزُ العنصريُّ سائدًا عندهم ، فقلتُ لهم إنَّ اسمَ النهرِ الذي مرَرْنا عليهِ قبلَ الوصولِ إلى (كرسيوما) -وهو (أرارانقوا)- والبلدةِ التي أُقيمت على مصبِّهِ في البحرِ وسُميَتْ باسمِهِ قد استرعى انتباهي إلى

(١) في غرب البرازيل ٢٨. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٢١ ، وفي شرق البرازيل ٦٨ ، ١٣٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٦.

كونِهِ اسمًا هنديًّا أمريكيًّا ، فذكروا أنَّ ذلك صحيحٌ ، وأشاروا إلى محلٍّ لا يبعدُ عن بلدةِ (كرسيوما) هذهِ بأكثرَ مِن (٢٤) كم»[١]؛ فقد أثبتَ العبوديُّ هذا الحوارَ الطويلَ ليكشِفَ للمتلقي هذهِ الفئةَ الغامضةَ.

ومثلُ ذلك حوارُ العبوديِّ مع بعضِ العاملينَ في الفندقِ ، حيثُ يقولُ : «سألتُ الفندقَ عن صرفِ الدولارِ فذكروا أَنَّهُ ٢٦٥ كروزادو ، ولا يمكنُنِي أنْ أرضى بهذا الغبنِ ؛ لذلك ذهبتُ إلى إدارةِ فندقِ (تروبكال) الذي أسكنُ فيه وطلبتُ أنْ يُحضِروا مَن يتكلمُ الإنكليزيةَ ، وهو الوحيدُ فيها وهو كاتبٌ عندَهم ، فأحضروهُ فأخبرتُهُ بالأمرِ فذهبَ بي إلى مديرِ الفندقِ فقلتُ لَهُ : إنَّ صرفَ الدولارِ الآنَ بالسِّعرِ الموجودِ في الفندقِ ناقصٌ ولا يمكنُ أنْ أرضى بِهِ ، فقالَ : هذا صحيحٌ ، ونحنُ لا نريدُ أنْ نصرفَ لك صرفًا ناقصًا ولكنَّ هذا هو الصرفُ الرسميُّ ، فقلتُ : إنَّني أريدُ أنْ أذهبَ اليومَ مع جولةٍ سياحيةٍ في المدينةِ وليست معي كروزاوات أستطيعُ أنْ أدفعَها لأهلِ الجولةِ ولا يمكنُني الانتظارُ حتى يفتحَ أهلُ السوقِ يومَ الاثنينِ ؛ فهل يمكنُ أنْ تضمنوا لشركةِ الجولةِ السياحيةِ المبلغَ الذي يريدونَهُ مني إلى يومِ الاثنينِ عندما أصرفُ الدولارَ بالسعرِ الزائدِ المعتادِ ؟ فقالَ المديرُ : بلْ يمكنُنا أنْ ندفعَ المبلغَ للجولةِ ونقيِّدَهُ على حسابِك في الفندقِ ، وإذا أردتَ المغادرةَ دفعتَهُ مع حسابِ الغرفةِ»[٢] ، لقد استطاعَ العبوديُّ مِن خلالِ هذا الحوارِ الطويلِ أنْ يكشفَ عن جانبٍ مهمٍّ مما تميزَ بِهِ الشعبُ البرازيليُّ ، حيثُ طيبُ الأخلاقِ وتقديرُ السائحِ والبعدُ عن استغلالِهِ.

---

(١) في جنوب البرازيل ٨٣.

(٢) والشرق الشمالي من البرازيل ١٢٥. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٦٨ ، ١٣٨ ، وفي غرب البرازيل ١٧ ، ١٠٢ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٦ ، ٤١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٣٣ ، ١٥٠ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٨.

وقد يكونُ الحوارُ مختصرًا أو قصيرًا ، يثبتُهُ الرحالةُ لمجردِ أنَّهُ حدثٌ مِن أحداثِ الرحلةِ اليوميةِ ، دونَ أن يتعمقَ في التفصيلِ أو التركيزِ ، من قبيلِ قولِ العبوديِّ : «وانطلقَ السائقُ بسيارتِهِ ، ولم يكنْ يعرفُ شيئًا مِن الإنكليزيةِ ، فثرثرتُ معهُ ضمنَ كلماتٍ معدودةٍ مِن البرتغاليةِ لا تُسمنُ ولا تغني مِن جوعٍ ولكنَّها أحسنُ مِن السكوتِ»(١). ومثلُهُ قولُهُ : «وقد سألتُ أصحابي الذين في السيارةِ عن الغرضِ مِن رفعِ هذهِ البيوتِ عن الأرضِ هنا فأجابوا بما كنتُ عرفتُهُ مِن قبلُ وهو أنَّ ذلك لاتقاءِ الرطوبةِ»(٢).

وقد يكونُ الداعي إلى الاختصارِ والقصرِ هو صعوبةُ إثباتِ الحوارِ كاملًا أو البعدُ عن الاستطرادِ ، أو عدمُ الفائدةِ والأهميةِ.

وظائفُ الحوارِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

تتضحُ أهميةُ الحوارِ مِن خلالِ ما يؤديهِ مِن وظائفَ ومهامٍّ ، ولعلَّ أهمَّ وظائفِ الحوارِ وأعمَّها : «فسحُ المجالِ لأصواتٍ كثيرةٍ في القصةِ يمكنُ أنْ يمثلَ كلٌّ منها رأيًا أو إحساسًا أو رؤيةً خاصةً مدارُها قضايًا مختلفةً»(٣). وللحوارِ أهميتُهُ الوظيفيةُ -أيضًا- مِن حيثُ ضخُّ الحيويةِ في شرايينِ النصِّ ؛ فمِن خلالِهِ تتعدَّدُ الشخصياتُ وتختلطُ الأصواتُ وتتمُّ المراوحةُ بينَ أساليبِ السردِ ، مما يطردُ المللَ والسأمَ عن المتلقي.

---

(١) في شرق البرازيل ٣٠.

(٢) على ضفاف الأمازون ١٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ١١٣ ، ٣٥ ، وفي شرق البرازيل ٦٦ ، ٩٥، ١١٠ ، وفي غرب البرازيل ٦٣ ، ٨١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٧٨ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٤٦.

(٣) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٤٥.

ويتمتَّعُ الحوارُ في هذه المدونةِ بمجموعةٍ مِن الوظائفِ ، سواءً أكانت هذِهِ الوظائفُ داخليةً تخدمُ النصَّ أم خارجيةً ؛ مِن قبيلِ ما يتجاوزُ «مادةَ النصِّ الظاهرةَ ليخدمَ غاياتٍ أبعدَ ؛ مثلَ ما يتصلُ بوظيفةِ الكاتبِ ومفهومِ القصةِ والعلاقةِ بالواقعِ والاتصالِ بحركةِ التاريخِ والأيديولوجيا ورؤيةِ الإنسانِ ورؤيةِ العالمِ وغيرِ ذلك مِن الأمورِ التي تتجاوزُ بوتقةَ عالمِ القصةِ»[1]. ولقد حاولنا فيما يلي الإلمامَ ببعضِ تلك الوظائفِ ، وهي :

١ - إلقاءُ الضوءِ على الشخصيةِ :

يمكنُ أنْ نتخذَ مِن الحوارِ أداةً نعرفُ مِن خلالِـها بعضَ سماتِ الشخصيةِ المتحدثةِ ؛ فقدْ يكشفُ الحوارُ عن بعضِ «ملامحِ الشخصيةِ ومكوناتِها النفسيةِ والاجتماعيةِ»[2]. ولنقرأْ مثلًا حوارَ العبوديِّ مع أحدِ ركابِ الطائرةِ -والذي ترافقُهُ زوجتُهُ- ، وقد انعقدَتْ بينَهُم وبينَ العبوديِّ صداقةٌ خفيفةٌ ؛ حيثُ يقولُ : «قالَ الزوجُ عندما سألْتُهُ عن أصلِهِ وأصلِ زوجتِهِ -لأنَّ شكلَهما يوحي بأنَّهُما قدما مِن أوروبا- ؛ أجابَ : أنا برازيليٌّ وبعدَ فترةٍ أوضحَ أنَّهُ مِن أصلٍ ألمانيٍّ ، وقالَ : إنَّنا ذاهبانِ مثلكُما إلى (فوز دو قواسو) وأنا على استعدادٍ بل يشرفُني أنْ آخذكُما بسيارتي مِن المطارِ إلى الفندقِ الذي ستنزلونَ فيهِ فشكرناهُ على عرضِهِ الكريمِ»[3]؛ إنَّنا ومِن خلالِ هذا الحوارِ القصيرِ نستطيعُ أنْ نتعرفَ على أحدِ الشخصياتِ التي التقاها العبوديُّ ؛ فلقد عرَفْنا مِن خلالِ هذا الحوارِ أنَّ الـمُحاورَ برازيليٌّ متزوجٌ وأنَّهُ مِن أصلٍ ألمانيٍّ ، كما يعكسُ الحوارُ مواطنةَ هذِهِ الشخصيةِ حيثُ أظهرَ انتماءَهُ إلى البرازيلِ ولم يقلْ

(١) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ١٠٢.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٢٦.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ٤٦.

أَنَّهُ أَلمانيٌّ وإنَّما اعترفَ بأَنَّهُ برازيليٌّ يرجعُ إلى أصولٍ ألمانيَّةٍ ، ومِن خلالِ الحوارِ أيضًا استطعنا الاطلاعَ على بعضِ ما جُبِلَت عليه نفسُ هذا البرازيليِّ مِن الكرمِ والسماحةِ واللطفِ وروحِ المبادرةِ.

ويمكنُ أنْ يؤخذَ مما يردُ في الحوارِ من معلوماتٍ صورةً عامةً عن شعبٍ بأكملِهِ أو جاليةٍ بأكملِها ، ولنأخذْ مثلًا الحوارَ الآتي مع سُكانِ جزيرةِ الشمسِ : «عرضنا عليهم أنْ نعطيَهم شيئًا مقابلَ عنائهم في فتحِ الجسرِ لنا ثُمَّ تصوير المكانِ فامتنعوا أنْ يأخذوا شيئًا مِن النقودِ وقالوا : نرجو أنْ تكونَ الصورةُ التي التقطتموها جيدةً. وهذا مثلٌ آخرُ مِن أمثلةِ سهولةِ أخلاقِ هؤلاءِ القومِ البرازيليينَ وحسنِ معاملتِهم»[1]؛ فمِن خلالِ هذا الحوارِ يمكنُنا معرفةُ شيءٍ مِن أخلاقِ هذِهِ الأسرةِ من الكرم والمبادرة والعفَّة والمساعدة وما إلى ذلك ، ولكنَّ العبوديَّ يريدُ أيضًا أنْ يتخذَ مِن هذا الحوارِ مثالًا عامًّا يعبِّرُ عن سهولةِ أخلاقِ البرازيليين وحسنِ معاملتِهم كما يقولُ.

٢- التوطئةُ والتمهيدُ للأحداثِ :

ربما أسهمَ الحوارُ في التقديمِ والتمهيدِ لأحداثِ الرحلةِ اللاحقةِ ؛ فقد يكشفُ عن العزمِ على زيارةِ مكانٍ معينٍ أو القيامِ ببرنامجٍ محدَّدٍ وهكذا... مِن قبيلِ الحوار الآتي : «قال رئيسُ الجمعيةِ الإسلاميةِ في (لوندرينا) وإخوانُهُ : إنَّنا سوفَ نتناولُ طعامَ الغداءِ في أحدِ مطعمينِ لبنانيٍّ مشهورٍ و(قاووشٍ) كبيرٍ فلتخترْ ما تريدُ منها ، فقلتُ لهم : إنَّ الطعامَ اللبنانيَّ

---

(١) في غرب البرازيل ١٠٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٠٧ ، ١٥٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٤ ، ١٢٥ ، في شرق البرازيل ٨١ ، ٩٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٦.

أعرفُهُ وأريدُ الآخرَ»[1]؛ فلقد اتخذَ العبوديُّ مِن هذا الحوارِ أداةَ تمهيدٍ لأحدِ أحداثِ الرحلةِ المقبلةِ وهو حدثُ تناولِ الغداءِ الجماعيِّ ؛ فقد جاءَ ذكرُ الحدثِ بعدَ هذا الحوارِ ، إذْ يقولُ : «جلسنا إلى مائدةٍ طويلةٍ مؤلفةٍ مِن عدَّةِ موائدَ»[2].

٣- الإخبارُ والإعلامُ :

يمكنُ للحوارِ أنْ يكونَ قالبًا مناسبًا تُلقى فيهِ الأخبارُ والمعلوماتُ ؛ فيتمُّ مِن خلالِهِ «الإعلامُ بأحداثٍ أو معطياتٍ سابقةٍ أو جديدةٍ صحيحةٍ أو خاطئةٍ ، وقد يكونُ هذا الحوارُ محملَ أمورٍ جديدةٍ على المخاطبِ أو على القارئِ أو عليهما معًا»[3].

ولنأخذْ مثالًا على ذلك ما جرى من حوارٍ في أثناءِ اجتماعِ العبوديِّ بعددٍ مِن مسلمي كورتيبا (Curitiba) ، حيثُ يقولُ : «اكتملَ عِقدُهم في جلسةٍ مفيدةٍ جدًّا ، وفيهم شخصٌ يُسمى الخطيبُ أثنى وبالغَ في الثناءِ ؛ لأَنَّهُ مِن الذين كانوا حوليَ عندما وصلتُ إلى البرازيلِ في الزيارةِ الأولى إلى البرازيلِ في عامِ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م ، وقالَ : إنَّها كانت أوَّلَ زيارةٍ لمسؤولٍ سعوديٍّ إلى البرازيلِ ، وفاتحةَ خيرٍ في التعارفِ والعلاقاتِ الطيبةِ ما بينَ المسلمينَ في البرازيلِ والمسؤولينَ عن العملِ الإسلاميِّ في المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، وقالَ : إنَّ الآلافَ العشرةَ مِن الدولاراتِ التي سعيتَ بِها لأهلِ (لوندرينا) مِن أجلِ إقامةِ المسجدِ كانت أوَّلَ مساعدةٍ تصلُ مِن المملكةِ لهذا الغرضِ ، وكذلك الدعاةُ الذين وصلَ منهم الأخُ الشيخُ أحمدُ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٣٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٣٢ ، ١٧٢ ، في شرق البرازيل ١٥٥ ، وفي غرب البرازيل ٩٤.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ١٣٠.

(٣) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٦٦.

المحايريُّ ، فقلتُ لَهُ : إنَّ هذا واجبٌ أحمدُ الله تعالى على أنْ وفَّقني للقيامِ بِهِ أو ببعضِهِ»[1]؛ فيمكنُنا أنْ نخرجَ مِن خلالِ هذا الحوارِ بمجموعةٍ مِن الأخبارِ والمعطياتِ وَرَدَت عرضًا في ثنايا هذا الحوارِ ؛ منها : نبأُ زيارةِ العبوديِّ الأولى إلى البرازيلِ.

ومن قبيلِ ذلك حوارُ العبوديِّ مع بعضِ رفاقِهِ في الرحلةِ من البرازيليين ، حيثُ يقولُ : «وسألتُهم بهذِهِ المناسبةِ عن سكانِ هذِهِ المنطقةِ قبلَ أن يعمرَها الأوربيون ويكتشفوها ، فأجابوا أنَّهم السكانُ الأصلاءُ الذين كانوا موجودين في قارَّةِ أمريكا الجنوبيةِ قبلَ وصولِ الأوربيونَ ، ويطلَقُ عليهم اسمُ الهنودِ مع أنَّهم مختلفون في خصائصِ الأجسامِ والعاداتِ حتى المظاهرِ في بعضِ الأحيانِ ، وذلك بسببِ اتساعِ المنطقةِ وتباعدِ أقسامِها بعضِها عن بعضٍ ، قالوا : وقد انقرضوا الآنَ أو كادوا ؛ لأنَّهم اندمجوا في السكانِ الذين كثروا وكانوا مِن بلدانٍ مختلفةٍ ، ولم يكنْ التمييزُ العنصريُّ سائدًا عندَهم ، فقلتُ لهم : إنَّ اسمَ النهرِ الذي مَرَرنا عليهِ قبلَ الوصولِ إلى (كرسيوما) وهو (أرارانقوا) والبلدةِ التي أقيمت على مصبِّهِ في البحرِ وسُميَتْ باسمِهِ قد استرعى انتباهي إلى كونِهِ اسمًا هنديًّا أمريكيًّا ، فذكروا أنَّ ذلك صحيحٌ ، وأشاروا إلى محلٍّ لا يبعدُ عن بلدةِ (كرسيوما) هذهِ بأكثرَ مِن (٢٤) كم»[2] ، فلقد تضمَّنَ هذا الحوارُ مجموعةً مِن المعطياتِ والأخبارِ المهمةِ عن الهنودِ الحمرِ.

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٣٩.

(٢) في جنوب البرازيل٨٣. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٤٠ ، ٦٤ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٦ ، ١٠٨، ١٣٣ ، وفي شرق البرازيل ٦٨ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ، وفي غرب البرازيل ٢٤ ، ٢٨ ، ٧٣ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٩، ٢١.

٤- **التعليلُ** :

تضمَّنت بعضُ حواراتِ هذه المدونةِ بعضَ التعليلاتِ لما قد يُشْكِلُ فهمُ سببِهِ أو علَّتِهِ ، ومِن تلك الحواراتِ قولُ العبوديِّ : «وقد أبديتُ لموظَّفٍ في الفندقِ عجبي مِن كثرةِ الناسِ في هذِهِ الأيامِ في الشاطئِ ، فذكرَ أنَّ فيهم سياحًا كثيرًا جاءوا مِن بلادِ البرازيلِ الجنوبيةِ الباردةِ في هذِهِ الأيامِ ليقضوا بعضَ الوقتِ في هذِهِ المنطقةِ المعتدلةِ»(١).

٥- **التفسيرُ**(٢):

وتتمثلُ وظيفةُ التفسيرِ في الحواراتِ المعنيةِ بتفسيرِ عبارةٍ أو ظاهرةٍ أو حدثٍ معيَّنٍ ، مِن ذلك ما تضمَّنَهُ هذا الحوارُ : «وقد لاحظَت الدليلةُ السياحيةُ أنَّني أكتبُ في بعضِ الأحيانِ في مذكرةٍ صغيرةٍ بيدي فسألَت الأخَ المرافقَ (بدوي فقوسة) عمَّا أكتبُهُ ، لأنَّها تعرفُ أنَّني لا أحسنُ البرتغاليةَ -لأنَّني قد استفهمتُها بعضَ الأشياءِ بالإنكليزيةِ- ، فأجابَها بقولِهِ : إنَّهُ كاتبٌ يكتبُ مشاهداتٍ وينشرُها في البلدانِ العربيةِ وسوفَ تُغري كتاباتُهُ طائفةً مِن قرائها بالمجيءِ إلى هنا فيكثرُ عندكُم السياحُ ، فضحكت وقالت : إنَّهُ يسرُنا ذلك»(٣).

---

(١) والشرق الشمالي من البرازيل ٣٧. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٣٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٨ ، وفي شرق البرازيل ١١٠ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٩ ، وفي غرب البرازيل ٦١.

(٢) ينظر : الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٦٧.

(٣) على ضفاف الأمازون ٥١. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٣٢ ، وفي غرب البرازيل ١٧.

٦- التَّعَدُّدِيَّةُ :

يمثلُ الحوارُ أداةً للتعبيرِ «عن اختلافِ الرؤى وتباينِ المواقفِ ؛ لأنَّ كلَّ شخصيةٍ هنا تعبرُ بذاتِها...عن أحاسيسِها وأفكارِها وهذا ما يُمَكِّنُ مِن إضاءةِ الموضوعِ الواحدِ مِن زوايًا مختلفةٍ ، ولهذا عدَّهُ (ميتران) أداةَ تعدُّدِ المعنى في مستوياتٍ كثيرةٍ»[١] ، ولئن هيمنَ الرحالةُ (البطل) على لغةِ الحوارِ فإنَّ المعانيَ والأفكارَ باقيةٌ لأصحابِها ، إذ «يظلُّ الحوارُ في الرحلةِ دالًا على الرأيِ أو الموقفِ»[٢] الخاصِّ بالمتحدثِ ، ومِما يوضِّحُ ذلك ما جاءَ في ثنايا هذا الحوارِ مِن اختلافٍ بين متحاورينِ : «وقالَ أحدُ الرفاقِ لصاحبةِ المقهاةِ -وزوجُها حاضرٌ ولكنَّهُ لم يسمعْ كلمتَهُ- (أميقا) ومعناهُ : يا صديقتي -يجامِلُها بهذِهِ الكلمةِ- فأنكرَ عليه الأخُ صالحُ البجعةُ ذلك وقالَ ماذا لو سمعَكَ زوجُها؟ ودارَ بينَهما نقاشٌ حولَ المرأةِ البرازيليةِ»[٣].

(١) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٤٢.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٢٦.

(٣) في جنوب البرازيل ١١٣. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٤٦، ١٧٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٩.

الفصل الثاني :

نص الرحلة نصًّا جامعًا :

*المبحث الأول : السيرة الذاتية.

*المبحث الثاني : اليوميات.

*المبحث الثالث : التقرير.

إنَّ تداخلَ الأجناسِ وتحاورَها فيما بينَها واشتراكَها في بعضِ الخصائصِ أمرٌ لا يمكنُ رفضُهُ ، ولاسيَّما إذا كانَ ذلك ممَّا يسهمُ في تعزيزِ النصِّ الأساسيِّ ولا يقوِّضُ حدودَ الأجناسِ المتداخلةِ ويضيِّعُ هويتَها[١].

و«من أهمِّ خصائصِ الرحلةِ تميُّزُها بالحواريَّةِ بينَ مختلفِ أنساقِها الخطابيةِ الـمُشكِّلَةِ لبنيتِها السرديةِ ، ومن ثَمَّ فهي ملتقًى لتعدُّدِ الخطاباتِ ، وبالتالي فهي ممارسةٌ توليفيةٌ (مونتاج) مِن قِبَلِ الرحالةِ في أثناءِ استعمالِهِ لمختلفِ الأنظمةِ اللغويةِ والتواصليةِ»[٢].

إنَّ الرحلةَ بهذا المعنى «شكلٌ أدبيٌّ هجينٌ ينمازُ بتَعدُّدِ أوجهِهِ وتمظهراتِهِ إلى حدِّ أنَّهُ يمكنُ القولُ : إنَّهُ جنسٌ متكاملٌ يحطِّمُ قانونَ صفاءِ النَّوعِ ، وذلك بإدماجِهِ أنماطًا خطابيةً متنوعةً من حيثُ الأشكالُ والمحتوياتُ...

إنَّ مفهومَ الرحلةِ يطالُ مفهومَ الأدبِ بمعناهُ العامِّ ؛ ذلك لأنَّ هذا الجنسَ يشملُ الأدبيَّ وغيرَ الأدبيِّ...فهي جنسٌ عابرٌ للأجناسِ ، أو جنسٌ عَبْر ـ أجناسيّ ، ولربَّما جازَ لنا أنْ نقولَ بأنَّها جامعُ الأجناسِ»[٣] ، ولا يعني ذلكَ انفلاتَ النصِّ الرحليِّ أو اضمحلالَهُ ؛ ففي حينِ تنفتحُ «الرحلةُ على جنسٍ مِن الأجناسِ ، أو نمطٍ مِن الكتابةِ أو الكلامِ ، يبرزُ الحوارُ بينَ هذين المستويينِ عن طريقِ جدلٍ ثنائيٍّ يلحمُ أطرافَهُ (جامعُ النصِّ) المجسَّدُ في الناظمِ المركزيِّ للرحلةِ ، ناظمِ السفرِ»[٤] ، بحيثُ تكونُ تلك الأجناسُ والأنماطُ «خادمةً

---

(١) ينظر : الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق ٥١.

(٢) أدبية الرحلة ١٠.

(٣) الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية ٩٤.

(٤) ينظر: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٥٥.

لفعلِ السفرِ ومكملةً لَهُ ، مبرزةً بهذا الفعلِ خصوصيةً أخرى لهذا النصِّ وهي قدرتُهُ على استيعابِ الأشكالِ السرديةِ المختلفةِ مع احتفاظِهِ بتميُّزِهِ عنها»[1].

الرحلةُ إذًا سفرٌ «يسمحُ بالسفرِ عبرَ المكانِ والأجناسِ والأنساقِ والكلماتِ ، حوارًا وتحويلًا وتفسيرًا ، ولا شكَّ أنَّ هذِهِ الوظيفةَ التي يمتلِكُها هذا المكونُ المركزيُّ -مكونُ السفرِ- تقتضي وجودَهُ وانتشارَهُ عبرَ مراحلِ الرحلةِ -ذهابًا وإيابًا- مما يسمحُ باستيعابِ مختلفِ المكوناتِ الأخرى وإدماجِها في سياقِ البنيةِ المهيمنةِ ؛ بنيةِ السفرِ أو الارتحالِ»[2].

ولهذا الانفتاحِ والتداخلِ وظيفتُهُ المهمةُ المتمثلةُ في تحقيقِ النشوةِ وطردِ السأمِ والمللِ في أثناءِ عمليةِ التلقي[3] ، وذلك مِن خلالِ «نقلِ السَّردِ مِن الرتابةِ إلى التجدُّدِ والمفاجأةِ بفضلِ الأشكالِ المحتضَنَةِ وتنوُّعِها وما تشكِّلُهُ مِن أهميةٍ في مسارِ البنيةِ السرديةِ ، سواءً في شكلِ متخللاتٍ أو مكوناتٍ ، وضمنَ هذا التفاعلِ والتبادلِ المغذِّي تتصادى البنياتُ والأشكالُ داخلَ دائرةٍ متحركةٍ ومرنةٍ تطبعُ النصَّ بتلويناتٍ منسجمةٍ»[4].

وهكذا فإنَّهُ «يمكنُ رصدُ مجموعةَ أشكالٍ ذاتِ تأثيرٍ وحضورٍ في النصِّ الرحليِّ تتحولُ إلى عناصرَ أساسيةٍ في نسيجِ البناءِ النصيِّ والدلاليِّ ، وذلك بدرجاتٍ متفاوتةٍ مِن مؤلفٍ

---

(١) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٨.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٤.

(٣) تداخل الأنواع الأدبية ١٢.

(٤) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٣٦.

لآخرَ...لكنَّ السؤالَ الجوهريَّ الذي يوجِّهُ هذا الجانبَ هو رصدُ كيفيةِ حضورِ وتمظهرِ هذِهِ الأشكالِ داخلَ النصِّ الرحليِّ وتفاعلِها بصفتِها بنياتٍ صغرى تدعمُ البنيةَ الرحليةَ»[1].

وحيثُ إنَّ الرحلاتِ المدروسةَ -مثلَ غيرِها- لا تكادُ تخلو مِن بعضِ الحواريةِ والتداخلِ مع أكثرَ مِن جنسٍ أو شكلٍ أو نمطٍ ، فإنَّني سأحاولُ فيما يلي دراسةَ حضورِ وتمظهرِ ثلاثةٍ مِن الأنواعِ الكتابيةِ التي تداخلت مع بنيةِ رحلاتِ هذه المدونةِ بصفتِها بنًى صُغرى تدعمُ البنيةَ الكليَّةَ لهذه الرحلاتِ ، وهذِهِ الثلاثةُ هي : السيرةُ الذاتيةُ واليومياتُ والتقريرُ.

---

(١) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٣٧.

المبحث الأول :

السيرة الذاتية

يمكنُنا بدايةً تحديدُ مصطلحِ السيرةِ الذاتيةِ بأنَّهُ : «سردُ كاتبٍ (ذات) لأجزاءٍ مِن حياتِهِ الشخصيةِ بأسلوبٍ أدبيٍّ»[١]، أو أنَّهُ كما حدَّدَهُ فيليب لوجون (PHILIPE LEJEUNE) : «حكيٌ استعاديٌّ نثريٌّ يقومُ بِهِ شخصٌ واقعيٌّ عن وجودِهِ الخاصِّ وذلك عندما يركِّزُ على حياتِهِ الفرديةِ وعلى تاريخِ شخصيتِهِ»[٢].

إنَّ للسيرةِ الذاتيةِ حضورًا أ «داخلَ البناءِ العامِّ وبينَ ثنايا الدلالاتِ في أيِّ نوعٍ مِن النصوصِ الرحليةِ ، تتفاوتُ تمظهراتُهُ وهيمنتُهُ باعتبارِهِ بنيةً منتشرةً تتحققُ على مستوياتٍ وبدرجاتٍ متباينةٍ مِن نصٍّ لآخرَ»[٣] ؛ وذلك أنَّ «حاجةَ المرءِ للتعبيرِ عن ذاتِهِ أمرٌ طبيعيٌّ عندَ الناسِ جميعِهم...الأمرُ الذي جعلَ مِن اعتبارِ السيرةِ الذاتيةِ جنسًا أدبيًّا مستقلًّا في الأدبِ العربيِّ إشكاليةً كبيرةً...غيرَ أنَّ السيرةَ الذاتيةَ تبقى نوعًا مِن الأدبِ الحميمِ الذي هو أشدُّ لصوقًا بالإنسانِ مِن أيةِ تجربةٍ أخرى يعانيها»[٤].

وتلتقي السيرةُ الذاتيةُ بالرحلةِ من جهةِ أنَّها نوعٌ أدبيٌّ مفعمٌ بالحياةِ وزاخرٌ بالتجاربِ الحيَّةِ «والحركةِ والانتقالِ مِن مكانٍ لآخرَ ، وهو بهذا يلتقي بالسيرةِ ؛ ذلك أنَّ كلمةَ سارَ تدلُّ على المسيرِ والانتقالِ وتومئُ بطولِ الطريقِ وقطعِ المسافاتِ وتعدُّدِ المراحلِ وهذا يتفقُ مع الكتاباتِ التي تؤرخُ لسيرةِ الإنسانِ منذُ طفولتِهِ إلى شيخوختِهِ»[٥].

---

(١) مقارنات في السرد العربي ١٩.

(٢) السيرة الذاتية ، فيليب لوجون ، ترجمة : عمر حلي ٢٢.

(٣) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٣٩.

(٤) أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري ٢٣١.

(٥) السابق ٢٤٣.

ويمكنُ القولُ بأنَّ الرحلةَ ليست سوى «كتابةِ جزءٍ مِن السيرةِ الذاتيةِ ، هذا الجزءُ أو هذِهِ الحياةُ هي التي عاشها الرحالةُ في الماضي عندَ الغيرِ ، إذًا فالرحالةُ عندما يدوِّنُ رحلتَهُ يحكي ما عاشَهُ شخصيًّا في أثناءِ سفرِهِ مِن أحداثٍ ومواقفَ وما رآهُ هناكَ مما يثيرُ انتباهَهُ واندهاشَهُ ، ونظرًا لهذا الارتباطِ بينَ الكتابةِ والذاتِ توجدُ صلةٌ طبيعيةٌ بينَ الرحلةِ والسيرةِ الذاتيةِ ، وليسَ مِن قبيلِ الصدفةِ مطلقًا أن تكونَ حكاياتُ السفرِ مِن بينِ أقدمِ أشكالِ التعبيرِ عن الذاتِ ، ورُغمَ أنَّ الرحالةَ يحكي في رحلتِهِ ما شاهدَهُ في سفرِهِ مِن أماكنَ وأشخاصٍ فإنَّهُ لا ينفكُّ مِن الحديثِ عن الذاتِ تصريحًا وتضمينًا...ولهذا صَنَّفت الموسوعةُ الفرنسيةُ قصصَ السفرِ ضمنَ السيرةِ الذاتيةِ»(١).

ولندركَ عمقَ التداخلِ والاشتراكِ بينَ الرحلةِ والسيرةِ الذاتيةِ فإنَّهُ يلزمُنا الرجوعُ إلى تحديدِ (فيليب لوجون) للسيرةِ الذاتيةِ -آنفَ الذكرِ- إذْ يفترضُ اشتمالَ نصِّ السيرةِ الذاتيةِ على أربعةِ ركائزَ ، هي :

- «شكلُ الكلامِ : قصةٌ نثريةٌ.
- الموضوعُ المطروقُ : الحياةُ الفرديةُ وتاريخُ الشخصيةِ.
- منزلةُ المؤلفِ : التطابقُ بينَ المؤلفِ والراوي.
- موقعُ الراوي : التطابقُ والشخصيةَ الرئيسيةَ واعتمادُ القصِّ الارتداديِّ.

---

(١) الرحلات المغربية السوسية ٢٣١.

على أنَّ هذِهِ العناصرَ ليست خاصةً بالسيرةِ الذاتيةِ ، لذلك عمدَ (لوجون) نفسُهُ إلى مقارنةِ السيرةِ الذاتيةِ بأجناسٍ أدبيةٍ قريبةٍ منها...فانتهى إلى أنَّ هذِهِ العناصرَ الأربعةَ...لا توجدُ مجتمعةً إلا في السيرةِ الذاتيةِ»(١).

وبالنظرِ إلى تلك العناصرِ الأساسيةِ في السيرةِ الذاتيةِ فإنَّ الرحلةَ تقتربُ مِن السيرةِ الذاتيةِ مِن حيثُ اشتراكُها معها في أكثرَ مِن عنصرٍ ؛ إذ يتوفرُ في الرحلةِ ثلاثةٌ مِن العناصرِ الأربعةِ السابقةِ ؛ فلا يختلفُ النوعانِ غالبًا إلا في (الموضوعِ المطروقِ) ؛ فموضوعُ السيرةِ الذاتيةِ هو «الاختصاصُ بالذاتِ والتركيزُ عليها. وكشفُ معالـمِها الداخليةِ وهدفُها هو إضاءةُ سيرةِ صاحبِ السيرةِ»(٢) ، أما موضوعُ الرحلةِ فهو التركيزُ على «العالمِ الخارجيِّ وليسَ على سردِ قصةِ حياةِ الكاتبِ ، فعلى الرُّغمِ مِن أنَّ كتبَ الرحلاتِ تحوي عادةً بعضَ المعلوماتِ الشخصيةِ عن كاتبِها ، إلا أنَّ المعلوماتِ الموضوعيةَ -أي وصفُ الناسِ والأشياءِ التي يلاحظُها الكاتبُ أو يقابلُها- تطغى عليها بصورةٍ كبيرةٍ»(٣).

ولو تفقدنا هذِهِ العناصرَ الثلاثةَ في هذه المدونةِ فإنَّنا سنجدُ أنَّها لا تخرجُ عن هذِهِ الصفةِ لعمومِ الرحلاتِ ، حيثُ تتفقُ نصوصُ هذه المدونةِ مع نصوصِ السيرةِ الذاتيةِ في أنَّها قصصٌ نثريةٌ استعاديَّةٌ تسعى إلى «تحقيقِ نوعٍ من الترجمةِ والتأريخِ لحياةِ الفردِ/ المؤلفِ عن طريقِ حكيٍ استرجاعيٍّ يخصُّ فترةَ السفرِ المحدّدَةِ»(٤).

---

(١) معجم السرديات : (سيرة ذاتية).

(٢) السيرة الذاتية ، مقاربة الحد والمفهوم ٨٧.

(٣) كتابة الذات ٢٠.

(٤) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٣٧.

كما أنَّ ساردَ هذه المدونةِ هو ساردٌ حقيقيٌّ يمثِّلُ في الوقتِ نفسِهِ المؤلفَ والفاعلَ المركزيَّ (البطل) ومُجريَ التجاربِ وموضوعَ التجربةِ[1] ، ويقومُ هذا التماثُلُ الحكائيُّ «على استعمالِ ضميرِ المتكلِّمِ مفردًا أو جمعًا ، لكنْ في جميعِ الأحوالِ ضميرُ المتكلمِ الجمعُ يمرُّ عبرَ قناةِ الساردِ الرحالةِ»[2] ، ويقعُ التبئيرُ «على المتكلمِ في الرحلةِ وهو مطابقٌ للمتكلمِ / المؤلفِ.

[إنَّ] السردَ بهذا المعنى سردٌ ذاتيٌّ ؛ إذ نلمسُ الحضورَ المتصلَ بضميرِ الأنا كتعبيرٍ عن امتلاكِ ناصيةِ الكلامِ والتذويتِ مِن خلالِ تحويلِ تلك الأنا إلى بؤرةٍ»[3].

إن «الرحلةَ عمومًا هي مِن أُولى الأشكالِ التعبيريةِ التي استُعمِلتْ فيها الكتابةُ بضميرِ الأنا دونَ تحرُّجٍ»[4] ؛ بحيثُ يمكنُ القول أنها «تشكيلٌ لنصٍّ ذاتيٍّ شخصيٍّ بخصوصِ الأنا والآخرِ»[5] ، لذا فإنَّ «مِن أهمِّ مظاهرِ السيرةِ الذاتيةِ في الرحلةِ استنادُها إلى ضميرِ المتكلمِ ، مفردًا أو جمعًا»[6].

---

(١) ينظر : المتكلم في السرد العربي القديم ١٦٠ ، والرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية ٣٠٧.

(٢) المتكلم في السرد العربي القديم ١٦٥.

(٣) نفسه ١٥٤.

(٤) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٦.

(٥) نفسه ٣٢.

(٦) أدبية الرحلة ١٤.

مظاهرُ السيرةِ الذاتيةِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

إذا ما رُمنا تتبُّعَ هذا المظهرِ المهمِّ في هذه المدونةِ فإنَّنا سنلحظُ الحضورَ الكثيفَ لضميرِ المتكلمِ (الرحالة) ممّا يسفرُ عن مباشرةِ الحوارِ مع المتلقي(١)؛ لأنَّ تفاعلَ الرحالةِ مع الأحداثِ يكونُ مباشرًا دونَ الاضطرارِ إلى التخفِّي خلفَ أحدِ الشخوصِ.

وقد يلجأُ العبوديُّ إلى التخفُّفِ مِن شرطِ التطابقِ باستخدامِهِ ضميرَ المتكلِّمِ بصيغةِ الجمعِ (النَّحن) وذلك في سبيلِ توسيعِ الذاتِ المتكلمةِ لتتضمنَ الجماعةَ المرافقةَ لَهُ في أثناءِ الحدثِ(٢) ، مِن قبيلِ قولِهِ : «لم نمر بأيةِ إجراءاتٍ رسميةٍ لأنَّ الرحلةَ داخليةٌ ، وإنَّما أسرعنا بحملِ الأمتعةِ»(٣) ، ومنه أيضًا قولُهُ في رحلتِهِ إلى غربِ البرازيلِ: «وتأخرت دعوتُهم لنا نحنُ المسافرون»(٤).

ومع لجوءِ العبوديِّ إلى استعمالِ ضميرِ الجمعِ إلا أنَّه يظلُّ «يستلبُ مِن الآخرين وجودَهم وصوتَهم الحكائيَّ ، فصوتُ السَّاردِ هو الصوتُ المهيمنُ والشخصياتُ الأخرى تابعةٌ لَهُ ، فهو يلازمُ الرحلةَ بكاملِها ولا يتركُ لهم [غالبًا] إمكانيةَ السردِ والوصفِ والتعليقِ»(٥).

---

(١) ينظر : الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية ٣٠٧.

(٢) ينظر : المتكلم في السرد العربي القديم ١٦١ .

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ٢٤.

(٤) في جنوب البرازيل ٣٤. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ١٤٨ ، وفي غرب البرازيل ١٣ ، ٩٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ٤١ ، ٦٥ ، وفي جنوب البرازيل ٩٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٧ ، ١٣٤ ، وفي شرق البرازيل ٢٨ ، ١٢٦ .

(٥) المتكلم في السرد العربي القديم ١٦١ .

إذًا! فالشخصيةُ المركزيَّةُ في هذه المدونةِ هي شخصيةُ الرحالةِ ذاتُها[1]، فهو «سيّدُ السردِ وعينُهُ هي مصفاةُ مشاهداتِهِ»[2]، كما يؤدي الرحالةُ دورَهُ المركزيَّ مِن خلالِ حريتِهِ في «تنظيمِ الوقائعِ وتأطيرِ الأحداثِ وملءِ الثغراتِ بإضافاتٍ معرفيةٍ أو بنياتٍ حكائيةٍ صُغرى»[3].

ولقد هيأَ الحضورُ المتصلُ بضميرِ الأنا للسَّاردِ/ العبوديِّ حريةَ التصرفِ بامتلاكِهِ لناصيةِ الكلامِ[4]؛ فلَهُ الحريةُ «في تشكيلِ النصِّ وكذلك عمليةِ الانتقاءِ والاختيارِ»[5]، فكلُّ ذلك راجعٌ إلى تقديرِهِ وإرادتِهِ، كما أنَّ للساردِ الحريةَ في الاختتامِ أو الاستطرادِ أو الإيجازِ، ولَهُ أيضًا أنْ ينتقيَ مِن الأخبارِ والمشاهدِ ما يرى مصلحتَهُ؛ فالرحالةُ -أولًا وآخرًا- هو «الساردُ والمتلفظُ، يتمتَّعُ بسلطةٍ سرديةٍ مطلقةٍ، فهو حاضرٌ مِن بدايةِ النصِّ إلى نهايتِهِ ومتحكمٌ في كلِّ تضاريسِ السردِ»[6].

وتتخذُ الرحلاتُ عمومًا «مِن ضميرِ المتكلمِ وسيلةً لإبرازِ الذاتِ والهويةِ مقابلَ الآخرِ والغيريةِ»[7]؛ ونحنُ نجدُ أنَّ بعضَ الأوصافِ أو التعليقاتِ في هذه المدونةِ تحملُ في طياتِها اعتزازَ العبوديِّ بقيمِهِ وفطرتِهِ السليمةِ المفقودةِ لدى الآخرِ، مِن قبيلِ قولِه عن روَّادِ أحدِ

---

(١) ينظر: الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية ٣٠٧.

(٢) نفسه ٣٠٩.

(٣) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٥٢.

(٤) ينظر: المتكلم في السرد العربي القديم ١٥٤.

(٥) السابق ١٥٨.

(٦) نفسه ١٦٠.

(٧) الرحلة في الأدب العربي، شعيب حلفي ٧.

مقاصفِ شاطئِ ناتال (Natal) : «وحيثُ وصلنا إلى مقصفٍ مزدحمٍ بالناسِ في منطقةٍ تقعُ مباشرةً على الشاطئِ لا ينافسُ كثرةَ الناسِ فيهِ وازدحامَهُم عليه إلا كثرة الحميرِ وازدحام الناسِ حولَـها ، فكانَ منظرُ الحميرِ في غايةِ الغرابةِ إذ يرى المرءُ طوائفَ البرازيليينَ ، وكفى بهذِهِ الكلمةِ في التعريفِ هنا ، وأكثرُهم مِن البرازيلياتِ اللائي خلعنَ ربقةَ الحياءِ مِن أعناقهنَّ إنْ كانَ الحياءُ عرفَ طريقَهُ إليهنَّ في وقتٍ من الأوقاتِ ، فقد تجردْنَ مِن أيِّ لباسٍ إلا لباسَ البحرِ الذي يتقلصُ عليهنَّ حتى يصبحَ وجودُهُ كعدِمِهِ ، إذ لا يزيدُ على خيطينِ فيهما رقعتانِ صغيرتانِ»[١].

ومثلُهُ أيضًا قولُهُ في أثناءِ زيارتِهِ للأمازونِ : «وقد رأيتُ الناسَ يسبحونَ على شاطئِ هذا النهرِ العظيمِ كما يسبحُ غيرُهم على شواطئِ البحارِ الواسعةِ ، ولا شكَّ في أنَّ السباحةَ في مياهِ النهرِ أفضل منها في مياهِ البحرِ...ونظرًا لأنَّ المنطقةَ منطقةُ سياحةٍ وسباحةٍ فإنَّ كثيرًا مِن روَّادِ هذا المقهى أو أكثرَهُم كانوا قد جلسوا إلى المقهاةِ بلباسِ الاستحمامِ ، ولا تجدُ مَن يستنكرُ ذلك لأنَّ هذا الأمرَ مألوفٌ في البرازيلِ ، لاسيما في الأماكنِ التي تعتبرُ مِن مواطنِ النارجيلِ حيثُ يملُّ المرءُ مِن ثيابِهِ بل يودُّ أن يخرجَ مِن إهابِهِ ، وأذكرُ أنَّ فتاةً طريةً سارعتْ إلى أحدِ الرفاقِ مِن سُكَّانِ (ماناوس) وهي تقتربُ مِن أذنِهِ كأنَّها تناجيهِ ، وقال أحدُهُم إنَّها تغازلُهُ فالقومُ لا يستنكرونَ ولا يخشونَ مِن القالِ والقيلِ حسبَ العرفِ الاجتماعيِّ في بلادهم»[٢].

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٨١.

(٢) على ضفاف الأمازون ١٨. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٨٨ ، وفي غرب البرازيل ٧٢ ، ١٠٣ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٥.

ولا يُستغربُ مِن الرحالةِ تحيزُهُ ما دامَ أنَّهُ «كائنٌ خطابيٌّ مسؤولٌ عن التلفُّظِ فهو ينظرُ إلى الآخرِ مِن خلالِ مرآةِ منظومةٍ ثقافيةٍ مخلصًا لمرجعيتِهِ التراثيةِ ومنظورِهِ»(١)؛ فالرحلةُ لا تخرجُ «عن كونِها تعبيرًا بسيطًا عن حالةِ (أنا) خارجَ فضائها الخاصِّ»(٢) وعن كونِها «بسطًا تلقائيًّا لردودِ فعلِ الوعيِ تجاهَ عالمِ المغايرةِ»(٣).

وتشتركُ الرحلةُ مع السيرةِ الذاتيةِ في تركِ مساحةٍ كافيةٍ أمامَ الساردِ يصفُ فيها مشاعرَهُ وخلجاتِهِ النفسيةَ المترددةَ عادةً بينَ الخوفِ والحزنِ والفرحِ والغضبِ والضعفِ والقوةِ والشوقِ وغيرِ ذلك مما يقرِّبُ الكتابةَ إلى لغةِ العواطفِ(٤) ، وقد تعمَّدَ العبوديُّ في أكثرَ مِن موضعٍ أن يصفَ مشاعرَهُ وردَّةَ فعلِهِ النفسيةَ ، مثلَ قولِهِ : «وقد عرفَ أمري كثيرٌ مِن الناسِ ، فكانَ الخاطرُ الملحُّ هو حوادثُ الانتهابِ في الحافلاتِ والقطاراتِ ، والتفكيرُ فيما لو اتفقَ أحدُ العاملين في الحافلةِ مع شريكٍ لَهُ ورمى إليهِ بالحقيبةِ! وحتى إذا أُمسكَ هو فإنَّ صاحبَهُ يكونُ قد أفلتَ ، وبخاصةٍ أنَّ الحافلةَ كانت تقفُ في بعضِ المحطاتِ فينزلُ إليها أناسٌ أو يتحدثونَ مع السائقِ ، وجعلتُ الحقيبةَ بجانبي ووضعتُ عليها يدي وأنا نائمٌ ، غيرَ أنَّ ذلك لنْ يحميَها مِن الانتهابِ ، وما عدا ذلك فقد مضى أَوَّلُ الليلِ مريحًا ، وإن امتنعَ النومُ عن أنْ يؤاتيني في آخرِ الليلِ»(٥) ، ونحوُ ذلك قولُهُ في رحلتِهِ (على ضفافِ الأمازونِ) :

(١) المتكلم في السرد العربي القديم ١٦١.

(٢) الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية ٣٠٩.

(٣) نفسه ٣٠٧.

(٤) ينظر : أدب الرحلات الأندلسية والمغربية ٢٣٨ ، والرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية ٣٢٥ ، والرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٣٧.

(٥) على أرض القهوة البرازيلية ٨٩.

«أصبحتُ فرحًا بل طربًا لأنَّني سوفَ أذهبُ إلى سياحةٍ في نهرِ الأمازونِ الذي طالما اشتقتُ إلى مجردِ رؤيتِهِ»(١).

وقد لا يذكرُ الرحالةُ مشاعرَهُ صراحةً ولكنَّ ذلك يظهرُ مِن خلالِ الوصفِ ؛ بحيثُ تتأثرُ الموصوفاتُ بمشاعرِ الرحالةِ وحالتِهِ النفسيةِ(٢)؛ فيتمُّ تقديمُها «عبرَ لغةِ الوجدانِ»(٣). ولنأخذْ -مثلًا- وصفَ العبوديِّ لوجدانِهِ ومشاعرِهِ تجاهَ مساقطِ شلالاتِ (كاتاراتس) العظيمةِ إذ يقولُ : «لم أستطعْ عند رؤيتِها أنْ أعبِّرَ عمَّا في نفسي مِن المشاعرِ تجاهَ منظرِها إلا بالتكبيرِ : اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ! عندما وصلنا إليها كانَ هناكَ حشدٌ من سياراتِ المتنزهينَ والذين يقضونَ عطلتَهُم الأسبوعيةَ في مشاهدةِ هذِهِ الشلالاتِ ؛ لأنَّ اليومَ هو الأحدُ ، فأوقفنا السياراتِ ثم نزلنا مِن مصعدٍ إلى حيثُ يشاهدُ المرءُ الشلالاتِ وهي تسقطُ مِن علٍ فيرفعُ رأسَهُ يشاهدُ ذلك ، وذلك في مقابلِ رسمٍ قليلٍ لاستعمالِ المصعدِ أو لِنَقُلِ المهبطَ ؛ لأنَّهُ يهبطُ إلى أسفلَ عندما تأتي إليه مِن مستوى الشارعِ ، وإذا نزلنا إلى أسفلَ اختلطَت المرئياتُ بالمسموعاتِ بالمشاعرِ في سمعِكَ وبصرِكَ وذهنِكَ فأصبحتَ لا تستطيعُ أنْ تُعَبِّرَ في وقتٍ واحدٍ عن روعةِ ما تحسُّ بِهِ أو تسمعُهُ أو تبصرُهُ»(٤).

---

(١) على ضفاف الأمازون ٣١. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٥١ ، ١٠٧ ، وفي غرب البرازيل ١٣ ، وفي شرق البرازيل ٧٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٣ ، ١٢٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٦.

(٢) ينظر : شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ، نموذج القلصادي ١٥١.

(٣) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٥٢.

(٤) على أرض القهوة البرازيلية ٥٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٥٧ ، وفي جنوب البرازيل ٨٤ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٧٣.

وعلى ذلكَ فإنَّ ضميرَ المتكلمِ في هذه المدونةِ ليس صيغةً نحويةً فقط ، بلْ هويةً تحملُ سِيْما المؤلفِ/ العبوديِّ ؛ فالـ(أنا) التي كَتَبَتْ نصَّ الرحلةِ (أنا) واقعيَّةٌ ، تتأثرُ وتؤثرُ ، تفعلُ وتنْفعلُ ، فهي خاضعةٌ لملابساتٍ ظرفيةٍ معينةٍ شكَّلت وعيَها بشكلٍ ما ، وجعلتْ نصوصَها تخضعُ لمكوناتٍ نصيةٍ هي : مكوناتُ الخطابِ(١).

كما تحضرُ ملامحُ السيرةِ الذاتيةِ في هذه المدونةِ مِن خلالِ ما يدرجُهُ العبوديُّ في النصِّ مِن وجهاتِ نظرِهِ أو تعليقاتِهِ أو أوصافِهِ النابعةِ مِن عقيدتِهِ أو بيئتِهِ أو موروثِهِ(٢)؛ فقد تضمنتْ هذه المدونةُ العديدَ مِن وجهاتِ النظرِ والأحكامِ المطلقةِ من قبلِ العبوديِّ تجاهَ بعضِ المواقفِ أو المناظرِ ، ومِن ذلك قولُهُ معلِّقًا على أحدِ المواقفِ : «وقد ذكَّرني هذا بموقفٍ مخجلٍ لي آخرَ ؛ وهو أنَّني كنتُ في جزيرةِ (موريا) مِن جُزُرِ (تاهيتي) الواقعةِ في أقصى جنوبِ المحيطِ الهادئِ ، وكنتُ وحديَ فمررتُ بثلاثةٍ مِن الفرنسيينَ ، وتاهيتي أرضٌ مِن الأرضِ الفرنسيةِ فيما وراءَ البحارِ ، ومعهم ثلاثُ فتياتٍ مِن أهلِ البلادِ وكانوا منبطحينَ في ظلِّ شجرةٍ مِن الأشجارِ فطلبتُ مِن أحدِ الشُبَّانِ أنْ يلتقطَ لي صورةً تذكاريةً في ذلكَ المكانِ لأنَّني وحدي ، فأخذَ المصورةَ مرحبًا وقبلَ أنْ يلتقطَ الصورةَ سارعَتْ إحدى الفتياتِ لتلتصقَ ؛ تريدُ بذلكَ أنْ تلتقطَ المصورةُ صورةً تذكاريةً لتلك الجزرِ البعيدةِ ، فأسرعْتُ أبتعدُ عنها وأنا أطلبُ مِن الفتى الفرنسيِّ ألا يصورني ، ثُمَّ أفهمتُهم السببَ في عدمِ رغبتي في التصويرِ مع الفتاةِ بمثلِ ما أفهمتُ بِهِ هذِهِ الفتاةَ البرازيليةَ»(٣) ، ومن قبيلِ ذلك أيضًا قولُ

---

(١) ينظر : المتكلم في السرد العربي القديم ١٦٥ .

(٢) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٣٧.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ١٤٦ .

العبوديِّ : «وجدناهُ كنيسةً قديمةً عربيةَ الطرازِ...وأهمُ ما فيها تماثيلُ عديدةٌ للمسيحِ -عليه السلامُ- مصلوبًا على حدِّ زعمِهم في عقيدتِهم التي يكذِّبها القرآنُ»(١).

ويندرجُ في ذلك مجموعُ الأوصافِ والتعليقاتِ النابعةِ مِن ذاتِ العبوديِّ ومكوناتِهِ الخاصةِ(٢) ، مثلُ قولِهِ : «وشيئًا آخرَ لاحظناهُ وهو كثرةُ الألوانِ المماثلةِ للَّونِ العربيِّ ، وبخاصةٍ للونِ الأعرابِ مِن السمرةِ إلى الحمرةِ الداكنةِ ، ولذلك كثيرًا ما كنتُ أنا ورفيقي الشيخُ عبدُ العزيزِ المسندُ نسائلُ أنفسَنا مازحينَ عمَّن نراهُم في مثلِ تلكَ الألوانِ : أهؤلاءِ مِن نجدٍ؟ وما الذي جاءَ بهم إلى هذِهِ البلادِ النائيةِ؟ غيرَ أنَّني ما إنْ أدقِّقُ في وجوهِ هؤلاءِ القومِ الذين يماثلونَ أعرابَ الصحراءِ في ألوانِهم حتى أجدَ أنَّ تقاسيمَ وجوهِهِم تخالفُهم ؛ بلْ هي مِن أنواعٍ لم أرَها مِن قبلُ ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين»(٣).

ومِن مظاهرِ السيرةِ الذاتيةِ في الرحلاتِ عمومًا وفي هذه المدونةِ خصوصًا : «سيادةُ الجانبِ التوثيقيِّ الذي يحرصُ فيه الرحالةُ على تسجيلِ كلِّ خطوةٍ يخطوها بدقةٍ زمنيةٍ ملموسةٍ ، وبشهادةٍ حيَّةٍ على اللحظةِ التاريخيةِ ذهابًا وإيابًا»(٤) ، ومِن شأنِ ذلك أنْ يطبعَ

---

(١) في شرق البرازيل ١٣٣. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٢٨ ، ٦٢ ، وفي شرق البرازيل ٦٣ ، ١١٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٧ ، ٨٥ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٢ ، ٣١.

(٢) ينظر : الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٣٧ ، والمتكلم في السرد العربي القديم ١٦٥.

(٣) في شرق البرازيل ٧٩. ولمزيد أمثلة ينظر : في غرب البرازيل ٣٩ ، وفي شرق البرازيل ٥١ ، ٩٩ ، وفي جنوب البرازيل ٩٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٥ ، ٧٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٢ ، ٣٥.

(٤) أدبية الرحلة ١٥.

المظهرَ السِّيرذاتيَّ في الرحلةِ بطابعِ الصدقِ والحقيقةِ[1] ، ويجعلَ مِنهُ نصًّا صالحًا للاستشهادِ بِهِ في أثناءِ تدوينِ سيرةِ المؤلفِ ، ونحنُ نلحظُ حرصَ العبوديِّ على كتابةِ معظمِ رحلاتِهِ على هيئةِ يومياتٍ محدَّدَةِ اليومِ والتاريخِ ، وإلى جانبِ هذا التوثيقِ الزمنيِّ فإنَّنا نجدُ اهتمامَ العبوديِّ بتوثيقِ تحولاتِهِ المكانيةِ في أثناءِ الرحلةِ ومَن يلتقيهِ مِن الأشخاصِ وما يمرُّ بِهِ مِن الأحداثِ.

ومعَ هذا الحضورِ الكثيفِ لذاتِ العبوديِّ في جميعِ أجزاءِ نصوصِ هذه المدونةِ إلا أنَّ تلك الذاتيةَ لم تكنْ لتُشَكِّلَ عبئًا ثقيلًا على النصوصِ أو خرقًا للميثاقِ الرحليِّ ؛ حيثُ أسهمتْ مظاهرُ السيرةِ الذاتيةِ في انسجامِ النصوصِ ، كما ضَمِنَتْ لها «الحيويةَ بسببِ التوتُّرِ بينَ الكاتبِ الذي يتكشفُ بتقديمِ ملاحظاتِهِ ، وبينَ الموضوعِ الخارجيِّ الذي يخضعُهُ لحساسيتِهِ وتحليلاتِهِ ، وكذا بالتركيزِ على التجربةِ الفرديةِ لأنا منتقلةٍ مِن هُنا إلى هناكَ ، مكابدةٍ المشاقَّ ومكتشفةٍ الجديدَ لتعودَ إلى الوطنِ محملةً بتجربةٍ فريدةٍ تنبئُ عن تحولاتٍ معرفيةٍ ونفسيةٍ طرأتْ عليها (أنا الرحالةُ) ، وبذلك يكونُ التذويتُ عنصرًا حاسمًا ودافعًا قويًّا لتحويلِ التجربةِ إلى كتابةٍ ، انطلاقًا مِن جملةٍ نواةٍ هي : سافرتُ وأصبحتُ غيرَ أنا الذي سافرَ»[2].

وإذْ وقفنا على شيءٍ مِن مظاهرِ السيرةِ الذاتيةِ في هذه المدونةِ وفي الرحلةِ عمومًا فإنَّ هناك نوعًا أدبيًّا آخرَ يُمثِّلُ بدورِهِ ضربًا مِن ضروبِ كتابةِ الأنا[3] وهو نوعُ : اليومياتِ الخاصَّةِ ، ويمكنُ تلمُّسُ هذا النوعِ في النصوصِ الرحليةِ عمومًا وفي هذه المدونةِ بشكلٍ خاصٍّ.

---

(١) ينظر : أدب الرحلات الأندلسية والمغربية ٢٣٩.

(٢) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٩.

(٣) ينظر : معجم السرديات : (يوميات خاصة).

المبحث الثاني :

اليوميات

تمتزجُ الرحلةُ باليومياتِ إلى درجةٍ يمكنُ القولُ معها بأنَّ الرحلةَ في عمقِها ليستْ سوى «يومياتٍ يدوِّنُها الرحالةُ حولَ رحلةٍ قامَ بها في الواقعِ»[١]؛ حيثُ يحرصُ كتابُ الرحلةِ غالبًا على ربطِ الأحداثِ باليومِ أو التاريخِ أو بهما معًا ، ومما يزيدُ اتصالَ اليومياتِ بالرحلةِ التزامُ بعضِ الرحالةِ بذكرِ التاريخِ واليومِ والساعةِ في مفتتحِ أحداثِ كلِّ يومٍ أو خاتمتِها[٢].

حضورُ اليومياتِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

إذا ما أردنا أنْ ندرسَ حضورَ اليومياتِ الخاصةِ في هذه المدونةِ فإنَّنا سنجدُ أنَّ العبوديَّ قد التزمَ -في الغالبِ- بافتتاحِ أحداثِ رحلاتِهِ اليوميةِ بذكرِ اليومِ والتاريخِ ، حتى أَنَّهُ ليمكنُنا معرفةُ عددِ الأيامِ التي استغرقتها الرحلةُ ، فلو أخذنا على سبيلِ المثالِ الرحلةَ إلى شرقِ البرازيلِ ، لوجدنا أنَّها تقعُ في ستةِ أيامٍ :

الأولُ : يومُ الأحدِ ١٥/ ١/ ١٤٠٦هـ[٣].

الثاني : يومُ الاثنينِ ١٦/ ١/ ١٤٠٦هـ[٤].

الثالثُ : يومُ الثلاثاءِ ١٧/ ١/ ١٤٠٦هـ[٥].

الرابعُ : يومُ الأربعاءِ ١٨/ ١/ ١٤٠٦هـ[٦].

---

(١) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٤٧ .

(٢) ينظر : السابق ، ومعجم السرديات : (يوميات خاصة).

(٣) في شرق البرازيل ٢٤ .

(٤) السابق ٣٢.

(٥) نفسه ٤٥ .

(٦) نفسه ٨٠.

الخامسُ : يومُ الخميسِ ١٩/ ١/ ١٤٠٦هـ[١].

السادسُ : يومُ الجمعةِ ٢٠/ ١/ ١٤٠٦هـ[٢].

هكذا يتضحُ لنا اعتناءُ العبوديِّ بتحديدِ اليومِ والتاريخِ لأحداثِ رحلتِهِ إلى شرقِ البرازيلِ ، ولدقَّتِهِ في التحديدِ فإنَّنا تمكَّنَّا مِن معرفةِ عددِ أيامِ هذِهِ الرحلةِ.

ومثلُ ذلك أيضًا رحلتُهُ إلى جنوبِ البرازيلِ ؛ فقدْ حدَّدَها بالأيامِ التاليةِ :

الأولُ : يومُ الجمعةِ ٢٦/ ٥/ ١٤٠٨هـ (١٥/ ١/ ١٩٨٨م)[٣].

الثاني : يومُ السبتِ ٢٧/ ٥/ ١٤٠٨هـ (١٦/ ١/ ١٩٨٨م)[٤].

الثالث : يومُ الأحدِ ٢٨/ ٥/ ١٤٠٨هـ (١٧/ ١/ ١٩٨٨م)[٥].

الرابعُ : يومُ الاثنينِ ٢٩/ ٥/ ١٤٠٨هـ (١٨/ ١/ ١٩٨٨م)[٦].

ولاهتمامِ العبوديِّ بالتوثيقِ اليوميِّ فإنَّنا نجدُهُ -في الغالبِ- لا يكتفِي بذكرِ التاريخِ الهجريِّ فقط بل يُتْبِعُهُ بالتاريخِ الميلاديِّ كما في المثالِ السابقِ ، وقد يقتصرُ على الميلاديِّ فقط ،

---

(١) في شرق البرازيل ١١٦.

(٢) السابق ١٦٠.

(٣) في جنوب البرازيل ٣٣.

(٤) السابق ٥٠.

(٥) نفسه ٩٧.

(٦) نفسه ١٢٣.

كما في رحلتِهِ : (على أرضِ القهوةِ البرازيليةِ)[1] ، وهذا بلا شكٍّ أبلغُ في التوثيقِ على المدى البعيدِ.

وحينما يحصلُ في هذه المدونةِ انقطاعٌ في تسلسلِ اليومياتِ فإنَّهُ يمكنُنا ردُّ هذا الانقطاعِ إلى عدمِ أهميةِ ذكرِ أحداثِ اليومِ المتروكِ ، ففي الرحلةِ إلى مناطقِ الأمازونِ (على ضفافِ الأمازونِ) ذكرَ العبوديُّ أحداثَ يومِ الأربعاءِ ٢٩/ ١/ ١٤٠٥هـ (٢٤/ ١٠/ ١٩٨٤م)[2] ثمَّ انتقلَ ليحدثَنا عن أحداثِ يومِ السبتِ ١٠/ ٢/ ١٤٠٥هـ (٣/ ١١/ ١٩٨٤هـ)[3]. ويمكنُ أنْ يندرجَ في ذلك –أيضًا– قفزُ العبوديِّ لأحداثِ يومٍ مِن أيامِ رحلتِهِ إلى الشرقِ الشماليِّ مِن البرازيلِ ؛ فبعدَ أنْ ذكرَ أحداثَ يومِ الأحدِ ٤/ ١٢/ ١٤٠٨هـ (١٧/ ٧/ ١٩٨٨م)[4] انتقلَ ليحدثَنا عن أحداثِ يومِ الثلاثاءِ ٦/ ١٢/ ١٩٨٨م[5].

وقد لا يلتزمُ العبوديُّ بتحديدِ اليومِ تاركًا ذلكَ للمتلقي المتتبِّعِ للسِّياقِ المتعاقبِ ؛ فمِن خلالِ تتبُّعِ أحداثِ الرحلةِ سيستطيعُ المتلقي أنْ يحدِّدَ اليومَ والتاريخَ والوقتَ ، وذلك بالاستنادِ إلى تحديدِ اليومِ الذي قبلَهُ أو اليومِ الذي بعدَهُ ، فلو قرأنا مثلًا رحلتَهُ الثانيةَ إلى المنطقةِ الجنوبيةِ الغربيةِ مِن البرازيلِ لوجدنا أنَّه لم يحدد اليومَ الأوَّلَ واكتفى بتحديدِ اليومِ الثاني مِن أيامِ الرحلةِ وهو يومُ الخميسِ ١٤/ ١٩٨٨م[6] ، ومِن خلالِ تحديدِ اليومِ الثاني

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٨ ، ١٤٩.

(٢) على ضفاف الأمازون ٣١.

(٣) نفسه ٦٥.

(٤) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٣.

(٥) نفسه ٣٦.

(٦) على أرض القهوة البرازيلية ١٤٩.

سيدركُ المتلقي تحديدَ يومِ الرحلةِ الأولِ وتاريخَهُ وهو الأربعاءُ ١٤/ ١/ ١٩٨٨م ، وقد يكونُ لكثافةِ الأحداثِ وعدمِ توقُّفِها دورٌ في مثلِ ذلك ؛ ففي الرحلةِ إلى غربِ البرازيلِ يحدِّدُ لنا العبوديُّ يومَ الجمعةِ ١٩/ ٥/ ١٤٠٨هـ (٨/ ١/ ١٩٨٨م)(١) ويستمرُّ في ذكرِ الأحداثِ مُدخلًا المتلقي في أحداثِ اليومِ التالي دونَ أنْ يتوقفَ ليحدِّدَ بدايةَ هذا اليومِ الجديدِ ؛ ويمكنُ التوصُّلُ إلى بدايةِ أحداثِ اليومِ التالي مِن خلالِ قولِهِ : «وبقيتُ عندَ البوابةِ الحاديةَ عشرةَ أغالبُ النعاسَ لكوني لم أنم البارحةَ ولم أسترح أمسِ ، وفي السابعةِ والنصفِ كُنَّا نصعدُ إلى الطائرةِ الأخرى المتوجهةِ إلى برازيليا»(٢).

ولا يكتفي العبوديُّ في التحديدِ بذكرِ اليومِ والتاريخِ فقط ، بل إنَّهُ قد يتجاوزُ ذلك إلى تحديدِ الوقتِ أو الساعةِ مِن الوقتِ ، من قبيلِ قولِهِ : «يومُ الأحدِ ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٤م : حزمنا أمتعتَنا مبكرينَ وغادرنا الفندقَ الملكيَّ العربيَّ بمالكِهِ بعدَ السادسةِ بقليلٍ»(٣) ، ونحوُهُ أيضًا قولُهُ : «يومُ الجمعةِ ٢٠/ ١/ ١٤٠٦هـ : صباحٌ ريفيٌّ ؛ أزحتُ ستارةَ النافذةِ مع شروقِ الشمسِ»(٤).

---

(١) في غرب البرازيل ٦٤.

(٢) السابق ١٠٤.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ٤١.

(٤) في شرق البرازيل ٦٠. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٢٩ ، ١٢٣ ، وفي غرب البرازيل ٣٩ ، ٦٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٠ ، وفي شرق البرازيل ٨٠ ، وفي جنوب البرازيل ١٢٣ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣١ ، ٦٥.

ومِن خلالِ هذا التحديدِ الزمنيِّ والوقتيِّ تكتسبُ الرحلةُ قوةَ الوثيقةِ التي لا يمكنُ تعديلُ زمنِها[١] ، فلهذِهِ الطريقةِ في التقييدِ لدى العبوديِّ دورُها الفعالُ من حيثُ «حفظُ تفاصيلِ قصةِ السفرِ من الضياعِ»[٢].

كما أنَّ لهذهِ المؤشراتِ الزمنيةِ دورَها الملموسَ في تأطيرِ الأحداثِ وتنظيمِ زمنيةِ المسارِ وضبطِ زمنِ الأحداثِ والمشاهدِ[٣].

ولاهتمامِ العبوديِّ بوصفِ حالةِ الطقسِ دورٌ في الدلالةِ على قربِ زمنِ تقييدِ الحدثِ مِن زمنِ الحدثِ نفسِهِ ، مما يدلُّ على أنَّهُ تمَّ تسجيلُ اليومياتِ بدقةٍ وانتظامٍ[٤] ، ومِن وصفِ العبوديِّ لحالةِ الطقسِ قولُهُ : «يومُ الجمعةِ ٢/ ١٢/ ١٤٠٨هـ (١٥/ ٧/ ١٩٨٨م) : يومُ المطرِ أيضًا ؛ أصبحنا على جوٍّ ماطرٍ ، وما زالت الريحُ جنوبيةً رطبةً منذُ أمسِ ، وقد تولَّت كبرَ الريحِ أو كبرياءَها فروعُ أشجارِ النارجيلِ النحيلةِ التي كانت ولا زالتْ منذُ أمسِ تُواصلُ الانحناءَ والركوعَ للعاصفةِ بدلًا مِن أنْ تقاومَها فتَسْلم بذلك مِن الكسرِ أو العصرِ ، وما زالت صفحةُ المحيطِ الزرقاءُ الداكنةُ تتلقى الأمطارَ الغزيرةَ ولكنَّها تضيعُ فيها كما يضيعُ المعروفُ عند اللئامِ»[٥] ، ومنهُ أيضًا قولُهُ : «يومُ الجمعةِ ٢٠/ ١/ ١٤٠٦هـ : صباحٌ ريفيٌّ ؛ أزحتُ ستارةَ النافذةِ مع شروقِ الشمسِ على منظرٍ جليلٍ ، وهو منظرُ الشمسِ حينَ ترسلُ

---

(١) ينظر : أدب الرحلات الأندلسية والمغربية ٢٤٠ ، والرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٥٥.

(٢) نفسه.

(٣) ينظر : السابق ١٥٧.

(٤) ينظر : معجم السرديات : (يوميات خاصة).

(٥) الشرق الشمالي من البرازيل ٢٩.

نهرًا مِن الأضواءِ إلى صفحةِ البحرِ المحيطِ ، ربَّما لتحاولَ أنْ تهدئَ من غلوائهِ وهو يمسحُ رمالَ الشاطئ الحمرَ لا يفترُ عن ذلك ، وكانَ منظرُ البحرِ في هذِهِ الساعةِ رائعًا ؛ فالأمواجُ كانت رقيقةً بالشاطئ -بل رقيقةً معه- ، والريحُ صارت نسيمًا تداعبُ فروعَ النارجيلِ الخضرَ فتميلُ بحنانٍ وكأنَّما تريدُ أنْ تُقَبِّلَ رمالَ الشاطئ كما تُقَبِّلُ غانياتُ البرازيلِ السائحَ المشتاقَ أكثرَ مما يقبلهنَّ ، والجوُّ معتدلٌ في هذا الصباحِ قد غسلتْ مياهُ البحرِ طيلةَ البارحةِ ما أرسلتْهُ الشمسُ في وسطِ النهارِ مِن أشعةٍ حارقةٍ تركت آثارَها على وجوهِ بعضِ سكانِ المكانِ»[١] ؛ فلقدْ شكَّلَ وصفُ الطقسِ في هذينِ المثالين قرينةً على صدقِ اليومياتِ مِن حيثُ أنَّ تسجيلَها تمَّ بشكلٍ يوميٍّ جعلَ العبوديَّ يحتفظُ بتفاصيلِ الطقسِ لهذا اليومِ ولا ينساها ، وقولُهُ في المثالِ الأوَّلِ : (وما زالت الريحُ جنوبيةً رطبةً منذُ أمسِ) دليلٌ ظاهرٌ على حرصِه على الاحتفاظِ بتفاصيلِ كلِ يومٍ على حدةٍ.

ومن القرائنِ -أيضًا- على قربِ زمنِ تقييدِ الأحداثِ مِن زمنِ الأحداثِ نفسِها ذكرُ الرحالةِ لما قد يخترقُ فعلَ الكتابةِ أو التصويرِ من الأحداثِ والحواراتِ[٢] وذلك بإطلاعِ المتلقي على بعضِ ظروفِ الكتابةِ أو التصويرِ[٣] ، ولن نعدمَ في هذه المدونةِ أشياءَ مِن قبيلِ ذلك ، مثلَ قولِ العبوديِّ : «وقد لاحظت الدليلةُ السياحيَّةُ أنَّني أكتبُ في بعضِ الأحيانِ في مذكرةٍ صغيرةٍ بيدي فسألَتْ الأخَ المرافقَ (بدوي فقوسة) عمَّا أكتبُهُ ؛ لأنَّها تعرفُ أنَّني لا أحسنُ البرتغاليةَ -لأنَّني قد استفهمتُها عن بعضِ الأشياءِ بالإنكليزيةِ- ، فأجابها بقولِهِ : إنَّهُ

(١) في شرق البرازيل ١٦٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٧٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٣٣ ، ١٠٠ ، وفي غرب البرازيل ٦٤.

(٢) سبق أن قلنا في فصل الوصف بأن التصوير الفوتوغرافي نص مواز للكتابة اللفظية.

(٣) معجم السرديات : (يوميات خاصة).

كاتبٌ يكتبُ مشاهداتٍ وينشرُها في البلدانِ العربيةِ ، وسوفَ تغري كتابتُهُ طائفةً مِن قرائها بالمجيءِ إلى هنا فيكثرُ عندكم السياحُ ، فضحكتْ وقالتْ إنَّهُ يسرُّنا ذلك»[1] ، ومثلُ ذلك أيضًا قولُهُ : «كانَ مقعدي في آخرِ الطائرةِ ، لذلك عندما فتحوا بابَ الخدمةِ الخلفيَّ في الطائرةِ أعجبني منظرُ تلك الرُّبى مِن جهةِ البابِ –وهو المقابلُ لأبنيةِ المطارِ– فأخذتُ أُخرجُ مصورتي مِن الحقيبةِ لالتقاطِ صورةٍ لهذا المنظرِ ، وعندما أخرجتُها كانَ العمالُ قد أغلقوا البابَ ، فأشارَ المضيفُ إلى البابِ الخلفيِّ المعتادِ الذي ينزلُ منه الركابُ –وهو المقابلُ لبابِ الخدمةِ– ولكنَّهُ كانَ مِن الجهةِ المقابلةِ ولا يمكنُ أنْ يظهرَ المنظرُ الذي رأيتُهُ مِنهُ ، فما كانَ مِن المضيفِ إلَّا أنْ أمرَ أحدَ الموظفينَ بمعاونتِهِ على فتحِ بابِ الخدمةِ مِن أجلي ، وقالَ : يمكنُكَ أنْ تصورَ ما شئتَ ، وبعدَ أنْ أنهيتُ التصويرَ عادَ لإغلاقِ البابِ»[2]؛ فلا شكَّ أنَّ هذهِ التفاصيلَ ستدعمُ مصداقيةَ اليومياتِ ؛ وذلكَ من خلالِ الانتظامِ في تسجيلِ الأحداثِ والتفاصيلِ اليوميةِ والاحتفاظِ بِها.

ولا يعني الالتزامُ بالتقييدِ اليوميِّ منعَ الساردِ مِن العودةِ إلى الماضي واستذكارِ بعضِ الأحداثِ الخارجةِ عن زمنِ اليومِ أو عن زمنِ يومياتِ الرحلةِ[3] ؛ فقد رجعَ العبوديُّ إلى الوراءِ في أكثرَ مِن موضعٍ متذكرًا أحداثًا سابقةً لأحداثِ يومِهِ ، مثلَ قولِهِ : «قامت هذِهِ الطائرةُ الصغيرةُ في التاسعةِ إلا ربعًا متأخرةً قليلًا عن الموعدِ الذي كانوا قد حدَّدُوهُ مِن قبلُ ، وهي ذاتُ محركينِ مروحيينِ اثنينِ ، وتحملُ خمسةَ عشرَ راكبًا فقط ، ومع ذلك فإنَّ فيها

---

(١) على ضفاف الأمازون ٥١.

(٢) في جنوب البرازيل ٣٨. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ١١٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٠٩ ، ١٤٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٧.

(٣) ينظر: معجم السرديات : (يوميات خاصة).

مساعدًا للطيَّارِ جالسًا بجانبِ الطيَّارِ ، وهذا أمرٌ يبعثُ على الاطمئنانِ ، إذْ بعضُ الطائراتِ الصغيرةِ أمثالِ هذِهِ لا تتحملُ أنْ يكونَ فيها مساعدٌ للطيارِ ، وإنَّما يكونُ فيها الطيارُ وحدَهُ ، كما حدثَ لي ذلك في عدةِ أماكنَ في العالمِ ، ومِنها في أثناءِ زيارةٍ رسميةٍ لي في تنزانيا مع وفدٍ مِن الإخوةِ الزملاءِ مؤلفٍ مِن أربعةِ أشخاصٍ ، فوضعتْ حكومةُ تنزانيا تحتَ تصرفِنا طائرةً صغيرةً مِن هذا النوعِ فيها الطيارُ ليسَ معه أحدٌ ، وأذكرُ أنَّني شعرتُ بالخوفِ الشديدِ أكثرَ مِن المعتادِ في سفرةٍ لي على طائرةٍ صغيرةٍ ذاتِ محركين مروحيينِ ، تابعةٍ لشركةِ (سول اير)...فكانَ الطيارُ وحدَهُ ، وهو رجلٌ كهلٌ قد صبغَ شعرَ رأسِهِ الأشيبَ بسوادٍ صبغًا غيرَ متقنٍ ، وطارَ فوقَ غياهبِ المحيطِ الهادئِ الجنوبيِّ في هذِهِ الطائرةِ الصغيرةِ ، ولو كانَ حصلَ لَهُ مكروهٌ لما وُجدَ لركابِ هذِهِ الطائرةِ الصغيرةِ حتى الأشلاءُ ولكنَّ اللهَ سلمَ ولَهُ الحمدُ والمنَّةُ»(١).

مِن خلالِ ما سبقَ يتضحُ لنا الحضورُ المكثَّفُ لليومياتِ في هذه المدونةِ ، ولا شكَّ أنَّ لهذا الحضورِ دورٌ في تعزيزِ جانبِ الضبطِ والتوثيقِ ، كما أنَّ لحضورِ اليوميّاتِ دورٌ مهمٌّ مِن جهةِ ترتيبِ الأحداثِ وتنظيمِها والعملِ على تنويعِ الخطابِ وكسرِ الرتابةِ(٢).

وكما تنتفعُ الرحلاتُ عمومًا بهذا النوعِ الأدبيِّ فإنَّ هذا النوعَ بالمقابلِ قد استفادَ مِن تداخلِهِ مع جنسِ الرحلةِ ؛ لأنَّ اليومياتِ الخاصةَ جنسٌ أدبيٌّ يفتقرُ إلى عنصرِ التكاملِ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٤٣. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ١٢٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٩ ، ٥٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٢ ، ١١٠ ، وفي شرق البرازيل ٣٣ ، ٨٤ ، وفي جنوب البرازيل ٣٥ ، وفي غرب البرازيل ٢٨.

(٢) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٤٨.

والترابطِ المتوفرِ –غالبًا– في نوعِ الرحلةِ[1]؛ فبامتزاجِ الرحلةِ باليومياتِ يتمُّ تعويضُ النقصِ الحاصلِ في اليومياتِ ، وذلك لما تتمتعُ بِهِ الرحلةُ مِن القدرةِ على التنظيمِ واستيعابِ التفاصيلِ في رؤيةٍ شاملةٍ وواعيةٍ ، وإلا فإنَّهُ يصعبُ أنْ تستقلَّ اليومياتُ بمفردِها لما قدْ يلحقُها مِن ضعفِ المادةِ ونضوبِ الحيويةِ[2].

وإذ رأينا كيفَ تستعينُ الرحلةُ ببعضِ الأنواعِ الأدبيةِ ، فإنَّ الرحلةَ –أيضًا– لا تقتصرُ على التداخلِ مع الأنواعِ الأدبيةِ فقط ؛ بلْ تتعدى ذلك –كما في هذه المدونةِ– إلى الاستعانةِ ببعضِ الأنواعِ أو الأنماطِ الكتابيةِ الأخرى غيرَ الأدبيةِ مثلَ التقريرِ.

---

(١) ينظر : أدب الرحلات الأندلسية والمغربية ٢٣٨.

(٢) السيرة الذاتية ، مقاربة الحد والمفهوم ٦٩.

المبحث الثالث:

التقرير

تلتقي الرحلةُ مع التقريرِ في الكثيرِ مِن المواضعِ «حتى أَنَّهُ يمكنُ النظرُ إلى كلِّ الرحلاتِ مِن منظورِ أنَّها تقاريرُ رسميةٌ أو ذاتيةٌ كُتِبَتْ ودوِّنتْ بناءً على أمرٍ أو رغبةٍ ذاتيةٍ ، رُغمَ أنَّ كلمةَ التقريرِ تضيقُ عن استيعابِ رحلةٍ يتقاطعُ فيها الذاتيُّ بالوصفيِّ معَ المعلوماتِ الإثنوغرافيةِ والجغرافيةِ وغيرِها ، لكنَّ القولَ بالرحلةِ–التقريرِ مسألةٌ واردةٌ باختلافٍ في صوغِ الوقائعِ»[1]. وتتفقُ الرحلاتُ –عمومًا– مع التقريرِ في السعيِ إلى تحقيقِ هدفٍ عامٍّ غايتُهُ «الإخبارُ بما هو كائنٌ ، ما دامَ المتلقي عاجزًا عن الوصولِ إلى عالمِ الرحلةِ لسببٍ أو لآخرَ»[2].

التقاءُ رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ مع التقريرِ :

تنطلقُ أغلبُ الرحلاتِ في هذه المدونةِ محفَّزةً بكونِ العبوديِّ يشغلُ منصبَ الأمينِ العامِّ لرابطةِ العالمِ الإسلاميِّ ، ولهذا السببِ جاءت الرحلاتُ المدروسةُ أشبهَ ما تكونُ بتقاريرَ رسميةٍ تُعرِّفُ بالجالياتِ الإسلاميةِ في البرازيلِ وتنقلُ إنجازاتِها ومعاناتَها واحتياجاتِها وطموحاتِها ، ولا تتوقفُ الصفةُ التقريريةُ في هذه المدونةِ عندَ هذا الحدِّ بلْ تتعداهُ لتشملَ كلَّ ما تقدِّمُهُ الرحلاتُ مِن أحوالٍ ومعلوماتٍ ، سواءً كانت تلك المعلوماتُ جغرافيةً أو اقتصاديةً أو سياسيةً تسهمُ في التعريفِ بذلك البلدِ الكريمِ المرتحلِ إليه ، «ذلك أنَّ الرحالةَ ينطلقُ مِن نقطةِ الانطلاقِ وفي ذهنِهِ هدفٌ أساسيٌّ يدورُ حولَ خُلاصةِ التجربةِ الناتجةِ عن ارتحالِهِ»[3].

---

(١) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٨٥.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٣١١.

(٣) نفسه.

وإذا ما أردنا أنْ ندرسَ جوانبَ التقاءِ الرحلاتِ المدروسةِ مع التقريرِ من حيثُ الأجزاءُ أو البنى الداخليةُ فإنَّنا سنلحظُ الحضورَ الواضحَ لملامحِ التقريرِ في أجزاءٍ متعدِّدَةٍ مِن هذه المدونةِ ، ومنها بدايةً : خضوعُ الرحلةِ لهاجسٍ أساسيٍّ نابعٍ مِن وظيفةِ العبوديِّ المحفِّزَةِ وحُبُّهُ تزويدَ المتلقي بالمعلوماتِ ، ويتمثَّلُ ذلك الهاجسُ في المواضيعِ المطروقةِ ؛ إذ نجدُ الحضورَ الطاغيَ للمواضيعِ الإسلاميةِ والعربيةِ مِن جهةٍ والموضوعاتِ المثيرةِ المقدَّمةِ بهدفِ إفادةِ الآخرِ بأقصرِ السبلِ مِن جهةٍ أخرى[1].

فلو أخذنا مثلًا الرحلةَ إلى غربِ البرازيلِ وألقينا نظرةً عامَّةً على مواضيعِها لوجدنا أنَّها تشملُ العناوينَ التاليةَ : في جامعِ (كويابا)[2] ، المسلمونَ في (كويابا)[3] ، مقبرةُ المسلمين[4]، مقرُّ المركزِ الإسلاميِّ[5] ، المسلمون في (كامبو قراندي)[6] ، وماذا عن العربِ المسيحيين؟[7]، جمعةُ (دورادس)[8] ، جولةٌ في أرضِ المسجدِ[9] ، المسلمونَ في (دورادس)[10] ، وماذا عن العربِ الآخرينَ؟[11]. وفي المقابلِ فإنَّ هذِهِ الرحلةَ لم تخلُ مِن

---

(١) ينظر: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٣١١.

(٢) في غرب البرازيل ١٨.

(٣) السابق ٢٤.

(٤) نفسه ٢٩.

(٥) نفسه ٤٦.

(٦) نفسه ٤٦.

(٧) نفسه ٤٨.

(٨) نفسه ٧٧.

(٩) نفسه ٨١.

(١٠) نفسه ٨٤.

(١١) نفسه ٨٦.

مواضيعَ عابرةٍ يمكنُ أنْ يستفيدَ منها القارئُ ويتكئَ عليها ، مِن مثلِ : ولايةِ الحشائشِ الكثيفةِ[1] ، جامعةِ (ماتو قروسو)[2] ، في المنطقةِ الحديثةِ مِن (كويابا)[3] ، مِن المدينةِ الخضراءِ إلى المدينةِ السمراءِ[4] ، نهرِ البرتقالِ ونهرِ الماسِ[5] ، بلدةِ (سان بدرو)[6] ، حديقةِ (أوروبا)[7] ، إلى منطقةِ الهنودِ الأمريكيينِ[8].

كما تتجلَّى ملامحُ التقريرِ مِن خلالِ اقتصارِ العبوديِّ على «سردِ الأحداثِ فقط وإخبارِ القارئِ بما وقعَ دونَ أيِّ تأنُّقٍ في الأسلوبِ ودونَ إضفاءِ أيِّ صبغةٍ ذاتيةٍ على هذا السردِ ، وهكذا يأتي السردُ عبارةً عن لقطاتٍ متتابعةٍ يتَتَبَّعُها القارئُ بعقلِهِ دونَ أن ينفعلَ معها»[9] ، ولنستبينَ ذلكَ فإننا سنستعينُ بالمثالِ الآتي : «إلى رصيفي : نهضت الطائرةُ مِن مطارِ (سلفادور) بعد أنْ لبثتْ فيهِ خمسًا وثلاثينَ دقيقةً قاصدةً مدينةَ (رصيفي) ، وذلك في السادسةِ وعشرِ دقائقَ ، وقد صارَ الظلامُ دامسًا خارجَ الطائرةِ ، وأعلنوا أنَّ مدةَ الطيرانِ إلى رصيفي ستكونُ خمسين دقيقةً ، وكانت ضيافتُهم هذِهِ المرَّةِ كأسًا مِن الشرابِ الخفيفِ وحباتِ الفولِ السودانيِّ قد وضعُوها في كيسٍ صغيرٍ ، وقد امتلأت الطائرةُ بالركَّابِ ، بدتْ

---

(١) في غرب البرازيل ١٧.

(٢) السابق ٣١.

(٣) نفسه ٣٩.

(٤) نفسه ٤٣.

(٥) نفسه ٧٤.

(٦) نفسه ٧٦.

(٧) نفسه ٨٩.

(٨) نفسه.

(٩) الرحلات المغربية السوسية ٢٩٩.

مدينةُ (رصيفي) عندما وصلَتْها الطائرةُ ذاتَ أنوارٍ ساطعةٍ في مساحاتٍ شاسعةٍ ، وبها شارعٌ طويلٌ ممتدٌ فيها وأنوارٌ صفراءُ على شاطئِ البحرِ ، أمَّا الشوارعُ الرئيسيةُ في وسطِها وهي التي تُسمى (الهاي وي) وتكونُ أنوارُها في المساءِ صفراءَ فإنَّها غيرُ كثيرةٍ ، وقد هبطنا في مطارِ (رصيفي) في السابعةِ وطلبوا -كالعادةِ- مِن الركابِ العابرينَ أنْ يبقوا في الطائرةِ ، غير أنَّهم في هذهِ المرَّةِ أبطأوا وهم يهيئونَ سريرًا لمريضٍ على صفَّينِ مِن الكراسي في أحدِ جانبَي الطائرةِ ، ثُمَّ جاؤوا به محمولًا على نقَّالةٍ...ثُمَّ قامت الطائرةُ في الثامنةِ إلا خمسَ دقائقَ بعدَ أن قضتْ قُرابةَ الساعةِ في مطارِ (رصيفي) قاصدةً مطارَ (فورتا ليزا) ، وهي مدينةٌ شماليةٌ أُخرى مِن مدنِ البرازيلِ ؛ لأنَّنا متوجهونَ جهةَ الشمالِ كما قدَّمتُ ، وأنفقت الطائرةُ خمسينَ دقيقةً أخرى قبلَ أنْ تهبطَ في مطارِ (فوتاليزا)»[1].

«هكذا يتوالى السَّردُ في حيادٍ تامٍّ ، إذ لا يوجدُ في القولِ المستشهدِ بِهِ أيُّ فعلٍ أو صيغةٍ تدلُّ على موقفِ الساردِ أو شعورِهِ أو إحساسِهِ تجاهَ الأحداثِ المسرودةِ ، رُغمَ كونِهِ مركزَ هذا السَّردِ ، بمعنى أنَّ هناكَ فاصلًا بينَ الذاتِ والموضوعِ.

إنَّ الرحالةَ في هذا السَّردِ التقريريِّ يكونُ همُّهُ إخبار القارئِ بمراحلِ السفرِ»[2] ومشاهداتِهِ وأحداثِهِ المتتاليةِ دونَ أيِّ شيءٍ آخرَ.

---

(١) على ضفاف الأمازون ٦٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١١ ، وفي جنوب البرازيل ٩٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٩٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩٧.

(٢) الرحلات المغربية السوسية ٢٩٩.

ومن الملامحِ التقريريةِ في هذه المدونةِ : ميلُها إلى الأسلوبِ التقريريِّ في بعضِ المراحلِ مِن السردِ بالاعتمادِ على الاختصارِ وتركِ الاستطرادِ والتوسُّعِ[1] ، مِن مثلِ قولِ العبوديِّ : «مضى أولُ النهارِ كما مضى أولُ نهارِ أمسِ في التسكُّعِ على شاطئِ البحرِ القريبِ مِن الفندقِ والتقاطِ صورٍ لما فيهِ»[2]. ومثلُهُ -أيضًا- قولُهُ عن خطبةِ إمامِ جامعِ دورادس (Dourados) : «خطبَ خطبةً جميلةً تضمنت الحثَّ على تقوى الله ومراقبتِهِ ومعرفةِ واجبِ المسلمِ في العملِ بالإسلامِ»[3].

وقد يظهرُ الطابعُ التقريريُّ والأسلوبُ العلميُّ في الرحلةِ مِن خلالِ اعتمادِ الرحالةِ على التكثيفِ ؛ بالتركيزِ على الضروريِّ البارزِ وإقصاءِ غيرِ النفعيِّ[4] ، ويمكنُنا أنْ نمثلَ على ذلك بقولِ العبوديِّ عن منطقةِ مدينةِ ماسيو (Maceio) في شرقِ البرازيلِ : «وأهمُّ ما يميزُ المنطقةَ بحيراتٌ وتجمُّعاتُ مياهٍ متصلةٌ بنهرٍ تبينَ فيما بعدُ أنَّها تُفضي إلى البحرِ ؛ لأنَّ المدينةَ واقعةٌ على المحيطِ الأطلسيِّ»[5]. ونحوُهُ -أيضًا- قولُهُ : «وقد ألقيتُ فيهم كلمةً تضمَّنت

---

(١) ينظر: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ١٨١ ، ٣١٢ ، والرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٣١٩.

(٢) في شرق البرازيل ٨٠.

(٣) في غرب البرازيل ٧٨. ولمزيد أمثلة ، ينظر: في جنوب البرازيل ١١٧ ، و الشرق الشمالي من البرازيل ١٠٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٠ ، وفي غرب البرازيل ٤٥.

(٤) ينظر: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ١٨١ ، ٣١٣.

(٥) في شرق البرازيل ٩٦.

مناصحتَهم والثناءَ عليهم بما قاموا بِهِ مِن عمارةِ هذا المسجدِ وما اشتملَ عليه مِن إقامةِ الصلاةِ وذكرِ الله ومحاولةِ لمِّ شملِ المسلمين وحفظِ ناشئتِهم مِن الضياعِ»(١).

وقد ساعدتْ بنيةُ التقريرِ في هذه المدونةِ على خلقِ «إيقاعٍ سريعٍ للنصِّ ، يحاولُ مِن خلالِهِ الرحالةُ مسايرةَ انتقالاتِهِ...ومن ثمَّ خضعتْ لحظاتُ التسجيلِ لهذا الإيقاعِ المتسارعِ في التقاطِ المرئياتِ مِن جهةٍ وكتابتِها مِن جهةٍ ثانيةٍ»(٢). ويمكننا تبينُ ذلكَ من خلالِ المثالِ التالي : «مرَّ الطريقُ فوقَ قنواتٍ مائيةٍ صغيرةٍ متعدِّدَةٍ ، وهي ذاهبةٌ إلى البحرِ أو إلى بحيراتٍ تقعُ عنها جهةَ الشرقِ التي هي جهةُ البحرِ ، ونحنُ متجهونَ إلى جهةِ الشمالِ ، ومع كثرةِ السياراتِ التي تسيرُ على الطريقِ ، فإنَّ آدابَ القيادةِ ظاهرةٌ ، والتسابقُ والمزاحمةُ وحتى عدمُ مراعاةِ شعورِ السائقينَ الآخرينَ هي أمورٌ معدومةٌ هنا...والطريقُ مفصولٌ بحاجزٍ مِن الحديدِ في بعضِ الأحيانِ بينَ طريقِ الذاهبينَ والآيبينَ إلى المدينةِ.

لا تَشرب الخمرَ : مرزْنا بأكثرَ مِن لافتةٍ أبرزَها المسؤولون عن الطريقِ بشكلٍ ظاهرٍ مكتوبًا عليها بالبرتغاليةِ : (نوبيبا) ، وفسَّروها لي بأنَّ معناها : لا تَشرب الخمرَ ، وذلك لما يسبِّبُهُ شربُ الخمرِ مِن أخطارٍ على القيادةِ في الطرقِ السريعةِ كما هو معروفٌ ، وأمَّا المنطقةُ التي يشقُّها الطريقُ فإنَّها ريفٌ أخضرُ معمورٌ كلُّهُ ، تتخلَّلُهُ بعضُ المصانعِ ، ثمَّ صارَ الريفُ خالصًا للزراعةِ وليسَ فيهِ مصانعُ ، وهو ريفٌ بيوتُهُ متباعدةٌ مما يؤكدُ الواقعَ الملموسَ هنا ، وهو سعةُ الأراضي الزراعيةِ وامتدادُها.

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٢٩. ولمزيد أمثلة ، ينظر: على ضفاف الأمازون ٦٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٣ ، وفي جنوب البرازيل ٨٢ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٧ ، ١٣٠ ، وفي غرب البرازيل ٧٩.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٣١٢.

واﻟﺠﻮُّ هنا معتدلٌ نزلَ المطرُ فيهِ خفيفًا ، وصارَ الطريقُ يشقُّ حقولًا واسعةً مزروعةً بفولِ الصويا ، وبعضُها مزارعُ للدخانِ ، وذكروا أنَّهم يزرعون القمحَ في فصلِ الشتاءِ هنا الذي هو عكسُ فصلِ الصيفِ عندَنا ، ثمَّ وقعنا في حقولٍ مِن الأرزِ النضرِ ، وعندها اعترضتْ الطريقَ بواباتٌ لجبايةِ الضريبةِ على السياراتِ المارَّةِ ، وقدرُ الرسمِ ٤٠ كروزادو للسيارةِ الواحدةِ ، وهو أقلُّ قليلًا مِن نصفِ دولارٍ ، وابتدأتْ تعترضُ الطريقَ وتحيطُ بِهِ مِن جهةِ الغربِ ربًى جميلةٌ خضرٌ ، فأوقفنا السيارةَ ونزلنا لتصويرِها»(١).

وعلى الرُّغمِ مِن الاستطرادِ والتمدُّدِ السرديِّ المتكرِّرِ في هذه المدونةِ إلا أنَّنا نجدُ لبنيةِ التقريرِ -أحيانًا- دورًا ملحوظًا في إرجاعِ النصِّ إلى طابعِ الاختصارِ ، ورسمِ ما هو جوهريٌّ في العالمِ المقدَّمِ مِن قبلِ الرحالةِ(٢).

ولنستبين ذلك فإنَّنا سنستعينُ بالمثالِ التالي المتراوحِ في سردِهِ مِن التوسُّعِ إلى الانحسارِ بفعلِ بنيةِ التقريرِ : «كنَّا بدأنا العودةَ مِن الشاطئِ في الثانيةِ والنصفِ ظهرًا متجهينَ مِن الشمالِ إلى الجنوبِ نريدُ المرورَ بالمدينةِ ، لا لنلبثَ فيها وإنَّما لنتعدى ذلك إلى جهةِ الجنوبِ مِنها ، فمررْنا بقلبِها التجاريِّ الذي وصفتُهُ ، وهو دونَ كثيرٍ مِن المدنِ المتوسطةِ التي يماثلُ عددُ السكانِ فيها سكانَ مدينةِ (ناتال) هذِهِ الذينَ يبلغونَ ستَ مئةِ ألفِ نسمةٍ.

---

(١) في جنوب البرازيل ٥٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٨٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٦٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٦ ، وفي شرق البرازيل ١٥٥ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣٣ ، ٨٦.

(٢) ينظر: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٣١٢.

ومررْنا بملعبٍ لكرةِ القدمِ يتَّسِعُ لثلاثين ألفَ متفرجٍ ، ومعلومٌ أنَّ أهلَ أمريكا الجنوبيةِ بعامَّةٍ وأهلَ البرازيلِ بوجهٍ خاصٍّ لهم ولعٌ عظيمٌ بالرياضةِ وبخاصَّةٍ كرةُ القدمِ ؛ حتى برزوا فيها ، وهذا بلا شكٍّ ناشئٌ عن كونِهم ليستْ لديهم مثلٌ عليا ولا أمجادٌ تاريخيةٌ تشغَلُهُم عن التفكيرِ في مثلِ هذِهِ الأمورِ ، إضافةً إلى ما يدفعُهم مثلَ غيرِهم مِن حبٍّ للرياضةِ عن طريقِ كثرةِ الممارسةِ لها.

لم نقفْ في المدينةِ وإنَّما واصلنا السيرَ خارجينَ منها جهةَ الجنوبِ فوقعنا في ريفِهِ الذي هو أجملُ مِن الريفِ في الشمالِ ؛ فهوَ أكثرُ خصبًا وأوفرُ خضرةً ومع ذلك يرى المرءُ الرمالَ الحمرَ المرتفعةَ تطالُعُهُ فيه أينما اتجهَ بصرُهُ ، وقد بدَتْ الكثبانُ الرمليةُ وكأنَّها الرُّبى في هذِهِ المنطقةِ إلَّا أنَّ بعضَها ليستْ رمالُهُ منهالةً وإنَّما ثابتةٌ تركبُها أشجارٌ ونباتاتٌ بريَّةٌ ، ورأيتُ الطريقَ المنطلقَ مِن المدينةِ جهةَ الجنوبِ أوسعَ وأحسنَ مِن الطريقِ الذاهبِ إلى الشمالِ...وصلنا إلى شاطئٍ آخرَ مِن شواطئِ مدينةِ (ناتال)»[1].

كما تظهرُ ملامحُ التقريرِ في هذه المدونةِ من خلالِ لجوءِ العبوديِّ إلى التشخيصِ ، سواءً أكانَ المشخَّصُ مرئيًا أو مسموعًا أو مقروءًا ؛ فالهدفُ مِن التقريرِ هو حكيُ ما لمْ يتمكَّنْ المتلقي مِن لمسِهِ أو مشاهدتِهِ أو معرفتِهِ[2].

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٩٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٨٤ ، في غرب البرازيل ٥٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٦ ، وفي شرق البرازيل ١٣٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ٨٦.

(٢) ينظر : الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٣١٢.

ومن تشخيصِ المرئيِّ قولُ العبوديِّ عن الشجرةِ العجيبةِ : «لا تكفي كلمةُ عجيبةٍ لوصفِ أكثرِ هذِهِ الأشجارِ المعمَّرَةِ التي رأيناها في هذِهِ الغاباتِ الكثيفةِ المظلمةِ ، ومِن ذلك شجرةٌ ذكرت الدليلةُ أنَّ اسمَها (باراكوبا) وهي شجرةٌ واحدةٌ ولكنَّها أشبهُ بعدَّةِ شجراتٍ ؛ إذ يكادُ يكونُ لها عدةُ سوقٍ (جمعُ ساقٍ) منفصلٍ بعضُها عن بعضٍ في رأيِ العينِ على البعدِ ، متى تأمَّلَها الإنسانُ وجدَها كلَّها شجرةً واحدةً متصلًا بعضُها ببعضٍ»[1].

ومن تشخيصِ المسموعِ قولُ العبوديِّ : «ثم هبطَتْ الطائرةُ في مطارٍ ضيِّقِ المدرجِ إلَّا أنَّهُ طويلٌ ، وأعلنت مضيفةُ الطائرةِ أنَّ درجةَ الحرارةِ في (ماناوس) هي ثلاثٌ وثلاثونَ درجةً»[2].

ومِن قولِهِ في تشخيصِ المقروءِ : «وكانَ مِن وفاءِ هؤلاءِ الإخوةِ لشخصِ الكاتبِ أنْ صوروا صورتي وعلَّقُوها في المسجدِ ، وكتبوا عليها العبارةَ التاليةَ وعنوانُها بالعربيةِ : صورةٌ تذكاريةٌ لفاعلِ الخيرِ لمناسبةِ زيارتِهِ لجمعيةِ (لوندارينا) وتحتَ هذِهِ الصورةِ : هذا هو الشيخُ محمدُ ناصرِ العبوديُّ حاملُ أوَّلِ رسالةٍ مِن الجمعيةِ إلى جلالةِ الملكِ فيصلٍ (ملكِ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ) وبِها نطلبُ المساعدةَ لبناءِ المسجدِ والمدرسةِ»[3].

---

(١) على ضفاف الأمازون ٤٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٢٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٩ ، وفي جنوب البرازيل ٥٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٦١.

(٢) على ضفاف الأمازون ١٤. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٤٨ ، ٧٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٢ ، وفي جنوب البرازيل ٥٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٢٧ ، وفي شرق البرازيل ٥٥ ، ١٢٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ٤١.

(٣) على أرض القهوة البرازيلية ٩٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٣٦ ، وفي جنوب البرازيل ٤٤ ، ٥٢ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٧ ، ٦٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣٧.

كما تلتقي هذه المدونةُ -مِن هذا الجانبِ- مع التقريرِ في تقديمِ الموثَّقِ المستندِ على مشاهدةِ العبوديِّ أو سماعِهِ «مما يجعلُ مِن الرحلةِ نصًّا ذا مصداقيةٍ لدى المتلقي»[1].

وإلى كلِّ ما سبقَ فقد حاولَ العبوديُّ في مواضعَ عدةٍ الاستفادةَ مِن أسلوبِ التقريرِ الدقيقِ في تحديدِ الأعدادِ والنِّسبِ والإحصاءاتِ، مِن مثلِ قولِهِ: «إلى ولايةِ بارانا: تقعُ ولايةُ (بارانا) في الجنوبِ الغربيِّ مِن البرازيلِ، وتبلغُ مساحتُهُ ١٩٩٥٦٠ كيلو مترًا مربعًا، ويبلغُ عددُ سكانِها أحدَ عشرَ مليونًا ومئةَ ألفِ نسمةٍ»[2]، ونحوُهُ أيضًا قولُهُ: «الطائرةُ مِن طرازِ بوينغ ٧٣٧ تابعةٌ لشركةِ فارج الكبيرةِ، ومليئةٌ بالركابِ الذين كانَ ٧٠٪ منهم مِن البيضِ، معَ أنَّها مسافرةٌ إلى مدينةِ (رصيفي) التي ذكرَ دليلٌ سياحيٌّ فيها -كنتُ ركبتُ معَهُ في زيارتي السالفةِ إليها- أنَّ٧٠٪ مِن سكانِها مِن العبيدِ في الأصلِ، ولكنَّ ٤٠٪ منهم صاروا الآنَ مِن الملونين، ولم يبقَ فيها مِن السودِ الخالصي السوادِ إلا الخُمسُ أي ٢٠٪»[3].

وينبغي أنْ نشيرَ في ختامِ هذا المبحثِ إلى أنَّ هذه المدونةَ قد استفادت -أيضًا- مِن بعضِ التقاريرِ الجاهزةِ بحيثُ استعانت بها كاملةً في أكثرَ مِن موضعٍ[4].

---

(١) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٣١٢.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ٨.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ٢١. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٦٦، ١٤٤، وفي شرق البرازيل ٧٤، ١٣٨، والشرق الشمالي من البرازيل ٤٨، ٩٤، وفي جنوب البرازيل ٥١، ٧٨، وفي غرب البرازيل ٢٤، ٨٤، وعلى ضفاف الأمازون ٢١، ٥٩.

(٤) ينظر: في جنوب البرازيل ٢٨، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣١، ٧٤.

الفصل الثالث :

نص الرحلة موضوع تواصل :

*المبحث الأول : سمات السارد والقارئ.

*المبحث الثاني : مهام السارد والقارئ.

يقتضي كلُّ برنامجٍ تواصليٍّ وجودَ مُرسِلٍ ورسالةٍ ومُرسَلٍ إليهِ[1] ، وتُشَكِّلُ هذِهِ المقتضياتُ «القانونَ الخطابيَّ الثلاثيَّ الشائعَ»[2] ، ولا يمكنُ تصوُّرُ سردٍ «دونَ ساردٍ ودونَ مُخَاطَبٍ منصتٍ أو مستمعٍ أو قارئٍ...

إنَّ العملَ الأدبيَّ هو خطابٌ في نفسِ الآنِ ؛ إذ يوجدُ ساردٌ يروي القصةَ وهناكَ في مواجهتِهِ قارئٌ يتقبَّلُها»[3] ، وعليهِ فلابدَّ أنْ يخضعَ السَّردُ -عامةً- لمؤثراتٍ ثلاثةٍ ، هي :

أ- «الجنسُ الأدبيُّ : الذي تتمُّ داخلَهُ الكتابةُ...والجنسُ هنا هو الرحلةُ.

ب- الذاتُ الساردةُ : التي يمرُّ السردُ مِن خلالِها فيصطبغُ بمواقفِها وآرائها... فالسردُ في الكتابةِ الرحليةِ توجِّهُهُ ذاتٌ-الرحالةُ ؛ ما يعنيهِ ويلفتُ انتباهَهُ ، كما تُوجِّهُهُ مقصديَّتُهُ مِن وراءِ تدوينِ الرحلةِ ، ولهذا لا يلتفتُ إلى ما يخالفُ هذهِ المقصديةَ.

ت- المتلقي أو القارئُ المفترَضُ ، الذي يوجَّهُ إليه الخطابُ»[4].

وحيثُ إنَّهُ لن «تستطيعَ رحلةٌ ما حملَ هويتِها الأجناسيةِ إلا عن طريقِ ساردٍ»[5] يقتضي بدورِهِ وجودَ قارئٍ يوجِّهُ إليه الخطابَ ، فإنَّني سأقفُ فيما يلي على بعضِ مظاهرِ الساردِ والقارئِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ.

---

(١) ينظر: طرائق تحيل السرد الأدبي ٨٦.

(٢) أدبية الرحلة ٢٩.

(٣) طرائق تحليل السرد الأدبي ١٢٣.

(٤) الرحلات المغربية السوسية ٢٨٧.

(٥) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢١٨.

المبحث الأول :

سمات السارد والقارئ

«الساردُ هو مرسلٌ للكلامِ ، يتعيَّنُ بنفسِهِ في النصِّ دونَ وسيطٍ آخرَ ، موكولٌ بعمليةِ الإخبارِ وإيصالِ الحكايةِ بأحداثِها»(١).

وغالبًا ما يكونُ الرحالةُ في الجنسِ الرحليِّ «هو الساردُ والمتلفِّظُ يتمتَّعُ بسلطةٍ سرديةٍ مطلقةٍ ، فهو حاضرٌ مِن بدايةِ النصِّ إلى نهايتِهِ ومتحكمٌ في كلِّ تضاريسِ السردِ»(٢).

ويتألفُ الساردُ الرحليُّ «مِن عناصرَ ثلاثيَّةٍ : المؤلفُ (الكاتبُ)/ المتكلمُ (الحاكي أو الساردُ) / الشخصيةُ المركزيَّةُ (الفاعلُ أو الممارسُ لإنتاجِ الحدثِ)»(٣) ، ولهذا التماهي بينَ هذِهِ العناصرِ دورُهُ المهمُّ في تكوينِ الرحلةِ مِن حيثُ تماسكُ النصِّ وتناسقُهُ وسيطرةُ الساردِ وعلمُهُ بالأحداثِ ومشاركتُهُ بِها(٤) ، ولتظافرِ هذِهِ العناصرِ أيضًا دورٌ مهمٌّ مِن جهةِ واقعيةِ الساردِ في الرحلةِ ؛ حيثُ إنَّهُ ساردٌ مكوَّنٌ مِن لحمٍ ودمٍ لا مِن ورقٍ ؛ فهو اسمُ علَمٍ حقيقيٍّ يفصَحُ عنهُ في بدايةِ الرحلةِ أو نهايتِها(٥).

الساردُ في الرحلةِ إذًا «شخصيةٌ واقعيةٌ ، إنَّهُ الرحالةُ نفسُهُ ، بينما الساردُ في الروايةِ والمقامةِ ليسَ الكاتبَ ، بل هو شخصيةٌ مِن شخصياتِ الروايةِ ، حتى في الروايةِ التي تُكتَبُ بضميرِ الـمُتكَلِّمِ»(٦).

---

(١) شعرية الرواية الفانتاستيكية ١٥٥ .

(٢) المتكلم في السرد العربي القديم ١٦٠ .

(٣) أدبية الرحلة ٣٠.

(٤) ينظر : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٣٦ .

(٥) ينظر : أدبية الرحلة ٣١.

(٦) الرحلات المغربية السوسية ٢٨٨.

وللسَّاردِ في هذه المدونةِ سماتٌ ظاهرةٌ سنكتفي بأهمِّها وأبرزِها.

سماتُ الساردِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ نجدُ أنَّ الساردَ يعلنُ عن نفسِهِ صراحةً في صفحةِ غلافِ الرحلةِ ، وقدْ يزيدُ على ذلك فيذيِّلُ المقدمةَ أو التصديرَ باسمِهِ الصريحِ[1] «الذي لا يتعارضُ مع المرجعِ التاريخيِّ (الواقعيِّ) ، ومِن ثَمَّ فهو -اسمُ العلمِ- موسومٌ بقرائنَ مرجعيةٍ شمِلَت الاسمَ والنسبَ»[2].

وكما هو الشأنُ في السيرةِ الذاتيةِ فإنَّ الساردَ في الرحلةِ ، «هو الذي يعيشُ -ونحنُ لا نعيشُ مرتينِ- التجربةَ مرتينِ : مرةً أثناءَ حركةِ الجسدِ ، والثانيةَ أثناءَ حركةِ الملفوظِ أو أثناءَ حركةِ السردِ ، في المستوى الأوَّلِ -مستوى الجسدِ- يتحولُ هذا الأخيرُ إلى مساحةٍ تتحدَّدُ أقانيمُها بأقانيمِ المكانِ ، وفي المستوى الثاني يصبحُ الجسدُ -مِن خلالِ النصِّ- مجموعةَ علاماتٍ تؤثرُ في الجسدِ ، وتعيدُ صياغتَهُ بكتابةٍ أخرى أو برحلةٍ جديدةٍ تجسَّدَتْ في الكلماتِ ، هكذا يمارسُ الساردُ إنتاجَ حكايتين : حكايةِ الشخصيةِ أولًا ، ثُمَّ حكايةِ المكانِ ثانيًا ، أو بعبارةٍ أخرى : حكايةِ الرحَّالةِ ، وحكايةِ الرحلةِ ، إنَّها سيرةٌ مِن خلالِ سيرةِ المكانِ»[3].

لذا فإنَّ المنتظرَ من ساردِ الرحلةِ -عمومًا- أنْ يحكيَ تجربتَهُ الشخصيةَ في سفرٍ ما ، وبذلكَ فإنَّهُ يكونُ حاضرًا في جميعِ أجزاءِ الرحلةِ ، وعند انتقالِهِ عبرَ مراحلِ الرحلةِ يعلنُ عن

(١) ينظر : الشرق الشمالي من البرازيل ٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٦ ، وفي غرب البرازيل ٩.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٠٧.

(٣) نفسه ٢١٩.

وجودِهِ بواسطةِ ملفوظِهِ[1] ، ولا يعني ذلك الاختفاءَ المطلقَ للأصواتِ الأُخرى ؛ فقد يكونُ في النصِّ الرحليِّ فرصةٌ لظهورِ أصواتٍ أُخرى نقلَها الساردُ مِن مصادرِها ، وذلك عندما ينسحبُ الساردُ الرئيسُ مدرجًا نصًّا أَلَّفَهُ كاتبٌ آخرُ ، ولكنَّهُ سرعانَ ما يعاودُ الظهورَ ويظلُّ مسيطرًا على السردِ[2].

وفي هذه المدونةِ نجدُ أنَّ العبوديَّ أفسحَ المجالَ -في أكثرَ مِن مرةٍ- لسرَّادٍ آخرين ملتزمًا بذكرِ اسمِ الساردِ والمرجعِ ، من قبيلِ ما نقلَهُ في أثناءِ حديثِهِ عن تاريخِ (جوا بسوا) : «قالَ الأستاذُ راجي باسلُ في كتابِهِ (الأثيلِ) : (جوا بسوا) عاصمةُ ولايةِ (برايبا) (دو نورتي) كانت قديمًا مدينةً لأبناءِ قبيلةِ (طباجارس) مِن سُكَّانِ البرازيلِ الأصليينَ»[3].

وللسَّاردِ سماتٌ ظاهرةٌ أفصحَتْ عنها هذه المدونةُ ، ومِن أهمِّ هذِهِ السماتِ : خبرةُ العبوديِّ في علمِ اجتماعِ الشعوبِ ، ومعرفتُهُ بالأجناسِ البشريةِ ، وإدراكُهُ لما مرَّتْ بِهِ مِن تنقُّلاتٍ وتحوُّلاتٍ وانسجاماتٍ ، وذلك جليٌّ في بعضِ تعليقاتِهِ على بعضِ مظاهرِ المجتمعِ البرازيليِّ ، ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ قولَهُ عن مدينةِ (ماناوس) : «وقد لاحظتُ هنا أنَّ الناسَ يكثرُ فيهم المختلطونَ ؛ الذين هم نتاجُ ما بينَ البيضِ والسودِ ، كما أنَّ بينَهُم نسبةً مِن السودِ بالفعلِ ، أمَّا البيضُ ذوو الأصولِ البيضاءِ فقد أصابَهُم هذا الجوُّ بالكدَرِ في الألوانِ ونزعَ مِنهم الإشراقَ في الوجوهِ ؛ فقَلَّ أنْ ترى وجهًا زاهرًا مِن وجوهِهِم.

---

(١) ينظر : أدبية الرحلة ٣١.

(٢) ينظر : الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ١٨١.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ١٢٧. ولمزيد أمثلة ينظر: على أرض القهوة البرازيلية ٩٤ ، وفي شرق البرازيل ١٠٤ ، ١٠٧.

وزادَ الأمرَ غرابةً أنَّ هنا طائفةً غريبةً مِن الوجوهِ بارزةَ الوجودِ هي وجوهُ الهنودِ ؛ هنودِ الأمازونِ السمرِ الذين يشبهونَ المغوليينَ لولا أنَّ ألوانَهم ليستْ بيضًا أو حمرًا كألوانِ المغولِ ، وإنَّما أشبهُ الناسِ بِهم بعضُ السُّكانِ السمرِ في (تايلند) ، ومعَ ذلك تجدُ بعضَهم قد اختلطَ بالسُّودِ الأوربيينَ فنشأَ عن اختلاطِهم جنسٌ مِن الناسِ غريبٌ لا يَرى فيهِ العربيُّ القادمُ مِن البلدانِ العربيةِ شيئًا مِن الوجاهةِ أو الجمالِ.

ولقد أصبحتُ وأنا أسيرُ في أسواقِ هذهِ المدينةِ على قدميَّ أسائلُ نفسيَ دونَ أنْ أشعرَ عما إذا كنتُ في البرازيلِ حقًا ؛ فالوجوهُ مختلطةٌ والسمرةُ هي السائدةُ وتقاسيمُ الوجوهِ متباينةٌ مختلطةٌ وحتى الألوانُ البيضُ هي متغيرةٌ ، هذا مع أنَّني قد شاهدتُ سكانَ مدينةِ (ريو دي جانيرو) ورأيتُ الألوانَ العجيبةَ فيها ، ولكنَّ أهلَ (ريو دي جانيرو) على كثرةِ اختلاطِهم لا تزالُ توجدُ فيهم نسبةٌ مِن أهلِ البياضِ ، ولا شكَّ في أنَّ السببَ في الفرقِ ما بينَ مناظرِ القومِ هنا ومناظرِ أهلِ (ريو دي جانيرو) هو دخولُ العنصرِ الهنديِّ الأمازونيِّ أو الأمريكيِّ الأصيلِ في هذهِ البلادِ إلى جانبِ الجوِّ الاستوائيِّ الذي يصبغُ الأجسامَ بالسوادِ ، ولطالما رأيتُ أناسًا هنا يشبهونَ السمرَ مِن بدوِ الجزيرةِ العربيةِ أو حتى سكانَ الحواضرِ مِن بلادِ تهامةَ ، إلا أنَّ المرءَ حينَ يدقِّقُ في وجوهِهم يجدُ أنَّ تقاسيمَها تخالفُ تقاسيمَ وجوهِ أهلِ الجزيرةِ ، وأنَّهُ إذا كان فيها شيءٌ مِن اللونِ الذي يشبهُ بعضَ ألوانِ أهلِ الجزيرةِ فإنَّ فيها أشياءَ كثيرةً تخالفُهم ، وإنَّها لذلك إنَّما هي خلقٌ آخرُ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ.

ولقد سمعتُ موسيقاهم التي تصدحُ بالألحانِ في أكثرَ مِن دكَّانٍ ، فسمعتُها تشدِّدُ على الإيقاعِ الراقصِ ، مما ذكَّرني بالأغاني والموسيقى التي ألِفها الأفارقةُ في بعضِ الأقطارِ الإفريقيةِ المتقدمةِ مثلَ (كينيا) و(ليبريا) ، وقد أكَّدَ هذا في نفسي ما رأيتُهُ مرةً أو مرتينِ مِن

فتياتٍ سُمرٍ كنَّ يمشينَ في الأسواقِ حتى إذا حاذينَ الحانوتَ (الدُّكَّانَ) الذي يُذيعُ الموسيقى الراقصةَ أخذنَ يهزُزْنَ أوساطهنَّ ؛ يغلبُهنَّ ميلُهنَّ إلى الرقصِ ولو لفترةٍ قصيرةٍ يمضينَ بعدَها إلى حالِ سبيلهنَّ ، تمامًا مثلما كنتُ رأيتُ بعضَ الإفريقياتِ يفعلنَ في إفريقيةَ»(١).

ومما يكشفُ هذهِ السِّمةَ -أيضًا- عندَ العبوديِّ قولُهُ في رحلتِهِ إلى الشرقِ الشماليِّ مِن البرازيلِ : «والغريبُ هو كثرةُ السودِ هنا في هذا اليومِ ، فقدْ ظهرَ لي أنَّهم كُثرٌ في المدينةِ ولكنَّني لم أفطنْ إليهم مِن قبلُ ؛ لأنَّ محلَّاتِ سكناهُم ليستْ قريبةً مِن محلَّةِ (بوفياجَ) التي أقيمُ فيها مِن المدينةِ ، ولا غروَ في ذلك لكونِ هذِهِ المنطقةِ مِن البرازيلِ كانت منطقةَ إسكانِ العبيدِ الذين جلبَهُم البرتغاليونَ مِن القارَّةِ الإفريقيةِ بعشراتِ الآلافِ إبَّانَ استعمارِهم للأرضِ البرازيليةِ ، إذ أرادوا أنْ يزرعوا هذِهِ الأراضي الشاسعةَ ، ولم يكونوا يستطيعونَ القيامَ بالعملِ الشاقِّ بأنفسِهم فجلبوا هؤلاء العبيدَ لهذا الغرضِ ، ولم تكنْ هُنا بطبيعةِ الحالِ آلاتٌ زراعيةٌ كبيرةٌ تقومُ مقامَهم آنذاك ، لذلك كثُرَ العبيدُ الأفارقةُ وتناسلوا وقاموا -في ولايتي (بهية) و(الأقواس) المجاورتينِ جهةَ الجنوبِ مِن ولايةِ (برنانبكو) هذِهِ التي عاصمتُها (رصيفي)- بثورةٍ بل ثوراتٍ استطاعَ المستعمرونَ البرتغاليونَ ومَن معهم مِن الأوربيينَ أنْ يخمدوها بالقوةِ بعدَ أنْ قتلوا مِن الأفريقيينَ عشراتِ الآلافِ ، لكونِ البرتغاليينَ كانوا مسلَّحينَ بالمدافعِ دونَ الإفريقيينَ في ذلك الوقتِ ، ونتيجةً لتسامحِ الشعبِ البرازيليِّ فقد اختلطتْ دماءُ الناسِ بالتزاوجِ وغيرِهِ فتغيَّرتْ ألوانُ الإفريقيينَ مِن السوادِ الحالكِ إلى الرماديِّ وإلى أكثرَ بياضًا مِنهُ ، ولم تبق مِن السودِ الذين احتفظوا بسوادِهم إلا أعدادٌ ليستْ كبيرةً.

---

(١) على ضفاف الأمازون ٢٤.

ويلاحظُ المرءُ أنَّ السودَ في هذِهِ البلادِ مثلُهم مثلُ غيرِهم مِن السودِ في بلادِ البرازيلِ كلِّها ؛ هم ذوو طبيعةٍ ودِّيةٍ هادئةٍ ، مثلُهم في ذلك مثلُ بقيةِ طوائفِ الشعبِ البرازيليةِ ، ولم أسمعْ منهم ولا مِن غيرِهم أيَّ تمييزٍ أو تعييرٍ بالسوادِ ، إلا ما لاحظتُهُ وسمعتُهُ مِن كونِهم أقلَّ إقبالًا على التعليمِ وبالتالي أقلُّ ثراءً مِن غيرِهم ، وهذا يجعلُهم يَبدُون أو يبدو أكثرُهم فقراءَ ، أو لِنَقُلْ أقلَّ غنًى مِن غيرِهم مِن البيضِ»[(١)].

ويقولُ أيضًا عن الجنسِ البرازيليِّ عامةً : «وكانت الطائرةُ مليئةً بالركابِ ، وكلُّهم مِن الجنسِ البرازيليِّ الذي ارتضيتُ لنفسي أنْ أطلقَ عليه هذا المصطلحَ ، وإنْ لم يكنْ هناك جنسٌ إنسانيٌّ برازيليٌّ مُتَّفقٌ على إطلاقِ هذا الاسمِ عليهِ ، ولكنَّهُ هو الجنسُ الغالبُ الأكثرُ في البرازيلِ ، وهو جنسٌ أبيضُ ولكنَّه ليسَ بأصهبَ ، فبياضُهُ في الأغلبِ الأعمِّ هو كبياضِ العربِ الشماليينَ أو بياضِ السمرِ مِن الأوروبيينَ الجنوبيينَ ، وكانَ في هذا الجنسِ الأوربيِّ بعضُ المهاجرينَ الشقر الذين جاؤوا مِن بلادٍ أوربيَّةٍ شماليةٍ كألمانيا أو هولندا ، ولكنَّ بعضَهم تزاوجَ مع الجنسِ الذي ذكرتُهُ فاكتسبَ بعضَ خصائصِهِ ، وبعضَهم أثَّرَ عليهِ الجوُّ البرازيليُّ الحارُّ أو الشبيهُ بالحارِّ فأذهبَ عنهُ بعضَ بياضِهِ حتى أدخلَهُ في ذلك الجنسِ البرازيليِّ الذي ذكرتُهُ أو كادَ ، وفي البرازيلِ طوائفُ أخرى وإنْ شئتَ قلتَ : أجناسٌ أخرى مِن السودِ والسمرِ ومِن المختلطينَ الذين يسمونَهم هنا المولاتو بمعنى المختلطينَ ، ولكنَّ هؤلاءِ وأولئكَ لا يؤلفونَ الأغلبيةَ مِن شعبِ البرازيلِ»[(٢)].

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٤.

(٢) في شرق البرازيل ٢٥. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٣٢ ، ٨٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٢ ، ٢٠ ، ٩٢ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٦ ، ١٣٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٩ ، ٩٣ ، ١٢٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٢١ ، ١٢٤ ، وفي شرق البرازيل ٣٩ ، ٤٧ ، ١١٣.

وكما يتميَّزُ العبوديُّ بخبرتِهِ الاجتماعيةِ فإنَّ لَهُ أيضًا خبرةً جغرافيةً ومُناخيةً تجلَّت في هذه المدونةِ مِن خلالِ علمِهِ بالظواهرِ الجغرافيةِ والمناخيةِ واهتمامِهِ وإحساسِهِ بها ؛ فكثيرًا ما يتناولُ في رحلاتِهِ التضاريسَ أو الطبيعةَ أو المناخَ.

ولنأخذْ مثالًا على ذلك قولَهُ عن تضاريسِ فلوريانابولس (Florianópolis) جنوبيَّ البرازيلِ : «وأجملُ ما فيها ضواحيها ذات البيوتِ الجميلةِ المنظرِ الحمرِ السقوفِ ، وبخاصةٍ ما كانَ منها قربَ ساحلٍ ضحلٍ مِن مياهِ البحرِ ، بحيثُ تبدو مياهُهُ زُمُرُّدِيَّةً جميلةً تكادُ تختلطُ في المنظرِ بخضرةِ الرُّبى التي تنهضُ مِن الشاطئِ حتى تعانقَ جبالًا عاليةً خضرًا أيضًا ، وقربَ المدينةِ في أحضانِ الجبالِ منطقةُ غاباتٍ كثيفةٍ نديةٍ ، ربما كانوا تركوها هكذا لتكونَ مناطقَ عذراءَ لغرضِ الدراسةِ والفرجةِ ، كما فعلوا في أكثرِ مدنِ البرازيلِ»(١).

ومِن ذلكَ -أيضًا- قولُهُ في معرِضِ رحلتِهِ الجويَّةِ مِن مطارِ (ريو) إلى مطارِ رصيفي (Recife) : «وقد وصلنا إلى ساحلٍ أقلَّ خضرةً حتى خِلتُ أنَّهُ ساحلٌ صحراويٌّ لولا أنَّ الناحيةَ ليستْ فيها منطقةٌ صحراويةٌ ، إلا ما ذُكرَ مِن كونِها تتعرضُ للمحلِ والجفافِ في بعضِ السنين معَ وجودِ الأنهارِ والبحيراتِ فيها ، غيرَ أنَّ تلك الأنهارَ تجفُّ إذا ما احتُبِسَ عنها المطرُ فيهلك الزرعُ ويجفُّ الضرعُ ، ولكنَّ ذلك لا يكونُ إلا كما يكونُ الأمرُ النادرُ غيرُ المتكرِّرِ الحدوثِ»(٢).

---

(١) في جنوب البرازيل ٣٨.

(٢) والشرق الشمالي من البرازيل ٢٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٣، ٤٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣٤ ، ٤٤ ، وفي جنوب البرازيل ٤٢ ، ١٠٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٨٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١١ ، ١١٧ ، وفي شرق البرازيل ٨٢ ، ٩٦.

ومثلما اهتمَّ العبوديُّ بالتضاريسِ فقد اهتمَّ بطبيعةِ البلادِ المجلِّلةِ لهذهِ التضاريسِ ، من قبيلِ قولِهِ عن حديقةِ (أوروبا) في دورادس (Dourados) : «وصلنا إلى منطقةٍ خارجَ المدينةِ اسمُها جاردين أوروبا -أي حديقةُ أوروبا- وهي مرتفعةٌ ملتفَّةُ النباتِ حتى إنَّ الحشائشَ البريةَ فيها يزيدُ ارتفاعُها على قامةِ الرجلِ»[1] ، ومِن ذلك -أيضًا- قولُهُ عن منطقةِ ما بينَ بورتو إليقري (Porto Alegre) وقرامادو (Gramado) : «منذُ أنْ خرجنا مِن مدينةِ (بورتو إليقري) ونحنُ في سهولٍ تتخلَّلُ ربًى وأماكنَ مرتفعةً ، شأنُ أكثرِ الأرضِ في البرازيلِ ، ولكنَّنا الآنَ رأينا جبالًا مرتفعةً كلَّها مجللةً بالخضرةِ ؛ خضرةِ الغاباتِ ، وخضرةِ الحشائشِ والأعشابِ ، وقد رقَّشَتْها الزهورُ الملونةُ بألوانٍ زاهيةٍ مختلفةٍ»[2].

وتتجلى -أيضًا- جغرافيةُ العبوديِّ مِن خلالِ اهتمامِهِ بالمناخِ وتغيُّراتِهِ وما يؤدي إليهِ ، وذلكَ جليٌّ في مثلِ قولِهِ : «لن أستفيدَ مِن التجوُّلِ في الجوِّ الغائمِ الذي يرسلُ المطرَ رذاذًا. وعلى ذكرِ المطرِ أقولُ : إنَّني لاحظتُ اليومَ في هذِهِ المدينةِ ما لاحظتُهُ في مدينةِ (رصيفي) قبلَها ، وهو أنَّ الريحَ إذا كانت جنوبيةً قويةً انهمرَ المطرُ ، فذكرتُ بذلك مثلًا للفلاحينَ في بلادِنا يقولُ : إذا هبَّتْ جنوب فاترك الغروب»[3].

ومما يُظهرُ الخبرةَ المناخيةَ عندَ العبوديِّ قولُهُ عن طقسِ مدينةِ كورتيبا (Curitiba) : «كانَ أوَّلَ ما لفتَ انتباهَنا طيبُ الجوِّ واعتدالُ الهواءِ ، وقد رأينا أثرَ ذلك إشراقًا في ألوانِ

---

(١) في غرب البرازيل ٨٩.

(٢) في جنوب البرازيل ١١٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٣، ٤٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ٤٧ ، ٧٤ ، في جنوب البرازيل ٦٣ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٣ ، ٧٧ ، على أرض القهوة البرازيلية ١١٧ ، وفي شرق البرازيل ٨٤ ، ٩٥.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ١٠١ .

السكانِ ، وصفاءً في بشراتِهم ، وهذا أمرٌ ظاهرُ السببِ وهو أنَّ منطقةَ (كورتيبا) ذاهبةٌ إلى الجنوبِ بالنسبةِ إلى (ريودي جانيرو) والعاصمةِ (برازيليا) فهيَ أبعدُ عن خطِّ الاستواءِ ، ولذلك هي أكثرُ بردًا ؛ لأنَّ الجنوبَ بعدَ خطِّ الاستواءِ هو الأبردُ بخلافِ النصفِ الشماليِّ ، وهي أيضًا مرتفعةٌ عن ساحلِ البحرِ نسبيًّا ؛ لأنَّها داخلةٌ في القارَّةِ فهي أكثرُ ارتفاعًا ، ولذلك صارتْ ألطفَ جوًّا»(١).

وإلى جانبِ هذِهِ السِّمةِ الجغرافيةِ عندَ العبوديِّ فإنَّنا نجدُه ذا قدرةٍ على الرصدِ والسبرِ ، مما يكشفُ عن شخصيةٍ حاذقةٍ دقيقةٍ في ملحوظاتِها وتساؤلاتِها ، ولا شكَّ أنَّ هذهِ السمةَ تحتاجُ إلى قدرٍ مِن الملاحظةِ والخبرةِ والمقارنةِ ، ومن ملحوظاتِهِ : ملحوظتُهُ في أثناءِ رحلتِهِ الأمازونيةِ ، حيثُ يقولُ : «ومِن الأشياءِ الجديرةِ بالملاحظةِ أنَّهُ في هذا النهرِ العظيمِ الزاخرِ بالمياهِ العذبةِ الذي يجري وسطَ أراضٍ نديَّةٍ بلْ مُشبَعةٍ بالرطوبةِ والمياهِ ، فإنَّ المرءَ يشاهدُ كما شاهدتُ البواخرَ وهي تفرغُ حُمولتَها في هذا الميناءِ أنواعًا كثيرةً مِن الخضرواتِ بمقاديرَ كبيرةٍ ومِن بينها الطماطمُ والبصلُ وأنواعٌ مما يطبخُ مِن الخضرواتِ مع الطعامِ ، وقد جاءتْ بها من أماكنَ نائيةٍ ، وذلك أنَّ هذِهِ المنطقةَ المائيةَ العظيمةَ لا تنتجُ ما يكفيها مِن الخضرواتِ وإنَّما تستوردُ ذلك مِن الخارجِ . أخبرني أحدُ الإخوةِ المقيمينَ هنا أنَّ بعضَ الخضرواتِ كالطماطمِ تُنقلُ إليها بالطائراتِ مِن مسافاتٍ بعيدةٍ كالتي تأتي مِن (سان باولو) على بعدِ ألفٍ وخمسِ مئةِ كيلومتر، وهذا مِن العجائبِ التي سببُها قلَّةُ البركةِ التي مِن أسبابِها قلَّةُ العملِ الجيدِ»(٢).

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٣٦ ، ٧١ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٤ ، ٧٠ ، وفي جنوب البرازيل ٣٦ ، ١٠٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٥٦ ، على أرض القهوة البرازيلية ٢٦.

(٢) على ضفاف الأمازون ٣٢.

ومِن قبيلِ هذهِ الملحوظةِ -أيضًا- ما لاحظَهُ في أثناءِ رحلتِهِ البريَّةِ إلى كرسيوما (Karasuma) ؛ حيثُ يقولُ : «ومع كثرةِ السياراتِ التي تسيرُ على الطريقِ ، فإنَّ آدابَ القيادةِ ظاهرةٌ ، والتسابقُ والمزاحمةُ وحتى عدمُ مراعاةِ شعورِ السائقينَ الآخرينَ هي أمورٌ معدومةٌ هنا ، فالسائدُ في هذِهِ الطرقِ المزدحمةِ بالسياراتِ هو النظامُ ومراعاةُ الأنظمةِ المتَّبَعَةِ في السيرِ ، مثلَ كونِ السيارةِ التي تتمهَّلُ تأخذُ يمينَ الطريقِ ، والمسرعةِ تأخذُ أيسرَهُ ، والطريقُ مفصولٌ بحاجزٍ مِن الحديدِ في بعضِ الأحيانِ بينَ طريقِ الذاهبينَ والآيبينَ إلى المدينةِ»(١).

وللجَمالِ أيضًا دورٌ في تشكيلِ سماتِ السَّاردِ/ العبوديِّ حيثُ تستهويه المناظرُ الجماليةُ وتستوقفُهُ ، ومِن أقوالِهِ المجسِّدةِ لهذهِ السِّمةِ قولُهُ في أثناءِ رحلتِهِ البريَّةِ إلى كرسيوما (Karasuma) : «**جنةٌ أرضيةٌ** : أخذَت الرُّبى الخضرُ تقتربُ مِن الطريقِ شيئًا فشيئًا كلَّما أمعنَ جهةَ الشمالِ ، وأسرعَت الجداولُ التي كانتْ تندسُّ تحتَها وهي تغذُّ السيرَ إلى بحيرةٍ غيرِ بعيدةٍ ، وأصبحَ البصرُ لا يَرى إلا الجمالَ أينما توجَّهَ ، وحتى الجمالُ الأخضرُ فإنَّ أكثرَهُ مثمرٌ نافعٌ كالحقولِ التي تنتجُ الأغذيةَ كالأرزِّ والصويا ، وقد جَمَّلوا الطريقَ بأنْ غرسوا على وسطِهِ زهورًا متنوعةَ الألوانِ زادتْهُ بهجةً على بهجةٍ ، وقد لَطُفَ الجوُّ بعدَ نزولِ المطرِ الخفيفِ وغابَتْ شمسُهُ.

---

(١) في جنوب البرازيل ٥٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٢ ، ٢٦ ، ٥٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٨ ، ٣٧ ، وفي جنوب البرازيل ٣٣ ، ٩٠ ، ١١٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٣ ، ٧١ ، وفي شرق البرازيل ٤٠ ، ٧٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٢٣.

عناقُ الروابي : ثُمَّ قَرُبَت الروابي الخضرُ مِن الطريقِ جهةَ الشمالِ ، وزحفت البحيرةُ إليه مِن جهةِ اليمينِ حتى تعانقا في مشهدٍ غايةٍ في الروعةِ والجمالِ ، وصارَ لا يفرِّقُ بينهما إلا هذا الطريقُ الأسودُ الضيِّقُ ، فكأنَّهُ الرقيبُ الذي يريدُ أنْ يمنعَ التصاقَ الحبيبِ بالحبيبِ ، أو بعبارةٍ أكثرَ تهذيبًا التثامُ الحبيبينِ على حدِّ تعبيرِ أبي نواسٍ ، وهذهِ البحيرةُ -ذاتُ الصفحةِ الورديَّةِ ؛ لأنَّ سحبًا حمرًا كانت قد انعكستْ على صفحتِها الوضاءةِ- يسمُّونها : (لاقوباروس) أي بحيرةُ (باروس) ، والرُّبى الخضرُ قدْ ازدانتْ بحللٍ سندسيةٍ كأنَّها تشهدُ عرسَ هذهِ البحيرةِ الطهورِ ، وقد أقامَ القومُ في وسطِ هذا الجزءِ مِن الطريقِ جزيرةً صغيرةً تفصلُ بينَ طريقِ الذاهبِ والآيبِ فيهِ ، وغرسُوها بأنواعٍ ملوَّنَةٍ زاهيةٍ مِن الزهورِ حتى صارتْ كأنَّها باقةٌ ممتدةٌ يُهديها سالكو الطريقِ في عرسِ البحيرةِ ، وكأنَّها أخلاقُهم السمحةُ السهلةُ التي يهدونَها للغريبِ كما يهدونَ إليهِ ورودَ الخدودِ في مشهدٍ مِنْهُم معهودٍ ، وهذهِ المناطقُ مِن أجملِ المناطقِ التي رأيتُها في العالمِ على كثرةِ ما رأيتُ مِن مناطقِهِ الجميلةِ»(١).

ونحوُ ذلك أيضًا قولُهُ عن المنطقةِ الحكوميةِ في كامبو قراندي (Campo Grande) : «وتصلُ بينَها شوارعُ أزفلتيةٌ ممتازةٌ وإنْ لم تكنْ واسعةً ، وكلُّ الأبنيةِ نظيفةُ المظهرِ ذاتُ طلاءٍ ممتازٍ ، ربَّما كانَ ذلك إلى جانبِ العنايةِ بِها لكونِها حديثةً ، ومِن اللطيفِ فيها أنَّهم وضعوا لافتاتِها كلَّها على هيئةِ نُصُبٍ قائمةٍ ، فالتقطْتُ صورةً عندَ إحدى هذهِ اللافتاتِ التي كتبوا عليها أنَّها لسكرتاريةِ الإدارةِ ، والحقيقةُ أنَّها أجملُ منطقةٍ حكوميةٍ رأيتُها»(٢).

---

(١) في جنوب البرازيل ٥٤.

(٢) في غرب البرازيل ٦٨. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ١١، ٦٢ ، في جنوب البرازيل ٦٢ ، ١٠٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٤٢ ، ٧٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٣ ، ٥٤ ، ١٢٦ ، وفي شرق البرازيل ٤٦ ، ١٦٠ ، وفي غرب البرازيل ٣١ ، ٤٤.

وكما تعجبُهُ المناظرُ الجميلةُ فإنَّهُ في المقابلِ تسوؤهُ المناظرُ غيرُ البهيجةِ ، ويظهَرُ ذلك جليًّا مِن خلالِ تعبيراتِهِ وتعليقاتِهِ على بعضِ المناظرِ الرديئةِ ، مثلَ قولِهِ : «وقد وقفتُ ومعي الدليلُ على كوخٍ مِن الخشبِ الرديءِ على ضفةِ هذا النهرِ ، تسكنُهُ امرأةٌ مع أطفالِها ورَجُلانِ لا أدري مَن هُما بالنسبةِ إليها يُعتبرونَ مِن الـ(مولاتو) أي المختلطينَ ، فوجدنا المنزلَ على غايةٍ مِن البؤسِ وعدمِ العنايةِ بلْ إنَّهُ يدلُّ على الفقرِ وعلى البعدِ عن النظافةِ والذوقِ الجيدِ ، وزادَ المنظرَ سوءًا منظرُ خنزيرٍ رماديِّ اللونِ يتشمَّمُ الأوساخَ والنفاياتِ الملقاةَ على ضفةِ هذا النهرِ المهملةِ»(١).

ومِن ذلكَ أيضًا قولُهُ عن محلَّةِ الحريَّةِ في سلفادور (Salvador) : «والمناظرُ هُنا غيرُ بهيجةٍ سواءً مِن ذلك مناظرُ الناسِ وهندامُهم وكذلك طلاءُ البيوتِ»(٢).

العبوديُّ أيضًا -كما رسمتهُ هذه المدونةُ- مؤدلجٌ ، ملتزمٌ بالتعاليمِ الدينيةِ وما تمليهِ عليهِ ثقافتُهُ وتقاليدُ مجتمعِهِ وبيئتِهِ ، يُبَيِّنُ لنا ذلك قولُهُ عمَّا قُدِّمَ إليهِ في الطائرةِ مِن الطعامِ : «وكانتْ رائحةُ الطعامِ تحومُ في الأنوفِ إلا أنَّهم كدَّروا ذلك بلْ كدَّروا الطعامَ كلَّهُ بما قدمُوهُ مع طبقِ السَّلَطَةِ ، وهو شريحتانِ مِن لحمِ الخنزيرِ قد أحاطتا بما فيهِ فحرمتني مِن تذوُّقِهِ بلْ مِن مجردِ النظرِ إليهِ ؛ لأنَّهما حمراوانِ تلمعانِ يُذَكِّرُ منظرُهما بمنظرِ الجرحِ الذي لم يلتئمْ ، وبخاصةٍ أنَّهُ كانتْ توجدُ فيهما نقاطٌ بيضٌ كأنَّها الأذى الذي يكونُ في الجروحِ ، وقد أكسبَت

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ١٤٨.

(٢) في شرق البرازيل ٥٤. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٢٤ ، ٣٤ ، وفي شرق البرازيل ٤١ ، وفي غرب البرازيل ١٥، ٣٤ ، وفي جنوب البرازيل ١٣٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٩ ، ٢٧.

الشريحتينِ منظرَ رئةِ الخروفِ المسلولِ ، فطلبتُ منهم أنْ يُبعدوا هذا الطبقَ كلَّهُ ؛ لأنَّني لا أشتهي الأكلَ الحلالَ وأنا أنظرُ إليه»(١).

ويقولُ أيضًا عن أحدِ حواراتِهِ مع إحدى البرازيلياتِ : «وقد سارعت البائعةُ وهي برازيليةٌ أصيلةٌ تسألُني عن نسبتي والبلادِ التي أنا منها ، وهذهِ عادةٌ لهم أنْ يُسارعوا إلى سؤالكَ عن ذلك ببراءةٍ عجيبةٍ ، ثُمَّ لا يلبثوا أنْ يحدثوكَ حتى عن الأمورِ الخاصةِ بهم التي لا يَتحدَّثُ بِها في العادةِ إلا الأصدقاءُ لأصدقائهم ، وكثيرًا ما يعْقبُ ذلك طلبُ عنوانِك للمراسلةِ حتى وإنْ كانَ المتكلمُ معكَ مِن الجنسِ الآخرِ الذي لا تستسيغُ أنْ تراسلَهُ لأنَّكَ لا تريدُ أن تغازلَهُ»(٢).

كما تكشفُ هذه المدونةُ عن سمةِ التحفُّظِ لدى العبوديِّ ، فالعبوديُّ يتميزُ بالحياءِ والحشمةِ ويكرَهُ التهتُّكَ والعريَّ والفحشَ ، وتظهرُ هذهِ السمةُ جليةً في معجمِ ألفاظِهِ ، كما تتجلَّى أيضًا في تعليقاتِهِ على بعضِ المناظرِ والأحداثِ غيرِ المتحفظةِ في نظرِه ، مثلَ قولِهِ عن أحدِ المشاهدِ : «ومِن المناظرِ الموجودةِ في المقهى : منظرُ رجلٍ عليه (تبان) وهو السروالُ القصيرُ الذي يلبسُهُ الرجالُ للسباحةِ في الماءِ ومعَهُ امرأتُهُ ، ولا يبالونَ هُنا أنْ تكونَ زوجتَهُ أو صاحبتَهُ أو قريبَتَهُ فليسَ لديهم مِن الدينِ أو مِن الوقتِ أو حتى مِن الفضولِ ما يجعلُهم يبالونَ بذلك فضلًا عن أنْ يسألوا عنهُ حتى يعرفوهُ ، وهي مثلُهُ تلبسُ لباسَ

---

(١) على ضفاف الأمازون ١٢.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٤٣. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٥٥ ، في جنوب البرازيل ٤١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٤ ، ٥٧ ، على أرض القهوة البرازيلية ١٠ ، ٨٤ ، وفي شرق البرازيل ٢٦ ، ١١٥.

الاستحمامِ...واللباسُ القصيرُ هنا لا يلفتُ الأنظارَ...والقومُ لم تُبقِ هذهِ الأرضُ الأمريكيةُ القصيَّةُ شيئًا مِن الحياءِ في وجوهِهِم ، ومِن بابِ أَوْلى أنْ لا يكونَ مِن ذلك شيءٌ في قلوبِهِم :

إذا لم تصنْ عرضًا ولم تخشَ خالقًا وتستحِ مخلوقًا فما شئتَ فاصنعِ»[1].

ومثلُ ذلكَ أيضًا قولُهُ في معرِضِ حوارِهِ مع إحدى البرازيلياتِ : «بادرَتْ تقولُ لي : ما رأيكَ في المرأةِ البرازيليةِ؟ فقلتُ لها : يا هذِهِ ، أنا لستُ ممن يتعرَّفونَ على النساءِ ، ولعلَّكِ لاحظتِ أنَّني لم يكنْ معي منهنَّ أحدٌ ، فمِن أينَ تكونُ لي المعرفةُ بالمرأةِ البرازيليةِ؟»[2].

ومع تحفُّظِ العبوديِّ وبُعدِهِ عن خوارِمِ المروءَةِ إلا أنَّهُ منفتحٌ على الآخرِ ، ولكنْ دونَ المشاركةِ والاندماجِ فيما لا يوافقُ دينَهُ وعاداتِهِ وأخلاقَهُ.

ولدى العبوديِّ أيضًا همٌّ دينيٌّ واضحٌ جعلَهُ يرتحلُ إلى البرازيلِ متفقدًا حالَ إخوانِهِ ، ومقترحًا -في أكثرَ مِن مرَّةٍ- جمعَ كلِّ أقليةٍ مسلمةٍ تحتَ جمعيةٍ تُعينُهم على التَّمَسُّكِ بالدينِ والأخلاقِ ، كما حاولَ نبذَ الخلافِ والتفرُّقِ بينَ المسلمين ، يقولُ العبوديُّ عن المسلمين في كامبو قراندي (Campo Grande) : «ولا تزالُ الجمعيةُ محتاجةً إلى الدَّعمِ لكي تتمكنَ مِن بناءِ أوَّلِ مسجدٍ جامعٍ في هذِهِ المدينةِ التي لا يوجدُ فيها مسجدٌ حتى الآنَ ، والمؤسفُ في الأمرِ أنَّهم يذكرونَ أنَّهم لم يجمعوا مِن المالِ ما يُمَكِّنُهُم مِن البداءةِ ببناءِ المسجدِ ؛ لأنَّهم صرفوا كلَّ ما جمعوهُ على شراءِ الأرضِ في أوَّلِ الأمرِ حتى أصبَحَتْ خالصةً للجمعيةِ ثُمَّ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٨٤.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٢٦. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٣٤ ، ٩١ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٨ ، ٥٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٣٧ ، ١٤٦ ، وفي جنوب البرازيل ١١٠ ، وفي شرق البرازيل ١٥٧.

صرفوا ما اجتمعَ عندَهُم بعدَ ذلك على بناءِ هذهِ القاعةِ المؤقتةِ وتسويرِ الأرضِ كلِّها ، وقد أخبرتُهم بتجاربَ عرفتُها مِن خلالِ عملي الطويلِ في العلاقاتِ مع الجمعياتِ الإسلاميةِ في الخارجِ وهو أنَّها إذا جمعتْ مبلغًا مِن المالِ -ولو قليلًا لا يكفي لبناءِ المسجدِ- فإنَّها تبدأُ بهِ البناءَ ثُمَّ تتقدمُ بطلبِ المساعدةِ»[١].

ويقولُ عن كلمتِهِ إلى مسلمي كرسيوما (Karasuma) : «فألقيتُ فيهم كلمةً بعدَ الصلاةِ أكثرتُ فيها مِن حثِّهم على العنايةِ بأولادِهم ؛ لأنَّهم هم خليفتُهم على هذِهِ الأرضِ ، وهُم الذين يكونونَ شهداءَ على عنايتِهم بهم أو على إهمالِهم لهم ، ويومئذٍ سيكونونُ مسؤولينَ أمامَهم وأمامَ تفريطِهم في هذِهِ السلسلةِ المسلمةِ مِن آبائهم وأجدادِهم التي انقطعَت بسببِ إهمالِهم ، والأهمُّ مِن ذلك أنَّهم سيكونونُ مسؤولينَ أمامَ الله سبحانَهُ وتعالى عن ذلك ، وسوفَ يحاسِبُ المفرّطَ منهم على تفريطِهِ ، فحذارِ أنْ يكونَ أحدٌ منهم مِن المفرطينَ ! ثُمَّ ذكَّرتُهم بأنَّ كلَّ واحدٍ منا عليهِ واجبٌ تجاهَ دينِهِ ولغتِهِ وثقافتِهِ ، ولا ينبغي أنْ يحقرَ أحدٌ منا نفسَهُ فيقولَ مثلًا : ماذا أصنعُ وأنا فردٌ؟ أو ما يفعلُ جُهدي وحدَهُ؟ فالواقعُ أنَّ المسلمَ فردٌ ولكنَّهُ عضوٌ في الجسمِ الإسلاميِّ الذي قالَ فيه الرسولُ ﷺ : ((مَثلُ المؤمنين في توادِّهم وتعاطفِهم كمثلِ الجسدِ الواحدِ ؛ إذا اشتكى مِنهُ عضوٌ تداعى لهُ سائرُ الجسدِ بالحمى والسهرِ)) ، وقولُهُ ﷺ : ((المسلمُ للمسلمِ كالبنيانِ)) وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ . فإذا كانَ فردٌ مِنكم لا يستطيعُ أنْ يعملَ عملًا يرى أنَّهُ مهمٌّ لأمرِ دينِهِ فإنَّهُ يستطيعُ أنْ يعملَ على إصلاحِ نفسِهِ وإصلاحِ أسرتِهِ ، وكما يستطيعُ أنْ ينضمَّ إلى الجمعيةِ الإسلاميةِ فيسهمَ بما يتطلَّبُهُ ذلك منهُ مِن عملٍ ، وأنْ يُقَدِّمَ ما يقدرُ عليهِ مِن مالٍ ولو كانَ قليلًا»[٢].

---

(١) في غرب البرازيل ٤٧.

(٢) في جنوب البرازيل ٨٥. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٢٩ ، ٥٩ ، وفي جنوب البرازيل ٤٦ ، ٦٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٦٨ ، ١٤٦ ، وفي شرق البرازيل ٧٦.

كما تكشفُ هذه المدونةُ عن سمةِ الجديةِ والحزمِ لدى العبوديِّ ؛ فأيَّامُ السفرِ وساعاتُهُ وزياراتُهُ محسوبةٌ ومُنظَّمةٌ ، وحينَ يكونُ حالَ النزهةِ والتمشيةِ فإنَّنا نجدُهُ يطيلُ التأمُّلَ والملاحظةَ ، فليسَ ثَمَّةَ هزلٌ أو وقتٌ ضائعٌ ، وحينَ يتوقَّفُ البرنامجُ لحائلٍ ما فإنَّنا نجدُهُ يحاولُ تعويضَ هذا التوقفِ بالكتابةِ ونحوِ ذلك.

ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ ردةَ فعلِهِ حينما عَلِمَ بإغلاقِ مطارِ كويابا (Cuiabá) ، إذ يقولُ : «فجلستُ مع الأخوينِ خالدِ حيمورَ ومنيفِ فارس في مقهاةِ المطارِ نتدبرُ الأمرَ ؛ فأجمعنا على أنَّ الأفضلَ إذا لم يفتح المطارُ قبلَ الخامسةِ عصرًا -وكانت الساعةُ هي الحاديةَ عشرةَ ؛ إذ كانَ مِن المقرَّرِ أنْ تقومَ الطائرةُ في الحاديةَ عشرةَ والنصفِ- أنْ أسافرَ بحافلةٍ تُغادرُ (كويابا) الساعةَ التاسعةَ ليلًا وتصلُ إلى (كامبو قراندي) في السادسةِ مِن صباحِ الغدِ ، وهي مُتْعِبَةٌ ؛ لأنَّ المسافةَ بينَ المدينتينِ تبلُغُ (٧٦٥) كيلو مترًا»[(١)].

وشبيهٌ بذلك قولُهُ : «وبعدَ الظهرِ عادَ المطرُ فانكمشَ الناسُ عن الظهورِ ، وعدتُ إلى الكتابةِ فأكملتُ ما أردتُ كتابتَهُ مِن كتابِ (المقاماتِ البلدانيةِ)»[(٢)].

ولدى العبوديِّ فضولٌ يحدُوهُ إلى الاطِّلاعِ على كلِّ ما هو جديدٌ وجديرٌ ، وذلك بالسؤالِ أو بمباشرةِ الرؤيةِ -إن أمكنَ- ، وكلُّ ذلك في سبيلِ إشباعِ غريزةِ حبِّ الاطلاعِ لديهِ.

---

(١) في غرب البرازيل ٤٢.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ٣٢.ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٥٠ ، ٦٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٦ ، ٧١ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٤ ، ١٠٠، ١٠٩ ، وفي جنوب البرازيل ٣٤ ، ٩٧ ، وفي شرق البرازيل ٣١ ، ١١٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٨٨ ، ١٤٨ .

ويكشفُ لنا ذلك قولُهُ عن زيارتِهِ (ماتو قروسو) : «ومِن أهمِّ الأعمالِ الناميةِ الجيِّدةِ في هذِهِ الولايةِ وبخاصةٍ فيما قَرُبَ مِن المدينةِ تربيةُ الأبقارِ أو كما سمَّاها أحدُهُم صناعةُ اللحومِ ، واللحومُ لا تُصَنَّعُ إلا مِن البقلِ الذي أخذوا يتوسعونَ في زراعتِهِ في البرازيلِ أخيرًا ، وهو فولُ الصويا ؛ فقد صاروا يصنعونَ منهُ لحمًا يشبهُ اللحومَ الطبيعيةَ في خصائصِهِ وبخاصةٍ في الزلالياتِ التي يحتوي عليها ، ولذلك قالوا إنَّ تربيةَ الأبقارِ هنا يصحبُها أيضًا تربيةُ الطيورِ كالدجاجِ ، أمَّا الأغنامُ فإنَّ هناك ولاياتٍ أخرى تنتشرُ فيها أكثرَ مِن ولايةِ (ماتو قروسو) هذِهِ القريبةِ مِن خطِّ الاستواءِ ، وبهذِهِ المناسبةِ سألتُهم عن سعرِ اللحمِ البقريِّ عندَهُم فأجابوا أنَّ المتوسطَ مِنهُ يباعُ بدولارٍ أمريكيٍّ ونصفٍ للكيلو الواحدِ ، والجيِّدَ بما يساوي دولارينِ ، ومعنى الجيدِ مِنهُ أنْ يكونَ أيضًا خاليًا مِن العظمِ»(١).

ومما يكشفُ ذلك -أيضًا- حوارُ العبوديِّ مع مسلمي كرسيوما (Karasuma) ، حيثُ يقولُ : «وتناولنا الفاكهةَ المتنوعةَ مِن الخوخِ والموزِ والأناناسِ والبطيخِ الأخضرِ والأصفرِ ، وكلُّهُ مِن إنتاجِ هذِهِ المدينةِ ، وسألتُهُم بهذِهِ المناسبةِ عن سكانِ هذِهِ المنطقةِ قبلَ أنْ يعمرَها الأوربيونَ ويكتشفُوها ، فأجابوا أنَّهم السكانُ الأصلاءُ الذين كانوا موجودينَ في قارةِ أمريكا الجنوبيةِ قبلَ وصولِ الأوربيينَ ، ويطلَقُ عليهم اسمُ الهنودِ ، مع أنَّهُم مختلفونَ في خصائصِ الأجسامِ والعاداتِ ، حتى المظاهرِ في بعضِ الأحيانِ ، وذلك بسببِ اتساعِ المنطقةِ وتباعدِ أقسامِها بعضِها عن بعضٍ ، قالوا : وقد انقرضوا الآنَ أو كادوا لأنَّهم اندمجوا في السكانِ الذين كثروا وكانوا مِن بلدانٍ مختلفةٍ ، ولم يكن التمييزُ العنصريُّ سائدًا عندَهُم ، فقلتُ لهم : إنَّ اسمَ النهرِ الذي مرَرْنا عليهِ قبلَ الوصولِ إلى (كرسيوما) وهو (أرارانقوا)

---

(١) في غرب البرازيل ٢٨.

والبلدةِ التي أقيمتْ على مصبِّهِ في البحرِ وسُميَتْ باسمِهِ قد استرعى انتباهي إلى كونِهِ اسمًا هنديًّا أمريكيًّا ، فذكروا أنَّ ذلك صحيحٌ»(١).

وسماحةُ العبوديِّ وحسنُ معاشرتِهِ ودماثَةُ أخلاقِهِ وطيْبُ مجلسِهِ وحوارِهِ وسعيُهِ في خدمةِ غيرِهِ وكرمُهُ وتواضُعُهُ كلُها صفاتٌ ملموسةٌ وظاهرةٌ كشفَتْ عنها المدونةُ.

ولنأخذْ مثالًا على ذلك أحدَ الحواراتِ الدائرةِ بينَهُ وبينَ إخوتِهِ حينما أرادَ العودةَ إلى كامبو قراندي (Campo Grande) ، حيثُ يقولُ : «وكنتُ طلبتُ مِن هؤلاءِ الإخوةِ الكرامِ أنْ يوصلوني إلى المكانِ الذي أستأجرُ منهُ سيارةً تنقلني مِن (دورادس) إلى (كامبو قراندي) ؛ لأنَّ رحلتي إلى (سان باولو) مِن مطارِ (كامبو قراندي) ستكونُ في الثالثةِ والنصفِ قبلَ الفجرِ ، ولا أريدُ أنْ أُتعِبَ هؤلاءِ الإخوةَ بحملي بسياراتِهم إلى (كامبو قراندي) في هذا الليلِ لمسافةِ ٢٣٢ كيلومترًا يعودونَ بعدَها إلى (دورادس) المسافةَ نفسَها ، ولكنَّهم أبوا ذلك واستعظمُوهُ وقالوا : لا بدَّ مِن أنْ تحملَك سياراتُنا إلى هناكَ ، وسوفَ يذهبُ معكَ أكثرُ مِن واحدٍ ، وبعدَ أخذٍ وردٍّ وقدْ أصررتُ على أنْ لا أركبَ مع الشيخِ نورِ الدِّينِ ؛ لأنَّهُ كانَ قدْ حضرَ اليومَ إلى (كامبو قراندي) وصحبني إلى هنا قالَ الأخُ الكريمُ...»(٢).

---

(١) في جنوب البرازيل ٨٣. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٢٥ ، ٣٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٧ ، ٦٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٧٨ ، ١٠١ ، ١٣٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٦٧ ، ١٤١ ، وفي شرق البرازيل ١٣٧ ، ١٥٤.

(٢) في غرب البرازيل ٩٤.

ومِن المواقفِ -أيضًا- المؤكدةِ لسموِّ أخلاقِ العبوديِّ ووفائِهِ وحسنِ معاملتِهِ ؛ ما جاءَ في معرِضِ قولِهِ : «وبينما كنَّا خارجينَ مِن المنزلِ رأينا رجلًا ألمانيًّا يكنسُ بابَ بيتِهِ المقابلِ للمسجدِ ، فقالَ لي الأخُ المحايريُّ : إنَّ هذا الرجلَ يستحقُّ الشكرَ ؛ لأنَّهُ عندما أنشئَ المسجدُ قامَ بعضُ الجيرانِ يريدونَ معارضةَ وجودِهِ بينَهم ، وهُم إذا أجمعوا أو رفَضَتْ الأكثريَّةُ مِنهم وجودَ المسجدِ كانَ ذلك سببًا وجيهًا لكي ترفضَ البلديةُ إصدارَ الترخيصِ لبناءِ المسجدِ ، ولكنَّ هذا الرجلَ الألمانيَّ وافقَ على وجودِ المسجدِ ، بلْ سعى معَ جيرانِهِ الآخرينَ في إيجادِهِ وقالَ لَهم : إنَّ وجودَ مقرٍّ روحيٍّ بالقربِ مِن بيوتِنا مما يبعثُ في نفوسِنا الطمأنينةَ ويجلبُ إلى محلَّتِنا السلامَ ، حتى وإنْ لم نكنْ نعتنق الدينَ الإسلاميَّ ، وذكَرَ لهم أنَّهُ قرأَ عن الدينِ الإسلاميِّ ما يجعلُهُ يرحِّبُ بقربِ المسجدِ منهم ، كما قالَ : إنَّ وجودَ المسجدِ والصلاة فيهِ في طرفَي الليلِ مما يُبعدُ الوحشةَ ويمنعُ المجرمينَ عن سرقةِ البيوتِ القريبةِ مِنه ، فذهبتُ إليه وسلمتُ عليه ، وقلتُ لَهُ : إنَّني مِن المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، وإنَّ المسلمينَ هنا حدَّثوني عنكَ وعمَّا قمتَ بِهِ نحوَهُم ، ولذلك فإنَّني أشكرُكَ بلسانِ رابطةِ العالمِ الإسلاميِّ في مكةَ المكرمةِ التي تمثِّلُ المسلمينَ في العالمِ ، وأدعوكَ إلى أنْ تكونَ ضيفَ الرابطةِ عندما تصلُ إلى المملكةِ العربيةِ السعوديةِ ، فسُرَّ الرجلُ بذلكَ وقالَ : أنا ما عملتُ ذلك إلا لأنَّني أعتقدُهُ وقد أثبتَتِ الأيامُ صحَّةَ ما ذهبتُ إليهِ ؛ فلم نجدْ أيةَ إساءةٍ مِن إخوتِنا المسلمينَ الذين يرتادونَ المسجدَ ، بل كانوا نعمَ الجيرانِ»(١).

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٤٩. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٣٥ ، ١٠٣، ١٣٢ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٩ ، ٢٦ ، ١٢٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٩ ، ٩١ ، وفي شرق البرازيل ٥٧ ، ٧٩.

ولعلّي أختمُ السماتِ السابقةَ بميزةٍ يَسَّرتْ على العبوديِّ كثيرًا مِن أمورِ تنقُّلِهِ وارتحالِهِ في البرازيلِ ، وهي استطاعتُهُ التعبيرَ باللغتينِ البرتغاليةِ والإنجليزيةِ.

ويكشفُ ذلك هذا الحوارُ بينَ العبوديِّ وبينَ إحدى الموظفاتِ في مطارِ سلفادور (Salvador) : «طلبتُ مِن الفتاةِ أنْ تبحثَ لنا عن غرفتينِ في فندقٍ في وسطِ المدينةِ ولكنَّهُ قريبٌ مِن شاطئِ البحرِ ، فوسَطُ المدينةِ يتيحُ لي أنْ آخذَ صورةً جيدةً عن عامةِ الشعبِ وعن حركةِ البيعِ والشراءِ فيها وعن اختلافِ أهلِها...ولبَّت الفتاةُ الطلبَ بسرعةٍ واختارتْ فندقًا ذكرتْ اسمَهُ (قراندي هوتيل داباها) ، و(قراندي هوتيل) معروفٌ ، ومعناهُ بالبرتغاليةِ : الفندقُ الكبيرُ ، و(دا) أداةُ إضافةٍ تقعُ بينَ المضافِ والمضافِ إليهِ ، على مثالِ كلمةِ (اوف) بالإنكليزيةِ ، أو (ابتاع) بالعاميَّةِ المصريَّةِ ، و (باها) كما نطقتْ بِها تُكْتَبُ (بارا) بالرَّاءِ ، ولها نظائرُ في اللغةِ البرتغاليةِ حيثُ يقلبونَ الراءَ هاءً مثلَ كلمةِ (هوبا) أي (روبا) بمعنى ثوبٍ أو قماشٍ ، وكلمةُ (اهز) وهيَ (الرزُّ) العربيةُ بالراءِ ، ومعنى (باها) أو (بارا) : ريفيٌّ أو الريفُ البحريُّ ، وكنتُ سمعتُ بمعناها في اسمٍ في ريودي جانيرو ، فسألتُ الفتاةَ عن الريفِ الذي فيهِ الفندقُ ، والكلامُ معها بإنكليزيةٍ ضعيفةٍ ، فقالَتْ : إنَّهُ لا ريفَ الآنَ هناكَ وإنَّما كانَ ذلك في الماضي البعيدِ»(١).

كما يكشفُ ذلك أيضًا حوارُهُ مع أحدِ سائقي الأجرةِ ، إذْ يقولُ : «رأيتُ سائقَ سيارةِ أجرةٍ مؤدبٍ يقتربُ مني ويعرضُ عليَّ خدماتِهِ ، فاتفقتُ معَهُ على أنْ يحملَني إلى ذلك الفندقِ الفاخرِ بألفِ كروزادو ويساوي ذلك نحوَ ثلاثةِ دولاراتٍ وربعًا . كانَ سائقًا لطيفًا أخذَ يشرحُ لي كلَّ ما أمرُّ بِهِ عندما رأى رغبتي في الاطلاعِ ، وقد ذكرَ لي أنَّ أصلَهُ هنديٌّ يريدُ

---

(١) في شرق البرازيل ٢٨.

أنَّه مِن سكانِ البلادِ الأصلاءِ الذين كانوا فيها قبلَ وصولِ المستعمرينَ الأوربيينَ ، وقد فهمتُ كثيرًا مما قالَهُ بالبرتغاليةِ»[1].

وإذا كانتْ هذِهِ بعضُ سماتِ الساردِ / العبوديِّ التي أفصحتْ عنها هذه المدونةُ ، فإنَّ للقارئِ أيضًا سماتٌ يمكنُنا الوقوفُ عندَ بعضِها.

سماتُ القارئِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

ونقصدُ بالقارئِ هنا : «عونَ التلقي الذي يوجَّهُ إليه الخطابُ المكتوبُ»[2] ، فإذا كانَ كلُّ متلفَّظٍ يقتضي متكلِّمًا ومستمِعًا[3] فإنَّ الرحلةَ لم تخرجْ «مثلَ غيرِها مِن النصوصِ عن أفقِ الانتظارِ الذي يفتحُهُ النصُّ لقارئِهِ المفترَضِ الواقعيِّ»[4] المستحضرِ بدايةً في «ذهنِ المؤلفِ في أثناءِ فعلِ الكتابةِ»[5] ، ونعني بالقارئِ الواقعيِّ : «متلقي الأثرِ»[6] ، وهو «كائنٌ تاريخيٌّ مِن لحمٍ ودمٍ شأنُهُ شأنُ المؤلفِ الواقعيِّ ، وهو لا ينتمي إلى الأثرِ الأدبيِّ وإنَّما مكانُهُ دنيا الناسِ»[7] ؛ فهوَ إذًا متلقٍ خارجيٌّ غيرُ مشاركٍ في الحكايةِ[1] «مكانُهُ خارجَ النصِّ...يعيشُ حياتَهُ اليوميةَ ، مثلُهُ مثلُ المؤلفِ الواقعيِّ»[2].

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ١١٩. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ١٢٢ ، ١٢٨، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٥ ، وفي شرق البرازيل ٤٤ ، ٤٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٦.

(٢) معجم السرديات : (قارئ).

(٣) ينظر : المتكلم في السرد العربي القديم ١٦٣.

(٤) أدبية الرحلة ٣٧.

(٥) معجم السرديات : (قارئ ضمني).

(٦) المروي له في الرواية العربية ٣٢.

(٧) معجم السرديات : (قارئ واقعي).

وحينَ نقولُ عن السردِ أنَّهُ «خطابٌ تواصليٌّ يفترِضُ مرسِلًا ومُرسَلًا إليهِ ، أيْ راويًا يروي الحكايةَ وفي مواجهتِهِ هناكَ قارئُ (مستمعٌ) يتقبَّلُها»[3] ، فإنَّ ذلك يقتضي أنَّ للقارئِ في الرحلةِ ما للساردِ مِن الأهميةِ والحضورِ فما إنْ تظهر صورةُ الساردِ ، ومنذُ الصفحةِ الأولى إلا وتظهر معَها صورةُ القارئِ[4] ، والتي تقتضي تحلِّي القارئ بمجموعةٍ من السماتِ.

ولكنَّ ذلك لا يعني الاختلافَ الجذريَّ بينَ العونينِ -الساردِ والقارئِ- مِن حيثُ السماتُ ؛ فلابدَّ للقارئِ أنْ ينطلقَ مع الساردِ مِن «منطلقاتٍ مشتركةٍ مِن حيثُ السجلُّ اللفظيُّ»[5] ، كما يلزمُهُ مِن أجلِ فكِّ رموزِ الرسالةِ أنْ «يمتلكَ شفرةَ المؤلفِ الجماليةَ والأخلاقيةَ والاجتماعيةَ والأيديولوجيةَ»[6].

ومع أنَّ القارئَ «يشاركُ الساردَ مرجعيًّا»[7] إلا أنَّنا ستتلمسُ -أيضًا- بعضَ ما كشفتْ عنهُ هذه المدونةُ مِن سماتِ القارئِ ؛ فالقارئُ يتشكَّلُ في النصِّ «مِن أفكارٍ ومفاهيمَ قبلَ أنْ يتشكَّلَ مِن لحمٍ ودمٍ»[8].

---

(١) ينظر : المروي له في الرواية العربية ٢٣ ، ٣١.

(٢) السابق ٣٢.

(٣) نفسه ٢٦.

(٤) ينظر : المروي له في الرواية العربية ٢٤.

(٥) نفسه ٢١١.

(٦) طرائق تحليل السرد الأدبي ٨٨.

(٧) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٤٢.

(٨) السابق ٢٤٣.

ولعلَّ أهمَّ سمةٍ لقارئنا هي : الرغبةُ في المعرفةِ بأحوالِ البلادِ وساكنيها ، وهذا ما يؤْمَلُ مِن قارئِ الرحلةِ عمومًا ، مما حدا بالعبوديِّ إلى محاولةِ نقلِ الواقعِ بجميعِ أشيائهِ وأحداثِهِ اللائقةِ بذائقةِ المتلقي ، حتى ولو أدَّى ذلك إلى التشعُّبِ والاستطرادِ ، فنجدُ أنَّ العبوديَّ يهتمُّ بهذِهِ السمةِ عند القارئِ آخذًا بيدِهِ إلى كلِّ ما هو برازيليٌّ ليطلِعَهُ على كلِّ ما يزيدُهُ معرفةً وخبرةً ببلادِ البرازيلِ.

ولنأخذْ مثالًا على ذلك قولَ العبوديِّ عن مطعمِ (القاووش) في رصيفي (Recife) :

«مِن أعجبِ المطاعمِ في البرازيلِ مطاعمُ الشواءِ المتميزةُ التي يحلو لبعضِهم أنْ ينسبَها إلى قومٍ مِن سكانِ جنوبِ البرازيلِ يقالُ لهم الـ(قاووشُ) ، ويحلو لبعضِ العربِ أنْ ينسبَ أولئك (القاووشيين) إلى العربِ ؛ لأنَّهم كانوا قد جاؤوا إلى أمريكا الجنوبيةِ مع الأسبانِ ، وعاشوا في جنوبِ البرازيلِ حيثُ حدودُ (باراغواي) ، وكانوا تابعينَ لتلك الدولةِ ، إلا أنَّ البرازيلَ استولَتْ على بعضِ المنطقةِ فسكَنَها أولئكَ القومُ ، ويقولُ هؤلاءِ العربُ : إنَّ لهم رقصاتٍ تشبهُ الرقصاتِ العربيةَ ، وعليهم ملابسُ ليستْ بعيدةً مِن الملابسِ المغربيةِ ، ولهم أغانٍ غريبةٌ عن هذِهِ المنطقةِ ، والأهمُّ مِن ذلك أنَّ لهم تقاليدَ في الفروسيةِ والشجاعةِ خاصةً ، وهم رعاةُ بقرٍ ، وأبقارُهم مشهورةٌ بطيبِ لحومِها ، وبخاصةٍ إذا شويت شيًّا.

وقد انتشرَتْ مطاعمُ الشواءِ في أنحاءِ البرازيلِ ، وهي إلى طيبِ مذاقِها رخيصةٌ جدًا إذا قورنت بأسعارِ اللحومِ المشويةِ في بقيةِ أنحاءِ العالمِ ، وعادتهُم فيها أنْ ينصبوا مائدةً مستطيلةً فيها ما اشتهيتَهُ مِن أنواعِ السلطاتِ والخضرواتِ والبقولِ والحبوبِ كالأرزِ واللوبيا والفاصوليا وأنواعِ الخبزِ ؛ يختارُ الآكلُ مِنها ما يشاءُ بصحنِهِ ويأخذُ المقاديرَ التي يريدُ ، وقد يتردَّدُ مرتينِ أو أكثرَ مِن مرتينِ على تلك الموائدِ ، ثُمَّ يجلسُ إلى مائدتِهِ في المطعمِ فيأتي إليهِ العمالُ بأنواعٍ متنوِّعةٍ مِن الشواءِ مِن سائرِ أعضاءِ البقرةِ ، وقد رسموا في المطعمِ صورةَ ثورٍ ضخمٍ على واجهةٍ منفردةٍ مِن الحائطِ ، وكتبوا أسماءَ لحمِهِ على كلِّ عضوٍ مِن أعضائِهِ حتى يتذكرَ الآكلُ ما يريدُ أنْ يأكلَ مِنهُ أو يتذوقَهُ مِن سائرِ أعضائِهِ شواءً نضيجًا لذيذًا ، ويعرضون معهُ أيضًا شواءً مِن الطيورِ وغيرِها ، ما عدا الأسماكِ فلها مطاعمُ خاصةٌ بها ، كلُّ ذلك يأتي إليكَ حارًّا يطيرُ

دخانُهُ ، تأكلُ مِنهُ ما شئتَ حتى إذا لمْ تستسغْ القطعةَ إمَّا لكثرةِ الشحمِ فيها مثلًا أو لغيرِ ذلك ، كانَ لكَ أنْ تتركَها فيرفعَها العاملُ مع ما يرفعُ مِن فضلاتٍ في صحنِكَ ، والعمَّالُ الآخرونَ يواصلونَ عرضَ الأنواعِ المنوَّعةِ الساخنةِ عليكَ مِن الشواءِ ، حتى يمتلئَ بطنُكَ ويقفَ جهدُكَ عن الأكلِ ، وربَّما يضيقُ نَفَسُكَ مِن الشِّبَعِ إذا لم تستطعْ أنْ تمنعَ نفسَكَ مِن الأكلِ قبلَ أنْ تصلَ إلى ذلكَ ، كلُّ ذلكَ بثمنٍ محدودٍ واحدٍ لكَ أنْ تأكلَ مِن المطعمِ ما تشاءُ ، وبالمقاديرِ التي تستطيعُها ، وبعدَ ذلك يأتونَ إليكَ بمسكِ الختامِ قهوةٍ برازيليةٍ ثقيلةٍ تساعدُكَ على مقاومةِ النومِ بعدَ هذِهِ الأكلةِ الثقيلةِ ، كلُّ ذلك بأربعةِ دولاراتٍ أمريكيةٍ ونصفٍ دفعناها لمطعمٍ من مطاعمِ الشواءِ قريبٍ مِن الفندقِ»(١).

وما كانَ للسَّاردِ أنْ يتعمقَ هنا في وصفِ هذهِ الفئةِ إلا طمعًا في إشباعِ نَهَمِ القارئِ المعرفيِّ ، وإطلاعِهِ على طبيعةِ وتاريخِ مطاعمِ القاووشِ الغريبةِ والمشتهرةِ في تلك المنطقةِ مِن العالمِ.

ويقومُ العبوديُّ بجولةٍ سياحيةٍ في ناتال (Natal) ويأخذُ معَهُ القارئَ المغرمَ بالمعرفةِ وحبِّ الاطِّلاعِ ليطلِعَهُ على بعضِ المعالمِ السياحيةِ ، فيتوقَّفُ عندَ شاطئِ القلعةِ ويذكرُ تاريخَ هذهِ القلعةِ ويتجولُ بالقارئِ في مجاهيلِها ، فيقولُ : «أخذَ الدليلُ يذكرُ تاريخَ هذِهِ القلعةِ الذي يصحُّ أنْ يقالَ : إنَّهُ تاريخُ وصولِ المستعمرينَ الأوربيينَ ؛ فذكرَ أنَّ هذِهِ القلعةَ هي قلعةٌ أثريةٌ بناها البرتغاليونَ مبتدئينَ ذلك في ٦/ ١/ ١٥٩٨م وهيَ أوَّلُ مبنًى حضاريٍّ أقيمَ في المنطقةِ ، وذكرَ أنَّ هؤلاءِ البرتغاليينَ الذين بنوا القلعةَ هُم أوَّلُ مَن وصلَ إلى هذا الشاطئِ مِن أمريكا الجنوبيةِ لم يصلْهُ قبلَهُم إلا رجلٌ فرنسيٌّ حضرَ بغرضِ التجارةِ ولم يستقر فيهِ.

والقلعةُ قديمةُ الطرازِ حقًا ، ذاتُ عقودٍ تبدو على البعدِ شبيهةً بالعقودِ الأندلسيةِ وما هي بِها ، وهيَ مبنيةٌ مِن الحجارةِ وأرضُها مفروشةٌ بحجارةٍ كبيرةٍ وسقفُها مِن الخشبِ وهو مرتفِعٌ عن الأرضِ أكثرَ مِن

(١) في شرق البرازيل ١٥٨.

المعتادِ ، وقدْ أقاموا في مدخلِها تماثيلَ لرجالٍ ثلاثةٍ مِن رجالِ الدينِ النصرانيِّ أحدُهم أسودُ اللونِ اسمُهُ (بالتازار) عليهِ ملابسُ واسعةٌ زريَّةٌ تشبهُ ملابسَ الفقراءِ مِن أهلِ غربِ أفريقيةَ ، وللقلعةِ صحنٌ وهو الأرضُ المبلَّطةُ التي تحيطُ بها الغرفُ كأنَّهُ وُضِعَ على هيئةِ الصحونِ في القصورِ الأندلسيةِ ، ولكنَّهُ رثٌّ ، أي غيرُ مُتقَنٍ ولم تراعَ فيها اللمساتُ الفنيَّةُ الجماليةُ في البناءِ.

وفي القلعةِ عِدَّةُ غُرفٍ لأغراضٍ معيَّنةٍ مثلَ عددٍ مِن الغرفِ خُصِّصَتْ لتكونَ سجنًا ، وفي الصحنِ محرابٌ مُقامٌ على أربعةِ أعمدةٍ ، أسفلُهُ حوضٌ لتجمُّعِ ماءِ المطرِ مِن سقفِ الغرفةِ ؛ لأنَّ القلعةَ مُقامَةٌ على مياهِ البحرِ الضحلةِ ، حتى يستطيعَ البحارةُ استعمالَهَا دونَ المخاطرةِ بالنزولِ إلى الشاطئِ والتعرُّضِ لهجماتِ السُكَّانِ الوطنيينَ الأصلاءِ ممن يسمونَهُم الهنودَ الأمريكيين ، والغريبُ أنَّها تقعُ قريبًا مِن مصبِّ النهرِ الكبيرِ الذي يسمُّونَهُ بلغتِهم (ريو قراندي) بمعنى النهرِ الكبيرِ ، ومِنه أُخذَ اسمُ الولايةِ (ريو قراندي دو نورتي) بمعنى النهرِ الكبيرِ الشماليِّ كما تقدَّمَ ، وذلك حينَ يصبُّ في المحيطِ الأطلسيِّ ، ويمكنُهُم في الظروفِ المعتادةِ أنْ يأخذوا الماءَ مِن النهرِ ولكنَّهُ ليسَ في صفاءِ ماءِ المطرِ كما هو معروفٌ.

وفي إحدى الغرفِ الكبيرةِ مِن القلعةِ رأينا عمودًا مِن المروِ –وهو الحصى الصلبُ الأملسُ– عليهِ عددٌ مِن الصلبانِ القديمةِ ؛ لأنَّ البرتغاليينَ في عهودِ الاكتشافِ كانتْ تسيطرُ عليهم الروحُ الدينيةُ المسيحيةُ ، وفي غرفةٍ أخرى أثاثٌ خشبيٌّ قديمٌ نوَّهوا بأنَّهُ أثريٌّ وأنَّهُ باقٍ مِن عهودِ الاكتشافِ وقد جلبَهُ البرتغاليونَ.

ومِن أكثرِ الأشياءِ طرافةً فيها : مهراسٌ ؛ وهو المدقُّ أو الهاونُ الضخمُ مِن جذوعِ شجرةٍ مِن النخيلِ ربَّما كانت مِن النارجيلِ أو نخيلِ الزيتِ ، ويُستعملُ لهرسِ الحبوبِ لتخليصِها مِن قشورِها ، ذكرَ الدليلُ أنَّ مثلَهُ قليلُ الاستعمالِ الآنَ ، مع أنَّهُ موجودٌ في أكثرِ الأريافِ الإفريقيةِ إنْ لم يكنْ فيها كلِّها ، ثُمَّ قاعةُ الجلوسِ الرئيسيةُ في القلعةِ وهي غيرُ جيدةٍ ولا تَتَّسِمُ بالذوقِ أو الوجاهةِ ، ولا شكَّ أنَّ مرجعَ ذلك إلى كونِها بُنِيَت في عهدِ المكتشفينَ الأوائلِ الذين كانَ جُلُّ هَمِّهِم منصرفًا إلى الدفاعِ عن أنفسِهم في هذا الجوِّ الأمريكيِّ البعيدِ الذي لم تكنْ لديهم أيةُ معرفةٍ مسبقةٍ بمن فيهِ ولا بما فيهِ ، ولكنَّهم جعلوا في حيطانِ قاعةِ الجلوسِ هذِهِ (روازنَ) ، جمعُ روزنةٍ وهي الكوَّةُ غيرُ النافذةِ وإنَّما تكونُ في الجدارِ بمثابةِ السلةِ في

الخزانةِ مفتوحةً دائمًا ويضعُ فيها الناسُ الأشياءَ الصغيرةَ التي يُخشى فقدُها أو تلفُها إذا وُضِعَت على الأرضِ ، وقد ذكَّرتني هذهِ الروزنةُ بما كانَ موجودًا في بيتِنا القديمِ في مدينةِ بريدةَ الذي هو مبنيٌّ من الطينِ مثلُ سائرِ بيوتِ البلدةِ القديمةِ ، وفيهِ هذِهِ النوافذُ غيرُ النافذةِ -إنْ صحَّ التعبيرُ- بمعنى أنَّها لا تخترقُ الجدارَ كلَّهُ ، وهذا صحيحٌ.

المدفعُ الأثريُّ : صعدنا إلى سطحِ القلعةِ واستجليتُ المنطقةَ ، وأهمُّ ما رأيتُهُ فيها التقاءُ مياهِ النهرِ الكبيرِ بالمحيطِ العظيمِ ، وذلكَ في منطقةٍ ضحلةِ المياهِ بحيثُ حافَظَتْ مياهُ النهرِ على لونِها المميزِ لمسافةٍ غيرِ قصيرةٍ قبلَ أنْ تتلاشى في مياهِ المحيطِ ، وصوَّرْتُ هذا المنظرَ النادرَ بالنسبةِ لي . وفي سطحِ القلعةِ مدفعٌ أثريٌّ قديمٌ كُتِبَ عليهِ أنَّهُ صُنِعَ منذُ أربعِ مئةِ سنةٍ...وفي وسطِ القلعةِ فتحةٌ صغيرةٌ يُرفعُ منها الطعامُ والأشياءُ الثمينةُ عندما يكونُ هناكَ خوفٌ مِن فتحِ البابِ والصعودِ مِن الدَّرَجِ ، ومِن الطريفِ أنَّهم نصبوا في أركانِ السطحِ مدافعَ قديمةً صغيرةً موجهةً إلى الجهاتِ الأربعِ ، كأنَّما ليمثلوا حالةَ القلعةِ القديمةِ. وقد نوَّهَ الدليلُ بأنَّ المهندسَ الذي أشرفَ على بنائها هو إسبانيٌّ استأجرَهُ البرتغاليون لذلك ؛ لأنَّهم لم يكنْ معهم مَن يحسِنُ البناءَ عندما وصلوا هذِهِ المنطقةَ لأولِ مرةٍ.

والشيءُ اللافتُ للنَّظرِ أنَّ القلعةَ مُقامةٌ في مياهِ المحيطِ الضحلةِ ، وكانَ على مَن يريدُ الوصولَ إليها أنْ يخوضَ في هذِهِ المياهِ مسافةَ ١٥٠٠م حتى يصلَ إليها ولكنَّهم أقاموا لها طريقًا مدفونًا منهُ ٨٥٠ مترًا في مياهِ البحرِ الضحلةِ التي تبدو كأنَّها المستنقعاتُ والباقي في أرضِ الشاطئِ الجافَّةِ حتى تصلَ إلى شارعِ الشاطئِ ، وقد بالغوا بالعنايةِ بهذِهِ القلعةِ وشرْحِ ما يتعلقُ بها ، ونوهوًا بأنَّها تاريخيةٌ مِن واقعِ كونِ بلادِهم هذِهِ ليست بذاتِ تاريخٍ قديمٍ ، ولذلك كانتْ الآثارُ فيها قليلةً ؛ إذ السكانُ القدماءُ كانوا يبنون بيوتَهم مِن القشِّ والأخشابِ ونحوِ ذلك مما لا يُعَمَّرُ طويلًا»(١).

وهكذا يسترسلُ العبوديُّ في سردِهِ مستهدفًا إشباعَ رغبةِ القارئِ في المعرفةِ فيأخذُهُ معَهُ إلى كلِّ مكانٍ مِن بلادِ البرازيلِ ، مزودًا إياهُ بمعلوماتٍ

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٥٩.

وافيةٍ عن شعبِ البرازيلِ ؛ صفاتِهِ وعاداتِهِ وتقاليدِهِ ومأكولاتِهِ وتركيبتِهِ[1] ولغتِهِ[2] وبيوتِهِ[3] ، مضيفًا إلى ذلك وصفَ التكوينِ الجغرافيِّ للبرازيلِ ، بتضاريسِهِ[4] ومناخِهِ[5] وطبيعتِهِ ونباتاتِهِ وأشجارِهِ[6] ، ولا يقتصرُ في ذلك على الحاضرِ فقط ؛ فقد يعمدُ أحيانًا إلى تقديمِ بعضِ المعطياتِ التاريخيةِ عن البرازيلِ[7].

---

(١) ينظر : في شرق البرازيل ٢٥، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ١١٥ ، ١٥٨ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٧ ، ٣٤ ، ١٢٤ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٤ ، ١٠٧، ١٣٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٢١ ، ٧٢ ، ١١٥ ، وفي غرب البرازيل ٢٧ ، ٤٠ ، ٨٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٠، ٣٧ ، ٦٦.

(٢) ينظر : في شرق البرازيل ٤٤ ، ٦٩ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٦٦ ، ١١٠ ، وفي جنوب البرازيل ٥٨ ، ١٣٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٩ ، ١٥٤ ، وفي غرب البرازيل ٢٥ ، ٧٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ٥٥ ، ٧٢.

(٣) ينظر : في شرق البرازيل ٤٣ ، ١١٠ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٩ ، ٣٥ ، وفي غرب البرازيل ١٤، ٢٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٢٦ ، ١٠٤ ، وفي جنوب البرازيل ٣٨ ، ١١٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٧١ ، ١٣٩ .

(٤) ينظر : في شرق البرازيل ٨٤ ، ١٣١ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٣ ، ٦٦ ، وفي غرب البرازيل ١٣، ٤٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٤ ، ١١٧ ، وفي جنوب البرازيل ٣٨ ، ٦٠، والشرق الشمالي من البرازيل ٢١ ، ٧٤.

(٥) ينظر : في شرق البرازيل ٧٩ ، ١١٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٠ ، ٧٠ ، وفي غرب البرازيل ٣٥ ، ٥٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٨٥ ، ١٢٩ ، وفي جنوب البرازيل ٣٤ ، ٥٢ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٤ ، ٧١.

(٦) ينظر : في شرق البرازيل ٤٧ ، ٨٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ١١ ، ٤٨ ، وفي غرب البرازيل ٥٧ ، ٧٠ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٣ ، ١٢٥ ، وفي جنوب البرازيل ٥٢ ، ١٠٦ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٣ ، ١٦٤ .

(٧) ينظر : في شرق البرازيل ٦٢ ، ١٠٤ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٦ ، ٥٧ ، وفي غرب البرازيل ٧٦ ، ٨٨ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٤ ، ١٢٣ ، وفي جنوب البرازيل ٤٨ ، ٨٢ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٩ ، ١٤٧ .

كما قدَّمَ العبوديُّ لقارئِهِ الـمُتَطَلِّعِ معلوماتٍ مهمةٍ عن الاقتصادِ البرازيليِّ والأسواقِ والمراكزِ التجاريةِ والموانئِ والمطاراتِ[1].

ويُعدُّ الذكاءُ أحدَ سماتِ قارئِ هذه المدونةِ ؛ «فقد يومئُ الساردُ للمسرودِ لَهُ في خطابِهِ ثقةً في ذكائِهِ»[2] ، ويكونُ ذلكَ إمَّا بالاستعانةِ بالتلميحِ بدلًا مِن التصريحِ أو بالاختصارِ بدلًا مِن التفصيلِ.

ومما جرى مجرى ذلك قولُهُ عن زيارتِهِ لشاطئِ ناتال (Natal) : «وقد حاولتُ أنْ ألتقطَ صورةً لا يلوِّثُ عُرْيُها الفاضحُ هذا الكتابَ لأعرضَها أنموذجًا أمامَ القارئِ فلم أستطعْ»[3].

إنَّ العبوديَّ يلمِّحُ للقارئِ مِن خلالِ هذا المثالِ إلى فشوِّ التعرِّي وانتشارِهِ في متنزهِ هذا الشاطئِ ؛ حيثُ إنَّهُ لم يتمكنْ مِن التقاطِ صورةٍ واحدةٍ تكونُ خاليةً مِن منظرٍ مخلٍّ.

ومما جرى مجرى ذلك أيضًا تعليقُهُ على أحدِ الأحداثِ حيثُ يقولُ : «أسرعَ أحدُهم يقولُ لي : أنتَ شيخٌ؟ فقلتُ : لا ، فالتفتَ إلى رفقائِهِ يقولُ لهم : لا ، هذا ما هو شيخٌ ، فحاولوا إسكاتَهُ ، ولكنَّهُ واصلَ قائلًا : لو كانَ شيخ كان صار عليه لفة مثل الرسول [ﷺ]،

(١) ينظر : في شرق البرازيل ٧١ ، ٧٢ ، ٨٧ ، وعلى ضفاف الأمازون ٦٧، وفي غرب البرازيل٣٤، ١٠٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٤ ، ١٢١ ، وفي جنوب البرازيل ٣٣ ، ١٢٦، والشرق الشمالي من البرازيل ٥٠ ، ٦٧.

(٢) البنية السردية في الرواية السعودية ١٦٢.

(٣) الشرق الشمالي من البرازيل ٨١.

يريدُ بذلكَ العمامةَ ، وتبيَّنَ أَنَّهُ كانَ قد شربِ شيئًا»[1]؛ فنجدُ أنَّ العبوديَّ هُنا يُعرضُ عن التصريحِ بنوعِ المشروبِ الذي ذهبَ بعقلِ هذا المحاورِ ويكتفي بقولِهِ (تبين أنه كان قد شرب شيئًا) تاركًا للقارئِ الذكيِّ مهمةَ الكشفِ عن نوعِ هذا المشروبِ الذي أدَّى بشاربِهِ إلى الخروجِ عن حدودِ الانضباطِ.

وفي حينِ يذهبُ بعضُ السرديينَ إلى أهميةِ دورِ المتلقي مِن حيثُ الإنتاجُ ، فإنَّنا نجدُ أنَّ قارئنا قارئٌ منتجٌ يُسهمُ في سدِّ الثغراتِ في بنيةِ النصِّ ، مستلهمًا مِن خلالِ ذلك دورَ المتلقي المثاليِّ القادرِ على تحقيقِ معنى النصِّ وقراءةِ المسكوتِ عنهُ[2].

ولنأخذْ على سبيلِ المثالِ قولَ العبوديِّ في ختامِ زيارتِهِ للجمعيةِ الفلسطينيةِ في بورتو إليقري (Porto Alegre) : «ثُمَّ ودَّعناهُم منصرفينَ بعدَ العاشرةِ»[3]؛ حيثُ استأنفَ السردَ بعد ذلك بقولِهِ : «غادرنا فندقنا في (برتو إليقري) عندَ الساعةِ الثامنةِ مِن صباحِ اليومِ»[4] ، وهنا تكمنُ أهميةُ المتلقي المثاليِّ مِن حيثُ ملءُ هذِهِ الثغرةِ وإكمالُ هذا الانقطاعِ بما يُعلم عادةً مِن الأحداثِ التي لا يلزمُ ذكرُها ، وهي هنا الرجوعُ إلى الفندقِ والنومُ ثُمَّ الصحو مِن النَّومِ ثُمَّ الإفطارُ ثُمَّ المغادرةُ.

---

(١) في جنوب البرازيل ٤٤. ولمزيد أمثلة ، ينظر : الشرق الشمالي من البرازيل ٩٣ ، ١٦٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٥ ، وعلى ضاف الأمازون ٢٥ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٩١ ، وفي شرق البرازيل ٥٤ ، ٧٩ ، وفي غرب البرازيل ١٠٦.

(٢) ينظر : معجم السرديات : (قارئ).

(٣) في جنوب البرازيل ٤٨.

(٤) نفسه ٥٠.

وفي ختامِ الرحلةِ إلى غربِ البرازيلِ يذكرُ العبوديُّ أحداثَ زيارتِهِ لأحدِ المسلمينَ في برازيليا (Brasília) ، فيقولُ : «ثُمَّ تناولنا طعامَ الغداءِ في بيتِ الشيخِ عبدِ الناصرِ الخطيبِ وكانَ المطرُ لا يزالُ يهطلُ والسماءُ ملبدةٌ بالغيومِ»(١) ، وبعدَ هذا الحدثِ ينتقلُ العبوديُّ إلى سردِ أحداثِ سفرِهِ مِن برازيليا (Brasília) إلى مدينةِ بيلو أورزنت (Belo Horizonte)(٢) تاركًا للقارئِ المنتجِ مهمةَ ملءِ هذِهِ الفجوةِ بالأحداثِ المعهودةِ التي يدلُّ عليها السياقُ ، مِن حيثُ انتهاءُ المأدبةِ والذهابُ إلى المطارِ وركوبُ الطائرةِ وانطلاقُ الطائرةِ وغيرُ ذلك مِن أحداثٍ جرَتْ عليها العادةُ.

ويُعد الاهتمامُ بالتفاصيلِ أحدَ الصفاتِ الملموسةِ لقارئِ هذهِ المدونةِ ، يكشفُ ذلك كثرةُ الاستطراداتِ والأوصافِ الدقيقةِ المدرجةِ رُغمَ عدمِ أهميتِها عندَ البعضِ ، ولكنَّ هذِهِ الاستطراداتِ تكونُ -غالبًا- حمالةً للدلالاتِ في هذه المدونةِ ، مثلَ قولِهِ : «وقد لاحظت الدليلةُ السياحيَّةُ أنَّني أكتبُ في بعضِ الأحيانِ في مذكِّرةٍ صغيرةٍ بيدي ، فسألَتْ الأخَ المرافقَ (بدوي فقوسة) عمَّا أكتبُهُ ؛ لأنَّها تعرفُ أنَّني لا أحسنُ البرتغاليةَ -لأنَّني قد استفهمتُها عن بعضِ الأشياءِ بالإنكليزيةِ- فأجابها بقولِهِ : إنَّهُ كاتبٌ يكتبُ مشاهداتٍ وينشرُها في البلدانِ العربيةِ ، وسوفَ تُغري كتابتُهُ طائفةً مِن قرائها بالمجيءِ إلى هنا فيكثرُ عندكُم السياحُ ، فضحِكَتْ وقالتْ إنَّهُ يسرنا ذلك»(٣) ، ففي حينِ يتحدثُ العبوديُّ عن رحلتِهِ الداخليةِ لنهرِ

---

(١) في غرب البرازيل ١٠٦.

(٢) ينظر : في غرب البرازيل ١٠٧. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٣٥ ، ٧٧ ، وفي غرب البرازيل ٦٤ ، وفي شرق البرازيل ٤٥ ، ٨٠ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٩ ، ١٢٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٩ ، ١٤٢ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣١ ، ٧١.

(٣) على ضفاف الأمازون ٥١.

الأمازونِ يُدرجُ هذا الحوارَ الجانبيَّ ، وربَّما قصدَ بذلك إبرازَ بساطةِ البرازيليين ولطفِهم في التعاملِ والحوارِ.

ومن قبيلِ ذلك -أيضًا- قولُهُ : «غادرنا مطارَ برازيليا عاصمةَ البرازيلِ...وكانت مغادرتُنا على طائرةٍ لشركةِ (فاسب) ، إحدى الشركاتِ العديدةِ في البرازيلِ ، ولكنَّها محليةٌ داخليةٌ ، فلا تسافرُ طائراتُها خارجَ البلادِ ، غيرَ أنَّ البرازيلَ نفسَها واسعةٌ شاسعةٌ ، والسفرُ فيها بينَ أركانِها البعيدةِ يعادلُ السفرَ إلى بلدانٍ عديدةٍ صغيرةٍ أو متوسطةٍ ، أو يزيدُ على ذلك ، ويكفي أنْ تعرفَ أنَّ المسافةَ بينَ شمالِ البلادِ وجنوبِها تزيدُ على ثلاثِ آلافِ كيلومتر ، وأنَّ مساحةَ البلادِ البرازيليةِ كلِّها تبلغُ أربعةَ أضعافِ مساحةِ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ أو تكادُ -على سعةِ بلادِنا وتباعدِ نواحيها-. والطائرةُ مِن طرازِ بيونغَ ٧٣٧ ، وهو أصغرُ الأشقاءِ ، أو إنْ شئتَ قلتَ : الشقيقاتِ في أسرةِ بوينغَ العظيمةِ التي لا توجد طائراتٌ تُنافسُها في كثرةِ ما تجوبُهُ مِن جواءِ العالمِ في قارّاتِهِ المختلفةِ ، وبخاصةٍ في المسافاتِ البعيدةِ ما بينَ القارَّاتِ»(١) ، ففي هذا الاستطرادِ يبثُّ العبوديُّ للمتلقي المُهتمِّ بالتفاصيلِ مجموعةً مِن المعلوماتِ عن طيرانِ البرازيلِ وشركاتِ الطيرانِ والمساحةِ.

وإلى جانبِ الاهتمامِ بالتفاصيلِ فإنَّ قارئَ هذه المدوَّنةِ معنيٌّ أيضًا بالطريفِ والغريبِ النادرِ مِن أحداثِ الرحلةِ ومشاهدِها ومرئياتِها ، مما جعلَ العبوديَّ يحرصُ على ذكرِها والاحتفاءِ بِها ، من قبيلِ قولِهِ : «كانَ معَ المنظرِ الجميلِ في هذا المطعمِ أن اقتربَ قارعُ الطبلِ ،

---

(١) في شرق البرازيل ٢٤. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ١٦ ، ٦٦ ، وفي جنوب البرازيل ٤٤ ، ٥٨ ، وفي شرق البرازيل ١٠٩ ، ١٢٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ١٨ ، ٤٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٠ ، ١٣١ ، وفي غرب البرازيل ٧٢ ، ٩١.

واقتربَ معَهُ رجلٌ يحملُ على ذراعِهِ نسناسينِ اثنينِ ، والنسناسُ حيوانٌ صغيرٌ يشبهُ القرودَ ، إلا أَنَّهُ في حجمِ الفأرِ الكبيرِ ، وأهمُّ ما في جسمِهِ ظهورًا عيناهُ الكبيرتانِ وذيلُهُ الطويلُ ، وهو يعرضُهما للبيعِ ، وانتهزتُ الفرصةَ فالتقطتُ صورةً لهما وهما على يدِ الدليليةِ السياحيةِ»[1]. هكذا نرى أنَّ العبوديَّ لم يكنْ ليهملَ هذا الحيوانَ النادرَ والذي بدورِه يمكنُ أن يضيفَ للقارئِ معلومةً جديدةً.

ومِن ذلكَ أيضًا قولُ العبوديِّ تحتَ عنوانٍ أسماهُ (المتعةَ الجانبيةَ) : «ليسَ الغريبُ مِن أحوالِ هذا الشعبِ البرازيليِّ الحسنِ المعاملةِ أنْ يكونَ كذلك معَ الغريبِ ، وإنَّما الغريبُ أيضًا ما يكونُ لأهلِ البلدِ ، فقد مررْنا بمكانٍ ضخمٍ أشبهَ ما يكونُ بمحلَّاتِ المعارضِ الكبيرةِ اسمُهُ (إسباسو كوتوراد لين دو هيقو) ذكروا أنَّ (جوزيهَ) بناهُ للحكومةِ ، -ولا أدري مَن جوزيهُ هذا؟- ولكنَّ المكانَ هو لقضاءِ وقتٍ طيبٍ بالمجانِ ؛ أيْ مِن دونِ أنْ يدفعَ مَن يقضي الوقتَ فيهِ شيئًا مِن المالِ ، ومِن أهمِّ ما فيهِ الاستماعُ إلى الموسيقى وألوانِ عرضٍ ثقافيٍّ وحلبَةٍ للعروضِ الرياضيةِ لها مدارجُ يمكنُ الجلوسُ فيها ومشاهدةُ تلك العروضِ الرياضيةِ بالمجَّانِ ، وفيهِ معارضُ للدولِ الأجنبيةِ كلُّ دولةٍ تعرضُ ما تودُّ عرضَهُ مما لديها ، سواءً أكانَ العرضُ لغرضٍ تجاريٍّ أو لغرضٍ ثقافيٍّ ، حتى الاتحادُ السوفيتيُّ لَهُ معرضٌ فيهِ ، وقد رسموا أعلامَ الدولِ وكتبوا أسماءَها على حائطِ المكانِ بشكلٍ بارزٍ ، وهناك مطاعمُ تُقدِّمُ أطعمةَ تلكَ الدولِ بالثمنِ -بطبيعةِ الحالِ- ، وقد رأيتُ علمَ دولةِ اليهودِ في فلسطينَ واسمَها على المكانِ ولم أرَ فيهِ أيَّ ذكرٍ لأيِّ دولةٍ عربيةٍ»[2]؛ فالعبوديُّ يكشفُ هنا عن مَعلَمٍ

---

(١) في شرق البرازيل ٧٨.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ١٤٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٧٤، ٨٠ ، وفي جنوب البرازيل ٣٩ ، ١٠٣ ، وفي شرق البرازيل ٥٩ ، ٧٦ ، ١٥٦ ، والشرق

غريبٍ مِن معالمِ جوا بسوا (Joao Pessoa) والذي بدورِهِ سيزودُ القارئَ بشيءٍ مِن الاهتماماتِ البرازيليةِ.

ومما كشفتْهُ هذه المدونةُ مِن سماتِ القارئِ ، عنايتُهُ بالجمالِ ، مما حدا بالعبوديِّ إلى الاحتفاءِ بالمناظرِ الجميلةِ ووصفِها بدقةٍ وتوسُّعٍ وإبداعٍ ، ومِن ذلكَ -مثلًا- قولُهُ : «أخذَت الرُّبى الخضرُ تقتربُ مِن الطريقِ شيئًا فشيئًا كلَّما أمعنَ جهةَ الشمالِ ، وأسرعَتْ الجداولُ التي كانت تندسُّ تحتَها وهي تغذُّ السيرَ إلى بحيرةٍ غيرِ بعيدةٍ ، وأصبحَ البصرُ لا يرى إلا الجمالَ أينما توجَّهَ ، وحتى الجمالُ الأخضرُ فإنَّ أكثرَهُ مثمرٌ نافعٌ كالحقولِ التي تنتجُ الأغذيةَ كالأرزِ والصويا ، وقد جمَّلوا الطريقَ بأنْ غرسوا في وسطِهِ زهورًا متنوعةَ الألوانِ زادتْهُ بهجةً على بهجةٍ ، وقد لَطُفَ الجوُّ بعدَ نزولِ المطرِ الخفيفِ وغابَت الشمسُ»[(١)].

ومِنه أيضًا قولُهُ عن ريفِ جوا بسوا (Joao Pessoa) : «والريفُ هنا جميلٌ فهو ريفٌ معشبٌ توشِّحُهُ رُبًى خضرٌ متطامنةٌ تظلِّلُها أشجارُ النارجيلِ وترعى فيها الأبقارُ»[(٢)].

كما يمكنُ جعلُ الحرصِ على دقةِ المعلومةِ أحدَ سماتِ تميّزِ قارئِ هذه المدونةِ ، فهوَ قارئٌ تهمُّهُ دقَّةُ المعلومةِ ، وقد حرصَ العبوديُّ على الدِّقَّةِ مِن خلالِ تقديمِهِ لمعلوماتٍ محددةٍ بالأرقامِ والإحصاءاتِ ، ومِن ذلك قولُهُ عن وصولِهِ كويابا (Cuiabá) في غربِ البرازيلِ :

الشمالي من البرازيل ٧١ ، ٧٦ ، ٨٥ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٧٠ ، ٨٤ ، ١٢٤ ، وفي غرب البرازيل ٢٠ ، ٦٠.

(١) في جنوب البرازيل ٥٤.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ١٦٠. ولمزيد أمثلة ينظر: على ضفاف الأمازون ١١ ، وفي جنوب البرازيل ١٠٦ ، ١١٨ ، وفي شرق البرازيل ٤٦ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٥٠ ، وفي غرب البرازيل ١٤ ، ٤٤.

«وكانت الساعةُ عندما هبطنا هي الثانيةَ عشرةَ والنصفُ ظهرًا بتوقيتِ (برازيليا) التي غادرناها ، ويوافقُ الحاديةَ عشرةَ والنصفَ بتوقيتِ (كويابا) هذهِ التي وصلناها ، وذلك أنَّ (كويابا) تقعُ إلى الغربِ الشماليِّ مِن العاصمةِ (برازيليا) ، ولذلك يتأخرُ توقيتُها عنها ساعةً واحدةً»(١).

ونحوُ ذلك أيضًا قولُ العبوديِّ : «وأنزلوني في غرفةٍ ممتازةٍ مِن جناحٍ جديدٍ في وسطِ حديقةِ الفندقِ ، وهي هادئةٌ أكثرَ مِن هدوءِ البيتِ الخاصِّ ؛ لأنَّ الحديقةَ الواسعةَ تحيطُ بِها إلى مسافاتٍ بعيدةٍ فكأنَّما أنتَ ساكنٌ وحدَكَ ، وأجرتُها ٩٩٩٥ كروزادو ، هكذا لم يكملوا الآلافَ العشرةَ ويساوي ذلك نحوَ ٣٢ دولارًا أمريكيًا ، ما أرخصَهُ ! ولو كانتْ مثلُ هذِهِ الغرفةِ في أوربَّا -وهي لا تكونُ لضيقِ الأرضِ عندَهم- لما قلَّتْ أجرتُها عن ٣٠٠ دولارٍ أميركيةٍ في اليومِ»(٢).

وإلى كلِّ ما مضى فإنَّ المتأملَ في هذه المدونةِ يجدُ أنَّها وُجِّهت إلى قارئٍ مسلمٍ متخلِّقٍ بأخلاقِ الإسلامِ فلا رفثَ ولا فسوقَ ، كما أنَّ هذا القارئَ يحملُ همَّ أمتِهِ مِن خلالِ سبْرِهِ لحالِ الجالياتِ المسلمةِ في البرازيلِ ومعرفةِ منجزاتِهم وحاجاتِهم.

---

(١) في غرب البرازيل ١٦.

(٢) الشرق الشمالي من البرازيل ١٢٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٢٦ ، ٤١ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤١ ، ١٠٢ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢١ ، ٣٧ ، وفي شرق البرازيل ٢٧ ، ٩٣ ، وفي جنوب البرازيل ٤٢ ، ٨٦ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣٢ ، ٦٩.

المبحث الثاني :

مهامُّ السارد والقارئ

يقتضي السردُ قيامَ الساردِ بالعديدِ مِن المهامِّ مِن أجلِ توفيرِ نصٍّ لائقٍ بالمتلقي ، وفي حينِ يُؤَدِّي الساردُ مُهِمَّتَهُ فإنَّهُ يتركُ للمتلقي بعضَ المهامِّ الخاصةِ بهِ والـمُعينةِ لهُ على وصولِ رسالةِ النصِّ ، وفيما يلي سنحاولُ دراسةَ بعضِ مهامِّ الساردِ في هذه المدونةِ مُثَنِّينَ بشيءٍ مـمَّا على القارئِ القيامُ بِهِ حيالَ قراءةِ السردِ وإدراكِ مغازيه.

أـ مهامُّ الساردِ في رحلاتِ العبودي إلى البرازيلِ:

إنَّ عمليةَ السردِ هي الوظيفةُ الأساسيةُ والبديهيةُ للساردِ ، كما أنَّهَا أولُ أسبابِ تواجُدِهِ[1] ، ومِن خلالِها يتمكنُ مِن «عرضِ الأحداثِ أو قصِّها ، ويتولَّدُ عنها خطابٌ لغويٌّ محكومٌ بصيغٍ زمنيةٍ مُعيَّنةٍ ، أو كما قيلَ : عرضٌ بواسطةِ اللغةِ المكتوبةِ»[2].

ويصطفُّ إلى جانبِ هذِهِ الوظيفةِ الأساسيةِ والأزليَّةِ للساردِ وظائفُ أخرى مساندةٌ تعملُ على «إيصالِ المعرفةِ والمتعةِ الفنيةِ للقارئِ بشكلٍ مُنَسَّقٍ يثيرُ الانتباهَ ويَستعملُ مِن التقنياتِ ما يُمَتِّنُ بِهِ الثقةَ بينَهُ وبينَ قارئِهِ حتى يشعرَهُ بالاطمئنانِ مِن حيثُ المصداقيةُ ، وبذلك ينقادُ لَهُ فيما يقرؤهُ ، والساردُ جزءٌ مِن المحكيِّ وهو يقومُ أساسًا بسردٍ إخباريٍّ أو عرضٍ مشهديٍّ ، ووظائفُهُ متعدِّدَةٌ»[3]لعلَّ مِن أهمِّها ، في هذه المدونةِ ، ما يلي :

١ – المهمةُ المعرفيةُ :

يوجِّهُ الساردُ/ الرحالةُ خطابَهُ «التواصليَّ إلى متلقٍ مُفتَرَضٍ يرغبُ في التعلُّمِ والمعرفةِ»[4] ، لذا فإنَّ عليهِ أنْ يحرصَ على ذكرِ كلِّ ما يمكنُ أنْ يُغَذِّي عقلَ القارئِ مِن

---

(١) ينظر : مدخل إلى نظرية القصة ١٠٨.

(٢) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٣٩.

(٣) نفسه ٤٣٨.

(٤) المتكلم في السرد العربي القديم ١٦٤.

معارفَ ومعلوماتٍ ، و«ذلك هو المكوِّنُ التعليميُّ ، فالرحالةُ يرتحلُ ليتعلمَ ، ويعودُ إلى بلدِهِ ليعيدَ إنتاجَ المعرفةِ بصيغٍ عديدةٍ»(١).

والقارئُ لهذه المدونةِ يجدُ أنَّها تحتوي على كمٍّ لا بأسَ بِهِ مِن المعارفِ والمعلوماتِ والمعطياتِ التي يمكنُهُ أنْ يستثمرَها ويتَّخذَ مِنها وسيلةً تثقيفيةً تُعَرِّفُهُ ببلدِ البرازيلِ بكلِّ ما يحتويهِ مِن سياسةٍ واقتصادٍ ومجتمعٍ وزراعةٍ ومساحةٍ وطبيعةٍ وطرقٍ ومواصلاتٍ وما إلى ذلك.

كما يمكنُ للقارئِ أنْ يدرسَ رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ على أنَّها شهاداتٌ أو وثائقُ أو تقاريرُ عن بلادِ البرازيلِ والجالياتِ الإسلاميةِ فيها إبَّانَ تلكَ الفترةِ.

٢- المهمَّةُ الإبلاغيةُ الأيديولوجيةُ :

لابدَّ وأنْ ينطوي السردُ الهادفُ على وظيفةٍ إبلاغيةٍ «تتجلى في إبلاغِ رسالةٍ للقارئِ»(٢) ، وهذِهِ الرسالةُ قد تكونُ الحكايةَ نفسَها وقد تكونُ «مغزًى أخلاقيًّا أو إنسانيًّا كما في»(٣) غالبِ التعليقاتِ والتفسيراتِ ومشاعرِ الاستياءِ والرفضِ التي يجدُها القارئُ في هذه المدونةِ(٤) ، ويكونُ مغزى الساردِ منها إيصال رسالةٍ مبطَّنةٍ إلى القارئِ.

ويمكنُنا أنْ نستشهدَ على ذلك بما قالَهُ العبوديُّ عن الـ(مولاتو) وهنَّ النساءُ المختلطاتُ مِن أجناسِ البرازيلِ الثلاثةِ ، حيثُ يقولُ في شأنهنَّ : «وقد رأيتُ بعدَ ذلكَ

---

(١) أدبية الرحلة ٣٠.

(٢) مدخل إلى نظرية القصة ١٠٩.

(٣) نفسه.

(٤) ينظر : خطاب الحكاية ٢٦٥.

مهرجانَ الكارنفالِ في (ريودي جانيرو) حيًّا في الشوارعِ والميادينِ ، كما رأيتُ صورَ مهرجانِ (سلفادور) عاصمةِ (بهية) في التلفازِ ، فإذا بأولئكَ المختلِطَاتِ مِن الفتياتِ اللاتي يسمُّونَ الواحدةَ منهنَّ الـ(مولاتا) هنَّ أكثرُ مَن في المهرجانِ رقصًا ، بل مجونًا وعرضًا للأجسادِ»(١)؛ فمِن خلالِ هذا المثالِ يمكنُ للقارئِ أنْ يدركَ رسالةَ العبوديِّ مِن حيثُ التنفيرُ مِن هذِهِ السلوكياتِ المشينةِ المستمرأةِ مِن قبلِ الشعبِ البرازيليِّ.

ومِن ذلك أيضًا قولُ العبوديِّ عن أحدِ الأحياءِ الشعبيةِ السكنيةِ في (بورتو إليقري) : «رُغمَ كونِنا نرى مِن قمةِ جبلِ تيريزا الصغيرةِ أحياءً جميلةً بل رائعةً مِن مدينةِ (بورتو إليقري) فإنَّ تحتَ هذا الجبلِ أو التلَّةِ الجبليةِ مباشرةً يقعُ حيٌّ (شعبيٌّ) للفقراءِ ، بيوتُهُ الخشبيةُ المتواضعةُ ذاتُ السقوفِ مِن الصفيحِ الصدئِ ، وبعضُ المنازلِ مِن الصفيحِ وهي تبدو صغيرةً ، وقد انسابَت المياهُ المستعملةُ مِن البيوتِ إلى أرضِ الشارعِ فحفرتْ أخاديدَ سودًا صغيرةً في أرضِهِ مما يدلُّ على أنَّهُ ليسَ في البيوتِ صرفٌ صحيٌّ للمياهِ ، كما رأينا أمامَ تلكَ البيوتِ في مكانٍ متَّسعٍ أكوامًا مِن الحطبِ الذي يوقدونَ بِهِ ، وأهلُ هذِهِ البيوتِ مختلطو الألوانِ مِن بيضٍ وسمرٍ شديدي السمرةِ ، ولا يجمعُ بينَهم إلا الفقرُ»(٢).

إنَّ القارئَ لهذا المثالِ يدركُ رفضَ العبوديِّ لهذهِ الطبقيةِ ، ودعوتَهُ إلى أهميةِ مساواةِ الفقراءِ بالأغنياءِ في كافةِ الحقوقِ كالمجاري والغازِ وغيرِ ذلك.

---

(١) في شرق البرازيل ٣٤.

(٢) في جنوب البرازيل ١٣٢. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٣٤ ، ٩١ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٨ ، ٥٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٦ ، ٣٧ ، ١٤٦ ، وفي شرق البرازيل ١٥٧ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ١٧ ، ٥٨ ، ٨٤.

ويهدفُ الساردُ مِن خلالِ هذهِ الوظيفةِ إلى أنْ «يشركَ القارئَ ويثيرَهُ ليمارسَ بدورِهِ العمليةَ النقديةَ فيستحسنَ ويستهجنَ»(١) متأثرًا بالسردِ.

كما أنَّ للاشتراكِ اللغويِّ والأيديولوجيِّ بينَ الساردِ والقارئِ دورًا مهمًّا مِن حيثُ إيجادُ تواصلٍ حيويٍّ وفعَّالٍ ، ونحنُ نجدُ أنَّ العبوديَّ حرصَ في رحلاتِهِ على استخدامِ لغةٍ سليمةٍ مناسبةٍ للقارئِ وبعيدةٍ عن التعقيدِ ، كما أنَّهُ عملَ على قراءةِ الواقعِ البرازيليِّ من خلالِ المنظارِ الأيديولوجيِّ المشتركِ بينَهُ وبينَ القارئِ(٢).

٣- المهمَّةُ الانتباهيةُ :

وتتمثلُ هذِهِ المهمةُ في قيامِ الساردِ باختبارِ «وجودِ الاتصالِ بينَهُ وبينَ المرسلِ إليهِ»(٣) ؛ حيثُ يقومُ الساردُ بإيجادِ «مكانٍ للمتلقي وسطَ المحكيِّ»(٤) ، وتقامُ مِن خلالِ هذهِ الوظيفةِ الصلةُ مع المتلقي «عن طريقِ الحوارِ أو النداءِ أو ضمائرِ المخاطبِ»(٥) أو الصيغِ اللافتةِ لانتباهِ القارئِ.

وبالنظرِ في هذه المدونةِ يتَّضحُ أنَّ العبوديَّ حرصَ -في الغالبِ- على اختبارِ فعاليةِ الاتصالِ بينَهُ وبينَ القارئِ مِن خلالِ ضمائرِ المخاطبِ أو صيغِ لفتِ الانتباهِ ؛ فقد «يوجِّهُ الخطابَ للقارئِ مباشرةً بضمائرِ الخطابِ»(٦) الظاهرةِ أو المستترةِ ، مِن قبيلِ ما جاءَ في حديثِهِ

---

(١) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٧٤.

(٢) ينظر : نفسه ٤٥٦.

(٣) مدخل إلى نظرية القصة ١٠٩.

(٤) شعرية الرواية الفانتاستيكية ١٦٥.

(٥) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٦١.

(٦) السابق ٤٦٦.

عن نزهتِهِ في شاطئِ ناتال (Natal) الرمليِّ ، حيثُ يقولُ : «ومِن الطرائفِ التي هنا : منظرُ أسرةٍ أحضرَتْ معها سيارتَها التي هي مِن سياراتِ الرمالِ ، وبعدَ أنْ شبعتْ مِن السيرِ بِها على ظهورِ هذِهِ الرمالِ المترادفةِ أركبتْها معَها في قاربٍ مِن القواربِ وذهبتْ في نزهةٍ بحريةٍ وهي معها ، بقيَ أنْ **تعرفَ** أنَّ السيارةَ الرمليَّةَ صغيرةُ الحجمِ ، خفيفةُ الوزنِ ، لا تستعملُ لغيرِ اجتيازِ الرمالِ»(١).

ومِن ذلك -أيضًا- ما جاءَ بِهِ العبوديُّ في معرِضِ حديثِه عن وسطِ مدينةِ بيليم (Belém) ، حيثُ يقولُ : «وصلنا وسطَ المدينةِ أو قلبَها التجاريَّ ويتألفُ مِن أبنيةٍ متعدِّدةِ الطوابقِ (عمارات) غيرِ متلاصقةٍ ولكنَّ أكثرَها غيرُ بهيجِ المنظرِ ويخيلُ **إليكَ** أنَّهُ ينقصُها الطلاءُ الجيِّدُ»(٢).

ويمكنُنا أيضًا إدراكُ هذِهِ المهمةِ في هذه المدونةِ مِن خلالِ ما أوردَهُ العبوديُّ مِن صيغٍ لافتةٍ للنَّظرِ ومستفزَّةٍ لتلقي ما بعدِها(٣) ، وتكمنُ هذهِ الصيغُ في مجموعِ الكلماتِ التي يُصَدِّرُ العبوديُّ بها «الكلامَ أو النصَّ بتحديدِ أسماءٍ دالةٍ على (نوعِ) الكلامِ»(٤) ، نحو الألفاظِ المعبِّرةِ عن غرابةِ الكلامِ أو ندرتِهِ أو لطافتِهِ أو أهميتِهِ وغيرِها ، مثلَ قولِهِ في رحلتِهِ إلى شرقِ البرازيلِ : «**موضوعٌ مهمٌّ** : هذا الموضوعُ مهمٌّ جدًا ، أولًا مِن الناحيةِ التاريخيةِ الإسلاميةِ ؛

---

(١) الشرق الشمالي من البرازيل ٨٥.

(٢) على ضفاف الأمازون ٨٦. ولمزيد أمثلة ينظر: في غرب البرازيل ٦١ ، ١٠٠ ، وفي جنوب البرازيل ١١٦ ، ١٣٢ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٦٥ ، وفي شرق البرازيل ٢٤ ، ١١٣ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٨.

(٣) ينظر : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٦٤.

(٤) الكلام والخبر ، مقدمة للسرد العربي ١٥٩.

يجبُ معرفةُ التطوراتِ التي حصلتْ للمسلمينَ الذينَ جلبَهم البرتغاليونَ بالإكراهِ إلى هذهِ البلادِ وباعوهم عبيدًا مِن أجلِ أنْ يعملوا في المزارعِ وغيرِها ، فيجبُ أنْ نعرفَ مَن هُم أولئكَ المسلمونَ ، ثُمَّ يجبُ أكثرُ مِن ذلك أنْ نعرفَ الأسهلَ مِنهُ ، وهو بقايا المظاهرِ الإسلاميةِ والتقاليدِ القَبَلِيَّةِ التي كانت قد اصطبغت بصبغتِهِ في هذِهِ الولايةِ وبجوارِها مِن الشمالِ ، حيثُ الأكثرون مِن الأفريقيينَ في البرازيلِ ، وهذا إلى جانبِ كونِهِ مطلبًا علميًا فإنَّهُ مطلبٌ إسلاميٌّ ؛ إذْ إبلاغُ أولئك القومِ بالدعوةِ الإسلاميةِ أمرٌ واجبٌ حتى ولو لم يكونوا في الأصلِ مسلمينَ»[1].

ونحوُ ذلك أيضًا قولُهُ : «**لفتةٌ طريفةٌ** : أرادَ الأخُ أبو فارسٍ صرفَ نقودٍ مِن المصرفِ وكانَ الوقوفُ ممنوعًا إطلاقًا في هذِهِ المنطقةِ المزدحمةِ مِن قلبِ المدينةِ ، ولا تتسامحُ الشرطياتُ بذلك فكانَ أنْ أعدَّ المصرفُ طابقًا مِن البناءِ الذي يشغلُهُ تحتَ الأرضِ لوقوفِ سياراتِ العملاءِ عليهِ بوابٌ لا بدَّ مِن أنْ يعرفَ صاحبَ السيارةِ التي تنزلُ في هذا الوقتِ بأنَّهُ مِن عملاءِ المصرفِ إمَّا معرفةً شخصيةً أو يُريَهُ بطاقةَ المصرفِ التي يحملُها العميلُ ، ونزلَ الأخُ أبو فارسٍ إلى الموقفِ بسيارتِهِ فأوقفَها خلفَ سيارةٍ أخرى بحيثُ لا تستطيعُ تلكَ السيارةُ الواقفةُ قبلَهُ أنْ تخرجَ ، وقال لي : أنَّ العادةَ هنا قد جرَتْ على أنْ يتركَ العميلُ مفتاحَ سيارتِهِ فيها. حتى إذا جاءَ الشخصُ الذي أمامَكَ وأرادَ الخروجَ قبلَ أنْ تأتي أنتَ فتحَ سيارتَك وأزاحَها فأخرجَ سيارتَهُ ثُمَّ أعادَ سيارتَكَ إلى مكانِها ، قالَ : والمرءُ يكونُ آمنًا في هذا المكانِ على سيارتِهِ ، وهو يترُكُ عليها مفتاحَها لأنَّهُ مكانٌ محروسٌ لا يدخُلُ إليهِ إلا أناسٌ معروفونَ مِن الحارسِ ، وقد بقينا وقتًا في المصرفِ وتمشَّينا في المنطقةِ ثُمَّ عُدنا إلى موقفِ

---

(١) في شرق البرازيل ٦٢.

السيارةِ تحتَ الأرضِ مِن مصعدٍ هناكَ فوجدنا الرجلَ الذي أمامَنا قد أخرجَ سيارتَهُ وجاءَ آخرُ فوقفَ خلفَ سيارتِنا ولكنَّهُ تركَ مفتاحَ سيارتِهِ عليها فأبعدَها الأخُ أبو فارسٍ وخرجنا بالسيارةِ»[١].

ومِن خلالِ ما مضى يتَّضِحُ لنا الفرقُ بينَ الوظيفةِ الإبلاغيةِ والوظيفةِ التنبيهيةِ أو الانتباهيةِ ؛ فـ«هناكَ نقفُ عندَ المغزى الـمُبَلَّغِ للمرسلِ إليهِ ، أمَّا في هذِهِ الوظيفةِ فنقفُ عندَ الخطابِ الموجَّهِ إلى المرسلِ إليهِ»[٢].

٤- مهمةُ الوصفِ :

تُعَدُّ وظيفةُ الوصفِ أحدَ أهمِّ وظائفِ السَّاردِ/ العبوديِّ ، فقد حرصَ مِن خلالِها على نقلِ الواقعِ بشكلٍ يقربُهُ إلى المتلقي ، وقد اعتنى العبوديُّ «كثيرًا بالوصفِ الذي يتَّسِمُ بالدقَّةِ والشموليةِ والتَّحَكُّمِ في نقلِ الصورةِ المرئيةِ لتقريبِها مِن ذهنِ المتلقي ، فهوَ ساردٌ وصَّافٌ ينظمُ وحداتِهُ السرديةَ على هذا الأساسِ»[٣].

وما مِن شكٍّ «أنَّ التصويرَ بأشكالِهِ وبعثِ صورٍ متعددةِ المستوياتِ يهدفُ...إلى الفائدةِ والراحةِ أو التعجيبِ واللذةِ»[٤] ، مما جعلَ أحدَ الدارسين يذهبُ إلى أنَّ للوصفِ وظيفتينِ سرديتينِ أساسيتينِ «هما :

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ١٥٦ . ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٣٣ ، ٣٩ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٥٨ ، ١١٠ ، وفي شرق البرازيل ٥٣ ، ٨٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ٢٠ ، ٨٠ ، وفي جنوب البرازيل ٣٧ ، ١٢٤ ، وفي غرب البرازيل ٢٠ ، ٦١.

(٢) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٦١.

(٣) المتكلم في السرد العربي القديم ١٥٦.

(٤) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٢٣٢.

أ- إفادةُ القارئِ

ب-إمتاعُ القارئِ

فالرحالةُ عندما يوقفُ السردَ مِن أجلِ أنْ يصفَ مكانًا أو شيئًا أو شخصًا إنَما يسعى مِن وراءِ ذلكَ إلى إفادةِ القارئِ بمعلوماتٍ ومعارفَ حولَ ذلك الموصوفِ»[1] ، وتتناسبُ هذِهِ الوظيفةُ للوصفِ مع المهمةِ الأولى للساردِ وهي المهمةُ المعرفيةُ ، كما تقتضي هذِه الوظيفةُ صدقَ الوصفِ بحيثُ يمكنُ أنْ يستقي المتلقي من الوصفِ معلوماتٍ صحيحةٍ تصلحُ أنْ تبقى وثيقةً يُرجعُ إليها[2].

وتتمثلُ الوظيفةُ الثانيةُ للوصفِ (الإمتاعيةُ) في هذه المدونةِ من خلالِ المقاطعِ الوصفيةِ التي تشكِّلُ «محطاتٍ جماليةٍ يستريحُ فيها المؤلفُ والقارئُ مِن مُتابعةِ الأحداثِ وعناءِ السردِ ، إضافةً إلى أنَّهُ يكسرُ تواليَ السردِ ورتابتَهُ ، وبذلك يدفعُ المَلَلَ ؛ لأنَّ الشيءَ إذا توالى مُلَّ ، ويخلقُ في الوقتِ ذاتِهِ لدى القارئِ تشويقًا إلى متابعةِ القراءةِ لمعرفةِ ما سيحدثُ بعدَ أنْ ينتهي الوصفُ»[3].

ويمكنُ أنْ نُدخلَ الصورَ الفوتوغرافيةَ في هذه المدونةِ ضمنَ مهمةِ الوصفِ مِن حيثُ أنَّها نصٌّ موازٍ حرصَ العبوديُّ مِن خلالِهِ على نقلِ الواقعِ وتنويعِ مصادرِ المعرفةِ.

---

(١) الرحلات المغربية السوسية ٣٣٢.

(٢) ينظر : السابق ، والسيميولوجيا وأدب الرحلات ، عالم الفكر ، يناير/مارس ١٩٩٦م ، مج٢٤ ، ع٣ ، ص٢٥١.

(٣) الرحلات المغربية السوسية ٣٣٢.

٥- مهمةُ الحوارِ :

مَن يقرأْ هذه المدونةَ يدركْ أهميةَ الحوارِ كأحدِ أهمِّ الأدواتِ السرديةِ ؛ حيثُ حرصَ العبوديُّ على نقلِ العديدِ مِن مقاطعِ الحوارِ ، آملًا مِن خلالِها أنْ يزودَ القارئَ بما تحمِلُهُ مِن المعارفِ والمعلوماتِ والطبائعِ والعاداتِ وغيرِ ذلك.

كما أدَّى الحوارُ دورَهُ أيضًا مِن حيثُ كونه فرصةً لظهورِ أصواتٍ أخرى غيرِ صوتِ الساردِ الرحليِّ المهيمنِ[١] ، ولذلك دورُهُ المهمُّ في إظهارِ تَّعدُّدِ وجهاتِ النظرِ[٢] ، وفيما يلي أحدُ الحواراتِ الـمُجسِّدةِ لذلك ، حيثُ يقولُ العبوديُّ : «وكانتْ جارتي في المقعدِ عجوزًا برازيليةً مِن أصلٍ إيطاليٍّ اسمَها ماريا ، رأتني لم آكلْ لحمَ الخنزيرِ فسألتني عن السببِ في ذلك فأخبرتُها بأنَّني مسلمٌ وأنَّ الإسلامَ يحرِّمُ أكلَ الخنزيرِ في الوقتِ الذي يُحِلُّ فيهِ اللحومَ الطيبةَ الأخرى مثلَ لحمِ البقرِ والغنمِ والطيورِ الجيدةِ ، فقالت : إنَّها لم تكنْ تعلمُ ذلك ، وإنَّها مسيحيةٌ لذلك تأكلُهُ ، ثُمَّ قالت لي مجاملةً : المسلمُ والمسيحيُّ أصدقاءُ ، وربَّما تريدُ بذلك أنهما غيرُ متباعدينِ فخانتها لغتُها»[٣].

ومِن شأنِ الحوارِ -أيضًا- أنْ يُثريَ الموضوعَ محلَّ التداولِ ؛ بحيثُ تجتمعُ حولَهُ الأصواتُ فتتلاقحُ عندئذٍ الأفكارُ والرؤى والآراءُ[٤].

ولا يخفى ، كذلك ، ما للحوارِ مِن أهميةٍ مِن حيثُ المراوحةُ بينَ الأساليبِ وكسرِ رتابةِ السردِ ، وكلُّ ذلك مما يُيَسِّرُ مهمةَ التلقي لدى القارئِ.

---

(١) ينظر : معجم السرديات : (حوار).

(٢) ينظر : الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٤٥.

(٣) على ضفاف الأمازون ٦٦.

(٤) ينظر : الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه ٤٥ ، ٦٣.

٦- **مهمةُ الاختيارِ :**

يصعبُ على السَّاردِ نقلُ جميعِ أحداثِ الرحلةِ ومشاهدِها ، فهناكَ مِن مجموعِ الأحداثِ والمشاهدِ ما يستحقُّ الذكرَ لأهميتِهِ أو لطرافتِهِ أو لغرابتِهِ أو ما إلى ذلك ، وفي المقابلِ فإنَّ هناكَ مِن الأحداثِ والمشاهدِ ما حقُّهُ الحذفُ والتغاضي ، إمَّا لعدمِ جدواهُ أو لعدمِ مناسبتِهُ للمتلقي أو لعدمِ تكرارِهِ وهكذا.

لذا فإنَّنا نجدُ أنَّ العبوديَّ يلجأُ دائمًا إلى عمليةِ الاختيارِ والاصطفاءِ ، مكتفيًا بما يرى أنَّهُ «جديرٌ بأنْ يرهَّنَ مِن خلالِ فعلِ الكتابةِ (الخطابِ) ، وما هو جديرٌ بالتقييدِ هو ما يتركُ أثرًا خاصًا في هذهِ الذاتِ ، وقابلٌ لأنْ يتركَ الأثرَ نفسَهُ في المتلقي الذي هو القارئُ الـمُمْكِنُ الذي تَكتُبُ هذهِ الذاتُ مِن أجلِهِ»(١).

فلما «كانت الرحلةُ حكايةَ رحالةٍ ارتحلَ إلى مكانٍ ما بالجسدِ أولًا ثُمَّ بالكتابةِ ثانيًا ، فإنَّ طبيعةَ الكتابةِ تقتضي التصريحَ بالبرنامجِ السرديِّ المؤسَّسِ على إعادةِ إنتاجِ المكانِ المرئيِّ مِن موقعٍ يخضعُ للاختلافِ بينَ الرحلةِ الأولى (رحلةِ الجسدِ) وبينَ الرحلةِ الثانيةِ (رحلةِ الكتابةِ) ، فالرحالةُ يقدِّمُ للمتلقي ما (استحسنَ سماعَهُ أو رآهُ)»(٢) مما يرى أنَّهُ جديرٌ بالمتلقي.

وتتجلَّى هذِهِ الوظيفةُ -أيضًا- عندَ العبوديِّ مِن خلالِ اختيارِهِ لما يُناسبُ القارئَ مِن العناوينِ والألفاظِ والجملِ والعباراتِ.

---

(١) السرد العربي ٢١٣.

(٢) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٢٠٢.

وإذا كنَّا قد قُلنا بموازاةِ الصورةِ الفوتوغرافيةِ لنصوصِ هذه المدوَّنةِ ، فإنَّنا نجدُ أنَّ العبوديَّ حرِصَ على أنْ ينتقي مِن مجملِ ما صوَّرَهُ صورًا معيَّنَةً تكونُ مناسبةً للموضوعِ ومقامِ القارئِ.

٧- مهمةُ التنسيقِ :

ونعني بهذِهِ المهمةِ لجوءَ «الساردِ إلى التنظيمِ الداخليِّ للخطابِ -مهما بدا مشتتًا- انطلاقًا مِن الربطِ بينَ الجملِ والأجزاءِ ، والتذكيرِ بالأحداثِ ، وخلقِ إشراقاتٍ للدهشةِ والإثارةِ ، والتنوُّعِ في الربطِ»(١)؛ فمتْنُ «الرحلاتِ متنوِّعٌ...والساردُ بقدرتِهِ التنسيقيةِ هو الذي يؤلفُ بينَ هذا الكمِّ الضخمِ مِن الأقوالِ والأفعالِ والأماكنِ والشخصياتِ في عملٍ متكاملٍ»(٢).

ومنذُ أنْ يشرعَ الساردُ في كتابةِ متنِهِ الرحليِّ فإنَّهُ «يبذلُ جهدًا خاصًّا في تنظيمِ القصةِ مِن حيثُ الاسترجاعُ والاستباقُ والتعاصرُ ، ومِن حيثُ الذكرُ والحذفُ والتضمينُ ، كما يبذلُ جهدًا على مستوى الخطابِ في التركيبِ اللغويِّ والتنسيقِ بينَ الفقراتِ [بالربطِ والتأليفِ بينَها] وانتقاءِ الدالِّ ، وجهدًا في مقاومةِ الثَّراءِ اللغويِّ في أثناءِ الكتابةِ أو فَقْرِهِ ، إلى جانبِ الجهدِ الخاصِ بالالتزامِ الموضوعيِّ أو الانسياقِ مع الذاتِ مما يكلِّفُ الساردَ الكثيرَ مِن العناءِ ؛ فالساردُ يستطيعُ أنْ يُنَظِّمَ مستوياتِ السردِ مِن أوَّلٍ إلى ثانٍ إلى..: كما يستطيعُ أنْ يبطِّئَ السردَ أو يسرِّعَهُ ، ويستطيعُ أنْ يذكرَ شخصيةً أو يهملَها ، فإذا أضفنا إلى ذلك الاهتمامَ بالجوانبِ المعرفيةِ التي تميِّزُ رحلةً عن أخرى تبيَّنَ لنا الدورُ الإداريُّ الذي يلعبُهُ الساردُ في

(١) شعرية الرواية الفانتاستيكية ١٦٣.

(٢) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٤٢.

التخطيطِ والتنفيذِ...هذِهِ هي الوظيفةُ الممثلةُ في جمعِ المادَّةِ وتنظيمِها ، واستشارةِ أهلِ الخبرةِ فيها ، وقراءةِ المسرودِ وإعادةِ القراءةِ مع إجراءِ التعديلاتِ المناسبةِ ، حتى يصلَ إلى الحدِّ الذي يرتضيهِ الساردُ فيذيعَ المتنَ بينَ الناسِ»[1].

وهذا هو حالُ العبوديِّ ؛ حيثُ حرِصَ على إخراجِ الرحلاتِ بشكلٍ يليقُ بالمتلقي ، مستعينًا بالحذفِ والاسترجاعِ والاستباقِ والإسراعِ والإبطاءِ في السَّردِ (كما مرَّ بنا في مبحثي الترتيب والمدة).

كما استعانَ العبوديُّ بجملةٍ مِن الكلماتِ والأساليبِ والأدواتِ والجُملِ الـمُعينَةِ على تأليفِ الكلامِ وتسلْسُلِهِ واتِّساقِهِ والربطِ بينَ أطرافِهِ ، وهذِهِ المؤلفاتُ والروابطُ في هذه المدونةِ إمَّا أنْ تكونَ حروفَ عطفٍ وهي كثيرةٌ ، أو كلماتٍ وأدواتٍ مثلَ : لكنَّ ، أمّا ، لـمّا ، حتى ، عند ، عندما ، إلَّا ، بعد ، قد ، وغيرها.

وقد يكونُ الربطُ والتأليفُ مِن خلالِ عباراتٍ وجملٍ يختلِقُها العبوديُّ وتكونُ مُعيْنَةً على تناسقِ الكلامِ وربطِ أطرافِهِ ، مثلَ قولِهِ في رحلتِهِ إلى جنوبِ البرازيلِ : «وكانَ مقعدي في آخرِ الطائرةِ ، لذلك عندما فتحوا بابَ الخدمةِ الخلفيَّ في الطائرةِ أعجبني منظرُ تلك الرُّبى مِن جهةِ البابِ وهو المقابلُ لأبنيةِ المطارِ ، فأخذتُ أُخرِجُ مصورتي مِن الحقيبةِ لالتقاطِ صورةٍ لهذا المنظرِ ، وعندما أخرجتُها كانَ العمالُ قد أغلقوا البابَ ، فأشارَ المضيفُ إلى البابِ الخلفيِّ المعتادِ الذي ينزلُ مِنهُ الركابُ ، وهو المقابلُ لبابِ الخدمةِ ولكنَّهُ كانَ مِن الجهةِ المقابلةِ ولا يمكنُ أنْ يظهرَ المنظرُ الذي رأيتُهُ مِنهُ ، فما كانَ مِن المضيفِ إلا أنْ أمرَ أحدَ الموظفينَ بمعاونتِهِ على فتحِ بابِ الخدمةِ مِن أجلي ، وقالَ : يمكنُكَ أنْ تصورَ ما شئتَ ، وبعدَ أنْ

(١) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٢٤٢.

أنهيتُ التصويرَ عادَ لإغلاقِ البابِ ، وهذا مَثَلٌ آخرُ على سهولةِ أخلاقِ هؤلاءِ البرازيليينَ وحسنِ معاملتِهم...وعلى ذكرِ التصويرِ أقولُ : إنَّني لم أرَ البرازيليينَ يولعونَ في التصويرِ ، فقلَّ أنْ تجدَ مِنهم مَن يحملُ آلةَ التصويرِ عندما يسافرُ ، وهذا مِنهم غريبٌ ؛ لأنَّ بلادَهم واسعةٌ ، بل شاسعةٌ مختلفةُ الجواءِ والمناظرِ ، بل وحتى ألوانُ الناسِ ومظاهرُهُم فيها مختلفةٌ ، مما يُغري بالتأمُّلِ ويحملُ على تسجيلِ ذلك التصويرِ»[1]؛ فما كانَ للساردِ هنا أنْ يدرجَ معلومةَ عدمِ ولعِ البرازيليينَ بالتصويرِ بسلاسةٍ في هذا الموضعِ مِن النصِّ لولا استخدامُهُ لعبارةِ (وعلى ذكرِ التصويرِ) ؛ حيثُ جعلَ مِن هذِهِ العبارةِ رابطًا ينتقلُ مِن خلالِهِ بسلاسةٍ لعرضِ هذهِ المعلومةِ.

وفي الرحلةِ إلى شرقِ البرازيلِ يتكلمُ العبوديُّ عن كثرةِ عددِ سُكانِ بهية بعدَ أنْ تحدَّثَ عن مرورِهِ بملعبٍ كبيرٍ في أثناءِ جولتِهِ فيقولُ: «ولمناسبةِ اتساعِ هذا الملعبِ الذي مرَرْنا بِهِ يجدُرُ أنْ نذكرَ أنْ عددَ سُكَّانِ ولايةِ (بهيَة) يبلُغُ عشرةَ ملايينَ ومئتي ألفٍ ، وأنَّ سكانَ مدينةِ (سلفادور) عاصمتِها يناهزُ المليونينِ ، وذلك كلُّهُ مِن مجموعِ سكانِ البرازيلِ البالغِ مئةً وثلاثين مليونًا. ثُمَّ مرَرْنا بتلٍّ تحتَهُ عدَّةُ جسورٍ»[2] ، إنَّ القارئَ لهذا المثالِ لنْ يستسيغَ إقحامَ هذِهِ الإحصائيةِ في مجرى سردِ الأحداثِ السابقةِ لها لولا قدرةُ العبوديِّ على خلقِ رابطٍ متينٍ

---

(١) في جنوب البرازيل ٣٩.

(٢) في شرق البرازيل ٥٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في شرق البرازيل ٥٥ ، ٧٣ ، ٩٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٢٦ ، ٣٤ ، ١٠١ ، ١٢٤ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٣٠ ، ٩٨ ، ١٢٢ ، ١٦٨، وفي جنوب البرازيل ١٠٤ ، وفي غرب البرازيل ٢٤ ، ٣٧ ، ٧١ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٢ ، ٨٨.

عَمِلَ على تَسَلْسُلِ الكلامِ ومنطقيتِهِ ، وهو قولُهُ بعدَ أنْ ذكرَ مرورَهُ بالملعبِ الكبيرِ: (ولمناسبةِ اتساعِ هذا الملعبِ الذي مرَرْنا بِهِ يجدرُ أنْ نذكرَ).

ومِن مظاهرِ التنسيقِ عندَ العبوديِّ أنَّنا نجدُهُ «يُنَظِّمُ الزمنَ تنظيمًا تتابعيًّا في أغلبِ أجزاءِ الرحلةِ»(١) ، وهذا التنظيمُ غالبًا ما يكونُ مرتبطًا بتسلسلِ الأيامِ والتواريخِ (كما مرَّ بنا في مقدمةِ مبحثِ الترتيبِ).

كما أنَّ مِن مظاهرِ التنسيقِ الجيدِ عندَ العبوديِّ توظيفَهُ للذكرياتِ التي عاشها في رحلاتٍ سابقةٍ وذلك باستحضارِها فيما يناسبُها مِن مقامِ السردِ ، ومِن ذلكَ ما استدعاهُ مِن ذكرياتٍ في أثناءِ حديثِهِ عن وسطِ المدينةِ التجاريِّ لمدينةِ بورتو إليقري (Porto Alegre) في جنوبِ البرازيلِ ، حيثُ يقولُ : «قلبُ مدينةِ (بورتو إليقري) التجاريةِ هو أغلى ما فيها إذ تتمركزُ فيهِ الأبنيةُ الضخمةُ المتعدِّدَةُ الطوابقِ (العمائرُ) ، وتدلُّ حالُهُ على أنَّهُ كانَ قد شهدَ رواجًا اقتصاديًّا عظيمًا في الماضي ، ولكنَّ الكارثةَ الاقتصاديةَ التي حلَّت بالبرازيلِ متمثلةً بالديونِ الكثيرةِ التي بلغتْ مئةَ ألفٍ وعشرةَ آلافِ مليونِ دولارٍ أمريكيٍّ قد تركَتْ أثرَها على جميعِ أنحاءِ البلادِ البرازيليةِ ، وكانَ مِن أهمِّ مظاهرِها وأصعبِها سقوطُ العملةِ البرازيليةِ سقوطًا منظَّمًا أحيانًا ومفاجئًا أحيانًا أُخرى ، ولو ضربتُ بها رأيتُهُ بنفسي لكانَ ذلك كافيًا.

كانتْ أُوْلى زياراتي للبرازيلِ في عامِ ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، وقد صرفتُ الدولارَ الأمريكيَّ آنذاكَ سبعةَ كروزيراتٍ إلَّا ربعًا ، وفي آخرِ زيارةٍ لي للبرازيلِ قبلَ سقوطِ الكروزيرو واستبدالِهِ بالكوزادو صرفتُ الدولارَ الواحدَ بعشرةِ آلافٍ وخمسِ مئةِ كروزيروَ ، ثُمَّ عُدتُ إلى البرازيلِ بعدَ ذلكَ وقد استبدلوا الكروزيرو بالكروزادو ، وذلكَ

---

(١) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٤١.

بأنْ حذفوا مِن أوراقِ النقودِ ثلاثةَ أصفارٍ ، بحيثُ صارَ الألفُ مِن الكروزيرو يساوي كروزادو واحدًا ، وفي الزيارةِ الحاليةِ صرفتُ الدولارَ الأمريكيَّ الواحدَ بسبعةٍ وتسعينَ كروزادو ، ومعنى ذلك أنَّ الدولارَ الأمريكيَّ قد قفزَ»(١).

ومِن ذلكَ أيضًا ما جاءَ بِهِ مِن ذكرياتٍ في أثناءِ حديثِهِ عن زيارتِهِ لجامعِ الملكِ فيصلٍ في لوندرينا (Londrina) ، حيثُ يقولُ : «ولزيارتِهِ في نفسي معنًى خاصٌ ؛ وذلك بأنَّهُ المسجدُ الثاني الذي يقامُ في البرازيلِ بعدَ مسجدِ (سان باولو) ، وقد كنتُ سببًا في المساعدةِ في إقامتِهِ فقد زرتُ هذِهِ المدينةَ بصحبةِ الأخِ أحمدَ مصطفى الرافعيِّ ، وهو لبنانيٌّ مِن طرابلسَ يعيشُ في هذهِ المدينةِ ، وحضرَ مثلي المؤتمرَ الأوَّلَ للجمعياتِ الإسلاميةِ في أمريكا الجنوبيةِ الذي عُقدَ في (سان باولو) عامَ ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، فطلبَ منِّي أنْ أصحبَهُ بسيارتِهِ التي كانَ يقودُها بنفسِهِ في رجوعِهِ مِن سان باولو إلى لوندرينا ، وصادفَ ذلك هوًى في نفسي لأنَّها كانت المرةَ الأولى التي أزورُ فيها البرازيلَ ، وأردتُ الاطلاعَ على أرضِ البرازيلِ بالسيارةِ لأنَّني كنتُ قدِمتُ آنذاكَ بالطائرةِ مِن باريسَ إلى ريو دي جانيرو ثُمَّ إلى سان باولو. كما ذَكر لي : أنَّ لديهم جمعيةً خيريةً إسلاميةً ، وأنَّ مِن أهدافِهم إقامةَ مسجدٍ ومدرسةٍ إسلاميةٍ ، ويريدُ منِّي أنْ أجتمعَ بالمسلمينَ وأُقدِّمَ نصيحتي إليهم في هذا الأمرِ.

وسافرتُ معه بالفعلِ إلى (لوندرينا) ، حيثُ قطعنا حواليَ سبعَ مئةِ كيلو متر مِن (سان باولو) ، واجتمعنا بالمسلمين...وقلتُ لهم : إنَّني سوفَ أسعى لكم في مساعدةٍ ماليةٍ مِن

---

(١) في جنوب البرازيل ١٢٦.

المملكةِ ، وفي إرسالِ داعيةٍ إلى اللهِ يكونُ إمامًا لكم ومدرسًا لأولادِكم ومرشدًا لكبارِكم ، وهكذا كانَ»[1].

ومِن المعلومِ أنَّ الاحتفاظَ بالذِّكرياتِ واستذكارَها في مثلِ هذا الحالِ وكتابتَها في الموضعِ «المناسبِ رُغمَ تباعدِ الفتراتِ الزمنيةِ ليسَ بالأمرِ اليسيرِ»[2].

كما يمكنُنا عدُّ علاماتِ التَّرقيمِ (تنصيص ، قوسين ، فاصلة ، نقطة ، استفهام ، تعجب ، وغيرها من علامات الترقيم) أحدَ مظاهرِ التنسيقِ المهمةِ عندَ العبوديِّ بحيثُ أسْهَمَتْ في زيادةِ متانةِ النصِّ وقدرتِهِ على إيصالِ الفكرةِ بشكلٍ يسيرٍ.

٨- المهمةُ الانطباعيةُ أو التعبيريةُ :

ونجدُها في المقاطعِ الذاتيةِ التي يتبوأُ الساردُ فيها المكانةَ المركزيَّةَ مِن حيثُ تعبيرُهُ عن الأفكارِ والمشاعرِ الخاصةِ بِهِ[3] ، مقيمًا مِن خلالِ ذلكَ «علاقةً عاطفيةً مع الخطابِ المسرودِ ، فيصرحُّ بما يؤلـمُهُ أو يسرُّهُ»[4] أو يعجبُهُ ، وينشأُ عن ذلك مقاطعُ حيويةٌ تساعدُ على إثراءِ السردِ.

وفي هذه المدونةِ العديدُ مِن التعبيراتِ الذاتيَّةِ النابعةِ مِن ذاتِ الساردِ/ العبوديِّ ، مثلَ قولِهِ عندما علمَ بوجودِ عددٍ مِن المسلمين في (سلفادور) يصلُ عددُهم إلى مئةٍ وعشرينَ

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٩٠. ولمزيد أمثلة ينظر: في جنوب البرازيل ٣٥ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٩١ ، ١١٠ ، وفي غرب البرازيل ١٤ ، ٢٨ ، وعلى ضفاف الأمازون ١٩، ٤٨ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٣ ، ١١١ ، وفي شرق البرازيل ٣٣ ، ٨٤.

(٢) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٤٥.

(٣) ينظر: مدخل إلى نظرية القصة ١١٠.

(٤) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ٤٩١.

أسرةً : «ومعَ أنَّ الحديثَ عن وجودِ العربِ في مكانٍ ما يكونُ سارًّا لأنَّهُ مما يدلُّ على أنَّهم قد يعملونَ عملًا مفيدًا للعروبةِ والإسلامِ إلَّا أنَّ الأمرَ هنا أحزنَني عندما سمعتُ هذهِ الأرقامَ ، وبخاصةٍ عن المسلمين الذين لم يقوموا بتأليفِ جمعيةٍ إسلاميةٍ»(١) ، ومثلُهُ -أيضًا- قولُهُ : «وعلى ذكرِ الأطفالِ أقولُ : أنَّنا كنَّا في انتظارِ الصعودِ إلى الطائرةِ في ركنٍ خاصٍّ مِن قاعةِ المغادرةِ ، ومعي اثنانِ مِن الإخوةِ العربِ المدعوِّينَ ، وإذا بطفلةٍ جميلةٍ سمحةٍ تنظرُ إليَّ ثُمَّ تأتي إليَّ وتحدِّثُني ، ولكنَّ الأخَ (خالد رحال)...قالَ لي : إنَّها تحدِّثُني أنَّها هي وأسرتُها مسافرونَ إلى (لوندرينا) في فسحةٍ لقضاءِ بعضِ الوقتِ ، وكنتُ فرحتُ بحديثِها البريءِ ، وعمرُها ثمانيَ سنواتٍ كما ذكَرَتْ للأخِ الرحالِ ، ولم ينهرْها أهلُها الذين كانوا معنا في القاعةِ ولم ينهوها عنِ الحديثِ معَ هذا الغريبِ وهذا مِن سهولةِ أخلاقِهم»(٢).

كما قدْ تتجلى الوظيفةُ التعبيريةُ في هذه المدونةِ مِن خلالِ الوصفِ ، بحيثُ أتَتْ بعضُ الأوصافِ محمَّلةً بالمشاعرِ الوجدانيةِ للساردِ(٣) ، مِن مثلِ قولِ العبوديِّ عن شلالاتِ بلعومِ الشيطانِ في فوز دو قواسو (Foz do Iguaçu) : «إنَّ زمجرةَ هذه الشلالاتِ التي لا تكادُ تدعُ لكَ فرصةَ التَّحَدُّثِ مع أصحابِك ؛ لأنَّها تشغلُ كلَّ حيزٍ في سمعِك وتريدُ أنْ تستأثرَ بتفكيرِكَ ، فتزاحمَها على ذلك روعةُ مناظرِها وهي تتكَسَّرُ على جوانبِ هذا الجبلِ الذي تسقطُ مِن فوقِهِ وتتفرَّقُ إلى قطعٍ مِن الغيمِ الرقيقِ الأبيضِ الذي تنعكسُ عليهِ أشعةُ الشمسِ

---

(١) في شرق البرازيل ٧٤.

(٢) على أرض القهوة البرازيلية ١٢٥. ولمزيد أمثلة ينظر: الشرق الشمالي من البرازيل ٥١ ، ١٠٧ ، وفي غرب البرازيل ١٣ ، وعلى أرض القهوة البرازيلية ٤٣ ، ٨٩ ، وعلى ضفاف الأمازون ٣١.

(٣) ينظر: شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ، نموذج القلصادي ١٥١ ، والرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ٥٢.

الساطعةُ فتحيلُهُ إلى ذوبٍ مِن الفضَّةِ قد يتفرقُ في كلِّ الاتجاهاتِ ، حتى لتخشى عليهِ أنْ ينقلبَ إلى غماماتٍ بيضٍ تسيرُ أو تطيرُ وتتركُ بصرَك خاسئًا وهو حسيرٌ»[١].

وإذ وقفنا فيما مضى على بعضِ الوظائفِ والمهامِ السرديةِ للسَّاردِ/ العبوديِّ فلابدَّ لنا أيضًا مِن الوقوفِ على شيءٍ مِن مهامِّ المتلقي.

ب- مهامُّ قارئ رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ :

إنَّ «كلَّ نصٍّ منجزٍ هو ناقصٌ بالضرورةِ ، وسلطةُ المؤلفِ أو النصِّ هي سلطةٌ لا مكتملةٌ بالتأكيدِ ؛ لأنَّ قطبَ المتلقي ينتجُ آلياتٍ ومكوناتٍ لتلقي الأخيلةِ ولتوليدِ الاحتمالاتِ»[٢]المسكوتِ عنها من قبلِ الساردِ ، ومن ثمَّ فإنَّ الساردَ عمومًا والعبوديَّ خصوصًا «يدفعُ القارئَ كي يكونَ متلقيًا إيجابيًّا ؛ يتلقى الخبرَ ويبحثُ عن ملءِ فراغاتِهِ»[٣].

إنَّ على القارئِ أنْ «يتلقى ما يرسلُهُ الراوي»[٤] وذلك بأنْ «يُكسِبَ الملفوظَ معنًى»[٥] ، كما أنَّ عليهِ أنْ يسعى للوصولِ إلى هدفِ السَّردِ ومغزاهُ ، وذلكَ مِن خلالِ «تجليةِ مقاصدِ المؤلِّفِ»[٦] ، وبذلك يكونُ قد دخلَ «في علاقةٍ تفاعليةٍ معَ تجربةٍ ستحقِّقُ لَهُ متعةً وفائدةً»[٧].

---

(١) على أرض القهوة البرازيلية ٥٢. ولمزيد أمثلة ، بنظر : على أرض القهوة البرازيلية ٥٠ ، ٥٧ ، والشرق الشمالي من البرازيل ٧٣.

(٢) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٢٣٤.

(٣) نفسه.

(٤) المروي له في الرواية العربية ٣١.

(٥) السابق ٣٩.

(٦) نفسه ٥٥.

(٧) الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ٢٣٥.

وعلى القارئِ -أيضًا- أنْ يكونَ حاضرَ الذهنِ والذاكرةِ لاستحضارِ ما يحتاجُهُ مِن المعلوماتِ السابقةِ والمشارِ إليها في السردِ.

«إنَّ القارئَ في أثناءِ القراءةِ يتحوَّلُ إلى مشاركٍ مستفَزٍّ ، وهذِهِ المشاركةُ تستمرُّ وتتطورُ في أثناءِ القراءةِ ، وقد يتأثرُ أحدُ القُرَّاءِ بما يقرأُ إلى درجةٍ»(١) تشعرُهُ بالتَّأثُّرِ النفسيِّ ؛ لكونِ «القراءةِ تقومُ وتتأسسُ بناءً على توتُّرٍ دائمٍ يحدثُ بينَ المؤلفِ والقارئِ ، هذا التَّوتُّرُ هو الذي يجعلُ عمليةَ القراءةِ مثمرةً وعمليةَ إدراكِ المقروءِ ممكنةً»(٢).

ولئن قيَّدَ العبوديُّ رحلتَهُ وهو يأمَلُ أنْ يكونَ قارئها «هو القارئُ الذي يفهمُ النصَّ السرديَّ فهمًا جيدًا ويصدِّقُ كلَّ كلمةٍ مِن كلماتِهِ ويستوعبُ أدقَ تفاصيلِهِ وغاياتِهِ»(٣) ، إلَّا أنَّ هناكَ مِن القرَّاءِ مَنْ سيعمدُ إلى قراءةِ وفهمِ ما يحتاجُهُ مِن المعلوماتِ والمعارفِ والإحصاءاتِ وغيرِها ، دونَ أنْ يراعيَ تحقيقَ كاملِ أهدافِ المؤلفِ ، ولهذا الاختلافِ بينَ زوايا القراءةِ أثرٌ على مهمَّاتِ القراءةِ ؛ فمَن يبحثُ -على سبيلِ المثالِ- عن المعلومةِ الجغرافيةِ لنْ يتأثرَ بالتوجُّهِ الأيديولوجيِّ للنصِّ ، ولنْ يكلِّفَ نفسَهُ قراءةَ ما بينَ السطورِ وإدراكَ مرامي المؤلفِ ، وهكذا(٤).

---

(١) السرديات مقدمة نظرية ومقتربات تطبيقية ٥٢.

(٢) نفسه ٥٣.

(٣) معجم السرديات : (قارئ مثالي).

(٤) ينظر : السرديات مقدمة نظرية ومقتربات تطبيقية ٥١.

الخاتمة

خلصتُ في دراستي هذهِ إلى العديدِ مِن النتائجِ السرديَّةِ التي تكشفُ عن أدبيةِ رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ ، ففي دراستي للترتيبِ الزمنيِّ ألفيتُ أحداثَ الرحلاتِ مطابقةً للواقعِ في مفاصلِها الكبرى ، أما في مفاصلِها الصُّغرى فإنَّها تنحرفُ عن الواقعِ قليلًا ؛ باللجوءِ إلى الارتدادِ أو بالاستعانةِ بالاستباقِ ، ولتلكَ الانحرافاتِ أسبابُها.

وقدْ توصَّلتُ في دراستي للسُّرعةِ إلى العديدِ من النتائجِ ، أهمُّها : تفاوتُ سرعةِ السردِ مِن التَّعجيلِ إلى التَّبطئةِ ، حيثُ تجلَّى التعجيلُ في حركةِ **الإضمارِ** بجميعِ ألوانِهِ (الضمني ، الافتراضي ، الصريح) ، و**المجملِ** المتعلقِ بتلخيصِ الأفعالِ أو الأقوالِ ، كما تمثَّلتْ التَّبْطئةُ في حركتي : **المشهدِ** الحاضرِ من خلالِ الحوارِ والوصفِ ، **والوقفةِ** المتعيَّنةِ في المنقولاتِ أو التدخلاتِ التي يرى الساردُ مناسبتَها للمقالِ.

وفي دراستي للوصفِ وقفتُ على العديدِ من الموضوعاتِ ، فتعرَّفتُ على مواطنِ ورودِ الوصفِ ؛ حيثُ يكثرُ وُرُودُهُ في المقدماتِ والبداياتِ والفواتحِ ، كما تعرَّفتُ على أهمِّ معلناتِ حدَّي المقاطعِ الوصفيةِ ، ثُمَّ أخذتُ في دراسةِ بعض أنواعِ الوصفِ فتناولتُ الوصفَ عن طريقِ الفعلِ والوصفَ المنقولَ والوصفَ المباشرَ ، وفي حينِ تعرضتُ لمباشرةِ الرؤيةِ للموصوفِ فإنَّني قمتُ بمحاولةِ حصرِ أنواعِ منصَّاتِ الرؤيةِ للموصوفِ ومعرفةِ تأثيراتِها على الوصفِ.

وفي ظلِّ تناولي لمستوياتِ تركيزِ الوصفِ وجدتُ أنَّ الأوصافَ ليستْ على مستوى تركيزيٍّ واحدٍ ؛ فمنها الـمُكَثَّفُ ومنها الشموليُّ ومنها الـمُسْتَقْصي ، وكما تعدَّدَت مستوياتُ التركيزِ فقد تعدَّدَت الموصوفاتُ.

ولقد أسفرتْ دراستي للبنيةِ الداخليةِ للمقاطعِ الوصفيةِ عن خضوعِ جلِّ المقاطعِ لنظامٍ يمكنُ تبيُّنُهُ من خلالِ حضورِ أحدِ العمليتينِ : **الترسيخِ** أو **التعيينِ** ؛ المرتبطتينِ بتقدُّمِ وتأخرِ تسميةِ الموصوفِ ، كما أسفرتْ دراستي لبنيةِ الوصفِ الداخليةِ عن حضورِ عمليةِ **تحديدِ المظاهرِ** ، سواءً أكانتْ تلك المظاهرُ إبرازًا لخاصياتِ الموصوفِ أو كانتْ مظاهرَ تجزئةٍ وتشظيةٍ لعناصرِ الموصوفِ ، وفي أثناءِ دراستي للبنيةِ الداخليةِ للمقاطعِ الوصفيةِ تبيَّن لي تعدُّدُ مستوياتِ بعضِ المقاطعِ وتنوُّعُ الإجراءاتِ التنظيميةِ الـمُتَّبعةِ ، كما ظهرَ لي تعدُّدُ وظائفِ الأوصافِ وتراوحُها بينَ وظائفَ حكائيةٍ ودلاليةٍ مختلفةٍ.

وفي حينِ ثنَّيْتُ مبحثَ الوصفِ بدراسةِ الصورةِ الفوتوغرافيةِ فقد استنتجتُ العديدَ مِن النتائجِ ، أهمُّها : تنوعُ المصوراتِ ، وتنوعُ مواقعِ الصورةِ مِن النصوصِ وتعدُّدُ وظائفِها واشتمالُـها على لمساتٍ جماليةٍ وإبداعيةٍ.

ولعلَّ أهمَّ نتائجِ دراستِي للحوارِ تكمنُ في استنباطِي لبعضِ القرائنِ الدالَّةِ على الحوارِ ، وتوصُّلِي إلى تنوُّعِ مراتبِ الحوارِ من حيثُ مشاركةُ الراوي ، وتنوُّعُ أنماطِ الحوارِ بحسبِ العلاقةِ بينَ المتحاورينَ ، وتفاوتُ المقاطعِ الحواريةِ مِن حيثُ اللغةُ والأسلوبُ والكمُّ والوظيفةُ المؤدَّاةُ.

ونتجَ عن دراستِي لتواشجِ وتجانسِ الرحلاتِ المدروسةِ مع الأجناسِ الأُخرى نتائجُ عدَّةٌ ، فمن حيثُ السيرةُ الذاتيةُ فإنَّ هناكَ علاقةً واضحةً بينَها وبينَ السيرةِ الذاتيةِ مِن خلالِ

اشتراكِها مع السيرةِ الذاتيةِ في مجموعةٍ مِن الخصائصِ حاولتُ حصرَها في الشَّكلِ ومنزلةِ المؤلفِ وموقعِ الراوي ، كما اشتملت الرحلاتُ المدروسةُ على بعضِ المظاهرِ السيرذاتيةِ مِن قبيلِ حضورِ ضميرِ المتكلِّمِ وحريةِ التصرفِ في النصِّ وتركِ مساحةٍ كافيةٍ للتعبيرِ عن المشاعرِ والتعليقِ.

ولقد أدركتُ علاقةَ الرحلاتِ المدروسةِ بـاليومياتِ مِن خلالِ تحديدِ أحداثِ الرحلاتِ وتقسيمِها بحسبِ اليومِ والتاريخِ والوقتِ أحيانًا.

كما تبيَنتُ علاقةَ هذه الرحلاتِ بـالتقريرِ مِن حيثُ استثمارُ نصوصِها لبعضِ خصائصِ التقريرِ ومظاهرِهِ.

وتمثَّلَتْ نتائجُ الفصلِ الثالثِ في التعرُّفِ على بعضِ سماتِ وخصائصِ الساردِ والقارئِ في رحلاتِ العبوديِّ إلى البرازيلِ ، ومعرفةِ مهامِّ كلٍّ منهما في المدونةِ.

وأنا إذ أقدِّمُ هذه الدراسةَ فإنَّني آملُ أنْ تفتحَ بينَ يديها آفاقًا لدراساتٍ موسعةٍ ولائقةٍ تدرسُ رحلاتِ العبوديِّ عامةً بشكلٍ علميٍّ مؤصلٍ ودقيقٍ ، كما أنَّني آملُ أنْ تضيءَ هذهِ الدراسةُ الطريقَ أمامَ الدارسينَ وتحفِّزَهم إلى دراسةِ مؤلفاتِ محمدِ العبوديِّ بجميعِ تخصُّصاتِها ومجالاتِها.

فهرس المصادر والمراجع

أولا : الكتب :

آثار البلاد وأخبار العباد ، زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، دار صادر ، بيروت.

الآثار الفكرية: تشتمل على ما تيسر العثور عليه من نظم ونثر المرحوم عبدالله فكري باشا ، أمين فكري باشا ، المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣١٥هـ.

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، أحمد بن أبي بكر المقدسي ، بريل ، ليدن ، ١٩٠٩م.

أخبار الصين والهند ، سليمان التاجر وأبي زيد حسن السيرافي ، تحقيق : يوسف الشاروني ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، نوال الشوابكة ، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

أدب الرحلات ، حسين محمد فهيم ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت.

أدب الرحلة ، حسين نصار ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مصر ، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

أدب الرحلة عند العرب ، حسني محمود حسين ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

أدب الرحلة في التراث العربي ، فؤاد قنديل ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ.

أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية ، محمد القسومي وعبدالله حامد ، دار جامعة الملك سعود ، ١٤٣٥هـ.

أدبية الرحلة ، **عبدالرحيم مودن** ، دار الثقافة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

الاعتبار ، أسامة بن منقذ ، تحقيق : فليب حتي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.

الأعراب الرواة ، عبدالحميد الشلقاني ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع ، طرابلس ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم ، حسن السندوبي ، المطبعة الجمالية ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٣٢هـ.

إنباه الرواة على أنباه النحاة ، علي بن يوسف القفطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

بحوث في السرد العربي ، محمد نجيب العمامي ، مكتبة علاء الدين ، دار نهى ، صفاقس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، محمد بن أحمد بن إياس ، تحقيق : محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٨م.

بغية الطلب في تاريخ حلب ، ابن العديم ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت.

بناء الرواية : دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ ، سيزا أحمد قاسم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م.

بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م.

بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ، حميد لحميداني ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

البنية والدلالة في الرواية : دراسة تطبيقية ، نادي القصيم الأدبي ، مؤسسة أروقة ، الطبعة ٢٠١٣م.

تاريخ ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون ، تحقيق : خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

تاريخ الأدب الجغرافي ، أغناطيوس كراتشكوفسكي ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، اختارته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : عمر بن عبدالسلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

تاريخ بغداد ، علي الخطيب البغدادي ، تحقيق : مصطفى عبدالقادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.

تاريخ حكماء الإسلام ، ظهير الدين البيهقي ، تحقيق : محمد كرد علي ، المجمع العلمي العربي ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٤٦م.

تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، عبدالرحمن الجبرتي ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي ١٣٤٤هـ ـ ١٤١٦هـ ، عبدالله الزهراني ، المؤلف ، ١٤١٨هـ.

تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر ، تحقيق : عمر العمروي ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

تاريخ مساجد بريدة القديمة وتراجم أئمتها ، عبدالله الرميان ، مطابع الحميضي ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

تحليل الخطاب الروائي ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥م.

تحليل النص السردي بين النظرية والتطبيق ، محمد القاضي ، مسكيلياني للنشر والتوزيع ، تونس ، الطبعة الثانية ٢٠٠٣م.

تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم ، محمد بوعزة ، دار الأمان ، الرباط ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.

تداخل الأنواع الأدبية وشعرية النوع الهجين ، عبدالناصر هلال ، النادي الأدبي بجدة ، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.

التدوين في أخبار قزوين ، عبدالكريم بن محمد الرافعي القزويني ، تحقيق : عزيز الله العطاردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ.

تراجم بعض أعيان دمشق ، عبدالرحمن بن شاشو ، التزام : نخلة قلقاط ، المطبعة اللبنانية ، بيروت ، ١٨٨٦م.

تشكيل المكان وظلال العتبات ، معجب العدواني ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

التصوير والحياة ، محمد نبهان سويلم ، عالم المعرفة.

التعليم في القصيم بين الماضي والحاضر ، صالح العمري ، تحقيق : عمر العمري ، المؤلف ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي ، يمنى العيد ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ٢٠١٠م.

تقنيات السرد وآليات تشكيله الفني ، نفلة العزي ، دار غيداء ، عمان ، ٢٠١٠م.
التقنيات السردية في الرواية السعودية المعاصرة ، مها السحيباني ، النادي الأدبي بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.
تهذيب اللغة ، محمد بن أحمد الأزهري ، تحقيق : محمد عبدالمنعم خفاجي ومحمود العقدة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، أحمد المكناسي ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٣م.
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الحميدي محمد بن أبي نصر الأزدي ، الدار المصرية للتأليف ، ١٩٦٦م.
جماليات البناء الروائي عند غادة السمان ، فيصل غازي النعيمي ، دار مجدولاي ، عمان ، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.
حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، عبدالرزاق البيطار ، تحقيق : محمد بهجة البيطار ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣٨٢هـ.
الحوار : خلفياته وآلياته وقضاياه ، الصادق قسومة ، مسكيلياني للنشر والتوزيع ، تونس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.
حوادث دمشق اليومية ، جمع : أحمد البديري الحلاق ، تنقيح : محمد سعيد القاسمي ، تحقيق : أحمد عزت عبدالكريم ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، الأولى ١٩٥٩م.
حياة الوزان الفاسي وآثاره ، محمد المهدي الحجوي ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٣٥٤هـ.
خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الأصفهاني الكاتب ، تحقيق : آذرتاش آذرنوش ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧١م.
خطاب الحكاية : بحث في المنهج ، جيرار جنيت ، ترجمة : محمد معتصم وعبدالجليل الأزدي وعمر حلي ، الهيئة العامة للمطابع الأميرية ، الطبعة الثانية ١٩٩٧م.
الخطاب السردي في روايات عبدالله الجفري ، علي زعلة ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، الانتشار العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.
الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة ، محمد الخبو ، دار صامد ، صفاقس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، محمد أمين بن فضل الله المحبي ، تحقيق : مصطفى وهبة ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٢٨٤هـ.
دراسات ومقالات عن معالي الشيخ محمد العبودي ، جمع : محمد المشوح ، دار الثلوثية ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٤٩هـ.
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، ابن فرحون المالكي ، تحقيق : محمد أبو النور ، دار التراث ، القاهرة.
ذيل لب اللباب في تحرير الأنساب ، شهاب الدين أحمد بن أحمد العجمي الوفائي ، تحقيق : شادي بن محمد بن سالم آل نعمان ، مركز آل نعمان للبحوث والدراسات ، صنعاء ، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.
الرحلات ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة.

الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي ، محمد الحاتمي ، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات / فريق البحث في التراث السوسي / كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ.

الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص ، أحمد بوغلا ، دار أبي رقراق ، الرباط ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

رحلة العبدري ، محمد بن محمد العبدري ، ت: علي إبراهيم كردي ، دار سعد الدين ، دمشق ، الطبعة الثانية ٢٠٠٥م.

الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية ، عبدالنبي ذاكر ، دار السويدي ، أبو ظبي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر : مستويات السرد ، عبدالرحيم مودن ، دار السويدي ، أبو ظبي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ناصر عبدالرزاق الموافي ، دار النشر للجامعات المصرية ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

الرحلة في الأدب العربي ، شعيب حلفي ، دار القرويين ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ٢٠٠٣م.

الرحلة والرحالة المسلمون ، أحمد رمضان أحمد ، دار البيان العربي ، جدة.

رسالة ابن فضلان ، أحمد بن فضلان ، تحقيق : سامي الدهان ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣٩٧هـ.

سبعون عاما في الوظيفة الحكومية ، محمد بن ناصر العبودي ، دار الثلوثية ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.

السرد العربي مفاهيم وتجليات ، سعيد يقطين ، رؤية ، ٢٠٠٦م.

السرديات : مقدمة نظرية ومقتربات تطبيقية ، مرسل فالح العجمي ، مكتبة آفاق ، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، ابن معصوم ، الخانجي ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٢٤هـ.

سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، محمد خليل المرادي ، دار ابن حزم.

سير أعلام النبلاء ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم ، أحمد بن علي آل مريّع ، دار صامد ، صفاقس ، الطبعة الثانية ٢٠١٠م.

السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ، فيليب لوجون ، ترجمة : عمر حلي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

الشرق الشمالي من البرازيل ، محمد بن ناصر العبودي ، مطبعة العلا.

الشعرية ، تزفيطان طودوروف ، ترجمة : شكري المبخوت ورجاء سلامة ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ١٩٩٠م.

شعرية الخطاب السردي ، محمد عزام ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٥م.

شعرية الرواية الفانتاستيكية ، شعيب حلفي ، دار الأمان ، الرباط ، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

شعرية السرد في القصة السعودية القصيرة ، كوثر القاضي ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار المفردات ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية : نموذج القلصادي ، إبراهيم الحجري ، دار محاكاة ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ.

الشيخ العلامة والأديب الرحالة : محمد بن ناصر العبودي ، محمد بن أحمد سيد أحمد ، مكتبة الثقافة العصرية ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.

الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، ت : أحمد بن عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ.

صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ، محمد بن الحاج الصغير الإفراني ، تحقيق : عبدالمجيد خيالي ، مركز التراث الثقافي المغربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

الصلة ، ابن بشكوال ، تحقيق : شرف أبو العلا ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

الصورة ، جاك أومون ، ترجمة : ريتا الخوري ، المنظمة العربية للترجمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي ، دار الجيل ، بيروت.

طبقات الحضيكي ، محمد بن أحمد الحضيكي ، تحقيق : أحمد بومزكو ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين أبي نصر السبكي ، تحقيق : محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤١٣م.

طرائق تحليل السرد الأدبي ، مجموعة كتاب ، اتحاد كتاب المغرب ، الرباط ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

العبر في خبر من غَبَرَ ، الحافظ الذهبي ، تحقيق : محمد السعيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ، عبدالرحمن بن خلدون ، تحقيق : خليل شحادة ، دار الفكر ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ.

عصر الصورة السلبيات والإيجابيات ، شاكر عبدالحميد ، عالم المعرفة ، الكويت.

على أرض القهوة البرازيلية ، محمد بن ناصر العبودي ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

على ضفاف الأمازون ، محمد بن ناصر العبودي ، نادي أبها الأدبي ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

علماء آل سليم وتلامذتهم وعلماء القصيم ، صالح العمري ، مطابع الإشعاع ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

علماء ومفكرون عرفتهم ، محمد المجذوب ، دار الشواف ، مصر ، الطبعة الرابعة ١٩٩٢م.

عميد الرحالين : محمد بن ناصر العبودي ، محمد بن عبدالله المشوح ، دار الثلوثية ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٣٥هـ.
العين الساخرة : أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية ، عبدالنبي ذاكر ، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة ، مطبعة الكماني ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة ، تحقيق : نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت.
فن المقالة ، **محمد يوسف نجم** ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦م.
الفهرست ، ابن النديم ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٨هـ.
فوات الوفيات والذيل عليها ، محمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت.
في جنوب البرازيل ، محمد بن ناصر العبودي ، مطابع التقنية للأوفست ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
في شرق البرازيل ، محمد بن ناصر العبودي ، مطابع التقنية للأوفست ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
في غرب البرازيل ، محمد بن ناصر العبودي ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
قاموس السرديات ، جيرالد برنس ، ترجمة : السيد إمام ، ميريت للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
كتابة الذات : دراسات في السيرة الذاتية ، صالح الغامدي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، تحقيق : محمد شرف الدين ورفعت بليكه ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
الكلام والخبر : مقدمة للسرد العربي ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
كنوز الذهب في تاريخ حلب ، سبط ابن العجمي الحلبي ، تحقيق : شوقي شعث وفالح البكور ، دار القلم العربي ، حلب ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة ، نجم الدين محمد الغزّي ، تحقيق : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
لسان العرب ، ابن منظور ، تحقيق : عبدالله علي ومحمد أحمد حسب الله وهاشم الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة.
المتكلم في السرد العربي القديم ، أعمال ندوة بإشراف : محمد الخبو ومحمد نجيب العمامي ، دار محمد علي ، صفاقس ، مطبعة التفسير الفني ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا ، سمير المرزوق وجميل شاكر ، الدار التونسية للنشر.
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، علي بن الحسين المسعودي ، تحقيق : كمال حسن مرعي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
المروي له في الرواية العربية ، علي عبيد ، دار محمد علي ، صفاقس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
المسالك والممالك ، أبي القاسم ابن حوقل ، بريل ، ليدن ، ١٨٧٣م.
المسك الاذفر ، السيد محمود شكري الألوسي ، مطبعة الآداب ، بغداد ١٣٤٨هـ.

مشاهد من بريدة قبل خمس وسبعين سنة ، محمد بن ناصر العبودي ، دار الثلوثية ، الرياض ، ١٤٣٠هـ.
مشاهير علماء نجد وغيرهم ، عبدالرحمن آل الشيخ ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض.
مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا ، سيد حامد النساج ، مكتبة غريب ، القاهرة.
معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
معجم أسر بريدة ، محمد العبودي ، دار الثلوثية ، الرياض ، ١٤٣٠هـ.
معجم بلاد القصيم ، محمد بن ناصر العبودي ، دار اليمامة ، المطابع الأهلية للأوفست ، الرياض ، ١٣٩٩هـ.
معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ.
معجم السرديات ، محمد القاضي وآخرون ، دار محمد علي ، صفاقس ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي ، تحقيق : مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٣٦٤هـ.
معجم مصطلحات نقد الرواية ، لطيف زيتوني ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
مقارنات في السرد العربي ، أسامة البحيري ، نادي الباحة الأدبي ، الانتشار العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.
مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ.
المقفّى الكبير ، تقي الدين المقريزي ، تحقيق : محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
المواعظ والآثار بذكر الخطط والآثار ، تقي الدين أبي العباس المقريزي ، تحقيق: خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة : معجم ببليوجرافي ، محمد بن سعود الحمد ، مطابع الفاروق ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
موسوعة تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية في مائة عام ، وزارة المعارف ، مطابع الشرق الأوسط ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، عبدالرحمن ابن الأنباري ، تحقيق : إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الأردن ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ.
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد المقري ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ.
النفحة المسكية في السفارة التركية ، علي بن محمد التمكروتي ، تحقيق : محمد الصالحي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبدالمنعم خفاجي ، الجزيرة للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
نوادر المخطوطات ، عبدالسلام هارون ، مطبعة مصفى الباني الحلبي وأولاده ، مصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، أسماعيل باشا البغدادي ، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية ، ١٩٥١م ، أعادت طبعه بالاوفست: دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتزكي مصطفى ، دارج الجيل **والتراث العربي** ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

والدي معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي العالم الموسوعي ، شريفة العبودي ، مطبعة النرجس ، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.

الوصف في الرواية العربية الحديثة ، نجوى الرياحي القسنطيني ، كلية العلوم بتونس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء ، محمد نجيب العمامي ، دار محمد علي ، صفاقس ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أحمد بن خلكان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ.

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور عبدالملك الثعالبي ، تحقيق : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

ثانيا : الرسائل الجامعية:

الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق فيما هور الفارياق لأحمد فارس الشدياق ، وفاء يوسف إبراهيم زبادي ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية ، فلسطين.

أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية ، عبدالله آل حمادي ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى.

أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس لأمين الريحاني ، فاطمة بوطبسو ، رسالة ماجستير ، جامعة منتوري قسنطينة.

البنية السردية في الرواية السعودية ، نورة بنت محمد المري ، أطروحة دكتوراه ، جامعة أم القرى.

بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة ، مليكة بوجفجوف ، رسالة ماجستير ، جامعة منتوري ، قسنطينة.

ثقافة الصورة ودورها في إثراء التذوق الفني لدى المتلقي ، سعدية الفضلي ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، كلية التربية.

فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ، إسماعيل زردومي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الحاج الاخضر ، باتنة ، الجزائر.

ثالثا : المجلات :

مجلة الخطاب الثقافي ، خريف٢٠٠٨م ، ع٣.

مجلة الدرعية ، ١٢/ ١٤٢٢هـ ، ع١٦.

مجلة الغاوون ، كانون الثاني ٢٠١١م ، ع ٣٥.

مجلة فكر ونقد ، أكتوبر ١٩٩٧م ، ع٢.

مجلة فكر ونقد ، يونيو ١٩٩٩م ، ع٢٠.

مجلة كتابات ، الجمعية المصرية للدراسات السردية ، أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ، ع٢.

رابعا : الندوات واللقاءات :

حفل تكريم الشيخ محمد العبودي ، اثنينية خوجة.

حفل تكريم معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي ، النادي الأدبي بالقصيم.

سوانح وذكريات مع عميد الرحالة معالي الشيخ محمد العبودي ، ثلوثية المشوح .

لقاء قناة دليل مع محمد العبودي ، برنامج : عفو التجربة.

ندوة خاصة عن العبودي ، خميسية مركز حمد الجاسر الثقافي.

خامسا : الصحف :

جريدة الجزيرة ، ١٣/ ١٠/ ١٤٢٤هـ ، ع١١٣٩٢ ، و٢٠/ ١٠/ ١٤٢٤هـ ، ع١١٣٩٩ .

جريدة الجزيرة ، الثلاثاء ، جمادي الأولى ، ١٤٢٥هـ ، عدد : ١١٦٠٤ .

جريدة الجزيرة ، ١٠/ ١٢/ ١٤٣٤هـ ، ع١١٤٤٨ .

جريدة الجزيرة الثقافية ، ١١/ ٤/ ١٤٣٤هـ ، ع٣٩٧.

جريدة الجزيرة الثقافية ، ٢٥/ ٤/ ١٤٣٤هـ ، ع٣٩٩.

جريدة الجزيرة الثقافية ، ٤/ ١٢/ ١٤٣٤هـ ، ع٤٥ .

جريدة عكاظ ، ٨/ ٥/ ١٤٣١هـ ، ع٣٢٣١.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة